هوارد فاست

المواطن توم پين

بطل الحرّيّة وصديق البشر

نقله الى العربية

منير البعلبكي



دار العِلم للملايين

المواطن توم بين

المواطِن توم بين

للكاتب الأميركي الشهير

هاوارد فاست

نقله إلى العربيّة

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

CITIZEN TOM PAINE

by

Howard Fast

الطبعة الاولى ، كانون الثاني ١٩٥٤

الطبعة الرابعة

نيسان (ابريل) ١٩٨١

ليس أكثر شيوعاً من الخلط بين « الثورة الاميركية » و « الحرب الاميركية الاخيرة » . لقد وضعت الحرب الاميركية أوزارها ، ولكن الثورة الاميركية لما تنتهِ بعد . على العكس ، إن الفصل الاول من هذه المسرحية العظيمة هو وحده الذي انتهى .

بنجامن راش

القِسم الأول

أميركا

الفصل الأول

السيّد «بين»

في صباح يوم رائق جميل من مطلع خريف سنة ١٧٧٤ أنبئ الدكتور بنجامان فرانكلين أن توماس بين Thomas Paine يريد أن يقابله ، وانه ينتظر الاذن له في الدخول منذ ساعة تقريباً . وكان الدكتور فرانكلين — الذي عاش في انكلترة سنوات عديدة ، والذي اشتهر في طول العالم المتمدن وعرضه بوصفه عالماً ضخماً ، وفيلسوفاً ظريفاً ، ورجلاً ذا قلب كبير — يعرف كل ذي شأن وخطر في انكلترة ، ويعرف كثيراً ممن لا شأن لهم ولا خطر ، ولكنّ لاسمائهم شأناً وخطراً . ومع ذلك فهو لا يذكر أنه سمع ، في يوم ، باسم توماس بين .

وقال الرجل العجوز الذي يؤذن الدكتور بنجامان بوفود الزائرين إن مستر بين ليس رجلاً من أبناء الاسر العريقة الماجدة .

ولم يكن جديداً على الدكتور فرانكلين أن يزوره رجال من غير أبناء الاسر العريقة الماجدة . ومع ذلك فقد كانت الانطباعة التي غلبت على شفتي الخادم العجوز تشير الى ان الزائر زريّ الهيئة بأكثر مما ينبغي . وغضّن فرانكلين أنفه ليثبّت نظارتيه تثبيتاً يجعلهما أقرب الى عينيه ، وحرّك

رأسه الكبير الاشعث ، وقال من غير ان يرفع بصره عن الرسالة التي كان يكتبها :

– « حسناً ، أدْخِلْهُ ، لِمَ لا تفعل ؟ »

ثم أضاف في شيء من النكد :

– « لِمَ لمْ تخبرني انه ينتظر ؟ لماذا لم تدخله من قبل ؟ »

– « لأنه قذر » قال الرجل العجوز ذلك في تجهّم ، وخرج ليدعو الزائر الى الدخول . وما هي الا لحظة حتى دخل الزائر الغريب الغرفة، وعلى وجهه شيء كالتحدي ، وقال :

– « اسمي « بين » يا سيدي ! »

واطّرح الدكتور فرانكلين القلم ، وأمعن النظر في زائره لحظةً أو لحظتين ، ثم ابتسم وقال :

– « واسمي فرانكلين يا سيدي ، آسف لأن أكون قد أبقيتك فترة تنتظر » .

وأشار الى الخادم بمغادرة الغرفة .

– « أنا آسف لهذا أيضاً » ، قال « بين » في نبرة مغاضبة ، « فلم يكن لديك أحدٌ من الزائرين . ان في استطاعتك ان تطلب اليّ ان أذهب الى الشيطان الآن ، فأغادر المكان . أنا لم أردْ أن أقابل الملك ، ولكني أردت ان أقابل الدكتور فرانكلين ليس غير . ولم يكن لديّ ما أعمله أكثر من أن أجلس هناك . »

وواصل الدكتور فرانكلين ابتسامه ممعناً النظر في زائره . لم يكن «بين» مليح الوجه ، ولم يكن جذّاب الصورة . كان عمره يراوح ما بين الثلاثين والاربعين ، فيما خُيّل للدكتور ، وكان أنفه المعقوف الحادّ يُظهره في سن أعلى من سنّه الحقيقية . كانت ذقنه دقيقة ، وكان فمه واسعاً ، وكانت عيناه الملتويتان على نحو غريب تنضحان بالمرارة والغيظ . وقد يكون في ذلك الوجه فضيلة وقد يكون فيه شر ، ولكنه كان

خلواً من البهجة ، ومن الامل كذلك ، فهو لم يعرفهما منذ عهد طويل . لقد طالت لحيته ، بعد ان انقضى على حلاقتها آخر مرة سبعة أيام ، واتسخ جسمه فهو في حاجة الى حمام . لم يكن طويلاً ولم يكن قصيراً ، ولكنه كان ربعةً معتدل القامة ، ذا كاهلين قويين منحدرين ككواهل الصنّاع الذين يسلخون ساعاتٍ طوالاً خلف طاولات العمل العريضة . وكانت سترته الرخيصة قد تفتّقت تحت كلتا ذراعيه ، وكان بنطلونه في مثل رقة الورق عند ركبتيه . أما جوربه فكان أشبه بالمائدة التي يضع عليها الجزار اللحم . وكانت أصابع قدميه تتنفّس تنفساً حراً في حذاء لم يكن في يوم من الأيام جيداً .

وسأله فرانكلين :

— « منذ كم يوماً أصبتَ طعاماً ؟ »

— « ليس ذلك من شأنك ! أنا لم آتِ طالباً صدقة . »

— « اجلس من فضلك » ، قال فرانكلين ذلك في هدوء ثم غادر الغرفة ليعود بعد دقائق وفي يده رغيف من الخبز وقطعة من اللحم واناء فخاريّ فيه شيء من الجعة . ووضع ذلك كله على الطاولة وعاد إلى رسالته يتمّ كتابتها . ثم إنه لم يرفع بصره كرةً ثانية إلا بعد ان أتم « بين » طعامه ونهض واقفاً في غير ارتياح ، وفي شيء من الخجل .

وسأله فرانكلين :

— « ألا تحسّ انك افضل من ذي قبل ؟ »

وحنى « بين » رأسه . كان شيء يشتعل في باطنه اشتعالاً مزعجاً . وكانت أصابع رجليه تجرب أن تقحم نفسها في الحذاء المهشم ، في حين حاول هو ، ويداه في جيبيه ، أن يمعن النظر من علُ ، إلى فرانكلين . وسحب من أحد جيوبه حفنة من الفضة والاوراق النقدية الوسخة وقال :

– « ههنا ثلاثون جنيهاً . أنا لم آتِ طالباً صدقة . »
فأجابه فرانكلين :
– « لم أفكّر قط انك أتيت لهذا الغرض . لماذا لا تجلس ؟ لماذا لا تدع العالم يدور ، يا مستر « بين » ، بدلاً من أن تحاول أن تمسك به فوق كتفيك ؟ أنا أقرّ التوفير والاقتصاد ، واذا كان رجلٌ ما راغباً في أن يكون في جيبه ثلاثون جنيهاً وليس من « شلن » واحد على ظهره ، عذرتُهُ وقدّرت موقفه . ولكن خبز المرء ينبغي ان لا يُرفض ، وليس ثمة صدقةٌ في كسر بعضه . من أنت ، يا مستر بين ، وماذا تريد مني ؟ »
فاندفع « بين » إلى القول :
– « اريد ان اذهب إلى أميركة . انت أميركيّ . ولقد سمعتُ انك رجل دمث لين العريكة ، حتى مع الاشخاص الذين لا شأن لهم ، وانك لن تضيق بشيء لا يقتضيك بنساً واحداً . من أجل ذلك فكرت أن أطلب اليك كتابة رسالة تساعدني على أن أحصل على وظيفة هناك . »
– « سوف أفعل . »
وانحنى « بين » في بطء ، والمال لا يزال في يده ، ثم دس ثروته في جيبه ، وحاول أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يوفق إلى أكثر من الغمغمة ببضع كلمات لم يكن لها في الواقع ، أيما معنى . وأخيراً جلس ، ناشراً يديه العريضتين ليغطي ذلك الجزء من بنطلونه الذي يشف عن ركبتيه ، وراح يُمرّ أصابعه على لحيته التي لم تعرف الموسى منذ أسبوع . ولم يحاول فرانكلين ان يراقبه . واذ كان يختم احدى الرسائل نظر إلى أعلى ، لحظة ليس غير ، وسأل « بين » عن عمله :
– « صانع مشدات . » كذلك أجاب « بين » ، ثم أضاف : « أجل ، مشدات للنساء ، وصدريات للرجال . لقد كنت مأمور

جمرك ومقاييس أتقاضى خمسين ليرة انكليزية في السنة . إني نجار رديء . ولقد عملتُ في ترقيع الاحذية لقاء ستة بنسات في اليوم لأني اردت أن أعيش ، على الرغم من ان الله يعرف السبب . وكنستُ محل بعض الحائكين لقاء نصف تلك القيمة ، وبعت العصائب فجنيت ضعفها في ما أحسب . وأنا اكتب في بعض الاحيان . »

فسأله فرانكلين في هدوء :

— « ماذا تكتب ؟ »

— « ما لا يستطيع المرء أن يقوله ، لأنه لا يملك في فؤاده الجرأة التي تمكّنه من قوله ! »

●

وتحدثا ساعة من زمان . كان « بين » قد احتسى ربع غالون من الجعة . والتمعت عيناه الملويتان ، وانقبضت يداه العريضتان وانبسطتا في عصبية تكاد تكون إيقاعية متناغمة . لقد نسي ثيابه ، ولحيته ، وجلده المتّسخ ، وذكرياته . وغفل عن نفسه أمام جاذبية هذا الرجل العجوز الذي كان نضراً كثير الاهتزاز على نحو غريب ، حكيماً كما تحدّث الناس عنه .

وسأل فرانكلين :

— « ايّ شيء تشبه أميركة ؟ »

— « انها كأرض الميعاد ، أو مثل اسكتلندة أو ويلز أو ساسكس ، ولعلها ان لا تكون مثل أي منها ، وقد تكون مثل نير حول عنق المرء ، وكل ذلك رهنٌ بالرجل ، أو مثل قبعة توضع على رأسه . »

— « أكبيرة هي ؟ »

فقال فرانكلين ، وكان في صوته نغمة أسف وكأنما كان ثمة شيء

يريد أن يعمله ولكنه لم يوفق اليه :

— « انها مترامية الاطراف . انهـا لمّا تجدْ من يرودهـا أو يمسحها .. »

— « لقد تمثلتُها كذلك . »

وقال فرانكلين :

— « أجور حسنة . ليس من امرئ يجوع هناك إذا ما رغب في العمل . »

وكرر « بين » :

— « ليس من امرئ يجوع هناك . »

وابتسم فرانكلين :

— « تستطيع ان تحترق هناك . ولن تصيب النار أيمـا امرئ بأذى . »

فقال « بين » في بلاهة :

— « لقد احترقتُ احتراقاً كافياً حتى الآن . أنا أطمع في سترة على ظهري وزوج أحذية جيد . أريد أن أكون قادراً على أن أمضي إلى حانة ما فأسحق جنيهاً حقيقياً لا رائحة جنيه فحسب ، من غـير أن يأخذني الجزع على بقية الجنيه الباقية . »

— « هل تعرف شيئاً من اللاتينية ؟ »

— « شيئاً قليلاً . »

— « لقد وُلدتَ كويكرياً * ونشأت على هذا المذهب ، أليس كذلك ؟ »

— « كنتُ في وقت مضى . أما الآن فلست أعرف مذهبي . لقد حاولت ان أخرج في سرعة وانطح الحائط برأسي . أنا سكران بعض

* الكويكرز Quakers او الفرندز (الاصحاب) جماعة دينية عرفت بتقواها ، وقد اسسها رجل انكليزي يدعى جورج فوكس ، حوالى سنة ١٦٥٠ (المعرب)

الشيء ، يا دكتور فرانكلين ، وليس من لجام على لساني . ولكن هذه البلاد ليست بلاداً طيبة . انها تُنتن ، وتفسُدُ مثل كومة من الزبل ، وأنا أريد أن أفرّ منها فلا أراها كرّةً أخرى . وإلى ذلك فلست أطلب كثيراً . كل ما أطلب شيء من الطعام ومكان آوي اليه ، وعملٌ ما أقوم به . »

فقال فرانكلين في تفكير :

— « تستطيع ان تحصل على ذلك . سوف أكتب لك رسالة ، إذا كان في ذلك ما يعود عليك بالفائدة . لا تنطح الحائط برأسك ، ولكن ضع بنساً فوق بنس وابحث عن قطعة أرض في بنسيلفانيا ، حيث الأرض رخيصة ، وأعْمِلْ فيها يدك . »

وحنى « بين » رأسه .

— « سوف أكتب إلى صهري وهو يساعدك . »

وظلّ « بين » يحني رأسه محاولاً ان يقول ، بطريقة ما ، ان فرانكلين قد أحسن اليه ، أحسن اليه كثيراً . كان مخموراً بعض الشيء ، وكان متعباً . وكان رأسه الحادّ يهتز إلى الامام وعيناه الملويتان تغتمضان ، وكان كيانه كله ، بثيابه الحقيرة وجلده القذر ولحيته المتطاولة وملامحه الغريبة المحدّدة ، يشكل لغزاً مقلقاً ظلّ فرانكلين يذكره سنوات عديدة كلما فكر في توم بين . كان فرانكلين ولوعاً بالالغاز ، ومع ذلك فقد عجز عن حل هذا اللغز عجزاً تاماً .

●

— « اذهب إلى أميركة ، إذا لم ترغب في العمل ! » كذلك قال والد « بين » لابنه عندما بلغ الغلام الثالثة عشرة من العمر ، وأصاب أكثر مما ينبغي له من التعليم والاحلام والتطوف في حقول « ثيتفورد »

القديمة الغضة ، وتسلّق خرائب القصر العتيق ، وبناء قصور خاصةٍ به ، والاعتقاد بأن الطفولة سوف تستمرّ إلى الابد .

وقال الغلام في إصرار :

— « لن أعمل في صنع المشدات ! »

— « وهل يملك مثلك ان يقول : أعمل في صنع المشدات أو لا أعمل ! »

— « لن أعمل في صنع المشدات ! »

— « وهل تعرف صنعة أخرى ، أنت أيها الجرو الشكس ، القليل الأدب ، السيء النشأة ؟ »

ودُرّب على تلك الصناعة وبُيّن له كيف يعمل الفنان . وأقبلت السيدة هاردي — وكانت ضرباً من النبيلة في تلك الأيام التي لم تكن مسألة النبل محدّدة فيها تحديداً صارماً شأنها بعد خمس وعشرين سنة — لتقيس مشدها . كانت السيدة هاردي تزن مئتي رطل ، وكان معظم هذه الارطال مجتمعاً عند الحجاب الحاجز فما فوق : صدر أشبه ما يكون بتلال اسكتلندة الحافلة بزهر الخلنج ، وبطنٌ استهلك من شراب المزّر * أكثر مما استهلكه « خان رأس الكلب » . إنها لم تستحم منذ اربعة عشر شهراً يوم قصدت إلى مدينة « باث » ذات المياه المعدنية ، وكان على « بين » ، في أول يوم من أيامه كصانع مشدات ، أن يُقحم رأسه على كرهٍ في بطنها . كان عليه أن يطّلع على الخوافي ، وأن يجذب ويجذب في قوّة وعنف ، بينما هي تصرخ كالخنزير .

وأصدر الأب أمره اليه قائلاً :

— « ارتفع إلى أعلى ، يا توماس ! »

وتعلق بالشرائط ، فيما كانت السيدة هاردي تهدر :

* مسكر يستحضر بنقع الملط في ماء ساخن وتسخينه ثم اضافة مادة مرة اليها هي في الغالب حشيشة الدينار .

— « بين ، أيها الوغد ، أنت قصير اثني عشر إنشاً . »
وفكّر الغلام الصغير ، في تعاسة :
— « انتِ طويلة اثني عشر إنشاً . »
وتشجّع ، ومدّ احدى يديه ، فغرقت في صدر ضخم مخيف .
— « إرتفع إلى أعلى ! » كذلك كرّر أبوه ، وهو آمن في قوقعته ، ثم انطلق إلى خارج الغرفة لحظة قصيرة . وارتبك توماس واضطرب ، وغاص أعمق فأعمق في اوقيانوس اللحم . وإذ استولى عليه الذعر والبلاء الحامي ، فقد نسي الشرائط ، فانفجر المشد واندلق اللحم المتراكب على الغلام الغرّ . وضحكت السيدة هاردي ضحكة نصف مكتومة وصاحت :
— « أيها الوغد الصغير ! أيها الوغد الصغير ! »
وأمسكته بين ذراعيها ، فناضل وغاص إلى أعمق ، وقاتل حفاظاً على حياته ، وولى هارباً من الدكان مجتازاً الحقول ، لاهثاً كالكلب حتى انتهى إلى بعض الخرائب العتيقة فانطرح يلتمس الراحة في ظلها .
وضُرب توم بين ضرباً مبرحاً ، على قفاه ، ذلك اليوم .
لقد فُرض عليه أن يمتهن صناعة المشدات ، فقد كان أبوه صانع مشدات . أما إذا لم يفعل ففي استطاعته ان يرحل إلى أميركة . ولم يكن « بين » العجوز رجلاً قاسياً ، ولكن كان ثمة عرفٌ يقضي بأن تأخذ ابنك بالصنعة التي تكسب منها ، أنت ، معاشك . وكان العالم مكاناً مريراً غضوباً ، وإذا ما اكتسبت درهمك حلالاً خالصاً ، كان ذلك كل ما يبيح لك الله أن تتوقعه . والآن كان توم بين على وشك السفر إلى أميركة ، تاركاً وراءه أشياء كثيرة محطمة ليست مجموعة المشدات إلا بعضها . وليس احدٌ يذكر على وجه الدقة ما الذي كان هنا وما الذي كان هناك في سن الثالثة عشرة . لقد غلبه النعاس فنام . وها هو ذا يرفع رأسه ليسمع إلى بنجامن فرانكلين يتلو الرسالة التي

تلطف بكتابتها إلى زوج ابنته ، ريتشارد باتش ، وهو رجل ذو نفوذ في مكان ناءٍ جداً يدعى فيلاديلفيا :

« ... حامل هذه الرسالة مستر توماس بين (وذلك ما عنته أميركة بالنسبة اليك ، أن تدعى مستر بين ، وعلى لسان من ؟ على لسان الدكتور بنجمان فرانكلين أكبر حكماء العالم) شابٌ أريب بارع ذو شأن — (واسمع هذه ، شابٌ ذو شأن) . انه يقصد إلى بنسليفانيا وفي نيته أن يستقر فيها . واني أطلب اليك أن تسدي اليه أحسن النصيحة وأكبر التشجيع لأنه سوف يكون غريباً هناك بكل ما في الكلمة من معنى . وإذا ما ساعدته في الحصول على عمل ما كمستخدم في مؤسسة تجارية أو كمعلم مساعد في مدرسة ، أو كمسّاح مساعد الأراضي ، وهو قادر عليها كلها في ما أحسب ، بحيث يكون في ميسوره أن يكسب ما يقيم أوده على الاقل ، إلى أن يوفق للتعرّف إلى البلاد وفهمها ، تكون قد أديت خدمة لن ينساها لك عملك المحبّ ... »

وقال « بين » :

— « أريد أن أعمل شيئاً . إن أحداً لم يُحسن اليّ مثل هذا الأحسان . فأنا محروم من الاصدقاء . ولو قد خطر لي ان أعطيك بعض المال اذن لسخرت مني . »

فقال فرانكلين في رفق :

— « أعطه إلى إنسان ثان ، وكفّ عن التأسف على نفسك . إذهب فاغتسل واحلق ذقنك ، ولا تظنّ أن العالم كان أقسى عليك منه على أيما مخلوق آخر . »

الفصلُ الثاني

أميركة أرض الميعاد

كانت هذه هي الرحلة البحرية الكبرى التي تقتضي المرء أن يسلخ تسعة أسابيع ، في عرض اليمّ ، متجهاً من الشرق إلى الغرب ليقذفه الماء بعد ذلك إلى حافة الدنيا ، كما كان يعتقد شيوخ ثيتفورد وعجائزها وهم الذين لم يبعدوا ، في يوم ، أكثر من ميل أو ميلين عن مسقط رؤوسهم . ولكنه كان « توم بين » الرحالة والمغامر ، لا « توم بين » صانع المشدات ومساعد الحائك ، ولقد سلخ في البحر تسعة أسابيع على متن سفينة ركبتها الحمّى . وها هو ذا الآن يكاد يموت ، وليس من يعرف به أو يسأل عنـــه . وكان الربّان مريضاً جداً فليس من سبيل إلى إزعاجه . وترنحت السفينة ترنحاً رفيقاً تحت أشعة الشمس المطمئنة الـتي غمرت نهر ديلاوار ، وسطوح فيلادلفيا الحمراء على مرمى حجر منها ليس غير ، فيما كان توم بين ينوح على حياته في عنـــبر المرضى المظلم .

وقال لنفسه إنه لن يبالي . لقد سأله فرانكلين أن يكف عن الجزع

على ذاته . ولكنه سبّ فرانكلين ولعنه ، فرانكلين الذي كان يعيش في انكلترة ، مثل الضفدعة البدينة العجوز . إن العالم جميل بالنسبة إلى بعض الناس ، ولكن هؤلاء قلة قليلة يمكن أن تعدّ على أصابع اليد . أما بالنسبة إلى سائر الناس فهو قلم وسجن وخراب . فمثل ذبابة صُرعت على المائدة ، يناضل الانسان لحظة من زمان ثم يموت ، وعندئذ لا يبقى شيء ، كما لم يكن من قبل شيء . فلماذا يتعين على توم بين أن يكافح ويناضل ؟ لماذا يتعين عليه أن يحارب الفقر والجوع والتوحد والشقاء ؟

إنه لن يحاربها . إنه سوف يموت الآن . ولقد كانت حسرته بالغة إلى حدّ حمله على ان يرتعش ويذهل ساعة وقعت عينه على ذاته. لقد بكى على نفسه ، ثم كفكف الدموع وسمح لذكريات صباه الأول أن تبرز . كان يمشي يوماً ، في ثيتفورد ، على جانب كثيب مُثقل بالازهار . وركضت ماي آدامز ذات الجدائل الطويلة أمامه حتى انتهت إلى الاطلال الملتفة بالعرائش فوقعت وأصيبت بأذى ، فما كان منه إلا أن لعق القذر عنها وقبّلها . وقالت له ان ذلك خطأ . وعندما سألها عن السبب اكتفت بأن كررت قولها : « خطأ ، خطأ » ، وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحا عاشقين ، ولم يدر بهما أحد . ثم انها ماتت بالجدري بعد فترة غير طويلة ، فأسرّ الحسرة في ذات نفسه ، بينا جلس على مقعده يصنع مشداً لـ « جيني ليترتون » ، عازفاً عن الطعام ، مواصلاً العمل ، حتى لقد قال ابوه : « هو ذا صبيّ محبّ للعمل ، إنه لم يعد ذلك المحتال الذي كانه من قبل . »

لقد مات كل شيء . وها إنه يموت الآن لأن فرانكلين بعث به إلى أميركة .

●

لم تنقضِ اربع وعشرون ساعة على وصول السفينة المحمومة إلى اليابسة حتى كان نصف سكان فيلاديلفيا قد هرعوا لالقاء نظرة عليها. لقد قيل لهم ان خمسة أجساد قد طُرحت في عرض البحر خلال الأسابيع التسعة، على الرغم من انه ما كان في مستطاع المرء أن يعرف ذلك من مجرد النظر إلى السفينة. وما انطلق الركاب المرضى، الركاب الناقهون، الركاب المرتجفو الاوصال، هابطين الشاطئ حتى قصّ كلٌّ منهم رواية مختلفة عن تلك الفاجعة. وألمع أحدهم إلى أن في العنبر رجلاً يحمل رسالة من فرانكلين، فما كان من الدكتور كيرزلي الذي كان يسعى للاستقرار في المدينة الأميركية الكبيرة واجداً عسراً بالغاً في اكتساب رزقه هناك — ما كان منه إلا أن استروح في هذا الخبر عبيرَ رسم من رسوم المعاينة الطبية...

— « ما اسمه ؟ »

— « بين، في ما أظن. »

وتساءل كيرزلي في احتراس :

— « هل رأيت الرسالة ؟ »

— « لا، لقد سمعتُ بها. »

— « وأنت ؟ » كذلك سأل الدكتور راكباً آخر.

— « لا. »

لقد كان الرسم رسماً، أما ان يذهب المرء إلى السفينة المحمومة من غير ما مقابلٍ على الاطلاق، فلم يكن ذلك جزءاً من واجب الطبيب. وتساءل من جديد :

— « هل كان مسافراً في قعر السفينة ؟ »

— « من ركاب الغرف. »

كان قعر المركب يغص بالخدم العاملين على متنه بالمجان، وفقاً لتعهد قانوني، والذين تفشّى الداء، أول ما تفشى، فيهم. وكان الربان

الذي لمّا يتحرر بعد من أثر الحمى يدرس إمكانية بيعهم إلى اثنين من تجار فيلاديلفيا المثرين .

وقال الطبيب :

— « الواجب هو الواجب ! »

وشخص إلى السفينة ، حتى إذا بلغها هبط إلى العنبر النتن ، متعثراً بالأجساد ، مرسلاً اللعنات ، نادماً على قيامه بهذا الواجب الباهظ ، منادياً مستر بين من فوق الأنات والحسرات التي ما تنقضي .

وأجاب مستر بين : كان الطبيب يحمل شمعةً يرتعش ضوؤها في الهواء العاصف ، فتقدّم من توم بين ، ولم يكد يرى اليه حتى أدرك أن جهده الذي بذل كان على غير طائل . كانت ثيابه كثياب سائر الرفاق ، وكانت لحيته اسوأ ، والقذر على جسده أغلظ ، وكان يؤلف في جملته رزمة مقرفة من الخِرَق والبؤس همست في أذن الدكتور ان يولي فراراً ويترك توم يموت في أمن وسلام .

وقال الطبيب في ذات نفسه :

— « آه ، ولسوف تموت موتاً . »

وأنّ بين :

— « ابتعد عني : »

ولكن كيرزلي سأله متعلقاً بقشة الأمل الأخيرة :

— « هل تحمل رسالة من فرانكلين ؟ »

— « نعم ، لعنة الله عليه ! »

— « آه ، وما معك من المال ، يا ولدي الطيب ؟ »

فهمس بين :

— « ثلاثة جنيهات وسبعة شلنات : »

— « آه ! غداً سوف تنهض على قدميك وتمشي ! هل المال معك ؟ هل عندك أمتعة ؟ »

– « ألا ترى أني أموت ؟ »

وتركه الطبيب برهة ، ثم رجع مع الملاّح الذي طلب ان تدفع اليه ثلاثة شلنات قبل أن يخطو خطوةً واحدة على متن السفينة . وأمسك أحدهما بيديه ، والآخر برجليه وسحبا توم بين إلى الهواء الطلق ، ثم القياه مثل كومة من الخرق البالية في قعر الزورق .

كانت لا تزال في توم بين لمعةٌ أخيرة من التحدّي والشعور كافية لأن تمكنه من سب الطبيب والملاح ، كولدَيْ زنا ، وسؤالهما عن السبب الذي من أجله لم يتركاه يموت حيث هو . وكان الدكتور صريحاً هو الآخر ، ففيما كان الملاح يتقدم بهما نحو الشاطئ ، انحنى فوق مريضه المتوجع ، المتصبب عرقاً ، وقال :

– « لأن الثلاثة الجنيهات والسبعة الشلنات لا تأتي كل يوم لطبيب ما يزال في مرحلة التمرين . أنا لست لصاً . سأكسب هذا المال . وستعيش أنت ، على الرغم من ان الله وحده يعرف السبب الذي ستحيا من أجله . »

●

– « الرب يعطي ، والرب يأخذ ، فليتبارك الرب ! » كذلك قالت السيدة الكويكرية التي حملت اليه صندوقاً من الحلوى وكيس عطر يعلقه تحت أنفه . لقد سمعت بأن ثمة مخلوقاً لا مأوى له يعيش مع كيرزلي ، وانه جاحد قذر ، وان كيرزلي راهن الطبيب الكبير الدكتور جايبس على عشرين جنيهاً قائلاً إن المريض لن يموت . وكان ذلك تجديفاً . ولقد اعترف لها « بين » ، الآن ، بأنه وُلد كويكرياً ونُشّئ على المبادئ الكويكرية ، فيما أرسل كيرزلي ضحكة مكتومة ، عند طرف الفراش ، جاعلاً الموقف اسوأ مما كان من قبل .

وقالت لـ « بين » :

ـ « صلِ . اسأل الله ان يمنحك مغفرته ورحمته السرمدية . »

وتبسم كيرزلي وقال :

ـ « لقد شفي الآن . »

ـ « صلِّ ، صلِّ ! » كذلك صاحت وهي تفرّ من الغرفة .

وانحنى كيرزلي فوق قائمة السرير الخلفية ، مصافحاً السيدة وهو يضحك .

وقال « بين » :

ـ « يا لكَ من شيطان قذر ! »

ـ « القدْر تعيّر الركوة بالسواد ! ألم أعطك أول حمّام أخذته ؟ »

ـ « أخرُجْ من هنا . »

فقال الطبيب :

ـ « لقد جئت لاذكّرك بانك مدينٌ لي بعشرة جنيهات . لقد سلختَ هنا ستة أسابيع . واذن ، فهذا معقول . لقد انقذتُ حياتك . ومع ذلك فلم أرَ منك غير قليل من عرفان الجميل . كم تساوي حياة الانسان ؟ »

فتمتم « بين » :

ـ « إني أعترف بجميلك . أما حياتي فلا تساوي غير القليل . ولسوف أفيك هذا الدين حين أجد عملاً . »

ـ « عملاً من أي نوع ؟ »

ورفع « بين » كتفيه وكأنما يقول :

ـ « لست أدري . »

فقال الطبيب :

ـ « في استطاعتي أن ألقي بكَ في السجن إذا لم تدفع ما عليك . »

فأقرّه « بين » على ذلك :

ـ « أجل ، في استطاعتك . »

كان نحيلاً أنهكه داؤه . جلد أبيض تغرق فيه عيناه السمراوان الملتويتان وكأنهما علامتا استفهام ، وعظام تمطّه مثل ثياب عتيقة على أداة تجفيف . لقد قال كيرزلي إنه في حال جيدة ، ولكنه يحس انه أضعف من أن يتكلم أو يتضرع .

وفجأةً قال كيرزلي :

— « سوف أمهلك شهراً . في استطاعتك أن تفارقني غداً . »

وحنى « بين » رأسه شاكراً ، وأغمض عينيه .

وليس من شك في أنه نام فترةً قصيرة . ولقد ذهب الطبيب الآن وأضفى الغسق نعومة عذبة على الغرفة الصغيرة . كانت ثمة كوةٌ وحيدةٌ كشفت له من مضجعه ذاك عن نصف دزينة من سطوح فيلاديلفيا المغطاة بالقرميد الأحمر . ووراء ذلك كان برج احدى الكنائس ينطح السماء الرمادية . وفيما كان توم بين يجيل طرفه في هذه المشاهد أخذ الثلج يتساقط نُدَفاً نقية بيضاء كسولاً ما لبثت أن تعاظمت سرعتها شيئاً بعد شيء حتى لقد سدّت النافذة الصغيرة ستارةٌ بيضاء . وكانت بعض الجمرات ترقد في الكانون . فالواقع ان كيرزلي لم يكن بهيمةً متوحشة ، ولكنْ رجلاً متعباً من الفقر والجهل ، وهو ما صار في ميسور « بين » أن يدركه الآن ، بل أن يعطف عليه من أجله . لقد شفاه كيرزلي من مرضه ، وردّ إلى صدره الحياة ، وليست الجنيهات العشرة بالحجر الذي يثقل عنق الانسان . واذْ زايله بعض التعب ، واستشعر برغم تردده ان قدميه قادرتان على حمله ، فقد غادر « بين » فراشه ، ومضى إلى النافذة . كانت هذه هي أميركة التي وفدَ عليها ، وكان يرى اليها لأول مرة : برج كنيسة في المدى البعيد لا بضعة سطوح تكسوها حلة بيضاء من الثلج ، بعض الناس يسيرون في الشارع المعبّد ، مدينة الحب الأخوي ، أميركة ، الأرض ، الحلم ، الامبراطورية ، كل ذلك وغيره مما فكّر فيه ذات يوم وارتدّ اليه الآن ، عندما عادت اليه رغبته في

ن يعيش وأن يكون توم بين . لقد عبقت هذه الأمسية من ليالي الشتاء برّيا حلوة تكاد أن تكون حنيناً إلى الوطن . وأخذت أجراس الكنائس تقرع في وهن ، وبدا لتوم بين أن الناس في الشوارع كانوا يتحركون الآن في سرعة أعظم .

كانت الحياة عذبة ، مثل أغنية عتيقة . لقد بدأ يرتجف باللهفة والشوق . ثم انقلب إلى فراشه ، ولكنه لم يستطع أن ينام تلك الليلة .

•

لو كان لتلك الأرض نبي إذن لكان هذا النبي بنجمان فرانكلين . كانت الرسالة التي كتبها له عفنةً ، متغضنة ، باليةً ، ولكن باتش صهر فرانكلين نشرها وراح يقرأها في اهتمام قائلاً : نعم إنّ في استطاعته ان يعمل شيئاً لتوم بين « لا شيء ضخماً أو خصوصياً ، ولكن أميركة هذه كانت ارضاً طيبة ، وكانت بنسيلفانيا بلداً طيباً ، وفيلاديلفيا مدينة طيبة ، فليبارك الله الملك جورج ! وما كان لاحد أن يجوع ههنا مهما تكن احشاؤه عظيمة . ولم يكن « باتش » ليقول شيئاً عن وطنه الأول ، ولكن هذا البلد كان بطريقة ما خيراً من بلده القديم .

وحنى توم رأسه قائلاً :

— « أظنّ ذلك . »

هل في استطاعة « بين » أن يعمل شيئاً ؟ هل كان يتقن صناعةً ما ؟

وأجاب « بين » :

— « صناعة المشدات . »

ولكنه فضلاً عن ذلك يستطيع أن يرقع الأحذية قليلاً ، ويحوك قليلاً ، في نجاح لا بأس به وإن يكن ينقصه الاتقان . ولكنه كان مريضاً ، ولو قد كان في ميسوره — وهنا احمرّ وجهه — ان يستعمل دماغه بدلاً

من يديه فترةً من زمان إذن لكان ذلك شيئاً صالحاً . وهو لا يتمنى هذا غروراً وادعاءً لأنه لا يملك شيئاً من الثقافة المدرسية . بيد أنه يستطيع أن يتهجى ويجمع وكانت له معرفة بسيطة بالاغريقية واللاتينية . ولم تبد على وجه باتش أمارة من الامارات تكشف عما يجول في خاطره . وفي يأس تلا « بين » على سمعه هذه الجملة اللاتينية :

* « **Faber est quisque suae furtunae** »

وحنى باتش رأسه ، وكان بديناً ،موسراً،في مثل سنّ « بين » ولكنه يفوقه كثيراً في ميدان الجلد والثبات ، وربّت على كتف « بين » وقال :

— « حسن جداً . سوف أجد لك عملاً ما . »

●

وبعد يومين من الجوع أو شبهه ، قصد بشلناته القليلة الاولى إلى احد المقاهي ، وتناول كعكاً وزبدةً وإناء كاملاً من سائل دبق أسود . وجلس حوله رجالٌ ناجحون ، رجال من مثل باتش . وفي حين كانت حال ثيابه وحدها خليقة بأن تحول ، في لندن ، بينه وبين الذهاب إلى أيما مطعم محترم ، فأن أحداً لم يرْمِه ههنا بنظرة . وإذن ، فما ضرّه إذا كان عمله هو تعليم طفلين من اسرة « دولان » أن الواحد والواحد يساويان اثنين ، وان الهاء والراء والتاء تؤلف كلمة هرة ، وتعليم بنتين وصبي من اسرة سمث شيئاً مثل هذا ؟

ولو قد كان ذلك قبل شهرين ، اذن لثار واحترق ، ولكنّ هذه كانت أميركة ، ولقد أعيدت اليه الحياة ، والتعليم على أية حال خيرٌ من صنع المشدات . أو لعل شيئاً في داخله اضاء ثم انطفأ ، فهو راضٍ بأن لا يتطلع إلى غد ، مقتنع بأن يحيا ليومه ، وبأن يدرك انه توم بين وحسب.

* ومعناها : قيمة كل امريء ما يملكه من مال . (المعرب)

إن الانسان ليتغير . انه لم يكن كهلاً ولم يكن يافعاً ، ولكن حتى كيرزلي ، الخشن الجافي ، بل الفظ الوحشي ، استشعر أثارة من شفقة على « بين » ، « بين » الحُطَام ، لا « بين » الرجل ، كما يظهر من قوله له ساعة جاءه مؤكداً انه سوف يردّ اليه دينه في وقت قريب :

— « إنس هذه المسألة . لقد ربحتُ عشرين جنيهاً في رهان عليك . »

فأجابه « بين » في غير ما غضب :

— « سمعتُ بذلك . »

وداراه الطبيب فقال :

— « لست أزعم انك لا تساوي أكثر . أنا لا أعرف كم يساوي الانسان . لقد سمعت انك تدرّس . »

— « هذا صحيح . »

فقال الدكتور في صدق هذه المرة :

— « ارجو ان تنجح في هذه المهمة . »

ورفع « بين » كتفيه . ان شلناً واحداً في اليوم كان يكفيه ، وان شلنين في اليوم كانا فوق الكفاية . وعندما اعطته السيدة كرادل احد بنطلونات زوجها — وكانت مرتبته هي الثالثة من حيث الجودة ، بين تلك البنطلونات — لم يحجم عن أخذه . ولم يكن عمله مرهقاً ، فهو يقضي أياماً بكاملها في التطواف حول فيلاديلفيا ، تكاد تسحره شأنَ الاطفال تلك المواكب الملونة غير الأوروبية ، التي تجوز الشوارع . كان ثمة هنود حمر من الجبال الشجراء متلفعون ببطانياتهم اللماعة القذرة ، والغلايين (البيبات) الفخارية تتدلى من بين أسنانهم . وكان ثمة هولنديون بأحذيتهم الخشبية من جيرزي ، وشماليون محدّدو الانوف من بوسطن ، وسويديون فارعو الطول من ديلاوار ، وقناصون قذرون يرتدون ملابس جلدية من الأرياف القصيّة ، حاملين بندقياتهم البالغ طول كل منها ستة أقدام حيثما

ذهبوا ، وجماعة من أهل الجنوب بثيابهم الحريرية والاطلسية يصحبهم عبيدهم من سود وبيض وحمر وسمر ، وكويكريون أو « أصحاب» بأكسيتهم الرمادية . كان يذرع الشوارع ويطوف بالساحة العامة وئيداً كسولاً ، منفصلاً بطريقة قائمة عن العالم ، فماضيه مبتور ومستقبله غير موجود ؛ انه معلم بشلن واحد ، وإنه لهدف للحكايات القذرة البذيئة، بيته غرفة في احد الفنادق حيناً ، وأخرى في غيره إذا ساءت الأحوال الجوية ، فهطل المطر وتساقط الثلج وعصفت الريح . ولكن إذا كان الطقس جيداً فليس يأنف من المبيت على ركام من التبن في بعض أصاطب* الاصحاب الكويكريين ، موفراً بذلك ستة بنسات ، وهي أجرة الغرفة في أكثر الفنادق رخصاً .

وكان إذا ما فكر في نفسه لحظة ، فكر في جزع وإشفاق . وكان إذا ما وجد في جيبه ما يساعده على ان يشرب زجاجة من الخمر احتساها وهو يسفح فيضاً من الدموع الغزار . ولم يكن ليشرب وحده ، إذ كانت ثمة دائماً حانة بكاملها تسكر وتعربد لتضفي على مجلسه جواً من الانس والألفة . وكان يلقي نظرة على حياته ويتساءل : هل من أمل له ؟ لقد عمل صانع مشدات وهو بعدُ صبي ، ثم وجد امرأة أحبها ولكنه ما لبث أن خسرها ، وكدحَ في ما تدعوه العامة في انكلترة الحياة ، وسكر أسبوعين كلّ شهر من خمر حمراء رديئة ، ورأى الكون كله أشبه بدولاب ناريّ خافق ، وراح يتلمس سبيله وسط الضباب بحثاً عن قليل من الجمال في حين انه هو نفسه بشع ، فجّ ، أشعث الشعر .

انه ليس مجنوناً . وكان كثيراً ما يقول لنفسه ، ان مجرد كونه قد رغب في الحصول على أشياء كثيرة ينهض دليلاً على ذلك . وكذلك عدم رضاه الدائم ، ما دام قد أبغض بمثل هذه الضراوة الملوكَ والنبلاء ، وسيدات الطبقة العالية وسادتها ، والشحاذين ، واللصوص ، والتجار

* الاصاطب : جمع اصطبل .

الاثرياء البدينين ، والنساء السافلات والعاهرات والفضليات أيضاً ـ ولكن من قد أحبّ ؟

كان في ما مضى من أيام ، امرأةٌ أحبها ـ وهو يعرف ذلك .

أما الآن فهو لا يحب ولا يبغض . لقد حقق شيئاً واحداً عظيماً ، هو انتقاله إلى حافة المستعمرات المستدقة ، على القارة الأميركية ، حيث استقر به المقام . إن أحداً لم يعطه حذاء ، ولقد بلي حذاؤه . أما جواربه فكانت خدعة بليدة . لقد أعطاه بعضهم سترة عتيقة كانت تصفق رثة بالية حول كتفيه ، فهو يتسكع في الشوارع ناكس الرأس تحت افح الرياح الباردة ، وقد بدا مظهره غريباً إلى حد جعل الناس يعرفونه شيئاً فشيئاً في مثل تلك المدينة الصغيرة التي كانتها فيلادلفيا آنذاك .

وكانوا يقولون :

ـ « هو ذا توم بين . »

وزارته لجنة من السيدات الكويكريات ، حاملة اليه سترة جديدة وصدرية . وألمعن قائلات :

ـ « انت عار علينا .. سوف تمضي في هذه السبيل حتى يشيح الله بوجهه عنك . »

كان يعاقر الخمر ، فقال لهن وهو يبتسم في بلاهة :

ـ « أنا ألعق جوف الله . »

وشاعت قولته هذه في المدينة ، فخسر نصف تلامذته .

●

كان ذلك الشهر ، كانون الثاني ، من سنة ١٧٧٥ ، مطلع سنة خليقة بأن تغيّر مصير البشرية ، ومع ذلك فقد كان شهراً كالذي تعرفه الاقسام الداخلية من البلاد في تلك الفترة من كل عام : مطر حيناً ، وثلج حيناً ،

وبرّد مع ثلج حيناً ، وقد يعقب ذلك نهار صاحٍ حارّ يذكّر الناس بحزيران . كان مطلع سنةٍ هي في ذاتها مطلع حقبة من الدهر ، ومع ذلك فقد كان الناس يجهلون ، في الجملة ، ولا يبالون ، ما الذي ينبغي أن يُصنع ، فهم يبيعون ويشترون ويدّخرون ، وهم يحبون ويبغضون ، ويربحون ويخسرون .

وفي فيلاديلفيا استبشر القوم بعام طيب . كانت البلدة تنمو في سرعة لتصبح مدينة . وإذ كانت تقوم كحجر الغلَق * بين دول أميركة : فيرجينيا ، وماريلاند ، وبنسيلفانيا ، ونيويورك ، وماساتشوستس وغيرها ، فقد أهّلت لأن تصبح احدى مدن العالم الكبرى . ففي شوارعها ، ومراكزها التجارية التي كانت هي المقاهي ، وفي مستودعاتها وارصفة مينائها ، نشطت تجارة المستعمرات البريطانية في أميركة وكثير من البلدان الأوروبية . صحيح ان هيئةً متنافرة الاجزاء تدعى « المؤتمر القاريّ الأول » انعقدت في فيلاديلفيا خلال العام الماضي ، ولكنها لم تعمل شيئاً ، والمواطنون الأصلاء لا يعتقدون ان المؤتمر (الكونغرس) يشكل خطراً على سلامة المستعمرات ورفاهيتها . لقد حدثت اضطرابات وانتشرت دمدمات في بوسطن بخاصة وفي غيرها من المدن « اليانكية * » إلى الشمال ، ولكن متى خلا عهدٌ من الاضطرابات ؟ وكان ثمة قلق في بلدان الجنوب القصية ، ولكن ما الذي تنتظره من سكان احراج متوحشين يضربون في الأرض كقبائل « الهون » البربرية ببنادقهم ذات الستة الاقدام طولاً ؟

ومن ناحية ثانية ، كان ثمة أكثر من تعويضٍ وافٍ . ففي النجاد كانت كلاب الماء وافرة كالارانب ، وكان يرعاها رجّال اسكتلنديون مهزولون ويهود سود اللحى ، فاذا فيضٌ موصولٌ من الجلود الصقيلة

---

* حجر يوضع في وسط العقد او القبة .

* Yankees سكان انكلترة الجديدة (نيو انجلند) ، وقد اطلق على الاميركيين جميعاً .
(المعرب)

ينصبّ على المدينة . وكان موسم التبغ أكثر من جيد . وكانت بلاد جيرزي تنفجر بالمواد الغذائية . وفي الارياف الجرمانية لم يكن الخنازير في يوم من الايام أكثر سمنةً ، ولم تكن الخراف أثقل بالصوف . وفي الغابات الموحشة ، كانت الظباء كالذباب كثرةً ، فبيع لحم الغزال في فيلاديلفيا بأربعة بنسات للرطل الواحد . وكانت جلود الغزلان مركومة بالآلاف في بالات نتنة الرائحة على ارصفة الميناء مستعدة لأن تغير ازياء الرجال في أوروبة كلها . وكان النجارون البارزون يبدعون طرازاً مستحدثاً للاثاث الأميركي . وكان عمال المدينة أقوياء ، تتوق أيديهم إلى العمل. وكانت البيوت ترتفع قواعدها ، وفي بعض الأحياء كان الآجر وطنياً ، وكذلك الأسمنت .

كانت ثمة قلاقل ودمدمات ، ولكن كانت ثمة وفرة في الاشياء الجيدة أيضاً . وكان هناك استياء ، ولكن كان إلى جانب هذا الاستياء رضا . وكان ثمة شعور ، ولو غامضاً ، بأن الحرب واقعة ولكن الناس كانوا لا يريدون الحرب ، وكان ثمة لغط بالحرية أيضاً ولكن كثرة الناس لم تكن لتبالي بالحرية على الاطلاق .

●

كانت المدينة حسنة ، جيدة الترتيب ، في نجوة من غزو الرجال الحمر ، ملأى بالكويكريين الأغنياء والكويكريين الفقراء ، وبالاغنياء والفقراء من غير الكويكريين أيضاً ، ولكن تغلب عليها في الجملة سيما ازدهار الطبقة الوسطى على نحو لا نجده في اىما مدينة من مدن أوروبة . كانت البيوت راسخة البناء ، وقد شيد معظمها بالآجر ، في حين كان بعضها نصف خشبي ، وبعضها الآخر خشبياً . وكان كثير من الشوارع معبّداً وغير موسوم على الطريقة الشريرة الطالحة باسماء الرجال ، ولكن

باسماء الاشجار ، أو حاملاً نعوتاً خاصة ، أو ارقاماً خاصة . وكانت ثمة اطفائية صالحة ، وحرس صالح ، ومكتبة صالحة . ولقد أطلعت المدينة فيلسوفاً هو بنجمان فرانكلين . ليس هذا فحسب . بل لقد كان فيها من نفيس الزجاج والكتان والفضة والاثاث أكثر مما يوجد في أي مكان آخر في أميركة ، كما تمتعت بحظ أكبر من حظ أيما بلد أميركي آخر من حرية الدين والفكر . فههنا في أرض الميعاد كانت فيلاديلفيا هي مدينة الميعاد .

•

وقصد توم إلى سوق الرقيق ، لا لأنه رغب في أن يشتري أو كان معه المال الذي يمكّن من الشراء ، ولكنْ بسبب من أنه لم يجد ما يعمله ، ذلك الأصيل ، ولأنه كان تائقاً إلى أن يعرف كيف يحسّ المرء حين يرى الكائنات البشرية تباع وتشترى . وأقيم المزاد في أحد اهراء القمح القديمة الواسعة ، وقد أوصِدت الابواب ، في حضرة دزينة من التجار . وكان مزاداً خاصاً ببيع جواري الأنسال ، ومعنى ذلك أن النساء وحدهن سيوضعن على منصة المزاد ، وأنه سيكون بينهن العذارى والحوامل ، وأن المزايدة ستكون حامية جداً . ليس هذا فحسب . بل لقد سمع « بين » أنها سوف تنطوي على مظاهر أخرى تعدو مجرد البيع والشراء .

ولم يشرب كثيراً ذلك اليوم . لقد اجتزأ بقدر يسير كاف لأن يقول لنفسه : « لماذا يتعيّن عليهم ان لا يبيعوهم ويشتروهم ؟ والبيض أيضاً . لماذا السود وحدهم ؟ » ومع ذلك فلم يكن مغضباً ولا مستاءً ، بل مسروراً من نفسه إذ استطاع أن يقنع اولئك التجار الطيبين بالسماح له في الدخول. لقد كانوا طيبين إلى درجة أنهم دعوه كاتب صكوك بدلاً من « معلّم

شلني » * ، وقد خطرت له فكرة لمّا تستكمل تشكّلها ، وهي أن يكتب شيئاً عن ذلك ويحاول بيعه لاحدى المجلات .

وقبل بدء المزايدة بنصف ساعة استراح التجار على بالات التبن وراحوا يدخنون ، ويحشون أنوفهم بالسعوط ، متطارحين أحاديث قذرة ذات سمة تجارية ، ومع ذلك فقد كانوا في الوقت نفسه مرفزين خجلين كجماعة من المراهقين في بيت من بيوت الدعارة . وانقضت فترة عجز « توم بين » ، فيها ، عن أن يفهم سر ذلك ، ثم انكشف له أنهم سوف يستعرضون الزنجيات عاريات . وتقلصت حنجرته . لقد استشعر الحر والبرد والخجل والشوق ، ولأول مرة منذ أشهر عديدة احتقر نفسه .

لقد رأى ان لحيته طويلة ، وشعره أشعث ، وثيابه بالية . كانت أصابع يديه أشبه بأهلّة سوداء ، وكانت جواربه كالسلالم . كان إشفاقه على نفسه كذباً ووهماً . وإذا ما عجز أيّ امرئ عن ان يقدّم دليلاً ما على نبل الانسان ، فان في استطاعة الناس على الأقل ان يقدّموا « توم بين » كبرهان مقنع على وضاعة الانسان .

وبدأ المزاد . وانطلق مايلز هينيسي ، أحد كبار الدلالين الذين عرفتهم أسواق الرقيق في ذلك العصر ، من الزريبة الصغيرة القائمة خلف أهراء القمح حيث حُشرت الزنجيات ، ناخساً بعصاه الفضية الرأس فتاة كانت أمامه ، لا يتعدى عمرها السادسة عشرة . وكان هينيسي هذا ، من شعره المستعار المرقّش بالذرور المتجعد تجعداً جميلاً إلى حذائه المنخفض المصقول ، صورة رائعة لعظمة الخياطة : كانت جواربه حريرية ، وبنطلونه المنتهي إلى الركبة من الاطلس الأسود ، وصدريته من قماش حريري مقصب بخيوط فضية وذهبية . وكان حول عنقه وحنجرته وشيٌ ذو عُقَد قد تبلغ قيمته خمسة جنيهات . وكان يرتدي سترة من الجوخ البرتغالي الأسود ، وقبعة من اللبد الناعم الجميل مثلثة الزوايا . كذلك بدا

* المراد ان تعويضه لا يزيد على شلن واحد .

هينيسي ، الذي كان اسطورة ، والذي رحل إلى افريقية على سفن الرقيق الخاصة به ، والذي باع امبراطوراً اسود ، واربعة ملوك سود ، ومئة فَرْخ ملكيّ على الاقل ، والذي كان يتباهى بأنّ كل زنجية حامل يبيعها إنما حملت منه . كان شيطاناً وسفاكاً ، ومعبوداً من معبودي المجتمع . وكان ذا وجه أسمر طويل مليح ، وعينين زرقاوين صغيرتين ، وكان يتكلم سبعاً من لهجات الشاطيء الغربي .

انه يبتسم الآن ، وهو يسوق بمهمازه تلك الصبية السوداء الى المنصة الخشبية . كانت متلفعة ببطانية لا تُظهر منها غير رأسها المذعور الكثيف الشعر . وكان العَرق والرعب يضفيان على وجهها المدوّر الغريب بريقاً كبريق الرخام الاسود . ولم تكد ترتقي المنصة حتى قال هينيسي :

– « هذه ايها السادة ، يا أصدقائي الطيبين ، في السادسة عشرة من عمرها ، ناعمة كالحمل ، قوية كالثور ، عذراء مليحة الصورة . ولقد كان الملك سليمان نفسه خليقاً بأن يدفع احدى جواهر تاجه ثمناً لها . ان الدم الملكي يجري في عروقها ، وان ثدييها ليشبهان عنقودين من عنب كونكورد ، أما قفاها فأشبه شيء بلحم الخنّوص * الغضّ . إني أفتتح المزايدة بخمسين جنيهاً لأزوّجها ؛ وعليكم أيها السادة ان تجعلوها مئةً ، وأن ترفعوا الصوت جريئاً قوياً . أيها السادة ، خذوها الى المنزل ، أو الى الفراش ، أو الى مَرْفع التبن . اجعلوها ستين ايها السادة ، اجعلوها سبعين ، اجعلوها ثمانين . البطانية سوف تسقط عند الثمانين ! »

وصاح أحدهم :

– « ثمانون جنيهاً ! »

ونزع هينيسي البطانية . كانت فتاة صغيرة ، مذعورة مرتجفة . ولقد أجفلت وارتدّت الى الوراء حين نادى هينيسي :

– « عذراء ، أيها السادة ، عذراء . تعالوا وتحققوا من ذلك بأنفسكم ! »

---

* الخنوص : ولد الخنزير .

وتعثّر « بين » بالثلج . كان يريد ان يقتل انساناً ، ولكنه خاف . لقد طوّف بشوارع فيلاديلفيا ثلاث ساعات متوالية على رجلين باردتين تنضحان عرقاً . حتى اذا أقبل الليل قصد الى أحد الفنادق ، وجلس غير بعيد عن النار . وهناك سلخ نصف ساعات الليل جالساً لا يتحدث ولا يتحرك .

●

كان روبرت إيتكن أحد أولئك الاسكتلنديين المتوحدين المتجهمي الوجوه الذين اندفعوا الى أميركة ، واحداً واحداً ، أو اثنين اثنين منذ أن فُتحت أبوابها للاستعمار . كانوا جماعة غريبة نسيج وحدها يفزع بعضهم الى الاستقرار ، آخذين باسباب الغنى والارتياح ، وينزع بعضهم الآخر الى الضرب في الارض والمتاجرة طوال العمر مع الهنود الحمر ، فهم لا يرون الى وجه أبيض البتة . كانوا من أتباع المذهب الكالفيني * وكانت كالفينيتهم هذه تُكسبهم تسامحاً واسعاً وعناداً ضيقاً في وقت معاً ، وكان من الاشياء المألوفة ان يصبح الاسكتلندي واليهودي شريكي عُمر في تجارة الفراء . ومع أن جمهرة الاميركيين ، وهي تنحدر من أصل انكليزي ، كانت تعتبر الرجل الاسكتلندي اجنبياً ، الا انه استطاع أن يضع أصبعه على روح الامة الصغيرة وان يبقيها هناك .

كان إيتكن طويلاً هزيلاً ذا وجه صارم ينبىء الناس الذين لم يسبق لهم ان تكلموا معه أنه بليد يعوزه الخيال . وكان يملك دكاناً يبيع فيه الكتب ويشتريها . وكانت عنده مطبعة صغيرة فهو ينشر بين الفينة والفينة كتيباً أو كراسة ، وكان عقله حافلاً بأشياء أكبر ولكنه كان

* يوحنا كالفن ، مصلح ديني اسس مذهباً بروتستانتياً عرف باسمه وانتشر في فرنسة وسويسرة واسكتلندة وهولندة وانكلترة واميركة الشمالية . (المعرب)

عنيداً في سلوك الطريق الناجحة اليها ، ونَفُوراً من « توم بين » . وانما كان لقاؤهما في اليوم التالي لبيع الرقيق ، وكان « بين » قد وفد على دكانه .

وسأله إيتكن :

— « ما الذي أستطيع ان أعمله لك ؟ »

وأوضح « بين » في تلعثم وتأتأة ، أنه كاتب بارع ، وانه وضع يوم كان في انكلترة كراسة أو كراستين ، وانه هنا يعمل معلم صبيان وبنات .

فقال إيتكن في حموضة :

— « وسكّير عظيم . »

وحنى « بين » رأسه .

وقال إيتكن :

— « أنا أنادي بالاعتدال في الشراب . أنظر الى صورتك : قذر ، وسخ ، زريّ — وعندك الجرأة الكافية لتأتي الى هنا وتلتمس عندي رزقاً حلالاً ! »

— « أعطني فرصة . »

— « وما الذي يحملني على ذلك ؟ يقال انك خرجت من السفينة حاملاً رسالة من فرانكلين ، وليس من شك في أنك قد خدعت الرجل . انك تتسكع في المدينة مثل رجل مختلّ العقل تعوزه روحه بالذات . اني لواثق ، ثقتي بالله ، انك درهمٌ زائف ! »

واستدار « بين » نحو الباب . ولم يكد يضع يده على تفاحته حتى سمع صوت الرجل الاسكتلندي الحادّ يناديه .

وسأله إيتكن :

— « أمستعد أنت لأن تعمل لقاء جنيه في الاسبوع ؟ »

وانحنى رأس « بين » الضخم البشع ، وتركزت عيناه السمراوان المنحرفتان على إيتكن وكأن ذلك الكتبيّ المهزول كان هو وحده القادر

على ان يقرر مصيره .

وقال إيتكن في جرْس أكثر نعومة :

— « لقد خبرت الحياة وجربتها . أنا لا أنظر الى الرجل ، ولكن الى ما تحته . أنت لست بمجنون بحال من الاحوال ، وكذلك أنا على الرغم من ان كثيراً من البطون المنتفخة في هذه البلدة قد تسلكنـــا في عداد المجانين . إني أقتصد شلناً واحداً ، ولكني أنفق شلناً آخر حين يتعيّن عليّ ، واني لأوظف أموالي توظيفاً حسناً . »

قال ذلك وقصد الى الجرار الذي يضع فيه أمواله واخرج منه حفنة من الفضة . ثم أردف :

— « دونك هذا الجنيه ، واذا ما اشتريت به خمراً فلا تدعني أرى الى وجهك القذر بعد اليوم . اذهب الى أحد الحلاقين ، ثم اشتر ثياباً لائقة وضع على ظهرك سترة ، ثم عُد الى هنا . »

وحنى « بين » رأسه ، واخذ المال ، ومضى لسبيله . إنه لم يكـن واثقاً من قدرته على ان يتكلم ، بل لم يكن واثقاً من قدرته على ان يفكر . واستشعر « بين » جوعاً فجائيـــاً ممرضاً ، وكأنه رجل أطلِق سراحه من السجن جوعان . كان يريـــد العالمَ كله ، وإنّ في استطاعته أن يحصل عليه . كان يريد الجارية السوداء المرتجفة على المنصة في سوق الرقيق. كان يريد ان يضمها بين يديه وان يقول لها إن كل شيء سوف يكون حسناً . وإنما نشأ حسّهُ بالقوة من مجرد إدراكه لهذه الحقيقة البسيطة : وهي انه لا يزال يحيا ، انه لا يزال يريد ويجوع ويأمل .

ورجع الى صاحبه وهو يرتدي نسيجاً وطنياً أسمر ، وقد حلق لحيته وبوْدَر شعره ، ونظف أظافره . ودعاه إيتكن الى الغداء ، ثم جلسا وتجاذبا أطراف الحديث . كان الكتبي رجلاً عجيباً . لم يكن متقد الذكـــاء ولكنه كان محشواً بمعلومات مفصلة عن المستعمرات . ولقد قال لـ « بين » في صراحة :

- « إني مؤمن بك لأنك رخيص. ذلك هو صوت الاسكتلندي في ذات نفسي ، أو لعله صوت المجنون . »

وتحدثنا طوال المساء . وعند منتصف الليل وُلدت « مجلة بنسيلفانيا » . وقضى توم تلك الليلة في منزل إيتكن ، لا نائماً ، ولكن مستلقياً على ظهره ومحدّقاً الى الظلمة .

الفصل الثالث

مصيدة الجرذان

كان « بين » ولداً رديئاً . إن الصبي أو الرجل يجب ان يعرف مكانه ، ولكن « بين » ينطح الحائط برأسه . كان في سنّه الرابعة عشرة أبكم ، ولكن صمته كان قاتماً نكداً ، وهذا ما حمل الناس على الاعتقاد بأن في إهابه شيطاناً . وذات يوم جلده صاحب الاطيان حتى كاد يميته بسبب من تجروؤه على الدخول الى املاكه ، فصاح « بين » من خلال ضنكه الموجع :

ـ « ساعدكم الله وساعد نوعكم ! ساعدكم الله ! لعنكم الله ! لعنكم الله ! »

وقال صاحب الأطيان لأبيه :

ـ « ولدٌ شرير . أدِّبه بالعصا قبل ان يقترف جريمة قتل . »

وقال توم :

ـ « إنه خنزير سمين . »

وكان في كلامه ذاك نصيبٌ من الصحة . ذلك ان صاحب الاطيان

الذي يزن مئتين وخمسة وثلاثين رطلاً ، كان سيداً انكليزياً ممتازاً زاهيَ المحيا ، يخرج للصيد في الصباح ويأكل لحم البقر المحمّر ويشرب الخمر عند الغداء ، ويخرج للصيد بعد الظهر ويأكل لحم البقر المحمّر ويشرب الخمر عند العشاء ، ثم ينفق ساعاته في أحاديث القنص وفي احتساء الويسكي حتى منتصف الليل . وكان فلاحوه يقولون : « وحق الاله ، إنه لسيّدٌ بارع لطيف . فليباركه الله ! » كان كلّ ذلك ، وكان عجيباً أن يحتمل شيطنة ذلك الصبي ، ابن صانع المشدات .

وكان لصاحب الاطيان ولدٌ في إيتون : إنه شاب فارع الطول قويّ متناسق الاعضاء في الخامسة عشرة من عمره ، بهيّ الطلعة ، حسن الزينة الى درجة جعلت جميع القرويين يسعدون بالوقوف والقاء التحية الصباحية على السيد الصغير ، هاري . وكان هاري قد خسر ، خلال الفصل المدرسيّ الاخير ، ثمانمئة جنيه في القمار ، وحين سمع صاحب الاطيان بذلك خفق ركبته وهدر ضاحكاً :

— « يا له من شيطان صغير ملعون ! يا له من شيطان صغير ملعون ! »

حتى اذا رجع هاري من المدرسة ، مع ثلاثة من النبلاء الصغار ، وجد الحياة في الريف باعثةً على الملل . وساعدته الحاجة على شيء من الاختراع ، فعزم هو وأترابه على الايقاع بتوم بين وايذائه . بيد أنهم رغبوا في أن يخلعوا على محاولتهم تلك طابع الشرعية ، فراحوا يترقبون ان تطأ قدماه أرض صاحب الاطيان ، ولم يكن ذلك نادراً بحال ، نظراً لاتساع الاراضي التي كان يملكها ذلك النبيل البارع اللطيف . فقبضوا على الغلام ، وضربوه بقضبان السندر حتى لقد فقد وعيه ، ثم شدوا وثاقه من قدميه الى شجرة بلوط . ولم يطلقوا سراحه إلا بعد ان بدا لهم أنه قد مات ، حتى اذا وجدوه لا يزال يتنفس جرّدوه من ثيابه ودحرجوه في أحد المستنقعات. ثم انهم سقوه شيئاً من الويسكي لأنعاشه ، واقتادوه بسياطهم عرياناً ، الى منزله . وعلى الجملة فقد كانت تسلية

لم يجرؤوا على ان يطمعوا بمثلها في ذلك الصيف ، تسلية جديرة بــأن تزوّدهم بفيض من الحديث لا ينضب يوم يرجعون إلى المدرسة في العام القادم . وروى صاحب الاطيان نفسه الحكاية وأعاد روايتها . وكــان كلما رواها يستبدّ به التشنج الى درجة تدفع زوجته الى أن تخشى عليــه الشلل .

●

كان توم جالساً على مقعده منهمكاً في صنع المشدات ، تحت بصــر أبيه ، حين قال في هدوء :

– « لقد كنت أنت صانع مشدات وكذلك أنا – ولو كنتَ شحاذاً لتعيّن عليّ أنا أن أكون شحاذاً ، ولو كنت لصاً لتعين عليّ أن أكون لصاً ، أنحني لصاحب الاطيان ، وأعيش في الفقر والقذارة ، وأثب من طريق كلابه وهي تعدو ، وأقف حين تقبل السيدات ، وأذهب الى الكنيسة وأصلي لله . »

وهدر أبوه :

– « إخرس ! »

فصاح الصبي في صوت أجشّ :

– « أنا رجل ، أقول لك ، أنا رجل ، رجل ، رجل ! »

وصرخ الأب :

– « إخرس ! إخرس وإلا حطّمت رأسك الآثم ! »

وتنهد الصبي :

– « أنت صانع مشدات ، وأنا صانع مشدات ! »

– « أنت ! أنت ، أنت الشيطان الآثم ! عقلك كعقل الوثنيين ،

وكلامك ككلام الوثنيين . فليساعدك الله ! »

●

كان الشيطان في باطنه ، يهدر ويطنّ في أذنيه ، ويسوقه الى أمام وبعد شهر واحد ، فر الى البحر حيث التمس العمل على متن مركب حربي كخادم مسؤول عن الغرف . وكشّر ربان المركب وقال :

— « وما حاجتي الى فتى من الكويكرز ؟ »

— « خذني . جرّبني . »

— « هل تستطيع ان تقاتل ؟ »

فاجابه توم في لهفة :

— « سوف أقاتل ، سوف أقاتل ، أقسم لك اني سوف أقاتل . »

كانت ههنا رؤيا حرية عريضة تبهر البصر ، فعلى متن البحر يكون المرء سيد نفسه . كانت الثروة تعني الحرية ، ولم تكن ثمة مراتب لا يستطيع الانسان ان يبلغها . وأمسك به الربان من أذنه وقذف به على طول ظهر المركب .

وابتسم قائلاً :

— « تعال ، أيها الصغير ، تعال . »

كان الربان يعاقر الخمر طوال الوقت فينقلب الى وحش ، وكان مساعده يعاقر الخمر نصف الوقت فينقلب الى نصف وحش . ولكن كلا الرجلين كان لا يكفّ عن ضرب خادم الغرف . فلم يكد المركب ينتهي الى نهر التيمس حتى كان « توم بين » قد غدا كتلة سوداء مزرقّة من الرضوض والأورام . ولم يكن أمام توم ما ينفّس به عن كربه غير الهجوم على خمر الربان يكرعها كرعاً ولكن هذا الصنيع كان يضاعف ضربات الربان ومساعده . حتى اذا رسا المركب خارج لندن قفز الفتى الى الماء

وسبح حتى الشاطىء . وطوال الاسبوعين التاليين عاش في كوخ زبال نصف عاقل ، وأكل مما كان يقع عليه في دلاء القاذورات .

●

وكانوا قد حذروه ، في ثيتفورد ، من لندن بوصفها مدينةً غارقة في الاثم ، ولكنه لم يكد يطوّف ، مفتوح العينين الى أقصى اتساعهما ، في شوارع لندن الشبيهة بالبواليع حتى أخذ يفهم الفرق ما بين أولئك الذين يأثمون ، والذين تُعَد حياتهم إثماً . فقد كان اللندني الفقير في ذلك العهد ، يعيش على الخمر الرخيصة ، والخطيئة الرخيصة ، والسرقة الرخيصة . وكان العقاب على الاولى الموت البطيء ، وعلى الثانية الموت المريع ، وعلى الثالثة الموت شنقاً أو رجماً بالحجارة أو من طريق قطع الجثة الى أربعة أجزاء بعد فصل الرأس عنها . وبقطعة البنسين الاثنين كان في ميسور الرجل ان يسكر سكرة صاخبةً مجنونة . واذ كان السكْر هو سبيل الفقير الوحيدة الى ان ينسى ان الجحيم قائم في هذا العالم وليس في العالم الآخر فقد كادت الخمر المعروفة بالـ « جن » تحلّ مع تعاقب السنين محل ضروب الطعام كلها تقريباً . كان الغلمان الذين لا تزيد أعمارهم على الثلاثة الاعوام يشربون الـ « جن » بالكؤوس ، وكانت الامهات المرضعات يعشن على الـ « جن » ويُسكّتن أطفالهن به ، وكان العمال يستعيضون عن طعام العشاء بمقدار من الجن ، وكان العجائز يستعجلون الموت به ، والمراهقون يسعون الى الجنون من طريقه . وفي الشوارع ، في أوقاتٍ بعينها من النهار ، كنت تجد سكان لندن كلهم صرعى يتعتعهم الـ « جن » . وكانت العاهرات يفقدن رزقهن كلما خطر لأيما أنثى ، طفلة كانت أو أماً ، ان تبيع نفسها لقاء بنس واحد يمكّنها من ان تطحن في طاحونة الـ « جن » الدائرة .

في هذه البيئة عاش « توم بين » ، وسكرَ،وركض مثل الهرة ، وسرق ولعن ، وقاتل ، ونام في الازقة والسقائف والأدوار الارضية من المنازل. وظل على ذلك حتى جاء يومٌ ملك فيه زمام نفسه ، فأقلع عن شـــرب الـ « جن » ، ودخل في خدمة أحد صانعي المشدات .

●

انه الآن في السادسة عشرة ، مساعد صانعٍ للمشدات ، وقد سلـخ سنة بكاملها لم يذق خلالها طعم الـ « جن » . كانت ثيابه نظيفة ، ان لم تكن جيدة ، وكان يطالع الكتب – يطالعها كل ليلة ، غير مهمـــلٍ كتاباً يقع في متناول يده ، وهكذا قرأ سويفت ، وآديسون ، وبوب ، وديفو ، وكونغريف ، وفيلدنغ ، وريكاردسون ، وحتّى سبنسر ، وفي بعض الأحيان شكسبير . وكان لا يفهم معظم الذي يقرأه . والواقع أن كتب ديفو وفيلدنغ كانت سهلة عليه بعض الشيء ، ومع ذلك فقد كان يتبرم بهذين الرجلين لانهما يكتبان عن أشياء يعرفها معرفة جيدة ، بدلاً من ان يكتبا عن العالم الأمثل الذي كان يتصوره في الاحرف المطبوعة . لقد كان رجلاً يشق طريقه في الحياة ، ولم يحتج الا الى وقت قصير ليمحو ضمير (thee) الذي يصطنعه الاصحاب الكويكريون من كلامه . كان يمشي في شوارع لندن مرحاً ، فيقف ساعاتٍ بكاملها ، وقـــد ران على عينيه ضباب ورديّ ، أمام نادي هوايتٌ ، وهو نادي القمار الكبير الخاص بحزب المحافظين ، أو أمام نادي بروك ، وهو نظـيره الخاص بحزب الاحرار ، ويراقب النبلاء وهم يفدون ليطرحوا آلاف جنيهاتهم وعشرات آلاف جنيهاتهم تحت رحمة ورقة من أوراق اللعب . وكان « توم بين » يقول في ذات نفسه :

– « هذا لي . وحقّ الألـه ، هذا لي . ! »

وتوثقت أواصر الود بينه وبين صديقين اثنين : أليك ستيفنز وهو صبي مسلول في الخامسة عشرة من العمر يعمل مساعداً لأحد تجار الجوخ، وجوني كوت ، وهو مكنّس مداخن متدرّب يبلغ الثانية والعشرين من العمر ولكن له جسماً كجسم فتى في الثانية عشرة . وكان ثلاثتهم يقصدون الى احدى الحانات ويعاقرون الخمر حتى تُمسي رؤوسهم مثل كُتل الرصاص الجبارة ، ثم يتوكأ بعضهم على بعض ، ويمضون مترنحين ، مغنّين ، الى بيوتهم . وكانت هذه المجالس الخمرية تعني ضرباً مبرحاً لاثنين منهم ، أما توم بين فكانت تشفع به دائماً السيدة موريس ، زوجة سيده .

وإنما بدأت الصلة بين توم وبين هذه المرأة يوم سافر المعلّم موريس وهو رجل ضئيل الجسم محطّم في الستين ، الى نوتنغهام لمسألة تتعلق بتجارته . فما كان من زوجته — وكانت أصغر منه بعشرين سنة ، ممتلئة الجسم ، مليحة ، على الرغم من ان الجدري قد ترك آثاره على وجهها كله — إلا أن دعت توم الى ان يصلح لها مشداً مفتوقاً .

وقالت لتوم بعد ذلك :

— « أنت شيطان ماكر ، شأن الكويكريين جميعاً . ولكن حذار من ان تتحدث عني ، وإلا وضعت سكيناً في ظهرك . »

ومع ذلك فلم يكن في طاقتها ان تؤذي برغوثاً ، ولقد جعلت توم يُحسّ وكأنه رجل ، في ما بعد ، فهو يزهو على ستيفنز وكوت . وكانت تُحسن اليه ، وتأتيه بضروب الحلوى ، ولا تفتأ تحدّث زوجها عن براعة توم وطيب عنصره . والحق ان قصص « بين » ألهبت رفيقه ستيفنز ، فحاول ان يعمل الشيء نفسه مع سيدته ، فكان نصيبه ضربة من مرقاق العجين تركت في رأسه عُجرةً ارتفاعها إنش واحد !

●

كان ستيفنز يريد ان يتخذ من قطع الطرق مهنة له . فهو يكاد لا يتحدث عن شيء غير ذلك . ولقد قال أكثر من مئة مرة إنه حين يبلغ السادسة عشرة سوف يلتحق بعصابة « الشهم الاحمر » على « طريق دوفر » . وكان ذلك في عهد كان قطاع الطرق فيه لا يزالون بالغي القوة ، عندما كانت عصابات من أربعين أو خمسين سفاكاً تجوب « طرق المَلِك » وتخوض معارك حامية مع جنود الدولة .

وكان ستيفنز يقول :

– « إنه أمير ، ذلك الشهم الأحمر. »

فيجيبه كوت في احتراس :

– « حسن جداً ، ولكنها حياة قصيرة . إني أريد أن أعيش حتى التسعين . »

وقال توم إن ثمة طريقة واحدة للحياة ، هي العيش بين النبلاء .فاذا لم تكن نبيلاً ، في انكلترة ، فأنت قذر . كان يراقب النبلاء ويتتبع طرائقهم .

– « وستكون انت نفسك نبيلاً ، إيه ؟ »

فقال توم :

– « جائز . »

– « وكيف ؟ »

– « هناك طرق . أنا لا أقول إنها شيء سهل ، ولكن هناك طرقاً . »

وتأثر ستيفنز بهذا الكلام وتساءل :

– « هل عندك طريقة ، يا توم ؟ »

– « آه ... »

فنخر كوت وقال :

– « لا تنس انك من القذر خرجت. والقذر لا يلد الا القذر! ألست

أقول الحقيقة ؟ النزول سهل ، ولكن الارتفاع ليس سهلاً . »

ولكن ستيفنز أخبر توم بعد ذلك ان عنده ايماناً . فالرجل لم يخلق وعلى كتفيه رأس ، عبثاً أو للاشيء . وانه هو نفسه كان يهدف الى ان يصيد صيداً صغيراً ، صيداً ليس بذي خطر ، بضعة شلنات ليس غير ، يرفه بها عن نفسه ليلةً من الليالي .

وحذر توم الغلام :

— « وفي استطاعتهم ان يشنقوك على السرقة . »

— « اذا قبضوا علي . »

ورأى توم أحلاماً ، في تلك الليلة ، ونام نوماً متقطعاً ، وازعجته الكوابيس . وفي اليوم التالي تضرع الى ستيفنز قائلاً :

— « لا تفعل ذلك ، يا أليك ، لا تفعل ذلك ! »

●

والقي القبض على ستيفنز . كان قد سطا على صندوق حائك مجاور لدكان سيده ، وفر بجنيهين وثمانيةَ شلنات . وكالمجنون وضع المال في نعليه . حتى اذا أطال النوم ، في صباح اليوم التالي ، أخذ سيده النعلين ليرقعهما ، على ان يقتطع نفقة ذلك من أجر الصبي . وأقبل الحائك يروي حكايته ، فاذا بالمال ينطبق انطباقاً كاملاً على ما افتقده في صندوقه . وضربا الغلام ضرباً مبرحاً ، وما عتم ان اعترف بفعلته .

وطول الاسابيع التالية لم يتحدث كوت الا عن ستيفنز في « أولد بيلي » . وكان يقول لتوم :

— « تصوّر ستيفنز الصغير ! »

وأقرّه توم :

— « إن ذلك لا يبدو ممكناً . »

وقال كوت :

— « سوف يحاكمونه مع الكبار . »

— « اعدام ؟ »

— « لست أرى شيئاً غير ذلك . »

— « انهم لا يستطيعون ان يشنقوه . إنه طفل ، مجنون صغير . إنه لم يكن عاقلاً في يوم من الايام . »

— « ولكنه سطا على الصندوق ، واظن ان الحبل يلتفّ الآن حول عنقه . »

وحاول توم وكوت ان يرياه مرةً بعد ان أصدر القاضي حكمه . كانت هي أول مرة يزور فيها توم السجن ، ولكن كوت كان متمرساً بهذه الشؤون ، بعد ان دخل سجن المدينين مرتين ، ولقد كان هو الذي اقترح أن يحملا اليه رغيفاً من الخبز وزجاجة من الـ «جن» . وفي السجن لم يستطع ستيفنز ان يقول شيئاً ولكنه اكتفى بأن جلس وراح يحدّق ويحدّق ، وقد أحدثت الدموع رسوماً صغيرة على خديه القذرين.

وقال كوت :

— « تجلّد . أنت مع الكبار الآن ، وستعلّق على المشنقة نفسها التي ذهبت بجوني هاسبروك وهو يضحك حتى اللحظة الاخيرة . »

ولكن ستيفنز لم يقل شيئاً . كان كل ما فعله أن سفح مقداراً جديداً من الدمع على وجنتيه الهزيلتين .

وأكره توم نفسه على الكلام فقال :

— « احتفظْ بالخمر واشربها غداً . »

فأقرّه كوت على ذلك :

— « احتفظْ بها . احتفظ بها . ألهبْ جوفك ينعدمْ احساسك بحبل المشنقة . ولكني أسألك بحق الآلـه ان تبصق في عين الجلاد ! »

●

وشهدا الموكب في اليوم التالي ، بعد ان منحهما سيداهما عطلة بعد الظهر . ولقد كانا جديرين بأن يشهداه ولو لم تربطهما بستيفنز صلة ما ، ذلك بأنه حين ينطلق من « نيوجايت » موكب إعدام كبير ويتقدم في ابهة وجلال ميلين اثنين الى « تايبورن » تعطل لندن كلها وكأنها في عيد . وعلى طول المسافة التي ينبغي للموكب اجتيازها كان الجمهور يؤلف بحراً من الوجوه البشرية تترنح وتنحرف وتصيح وتلعن وتنعق وتهتف وتصفر وتزعق ، رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ورضعاً – وفي يد كل منهم تقريباً خبز وجبن ومخلل ، في حين كان مع التجار خمر ، ومع العمال « جن » – ونشالين وأوغاداً وبنات هوى ونبلاء وعلماء . وكان نبلاء البلاد الكبار ونبيلاتها البارزات يشهدون الموكب وهم في عرباتهم . ولا غرابة في ذلك ، فذهاب إنسان الى الموت في ذاته دراما رفيعة مجيدة ليس يستطيع أيّ من المسرح أو غرفة النوم أن يُقدم مثلها . وهل ثمة من فرق ، في مثل هذا القرب من أبواب الجنة أوالنار ، بين أن يكون الرجل المحكوم عليه بالشنق نبيل المحتد أو وضيع المولد؟

وتأوه كوت وتوجّع لضآلة جسمه . لقد هجم على الحشد متسللاً بينهم كالجريّ أو الحنكليس ، من غير ان يعرف التعب اليه سبيلاً ، منهكاً بذلك رفيقه توم . حتى اذا بلغ الغاية ووقع نظره على ستيفنز يترنح في العربة ، ووجهه المستدق المستدير لا يكاد يفهم انه هو صاحب هذا العيد المجيد ، تقدمت العربة شوطاً جديداً ، وتعيّن عليه ان يستأنف الغوص والتلوي كرة أخرى .

وطوال ساعة من زمان ناضل الصبيّان من أجل شق طريقهما الى المشنقة ، وخلال تلك الساعة لاحظ « بين » ان تغيراً طرأ على ستيفنز . كان ثمة واحد من احتمالين : إما ان تكون الخمر قد فعلت فعلها ، وإما ان تكون روعة المناسبة قد طردت الخوف من فؤاده . كان ستيفنز ينحني ويصطنع مواقف خاصة وجلسات خاصة . بل لقد ذهب الى حد الرقص

بعض الشيء ، في العربة . لقد لوح بيديه ، وكشر كما يكشر القـرد الصغير .

وصاح كوت طرباً :

– « عظيم وجبار ! عظيم وجبار ! »

وهتفت له الحشود ، حتى جوني هاسبروك لم يذهب الى الموت على هذه الشاكلة .

وحتى عند المشنقة ، وقف ستيفنز وابتسم في بلاهة .

•

في تلك الليلة هجر « بين » معلمه موريس . لقد فرّ . لقد ضرب برأسه جدران القفص ، وراح يطوّف يومين اثنين في شوارع لندن ، لينتهي بـه المطاف إلى طاحونة الـ « جن » . لقـد سكنَ مع جماعة من الشحاذين واللصوص وسمع أشياء لا تسيغها الاذن البشرية . ولكنه لم يكن بشراً ، وكذلك الشحاذون واللصوص لم يكونوا بشراً .

وطوال شهرين جرجر قـدميه عبر الجحيم . ثم إنـه التحق ، بسببٍ من ان جزءاً من عناده كان ارادةَ حياة ، في خدمة أحد مرقعيِ الاحذية . لقد دخـل في روعـه أن صنع الأحذية خير من صنع المشدات .

الفصل الرابع

١٩ نيسان سنة ٧٥

مهما تطاول الزمن فأنه خليق بأن يذكر ذلك النهار . فبينا لم يَعْن شيئاً عند بعض الناس ، وبينا عنى شيئاً عند بعضهم الآخر ، كان بالنسبة اليه هو المُستَهل ولسوف يبقى المستهل ، نقطةَ الانفصال بين عهدين في حياته ، وعهدين في حياة الانسانية . يومَ اكتشف أن توم بين مركّب من مادة غريبة وفظيعة – فلم ينتحب على نفسه بعدُ أبدَ الدهر .

لقد تقلّب في مهن كثيرة ، وها هو ذا الآن محرر صحيفة ، رجل ذو عمل ، عامر الجيب بقليل من المال ، حليق اللحية ، على ظهره سترة جيدة ، وفي قدميه حذاء صالح وجوارب خالية من الثقوب . رجل ذو مكانة في المجتمع ، يحترمه بعضهم ، ويحبه بعضهم ، ويكرهه بعضهم ، ولكنه على أية حال رجل له شأنه حقاً . كان إذا اجتاز « فرونت ستريت » وسمع الناس يقولون : « صباح الخير ، مستر بين » أو « هل سمعت آخر الانباء من أوروبة ، مستر بين ؟ » أو « لقد قرأت نشرتك الاخيرة ، وانها لعنيفة ، مستر بين ! » كان إذا سمع هذا

الكلام يهز رأسه ويركز تفكيره في هُويته . ولا يكاد يمرّ بشحاذ أو متبطل أو شيطان بائس فقير من غير أن يقول في ذات نفسه : « هناك، ولكن بنعمة الله ، يمشي توم بين . »

ومع ذلك فقد عجز — برغم هذه المكانة ، وبرغم الاهمية التي علقها ايتكن عليه ، ونشرات « مجلة بنسيلفانيا » التي انطلقت من بين يديه — عن أن يدحر خوفه من الحياة . كانت الحياة وحشاً مفترساً ، وحين تؤذن هـذه العطلة بالانتهاء ، فليس من شك في ان ذلك الوحش سوف ينقلب اليه من جديد . إن من الجنون ان يناضل الانسان أو يقاتل ، ما دامت الحياة تجري على وتيرة واحدة وما دام العالم خلواً من الشفقة والعدل .

وظلّت هذه هي حاله حتى حدث شيء ما في التاسع عشر مـن نيسان ، سنة الف وسبعمئة وخمس وسبعين . في ذلك اليوم افتتح « بين » عهداً جديداً في حياته . لقد سرى في الجدار الذي حطم رأسه عليه صدعٌ ظاهر . وتسرّب اليه لأول مرة نور الشمس . وشبّ الشيطان على قائمتيه الخلفيتين وكشّر عن أسنانه ، ونفخ عشرون ملاكاً لحناً جماعياً جباراً في أبواقهم . أما في المواطن الأخرى فلم يُزْعَج العالم إلاّ قليلاً . لقد أشرقت الشمس في مواطن ، وأمطرت السماء في مواطن ، ولم يكن دويّ البنادق ليصل إلى أبعد مما كان يصل اليه في العادة . إن طلقة نارية واحدة لم يتردّد صداها حول العالم . وفي طول الساحل الأميركي وعرضه ، حيث استقرت مجموعة خليطٌ من ثلاثة ملايين نسمة ، جرت الحياة في طريقها الريفية الوادعة كما جرت سنواتٍ وسنواتٍ من قبل .

ولكن ليس في لاكسينغتون . ففي مساء الثامن عشر من ذلك الشهر ، من تلك السنة ، اندفع فارسٌ إلى هـذه القرية الصغيرة الجميلة مـن

قرى نيو إنجلند اندفاعاً ثائراً هائجاً ، وأنشأ يهدر ويصيح بأعلى صوته موقظاً كل من لم يكن قد أفاق من سباته بعد . ومن البيوت المصنوعة من ألواح رقيقة بيضاء ، ومن الحانة ، وبيت الكاهن ، بل ومن مزرعة أو مزرعتين ليستا جزءاً أصيلاً من القرية أيضاً ، تدفق أرباب الأسر الماساتشوستسية الطيبون ، في قمصان نومهم الطويلة البيضاء ، وقلنسواتهم الليلية البيضاء ذات الاهداب ، حاملين بنادقهم الخرقاء، ونساؤهم خلفهم يلغون ويثرثرن،وأولادهم يطلون برؤوسهم من النوافذ العالية .

وسألوا الفارس ، وكان اسمه بول ريفير :

— « ومن الذي سيدفع ؟ »

فصاح :

— « الجحيم هي التي ستدفع ! »

ومن منزل القس جوناه كلارك انطلق رجلان وجدت عبارته في نفسيهما صدى بعيد الغور . لقد فركا عنقيهما في عطف وأحكما شد قميصيهما على جسديهما . وكان اسماهما آدمز ، وهانكوك . فاما الاول فكان رجلاً من رجال السياسة ، واما الثاني فكان مهرب بضاعة . وكانا كلاهما ساخطين أعظم السخط على الحكم الاجنبي المفروض على المستعمرة الساحلية الصغيرة التي يعيشان فيها . وكان سخطهما قد اتخذ شكل اجتماعات ومؤتمرات وتحريض على الشعب واستغلال لكل مظلمة تنزل بمواطنيهم . وكان المجال أمامهما رحباً ؛ ذلك بأن هؤلاء الفلاحين العنيدين الصيد لم يهجروا اراضيهم الخصبة البهيجة ليفحصوا باظافرهم في هذا الساحل الصخري الا لعظيم تمسكهم بحريتهم الدينية والشخصية . فكان طبيعياً ان تسوءهم رؤية الملك البريطاني ، ورئيس الوزراء البريطاني ، والحكومة البريطانية يعتدون،ولو في حذر واحتراس ، على حرياتهم هذه مقتطعين حتماً من هنا وحقاً من هناك ، فارضين ضريبة جديدة هنا ،

ورسماً جديداً هناك، وذلك على نحو لا يجعل حياة المرء أقل عذوبة وأقل يسراً، فحسب، بل يذهب الى أبعد من ذلك فيحمل المرء عـلى التفكير اذا ما كان من هذه الذرية العنيدة الرافعة رأسها زهواً واعتزازاً .

وأُنزِل الفـارسُ العجولُ عن جواده، وراح القس كلارك ينتزع التفاصيل منه شيئاً بعد شيء ، فيما كان المزارعون الغاضبون لأخراجهم من دورهم على هذه الشاكلة ، يحتشدون مضيقين الحلقة حول الفارس .

وأصرّ على القول :

ـ «البريطانيون قادمون.»

ـ «من اين ؟ على الأقدام ؟»

وحنى رأسه ، وقال إنهم قادمون من بوسطن . وإذن فثمة متسع من الوقت . وأكّد القس كلارك لكل امرىء ان الوقت يتسع لدرس الاشياء ، وانه ما من نفس مسيحية نعمت بالخلاص من طريق التسرع والعجلة ، قائـلاً ان في ميسورهم ان ينقلبوا الى بيوتهم ويأووا الى مضاجعهم من جديد .

ونخر بعضهم :

ـ «هناك متسع من الوقت للنوم، ومتسع من الوقت لأشياء اخرى .»

فقال القس المحترم في هدوء :

ـ «الوقت الآن وقت نوم . إن الله يكون في سمائه سواء في الليل او في النهار . ولكن الليل قد جُعل للرقاد .»

فقال فلاح فارع الطول معقوف الانف :

ـ «الآن ايها القس ، هل ستقول الشيء نفسه لرجال الجيش البريطانيين ذوي الأردية الحمراء ؟ »

فأجاب كلارك قائلاً :

ـ «سوف أفعل إذا ما استطعت ان ادخلهم في كنيستي . »

فضجّ الجميع بالضحك . وخفّت حدّة التوتر شيئاً كثيراً . وسحب

بعضهم ساعةً فضية ضخمة تشبه قرص اللفت ، وحدّق الى وجهها وقال في احتفال :

– «الساعة الثانية بعد منتصف الليل . »

وصاحت امرأة:

– « رحمتك يا رب! »

وأخذت تصرخ على اولادها لكي تحملهم على الابتعاد عن النافـذة والايواء الى مضاجعهم وإلا جرّدت عايهم العصا في الحـال . وحاول سرب من الفتيات الضاحكات ان يلفت انظار ثلاثة فتيان في قمصان النوم، وقد أنقضت ظهورهم البنادق التي يحملونها . وسأل آبنر غرين اختـه الصغيرة ان تنصرف ، ثم سِيق هو بيد امه التي أمسكت به من اذنـه إمساكاً محكماً وهي تقول :

– «شيء جميل جداً . رجال يمثلون دور الاطفال ، وأطفال يمثلون دور الرجال! »

كانت الليلة باردة ، وكانت كلمات القس أشدّ برداً . وتفرق الرجال تحت تأثير هذين العاملين ، فأما بعضهم فانقلب الى مضاجعه واما كثرتهم الكبيرة فتوجهت الى حانة بوكمان ، حيث كانت النار تشتعل منذ فترة في الموقد . وأسند الفلاحون بنادقهم الى جدار المطبخ ، وعهـدوا الى اولادهم ونسائهم في ان يحملوا اليهم سراويلهم ، كراهيةَ ان يتركوا موقف الاهتياج ورفقة الجمع الحارة لحظة من زمان ، ثم أعدوا إبريقاً إثر إبريق من شراب ساخن محلّي هو مزاج من الـ «روم» ، والدبس، والجعة،واحتسوه وقد خامرهم شعور غريب بأن القضاء سوف يلتمسهم في وقت ما قبل الضحى .

وفي بيت كلارك ، كان هانكوك وآدمز لا يزالان يتحسسان عنقيهما في حذر ويعجبان لهذا الشيطان الغريب الذي اثاراه ، شيطان الثورة ؛ وحنى القس رأسه وأقرهما على ما ذهبا اليه من أن البريطانيين خليقون

بأن يشنقوهم اذا ما القوا عليهم القبض .
وتمتم هانكوك :
— «انا اكره ان افر . »
فقال كلارك في جد :
— «ليست هذه غير البداية . اتعرفان ما الذي هجتماه ؟ ان الرجال سوف يقاتلون ويموتون ، ولسوف تحتاجان لأكثر من فرارٍ واحد . »
فقال هانكوك :
— «لا تتهمني . لقد عملت ما كان صواباً .»
فحنى القس رأسه وقال :
— «نحن جميعاً نعمل ما هو صواب ، ولستُ أتهم أحداً . فمن ناحيتي ، أنا ، سوف أحمل الكتاب المقدس ، غداً ، تحت احدى ذراعيّ ، وأحمل البندقية تحت الاخرى ، والله يغفر لي . أنا لم اقتل انساناً قط ، بل لم افكر يوماً بأن من المحتمل ان اقتل انساناً ، ولكنّ هناك اوقاتاً يضطر فيها المرء الى ان يترك الله جانباً ويشيح عنه بوجهه. سوف اشتري لكما فرسين ، ايها السيدان ! »
كانت عجيبةً تلك السرعة البالغة التي ذوت فيها ذكريات العالم الآخر ، انكلترة ، وثيتفورد ، ولندن ، ودوفر ، بعد ان تولى توم بين ، بركة ايتكن العنيدة ، تحرير «مجلة بنسيلفانيا» ونشرها . ولاول مرة في حياته ، حصل على العمل الذي يحبه ، العمل الذي لم يُحقّره ، العمل الذي منحه كرامة الامل والذكاء . وفي العليّة التي اعطاه اياها الاسكتلندي ليتخذ منها مكتباً ، انكبّ توم على العمل ، في الفترة الاولى ، من مطلع الفجر حتى منتصف الليل . انه لم يكن محرر مجلةٍ في يوم من الايام . ولقد كان عليه ان يتعلم الطباعة والتهجية واستعمال النقط والفواصل. وان يقرأ مجلات المستعمرات * ، حتى تكلّ عيناه ، لكي ينطبع في

* الولايات الاميركية . (المعرب)

نفسه اسلوبها وذوقها ، وفوق ذلك كله ، إحساسُها السياسي والاقتصادي.

واطّرح بريطانيته كما تطرح البطة الماء . ولم يكن لديه متسع للسفر ، الآن ، ولكنه عوّض من ذلك بأن كان يتعلق ، في الحانات والمقاهي ، بتلابيب كل من قدّر له ان يرحل الى الامصار النائية او قدّر له ان يعيش فيها وكان ماراً بفيلاديلفيا : رجال من نيويورك وفيرمونت ، وفيرجينيا ، ورجال من الجنوب الاقصى ، من كارولينا، وجورجيا، ومناظرو احراج، وملاحون من اوهيو ولويزيانيون ناعمو الاصوات من نيو اورليانز ، ومتطوفون اجتازوا الجبال الى آجام قصب السكّر الآبدة في كانتاكي ، وصيادو سمكٍ خشنو الجلد من «مَيْن» .

وكانت فيلاديلفيا هي المكان الاكثر ملاءمةً لذلك . ولو قد انتظرتَ فترة اطولَ إذن لوجدتَ اميركة برمّتها تمرُّ بالـ « برود ستريت » . وألحف توم عليهم بالاسئلة ، وللمرة الاولى في حياته وجد رجالاً كثيرين ، رجالاً من مختلف الاتجاهات والمشارب ، يعاملونه في احترام.

ومن خلال هذا ، ومن خلال المدينة نفسها ، ومن خلال إيتكن ، ومن خلال الاشياء التي قرأها جعلَ يكوّن صورة عن اميركة : كانت ههنا ارض مترامية الاطراف الى درجة تجعل في الامكان إلقاء انكلترة كلها في احدى زواياها ونسيانها هناك ، بلاد شابة الى درجة ان نصف الناس الذين يلقاهم المرء كانوا اجانب أو أول جيل أنجبه الاجانب ، بلاد محتومة إلى درجة تحملها اليوم على ان تثير نفسها في هدوء ، بل في كسل ، للثورة على اعظم دولة في الارض .

وكانت حتمية اميركة هي التي اثارته فوق كل شيء . كانت هنا ذرية من الرجال ليست ثمرة الدم أو الطبقة أو المولد ، بل ثمرة وعد محض بسيط . وحين يلخّص هذا الوعد ، حين يُبرى ، حين يُجعل إيجاباً وسلباً ، حين يجرَّدُ من اطار الجبال والانهار والاودية ينتهي الى ان يكون هو الحرية ، وليس اكثر من ذلك او اقل .

إنه لم يكن أعمى . لقد عاش في قفص الجرذان دهراً طويلاً ، ليس يمكن معه ان يصاب بالعمى ، ولقد رأى الرديء والحسن جميعاً . انه ملقى امام عينيه . فعبّر الشارع الذي تقوم فيه المطبعة كان سوق الرقيق الرئيسي في فيلادیلفيا . والى هناك كانت تحمل بضاعة بنسيلفانيا وماريلاند وجيرزي البشرية ، بضاعة سوداء وبيضاء . فاما السوداء فتباع جسداً وروحاً والى الابد ، واما البيضاء فيزايد عليها بسبب من تعهد أو دين أو عقاب . وفي الصباح وما بعد الظهر كان الدلالون لا يكفون عن الانشاد : « ههنا تيس اسود سمين متخيّر ، قوي كالحديد ، ناضج كالتفاحة . جسّوه بأيديكم . تعالوا ، ايها السادة ، تعالوا وانظروا الى رجوليته ، لقد ضُرب اعنف الضرب ، ولقد حُطّم ودُرِّب ... » أوه ، لقد كانت مدينة الحب الاخوي ، حسناً ، ولكن من ذا الذي دخلها يوماً من غير ان يقف ساعةً من زمان عند سوق الرقيق ؟

وكانت السقيفة التي يجري فيها البيع تواجه « مقهى لندن » الجميل حيث كان الشباب المترفون المتأنقون الغارقون في ضروب الوشي والعصائب والثياب الحريرية والاطلسية يحتسون شرابهم ويمتعون الطرف بالمشهد المثير .

ولم يكن ثمة سوق الرقيق وحسب . كانت هناك المِقطرة أو الفَلَق ، ومحطات الجَلد ، والمشنقة ، والسجون القذرة الى حدٍّ لا يصدق ، حيث كان المدينون والقتلة ، رجالاً ونساءً واطفالاً ، يُطرحون جنباً الى جنب في حظيرة ضيقة من الموت والمرض .

كان الرديء قائماً الى جانب الحسن ، في فيلادیلفيا . ولكن لم يكن ثمة قفص جرذان . فاذا ما كان عند الرجل جرأة أو دماغ أو شيء قليل من كلٍّ ، فعندئذٍ يستطيع ان يشقّ طريقه في الحياة . أنظر الى فرانكلين !

ولكن ايتكن كان يقول كلما رأى الى توم يتمهل في عمله ليحدق الى السقيفة القائمة عبر الشارع :

— « لا تنبس بكلمة يا توماس ، فليس هذا جزءاً من عملك » .

وتساءل « بين » حيناً : ما هو عمله على التحقيق ؟

وقال الرجل الاسكتلندي :

— « ينبغي ان لا تكتب شيئاً عن الاسترقاق في المجلة . إن المجلة يشتريها تجار الرقيق وغير تجار الرقيق . وينبغي ان لا تكتب شيئاً يتّصل بالانشقاق والثورة ، ويحرّض على الشغب . أنا لا ادافع عن ملك لندن البدين ، ولكن هذه الطريق هي طريق الامن والازدهار ، ولستُ من المؤيدين لاولئك الذين يتحببون بمثل هذا التفجع على الحرية » .

ولم يكن إيتكن واثقاً ، يوماً ، أي شيء كان يكمن وراء وجه « بين » الخشن المعقوف الأنف ، وعينيه الملويتين . فالحق ان المجلة التي صدرت أول ما صدرت ، بوصفها مغامرة ، كانت تسير قدماً في طريق النجاح بعد ان بيع من عددها الاول ستمئة نسخة ، ومن عددها الثاني الف وخمسمئة نسخة . وإذ كان ثمن النسخة شلناً ، فقد كان في استطاعَة إيتكن ان يرى في الأفق القريب ثروة تنتظره .

وتمتم « بين » :

— « اني مدين لك .ولكن المجلة هي من صنعي . تذكّر ذلك . »

فقال إيتكن :

— « وانت من صنعي ، تذكّرْ ذلك . لقد كنتَ بائساً قذراً عندما عثرتُ عليك وانتشلتك . وجّهْ عقوقك الى الآخرين ، لا اليّ . »

وقبل بضعة اشهر من وصول توم بين الى امير كة توجه الى مدينة فيلاديلفيا هذه نفسها عدد من الرجال على صهوات الخيل . لقد اقبلوا من مواطن عديدة تقع في أطراف الديار الآهلة بالسكان : وكان بعضهم فقيراً وكان بعضهم غنياً ، وكان بعضهم شديد الذكاء وبعضهم غير شديد الذكاء ، وكان بعضهم شهيراً في ايامه ، على حين لم يشتهر بعضهم الآخر إلا فيا بعد . وكان فيهم أبناء عمومة من ماساتشوستس ،

هما سام وجون آدمز ، وكوشينغ من الولاية نفسها – وكان هؤلاء الرجال اليانكيون غريبين ومتقدين حماسةً – وراندولف من فرجينيا ، وباتريك هنري من فيرجينيا ايضاً ، ومزارع ضخم الجسم هادىء من بوتوماك – ويدعى واشنطون – وميدلتون من الجنوب الاقصى ، وكثير غيرهم متأنقين وتجاراً ومزارعين وقُناصاً وفلاسفة .

وفي فيلاديلفيا طوفوا جميعاً في الشوارع لان كثرتهم لم تكن قد شاهدت مدينة كبيرة ، بعض الشيء ، من قبل . لقد اكلوا كثيراً وشربوا كثيراً . وكانت لديهم قائمة طويلة بالشكاوى على الحكم البريطاني تنتظم الضرائب التي تُفرض من غير استشارتهم ، والتضييق على التجارة ، والرسوم الثقيلة ، واحتكار بريطانية للاستيراد ، والقيود المفروضة على الصناعة ، وتكليف المستعمرات ايواء الجند البريطاني ودفع نفقاته ، واغراء الهنود بالقيام بأعمال الفتك والسلب على الحدود . ولكنهم ، على الرغم من هذه الشكاوى كلها ، لم يعرفوا ما يفعلون ، ولم يكونوا قد فكروا تفكيراً عميقاً في ما يستطيعون أن يعملوه .

ليس هذا فحسب ، بل لقد كانوا غرباء في ما بينهم . فاهل الشمال (اليانكيون) لم يحبوا الاسترقاق ، غير مترددين في ذلك ، وابناء الجنوب الأقصى لم يحبوا اهل الشمال ، غير مترددين في ذلك ايضاً . وحين جرؤ سام آدامز ، مهيج الغوغاء البوسطني الذي كان كثيرٌ منهم يحسبونه معتوهاً بعض الشيء ، على ان يتحدث عن الاستقلال الكامل أُسكت واعتبر مجنوناً ومتعصباً خطراً . ولكنه استحوذ على خيال فيرجينيٍّ شديد الهزال ذي نظارتين ، اسمه باتريك هنري ، فما كان منه إلا ان هدر : « وحق الألّه ، انا لست فيرجينياً . انا اميركي ! » وفيما كان الكونغرس منعقداً اعلنت ماساتشوستس استقلالها عن السلطة البريطانية . وحمل بول ريفير ، على صهوة جواده ، النبأ من بوسطن الى فيلاديلفيا ، ووضع الكونغرس « اعلان الحقوق » . وما هي إلا لحظة حتى تمثلوا خطورة

النتائج التي سوف تترتب على عملهم ذاك .

— « اذا عنت هذه الاحداث الحرب ... » كذلك قال بعضهم لبعض في رفق ولين .

ولكنها لن تعني الحرب طبعاً . إنها في بساطة لا تقوى على ذلك . ودرسوا امكانيات الخطر ، وتحدثوا وتحدثوا وتحدثوا فحملتهم كل تلك الكلمات على الوثوق من ان كل شيء خليق بأن ينتهي الى خير النتائج . واحتسوا مئات الغالونات من الشراب الاميركي المزوذل المعروف بالـ flip ، وفي ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٧٤ تفرقوا ، وانقلب كل منهم الى بلده .

●

وبعد بضعة اشهر التهم « توم بين » ، صانع المشدات في لنـــدن ودوفر وثيتفورد ، وقائع اجتماعهم كلها ، ولم يعتبرها مجرد لغو لا غناء فيه ، بل قال :

— « الكلمات تتراكم . وبعد ذلك يعمل الرجال عملاً . الكلمات اولاً . »

وكان يلتقي في مقهى ريدجواي بكلار بنتون الطابع ، وجودا بيريز تاجر الفراء اليهودي ، وأنتوني بنْت الحداد ، والكابتن اسحق لي قائد حرس فيلادلفيا الوطني . وقال « بين » :

— « هذا شيء جديد ، هنا . وذلك هو السبب الذي من اجله لا يعرف أحد ما الذي ينبغي ان يعمله . »

— « عندما يحـــين أوان القتال نعرف ما الذي ينبغي ان نعمله » . كذلك اصر الكابتن لي ، واضعاً توكيداً عنيداً على فكرة كان لا يفتأ يكرّرها .

— « لا . يجب ان نعرف ما نعمل أولاً . فالقتال لا يفيـــدك اذا كنت غير عارف حقيقة القضية التي تحارب من اجلها . حتى ولو ظفرت ،

لا يعود ظفرك بأيما نفع عليك . »

فقال بيرنز :

— « وأعتقد انك اذا عرفت القضية التي تحارب من اجلها فعندئذ لا يكون ثمة كبير فرق بين ان تربح أو ان تخسر . »

فاندفع « بين » في حماسة :

— « لن نخسر . ان حركتنا لا تشبه ايما حركة من الحركات التي عرفها العالم . إنها جديدة . إنها استهلال ، ومن حقها ان تُشرح وتفسر . إن عندنا شيئاً هنا ، ومع ذلك فنحن لمّا نحصل عليه ؛ ولنفرض اننا خسرناه وانه فرّ من بين اصابعنا ؟ »

وهنا كشر بنت وقال :

— « عندئذ نكون في حال حسنة كحالنا الآن . »

— « ولكن هل نحن في حال حسنة ؟ انت لا تدري ؛ انت اميركي ، اما انا فقادمٌ من هناك ! »

فتساءل بنتون :

— « وما معنى ذلك ؟ لقد صافحت الملك ؟ »

فقال « بين » في شكاسة :

— « بل لم أتفل في وجهه . »

— « هذا الكلام خيانة ، ايضاً . »

— « صحيح ؟ الخيانة كلمة تشمل اشياء كثيرة . »

فقال الحداد :

— « على رسلك . لا تتسرّع ؟ »

فاجابه « بين » :

— « انا لا اتسرع ، صدّقني اذا قلت لك اني لا اكره ايما رجل لما هو ، حتى ولو كان ذلك النغل الجرماني البدين ، جورج الثالث . ولكني رأيت رجلاً مسمّراً الى صليب ، مسمراً منذ آلاف من السنين لا يعلمها

إلا الله ، مسمّراً بالاكاذيب ، والاضطهاد ، والبارود ، والسيوف : وها قد وضع شخص ما فأساً في يدي ، واني لأرى الفرصة سانحة أمامي لتحطيم ذلك الصليب ، فلن ادع تلك الفرصة تفوتني . »

كان صوت « بين » عالياً ، وكانت كلماته تجلجل . فلم يكد يتمّ كلامه حتى كان نصف الرجال الموجودين في المقهى قد تحلقوا حول مائدته . وقال أحدهم :

— «أتتحدث عن الاستقلال ؟»

— « الاستقلال كلمة . »

— « يبدو انك شديد الولوع بالكلمات . »

فهدر « بين » .

— « وغير خائف منها ! لقد جئت الى ارض رجال احرار ، فوجدتهم يخشون أيما كلمة يمكن ان تقيد حريتهم ! هذه هي ارض الميعاد ، وليس ثمة غيرها على ظهر الارض ! »

●

وكان في كتابه أهدأ منه في حديثه . لقد تاق طوال حياته الى ان يكتب ، وها هو ذا الآن يجد مجلة برمّتها تحت تصرفه . وكان كلما اكثر من الكتابة لقاء جنيهه الاسبوعي كان سرور إيتكن أشدّ واعظم ، وكان في ميسور توم بين ان يفهم السرّ في رغبته في صيانة المجلة ووقايتها ضروبَ المخاطر . ولم تكن كتابته جيدة ، ولكنه افرغها على الورق — مقالات ، وقصائد رديئة ، وابحاثاً علمية ، بل ورسالة أو رسالتين الى فرانكلين العظيم . ولحسن حظه ، لم يكن الذوق الادبي عند شعب بنسيلفانيا مهذباً تهذيباً كافياً ، فأعجب بـ « بين » وبالمجلة وبعشرات الاسماء المستعارة التي اصطنعها — بل لقد قتلته طاقته العارمة التي لا تعرف

الكلل . وبين عشية وضحاها أمسى « بين » لاهوتياً ، ومؤرخاً ، وعالماً ، وحملَ الى المجلة المعرفة الواسعة التي ينطوي عليها صدر صانع مشدات وإسكاف ، وحائك ، ومأمور جمرك . لقد كان المزج بين ذلك كله صالحاً ، وتعاظم انتشار المجلة تعاظماً مطرداً .

ولكن « بين » ما كان يستطيع أن يظل هادئاً . كانت عنده ذكريات اكثر مما ينبغي . وليالٍ مؤرقة اكثر ينبغي ، واحلام اكثر مما ينبغي . وكان اذا ما سرّح البصر من نوافذه يرى الى ممتلكات البيض من العبيد تباع في السوق . وكانت ثمة اشياء اخرى يراها كلما تمهّل في الكتابة ، لحظةً ، واسترجع في ذاكرته جميع السنوات التي مرّت به .

وقال له ايتكن ذات يوم :

— « سوف ازيد لك اجرك . »

كان موضع الاحترام ، وكان له مركزٌ وعملٌ — ومع ذلك فلم يكن يملك شيئاً . لقد ساقته آلامه الى المواخير حيث كانت تحجز الأمـاء نصف البلهاوات اللواتي كانت تأتي بهن من انكلترة واسكتلندة جماعات نظامية من التجار ، ليبعن انفسهن لجميع الوافدين مقابل ثلاثة شلنات ، يُفترَضُ ان تذهب ستة بنسات منها لحِساب حريتهنّ . ومع ذلك فلم تنل أي منهن ، بطريقة ما ، حريتها بل لقد غدون جميعاً بنات قاسيات ، مُصَبّغات الوجوه ، بذيئات اللسان . ولم يكن « بين » ليجد راحة في مثل هذه الاماكن . وحتى حين اشترى الحرية لاثنتين من البنـات لم يرتح ضميره البتة .

وكان شراب « الروم » وسيلته للتنفيس عن كربه . فرجع الى الزجاجة وأخذ يسرف في الشراب اسرافاً كثيراً . وفيما كان غارقاً ذات يوم بين كؤوسه تشاجر مع بن فرادي ، الناطق بلسان حزب المحافظين ، فاقتيدا معاً للمثول امام القضاء .

وقال ايتكن :

— « انت قذر ، والى القذارة تعود . »
— « لعنك الله ، إخرَسْ ! »
— « ان نزعاتك التحررية لا تلائمني . وليس في ميسوري بعد اليوم ان اضيف ذلك الجنيه الجديد الى راتبك . »
فصاح « بين » :
— « إذْهبْ الى الجحيم ! »
ثم جلس ، ذات ليلة ، امام شموعه وجعل يكتب ويكتب . لقد صدر المقال من فؤاده ولم يكن ليجد صعوبة ، بعد ، في التماس الكلمات . لقد صبّ كل كراهيته لنظام الاسترقاق على الورق ، وكل غيظه المكبوت . وإذ لم يكن قادراً على ان يطبع المقال بنفسه فقد عرضه ، في الصباح ، على مجلة منافسة . وما هو إلا اسبوع حتى ظهر فيها . وفي ذلك اليوم بالذات اندفع ايتكن وفي يده نسخة من المجلة ، وصاح :
— « أهذه لك ؟ »
فحنى توم رأسه وقال :
— « نعم ، هي لي . »
— « إذن . فانا اطردك لكي تعود الى القذر ! »
فابتسم « بين » وقال :
— « وهل عندك محرر آخر يتقاضى جنيهاً في الاسبوع ؟ »
— « اني اعطيك مهلة شهر . »
فقال « بين » :
— « إجعلها شهرين . وإلا جعلتُها انا ، وحقّ الآلهة ، اسبوعين . »
وفي تلك الليلة ، وللمرة الاولى منذ عهد طويل ، نام توم بين في هدوء ويُسر من غير ان يحصل على شيء من منافع الشراب .

●

نحن في اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان ، سنة الف وسبعمئة وخمس وسبعين ، في الساعات الاخيرة من نهار بارد مشرق من ايام الربيع . كانت ظلال طويلة غنية تمتدّ فوق الشوارع المرقعة. ومن الهواء الهابّ من التلال الداخلية كانت تنبعث رائحة الاشياء النامية . وأوراق الاشجار الجديدة ، والاقذار المحمّضة . في ذلك الاصيل الساكن ضجت شوارع فيلاديلفيا بوقع حوافر فرسٍ مزبدة ، يمتطيها فارس مُزبد لم يكد يصل الى « حانة المدينة » حتى كبح جماحها وكانت تسابق الريح. وصاح بأعلى صوته قائلاً إنه يحمل إخباراً عظيمة ، اخباراً جبارة . فتقاطر اليه الناس من كل ناحية وكلهم رغبة في استجلاء الامر . بيد أنه أبى ان يتحدث الا بعد ان يأتي على كوبٍ من الجعة ، والا بعد ان يرى الى فرسه ، شأن الفرسان الصالحين ، تمُسح وتُسقى . وفيما كان يشرب انتشر النبأ انتشار النار في الهشيم، وغدا الحشد اعظم فاعظم. وسمع توم بين صياح النـــاس ، وكان آنذاك في دكانه ، فانضم الى صفوفهم .

وقال الفارس وهو يمسح شفتيه :

—« إنها الحرب . انها الحرب الدامية اللعينة ! »

وأعطاه بعضهم قليلاً من السعوط . وعمل آخرون على إبعاد الحشد الى الوراء .

وقال :

—« طبعاً. كانوا يعرفون ن هانكوك وآدمز كانا في لاكسينغتون. »

وسألوه عن التواريخ ، والتفاصيل ، وكيف بدأت الاحداث فقال :

— « كان ذلك في الثامن عشر من نيسان . »

ورانَ عليهم صمتٌ مفاجيء . لقد مضت الانباء بطيئـــة ، ولكن الاحداث جرت في سرعة . وبوجوه ذاهلة شاحبة تطلّع الرجال والنساء المتحلقون حول الفارس بعضهم الى بعض .

واضاف الرسول :

- « كانا في منزل القس كلارك . و كان ذلك حسناً . لقـد انطلق الناس من بوسطن ليحذروهما ، وكان ثمة متسع من الوقت، لأن الجنود البريطانيين ذوي الاردية الحمراء كانوا يمشون على الاقدام وكان فتياننا يمتطون صهوات الخيل كالجحيم . واحتفظ القس كلارك برباطة جأشه، وساعدهما على الفرار . »

— « واذن فلم يُلق القبض على هانكوك وآدمز ؟ »

— « لا ، لقد وفقا الى الفرار . »

وران الصمت كرّة أخرى . ودوّن الصحفيون هـذه الانباء في سرعة مهملة وفي غيظ كثير . ولكن سائر القوم انتظروا . ولم يُسمع صوت ما ، باستثنـاء صياح الأطفال الذين ركضوا كالارانب البرية حوالى الحشد . وطلب الفارس كوباً آخر من الجعة ، فحمل اليه على جناح السرعة . واستأنف حديثه فقال :

— « لم يكن في ميسوره ان يساعد البلدة كلها على الفرار . كانوا كلهم مستيقظين ، ولقد ظل اكثرهم مستيقظين . »

وكان ثمة حديث اطول ، وجعة اكثر ، واسئلة اغزر . وشيئـاً فشيئاً تُليت القصة برمتها ، بعضها في تمهل ، وبعضها في تعجل ، يعتورهما في بعض الاحيان انقطاع طويل حين كان الفارس يجتزىء بالتحديق ليس غير ، ويحاول ان يفهم معنى الأحداث التي كان يرويها.

وفي ليلة الثامن عشر تلك لم ينم من قرويي لاكسينغتون غير القليل. ومعظم الذين ساقتهم نساؤهم الى البيت ارتـدوا ملابسهم وانسلوا من منازلهم ، حاملين معهم البنادق وقرون البارود واكياس الرصاص ليلتحقوا بالجماعة المحتشدة في الحانة . لقد مشى الشيطان تلك الليلة،ولكن الملائكة كانت خلفه . ان احداً لم يعرف مثل تلك الليلة من قبل ، وان احداً لن يعرف ضريباً لها في المستقبل . وتحدث الرجال في الحانة حديثـاً

مهموساً ؛ مع انه كان في امكانهم ان يصبحوا من غير ان يجدوا جسماً نائماً يُخشى ايقاظه ، وأمرّوا اصابعهم على بنادقهم في عصبية وأحصوا رصاصاتهم ، وتساءلوا ما اذا كان اطلاق النار على الانسان يختلف في شيء عن اطلاق النار على السنجاب والارنب . ولم يكن قائدهم الكابتن باركر ، وكان قد رأى البنادق تنفجر في أثناء الحرب الفرنسية ، بأقل منهم قلقاً ، واجداً كثيراً من العُسر في الاجابة عن جميع الاسئلة المنهالة عليه .

وقبل ان يرتفع الضحى ببضع لحظات ، وبسبب من الحاجة الملحة الى عمل شيء ما ، وجه باركر رجلاً اسمه زيلك سودبيري الى الكنيسة لقرع الاجراس . وقرع زيلك حتى استيقظ كل من في القرية، واطلت النساء من النوافذ صائحات :

— « من العار أن لا يكون نفرٌ من الرجال الراشدين أعقل من ذلك . »

وطلب باركر الى رجاله ان يصطفّوا ، فامتثلوا امره في شيء من الحياء ، وقد كشر بعضهم لبعض . واخذوا يتهامسون . وخاطب باركر بعضهم :

— « انت جندي رائع ، يا اسحق . »

— « طُقّ عقبيك يا « جدْ ».إعملْ وكأنك لابسٌ صدرية تنكّرية حقيقية . »

ثم انه التفت الى جيري هيكز البالغ من العمر الرابعة عشرة وقال :

— « والآن ، جيري ، لماذا لا تذهب الى البيت وتدرس دروسك؟»

وصاح باركر :

— « الى الامام ، سِر ! »

فتقدموا الى المرج المنبسط امام الكنيسة . وهناك حكّ باركر رأسه، كرةً أخرى ، وكأنه غير قادر على ان يفكر في ايما حركة إضافية ؛

وخرج القس ، وفي يده بندقية صيد خفيفة ، وقال :

— « باركوا روحي ، واليوم ليس الأحد . »

كان جميلاً ان يكون هناك . وتنفس كل امريء منهم الصعداء وأخذوا يسرفون في اللغو . كان الضحى الرمادي يحُول الآن قرنفليــاً ودرّاقياً ورمادياً داكناً . وعبر الحقول صاحت الديكة مُغْضَبَة : « كاو ، كاو ، كاو ! » ولم يكد كلب جوشووا لانج ، وكان لا يطيق صبراً على ضجيج الطيور ، يسمع هذا الصياح حتى هُرع الى الديكة نابحاً عليها بأعلى صوته .

وكفّوا عن الحديث ، وعراهمُ التصلب، وتطلع بعضهم الى وجوه بعض . كان ثمــة صوت آخر في العالم . ففي ضعف وهزال بادىء الامر ، ثم في وضوح اكثر بعد ذلك وأخيراً في حدة وقسوة ، انطلقت اصوات الطبول وانفاس الصفارات ، في إيقاع متذبذب ساحر ، هو دعوة الى المجد ، الى الموت — والى اشياء اخرى لا يعلمها غير الله .

وما كان لأحد ان يقــول صوتَ من كان ذلك . لقد عرفوا ، ولكنّ أحداً لم يتكلم . لقد انحنوا على بنادقهم في ذلك الصباح البهيج من نيسان ، متوفزين ، مذعورين في كَثْرتهم ، مستشعرين للمرة الاولى في حياتهم رغبة جامحة في الفرار ، رجالاً وصبياناً وفلاحين متقدمين في السنّ ، وأطفالاً ، وحافظوا على موعدهم مع القَدَر .

●

وفي حانة المدينة في فيلاديلفيا احتسى الفارس كأس جعته الرابعة وقال :

— « لقد صمدوا ، وحقّ الآله ! ! »

وتساءل بعضهم :

– « قتال ؟»

– « جهنم ، ايها الرجل . قلت انهم صمدوا . لقد صمدوا رجالاً وفتياناً ، واستاق الله اصحاب المعاطف الحمر كلهم الى الجحيم . »

●

وتقدّم الجنود البريطانيون للقاء القرويين ، حتى اذا انتهوا الى بضعة ياردات بعيداً عنهم أصدر قائدهم أمره بالتوقف، فوقفوا صفوفاً منظمة، في لباسهم العسكري الموحد ،وقبعاتهم الكبيرة،وشعورهم المستعارة البيضاء، وحزائمهم البيضاء، وكلهم من لندن او سافولك او نورفولك ، من ديفون وويلز واسكتلندة وايرلندة، وراحوا يحدّقون في فضول الى الفلاحين الجهلة الذين انتهـوا اليوم على الرغم من انهم نبعوا في الأصل من مواطنهم ذاتها ، الى ان يكونوا غرباء عنهم ، غلاظاً الى حد لا يصدّق. وتقابل الجمعان وجهاً لوجه ، لحظات طويلة . والحق انها كانت لحظةً أعدّ لها اصحاب المعاطف الحمراء ، اما ايدي الفلاحين فكانت رطبـة على البنادق .

ثم ان الماجور بيتكيرن ، قائد البريطانيين ، استقر على رأي فأسرع الى المقدمة وهدر :

– « تفرقوا ! »

وهرّ الفلاحون .

– « لعنكم الله ايها الثائرون الاشرار . ألقوا بنادقكم ! »

لقد كانت هناك حارةً وفظيعة ؛ لقد كانوا ثائرين. إن هذه الفكرة التي طافت برؤوسهم ، والقائلة بأن عليهم ان يكونوا رجالاً احراراً لهم الحق في ان يحيوا حياتهم على طريقتهم الخاصة، فكرة الحرية اللطيفة هذه الشبيهة بالحُلْم والتي تلهّى بها طوال آلاف من السنين رجال من

أصحاب الارادة الحسنة ، انتهت فجأةً الى ان تبلغ نضجها الفظّ في احدى القرى الخضراء في لاكسينغتون . وهرّ الفلاحون وأبوا ان يلقوا اسلحتهم ، وبدلاً من ذلك اطلق واحد منهم النار . وفي لحظة السكون التي عقبت هدير البندقية العتيقة الضخمة ، أنشب جندي بريطاني أظافره بسترته العسكرية ، وركع ، ثم خر متدحرجاً على الارض .

وبعدَ ذلك لم يعد ثمة نظام ، بل لم يعد ثمة ذاكرة ، فقد اطلق اصحاب المعاطف الحمر النار دفعةواحدة ، وأطلق الفلاحون رصاص بنادقهم واحدةً واحدةً ، واثنتين اثنتين ، او ثلاثاً ثلاثاً. وأعولت النسوة ، وأقبلن راكضات من بيوتهن .وانشأ الأطفال يبكون ، ونبحت الكلاب مسعورة . ثم خفت اطلاق الرصاص وتلاشى ، ولم يبق هناك من صوت غير أنين الجرحى وتضرع النسوة الجهوري .

●

وقُدم الى الفارس ، أمام « حانة المدينة » في فيلاديلفيا ، كوبٌ خامس من الجعة ، فتجرّعه وأخذ يقص على القوم كيف غادر اصحاب المعاطف الحمر ، القرية ، قائلاً :

ـ« لم تكن لاكسينغتون هي هدفهم ، ولكنْ كونكورد. فهناك كانت المخازن والمستودعات . »

وسأله احدهم :

ـ « وهل اخذوا المزارعين معهم ؟ »

ـ « لا . انهم لم يأخذوهم . وهل يأخذ المرء كلباً مسعوراً ؟ لقد غادروا القرية وحدهم وقصدوا الى كونكورد فدخلوها واقاموا فيها اربع ساعات او خمس ساعات . ثم انقلبوا على اعقابهم من غير ان يعملوا شيئاً . حتى اذا بلغوا الجسر ، كان القوم ينتظرونهم هناك؛ ولم يكونوا

نفراً قليلاً هذه المرة ، بل جمهرة يزيد عددها على اربعمئة . »

وصاح الكابتن :

— « ايها النَغَلَة * القذرون ! ايها الفـلاحون القذرون ! تفرقوا وارجعوا الى بيوتكم ! »

وقال الفارس :

—« ولم يتزحزحوا من اماكنهم . »

فهدر الماجور :

— « عليكم لعنة الله ايها النغلة . أخلوا الجسر ! »

ولم يتحركوا . فما كان من البريطانيين إلا ان هجموا عليهم ، فاتحين ابواب الجحيم على مصاريعها . وهدر المدفع . ودوت نيران البنادق القديمة . وبالحراب المشهورة حمل البريطانيون على الجسر ، وبالبنادق العتيقة صدهم المزارعون عنه . وكرّ عليهم اليانكيون صائحين ، صارخين ، لاعنين ، مصلين . فأجلوهم عن الجسر وأكرهوهم على العودة الى الضفة الاخرى من النهر . ولكن الجهد ما كان له ان يستمر . فقد كانوا مزارعين ، لا جنوداً، فما إن انحسرت سورة الغضب الاولى حتى تراخوا وسمحوا لأصحاب المعاطف الحمراء باعادة تنظيم صفوفهم ، فعبروا الجسر ، واستأنفوا سيرهم نحو لاكسينغتون .

وعندها فقط ، وبعد ان دفنوا قتلاهم وعُنوا بأمر جرحاهم أدرك المزارعون أنّ نصراً قد فرّ من بين أصابعهم . وحلت محل غيظهم الفائر مرارة « نيو انجلندية » باردة ، فحملوا بنادقهم وشرعوا يعْـدون ، هابطين الطريق الى لاكسينغتون .

●

* مفردها نغل ، وهو ولد الزانية .

كانت لاكسينغتون على مبعدة ستة اميال ، ستة اميال من الهلاك لأصحاب المعاطف الحمراء . واشتعل الريف كله بالثورة . وفي أصيل ذلك اليوم من نيسان هدر كل حائط ، وكل سياج ، وكل بيت ، وكل أجمة ، بالتحدي الصارخ . ودب المرضى من الرجال الى نوافذهم ليطلقوا النار على الغزاة . وزحف الصبيان عبر العشب وتخيروا أهدافهم ، وحشَتْ النسوة ، خلف ابواب العنابر ، البنادق لأزواجهن ، وملأ المزارعون سماء « نيو انجلند » كلها بالرصاص . وتسلق احد الصبيان شجرة وقتل ملازماً بريطانياً كان ماراً من هناك لُيقتَل هو بدوره بعد ذلك . ولكن رصاص البنادق البريطانية المنطلق دفعة واحدة كان غير ذي غناء في هذه الحرب الخفية غير النظامية .

لم تكن ثمة زعامة ، ولا وجهة ، ولا قيادة . لقد قاتل المزارعون قتالاً غرزياً وبأكثر براعة مما قُدر لهم ان يفعلوا في أيما موقعة من المواقع التي حاضوها في المستقبل ، كأنما قد أدركوا ان جماعة الفقراء البسطاء المعذبين في الارض انما استشعرت ، ههنا اليوم ، آخر الامر ، قوتها وسلطانها .

ستة اميال الى لاكسينغتون ، قبل ان يعرف الزحف البريطاني أيما توقف . كانت البلدة مجتمعاً من البيوت ، وكان فيها نساء واطفال . وإذن فقد تعين على الرجال ان يرابطوا في الحقول والغابات . وفي لاكسينغتون التحقت الأمداد بالقوات البريطانية ، ولكن مئات ومئات من المزارعين تدفقت ، في الوقت نفسه ، على القرية ، يجتذبها اطلاق النار ، وتحدوها الانباء الطائرة كل مطار .

وعلى الرغم من الامداد الملتحقة بهم ، فقد ارتد البريطانيون من جديد ، الى بوسطن — وكانت جهنم هذه المرة شراً منها في المرة

الاولى : لقد مضوا في سبيلهم مترنحين ، يقطر الدم من جراحاتهم ، وتنصبُّ عليهم الضربات من كل ناحية ...

●

وقال الفارس :

— « ثم بلغوا تشارلزتاون ، أعني من تبقّى منهم . »

الفصل الخامس

رجل ثوريّ يتكوّن

من ذلك كله ، من هذه الضجة ، وذلك الاضطراب ، وتلك القصة الغريبة التي نقلها الفارس من نيو إنجلند ، كان ينشأ شيء جديد ، شيء هائل يُعجز الافهام ، شيء يمكن ان يُترجم الى حركة وعمل ، ولكن ليس الى خطة وعقل . كذلك فكر توم بين ، في اليوم التالي ، وهو واقف مع الغوغاء المتلاطمة الامواج أمام دار الحكومة ، وكانت أضخم مجموعة من الغوغاء عرفها تاريخ فيلاديلفيا كله ، وتبلغ عدتها ثمانية آلاف نسمة أو تكاد ؛ ولكن الغوغاء كانت غوغاء وليس شيئاً أكثر من ذلك . فقد صاحت ، وهتفت ، وأقلقت الراحة ، ولم تهدأ هدوءاً جزئياً بين الفينة والفينة إلا لتسمع الى مختلف الخطباء الذين وقفوا للتنديد بالطغاة وبالاضطهاد ، وكلاهما تعبير عام جداً ، ومأمون جداً ؛ وكان هوى الجماهير مع بوسطن في المحل الاول ، ولكن بعض انصار حزب المحافظين كانوا ينهضون حيناً بعد حين ، ويتبسمون على النحو الذي كان المحافظون ينزعون الى ان يتبسموا في الاشهر القليلة الماضية ؛

وعلى الرغم من ان الخطباء كانوا يتوجهون الى الجماهير كلها بالكلام فقد كان نفر من الشباب يتناقشون في دائرتهم الضيقة . وهنا دعا أحد هؤلاء الشبان – جاكسون إيرل ، وهو صانع عجلات خبير ، وكان يلقي اتهاماً قاسياً للملوك والطغاة على الجملة وللملك واحد على الخصوص – دعا توم بين الى ابداء شهادته قائلاً :

– « بين ، هل يحكمنا رجل جرماني أم رجل انكليزي ؟ »

ورفع « بين » كتفيه . لقد أثاره يوم أمس وروّعه ، أما اليوم فكان بارداً وكان الخمول القديم قد عاوده . لقد حلُم حلماً واحداً قصيراً مشرقاً ، ولم يكن يدري الآن لماذا كانت هـــذه الحشود تساعد على تبديده . ومع ذلك فقد كان يعرف شيئاً واحداً ، هو انه خارج إطارها . لقد كان هو « بين » المحرر . ولقد انقضت فترة كان فيها « بين » الشحاذ ، ولكنه في الحالين لم يكن يملك شيئاً . كان في ميسوره ان يبغض وان يتلوى من الألم وان يحتـــج . ولكن كيف يستطيع ان يحلم ؟

وأصرّ أيرل :

– « جورج ، أعني . »

– « جرماني ، في ما أظن . »

فسأل ايرل الحشد :

– « جرماني ! ومن أيّ نوع ؟ هانوفريّ مستعبِد ، خنزير سمين مسرف في الشراب – ولا تنسوا انه يحكم بالحق الألـهي ! مِنَ الله ؟ اسمعوا الآن ، ايهـــا الاصدقاء الطيبون ، وعندئذ اخبركم ! ضعوني مكانَ الله .. »

وكان الخطيب ، كوينسي لي ، واقفاً على منبر مرتجل هو كناية عن مجموعـــة من الصناديق ، يدعو الناس الى الهـــدوء . وكان آرنولد ، الكويكوي ، قد اقترح منذ لحظة إنشاء حرس وطني مسلح . فصاح « لي » بأعلى صوته – وكان فارع الطول ، هزيلاً ، أحول

العينين ، يمور بالنشاط العارم :

– « ما رأي الشعب ؟ »

وهدر الحشد :

– « أيّكم سيكون السبّاق الى ان ينهض ويقدّم نفسه ، كما أقدّم حياتي وأسلحتي وسيفي ، لهذا الشيء المقدس الذي يدعى الحرية ؟... »

وهدر الحشد هديراً مزلزِلاً :

– « كما استُشهدوا في لاكسينغتون وكونكورد ... »

وفيما كان « بين » ينفصل عن الحشد كان آرنولد يصيح :

– « كما حارب الانكليزُ دائماً من اجل حقوق الانكليز ... »

●

– « سكران ؟ » كذلك سأله إيتكن حين طلع عليه من الليـــل البارد المتألق النجوم .

فحنى « بين » رأسه :

– « سكران . »

– « ان كبدك ستنتهي الى غاية من الفساد تجعل من المتعذر عليك ان تحتفظ بها ، بعد ذلك ، في جوفك . »

وكشّر « بين » وحنى رأسه من جديد .

– « كنتَ في الساحة العامة اليوم ؟ »

فقال « بين » وهو يطرح نفسه في أحد الكراسي ، ويحدّق الى قدميه :

– « كنتُ هنالك »

– « وهل كنتَ سعيداً بحديث الدم وهزيم الرعد ؟ »

فقال « بين » :

— « لم أكن سعيداً . لقد كنت خائفاً . »

— « يا رجلي الصغير . انت بارع في الكتابة على الورق ، ولكنك غير بارع البتة في الضرب بجُمْع اليد . »

— « انا لم أكن خائفاً من ذلك . »

— « ينبغي ان لا تكون . أقول لك ينبغي أن لا تكون . إذ أية قيمة لحياتك ؟ »

— « لا قيمة لها على الاطلاق . »

— « آه ، اذن — وأنت تسلّم بذلك ؟ »

فقال « بين » في شراسة :

— « أنا أعرف هذا . »

— « ولكنك كنت خائفاً . »

•

وخاصم النوم عيني « توم بين » تلك الليلة . كان يستشعر حاجة ملحة الى ان يتكلم ، وكان يريد ان يسمع الضحك والانتحاب ، والغناء والموسيقى . وسأل ايتكن :

— « هل أحببتَ امرأة في حياتك ؟ »

— « أمجنون انت ؟ »

كان يريد ان يجد جزءاً من ماضيه يستطيع ان يأخذ منه شيئاً ، ثم يعطيه الى شخص آخر قبل ان يتلاشى كالدخان .

•

لقد عمل « بين » صانع مشدات في ثيتفورد ، في لندن ، في دوفر ،

في ساندويتش ، في بورتسماوث ، وفي برايتون بالجنوب ، وباث ، ووينتشستر ، وبريستول –ولكن أياً من هذه المواطن لم يستطع الاحتفاظ بـه . كان كلما جرّب نفسه في صناعة جديدة ينقلب راجعاً الى المشدات . فمن الحياكة وترقيـع الاحذية ، وحفر الخشب ، والخياطـة ، وحفر الخنادق ، والعملَ الزراعي ، ارتدّ الى صناعة المشدات حيث كان موضعه . وانما كان يعمل في ساندويتش عندما التقى ماري لامبيرت .

كانت ممتلئة الجسم ، وقحة ، جميلة بعض الشيء . وكانت لهـا غمّازة في كلٍ من خديها ، وعينان سمراوان وذراعان مستديران . وكانت اصغر منه ببضع سنوات . وفي ذلك الحين كان هو في الحادية والعشرين .

كانت خادمةً في بعض البيوت . وكانت تشتّري شيئاً من لحم الضأن حين رآها توم أولَ مرة . ولم تكن من النوع الذي يقنع بالنظر الى قطعة اللحم ، نظرة فاحصة ، بل كانت تجسها وتقرصها ثم تلتفت الى الجزار قائلة :

– « الآن ، انتبه ، انا لا أريدها دهناً كلها . انا لست أخدع . »

فيجيبها الجزار :

– « انها قطعة لحم من أحسن ما رأيتِ طول عمرك . »

– « كفى خداعاً . انزع عنها الدهن . »

كان « بين » يحدق اليها طوال هذا الوقت ، ولقد عرَفَت هي ذلك ، ناسياً لماذا أقبل الى الدكان : ألكي يشتّري قطعـة من اللحم لعشائه ، أو عظماً للكلب الذي كان عنده آنذاك ، أم لأنه أدرك انها سوف تكون هناك ، وعندئذ أي شيء في الارض يقوى على ابعاده عنها ؟

حتى اذا غادرت الدكان ، تبعها غير مصغٍ الى قول الجزار : « هاي ! انت ... ماذا تريد ؟ » ، ماشياً خلفها نحواً من عشرين قدماً قبل ان تلتفت وتواجهه قائلةً :

— « سِرْ في طريقك ! »
ووقف « بين » في بلاهة وبكم .
— « إمض في سبيلك . انا لا أريد شيئاً من مثلك . »
فقال « بين » :
— « لست اقصد الى إيذائك . »
فانقلبت الفتاة على عقبيها صائحة :
— « كوو ! »
وأوسعت الخطى ، و « بين » يجري خلفها متضرعاً :
— « أرجوكِ ، قولي لي ما اسمك ؟ »
— « أقول لك اسمي ! وأيّ شيء آخر يجب عليّ ان أقوله لك ؟ »
— « دعيني احمل هذه الرزم عنك ، ارجوك . »
— « عندي القدرة الكافية لذلك . سِر في طريقك محافظاً على أدبك وإلا شكوتك الى سيدي . »

ورآها كرّة اخرى . وكان من المعتذر ان لا يراها في بلدة صغيرة مثل ساندويتش . وسأل عنها فاكتشف ان اسمها ماري لامبرت. وعرفت هي بذلك ، من غير شك . ولم يكنَ بقادر على مفارقتها ، فهو يتبعها، ويقتفي آثارها ، بل يحاول ان يقول لها كلمة بين حين وآخر . وكان اذا ما ابتسمت له ، شأنها في بعض الأحيان ، تستحوذ عليه نشوةٌ من الابتهاج .

وكانت تسمح له احياناً ، بالسير معها . ولقد تعوّد ان يشتري لها حاجتها لأنه وجدها اسهل قياداً ، في هذه الحال ، منها حين يقدم اليها هدية ما . وكان قد سألها ان تهبط معه في اتجاه النهر ، ذات ليلة هادئة ، فقالت :
— « كوو ! إنه مستنقع قذر ! »
— « ولكن المكان جميل ، هناك ، وأنت جميلة ايضاً ... »

— « انت ظريف ايها المعلم «بين» . ألم تكن لك فتاة من قبل ؟ »
فاستجمع شجاعته وقال :
— « لم تكن لي فتاة احبها.»
ورفعت كتفيها وهزت رأسها .
— « ماري ... »
— « أحبّ أن أسير في البلدة . ينبغي ان لا تخرج الفتاة وحدها. »
— « ماري ، ألا تهتمين بي ، قليلاً ؟ »
— « جائز . »
— « ماري !»
وأخذت تطوّفُ بالبيت ، بسيدتها ، وبالخادمة الثانية ، وبالطاهي وبالخادم الذي كان متيّماً بها ، وهي تقول :
— « لقد قبّلني أمس ، لقد فعل .»
وقال لها :
— « ماري ، أحبك ! »
فابتسمت وقالت :
— « كوو ! »
وسألها يوماً عن السبب الذي من أجله تخدم في البيوت ، فقالت :
— « لقد خدمت دائماً في بيوت الطبقات الرفيعة. »
— « ولكن هل تحبين حياة الخدم ؟ »
فاهتاجت وقالت :
— « إنها أفضل من حياة كثيرات اعرفهن لم يحظين بنعمة الخدمة في البيوت . »
فقال معتذراً :
— « لم أعنِ شيئاً غير صالح . كــل ما في الأمر انني لا أحب ان أفكّر فيك كخادمة . »

— « فكّرْ كما تشاء . »
— « أحبكِ . »
وهزت رأسها .
— « اليس يعني هذا شيئاً ؟ أقول لكِ اني احبك . أقول لك اني مستعدٌ لأن أموت من أجلك — أنا لست مجرد صانع مشدات . أنا اريد أن أعمل أشياء كثيرة ، وان اكون اشياء كثيرة . اريـــد العالم كله ، وأريد ان اعطيك إياه ! »
— « كوو ! »
وقال في قوة :
— « في استطاعتي ان اعطيك اياه . »
فوضعت يديها على شفتيها ، وانحنت تحييه :
— « سيدي الدوق ! »
وحاول ان يقبّلها ، فصفعته بكامل قوتها . فوقف هناك وأخذ يحدق اليها ويفرك خده ، ويفكر بالخادم .
— «انت تكرهينني ، أليس كذلك ؟ »
— « جائز . »
ثم إنه وطّن العزم على ان لا يلقي نظرة إليها منذ اليوم . وطوال اسبوعين ، حاول ان لا يراها ، منكباً على عمله مبربراً ، يغشى وجهه قتام يائس .
ونصحه سيده المعلم كريغ :
— « حاول ان تطوّقها بذراعيك . »
— « إخرَسْ واذهب الى الشيطان . »
— « لن أمنحك الشلن الذي وعدتك به . »
وزايله القنوط واجتاحته موجةٌ من العزم الحديد . وقرّر ان ينشىء لنفسه عملاً مستقلاً . وكان قد ادّخر تسعة عشر جنيهاً ، فترك كريغ ،

واستأجر دكاناً عتيقاً نقل اليه مقعده وأدواته . وراح يعمل من الصباح الى المساء مدّخراً كل بنس كان في ميسوره ان يقتصده ، حارماً نفسه الطعام ، وكل ما كان في طوق الرجل ان يحصل عليه من رفه وشراب وأشياء للقراءة ، حالماً بشيء واحد ليس غير هو اليوم الذي يستطيع فيه ان يتزوج من المرأة التي أحبّ . ثم انه التمس الاجتماع بها .

— « كنت اعلم أنك ستعود ؛ » كذلك قالت له في غرور .

— « أجل كان يتحتّم عليّ ذلك . »

— « اذاً أرجوك ان تسلك مسلكاً صالحاً . »

فقال في يأس :

— « اريد ان اتزوجك . »

— « كوو ! »

— « أنا احبكِ . سوف افعل كل شيء من اجلك . سوف أجعلك سعيدة ... »

— « تابعْ . »

ولكنها كانت قد أخذت تلين . كان هذا خيراً من الخادم الذي لم يعرض عليها الزواج يوماً ، وخيراً من الجزار وطريقته ، وخيراً من سيدها الذي كان يمسك بتلابيبها في بيت المؤونة . وفتنتها عينا صانع المشدات الملويتان الملتهبتان ، لحظة من الزمن ؛ وبعقلها الصغير المصفّق كوّنت لمحة عن أحلام وُلدت نصف ولادة . وابتسمت ، وانحنت في احترام ، فترنحت روح «بين» في انتصار باهر .

وقالت له :

— « قبّلني . هيا . »

وطوّقها بذراعيه ، شاعراً بأن الكون قد غدا ملكه .

— « ولكن حذار . لا اريد ان اسمع هراء عن عملي كخادمة . »

— « لا ، لا . انت العالم كله بالنسبة إليّ ! ليس يهمني ما كنتِ

سوف تصبحين الآن زوجة توم بين . ولسوف أرفعك مقاماً عالياً مثل مقام دوقة – بل أعلى ! »

– « تابِع . »

– « سوف أغدو غنياً . ولن أبقى صانع مشدات ، عمري كله . »

– « إنتبه . الزواج ! »

– «اجل ، اجل ، يا حبيبتي ، يا عزيزتي . »

فقالت في إعجاب :

– « انت بارعٌ في صوغ الكلمات . »

– « إنها لا تعني شيئاً كثيراً ؛ إنها رخيصة . سوف يكون لنا اكثر من ذلك ، سوف يكون لنا اولاد . »

– « يعني افواهاً جديدة يجب ان نطعمها . »

– « كل ما أسألكِ اياه هو ان تحبيني . »

فعبست وقالت :

– « يجوز . »

وفكّر فيما بعد لو انّ اشياء بعينها لم تكن ، لو ان اشياء بعينها جرت في اتجاه آخر ، إذن لتغيّر وجه المسألة . لم تكن لماري حيلة في ما كانت عليه ، ذلك ما أدركه فزاد الوضع سوءاً بالنسبة اليه . ثم إنه تذكر كيف حاول ان يعلّمها، بعد فترة طويلة ، القراءة والكتابة ، وكيف كانت تنقلب عليه ، إثر عشر دقائق او خمسَ عشرة دقيقة من الصراع مع احدى الفكرات ، في غيظ طفليّ . وكان على مثل اليقين، في بعض الأحيان ، من أنها تكرهه ، وكان في احيان اخرى يطوّقها بذراعيه فيستشعر لحظةً قصيرة انها تحبه . كانت ما هي ، مُفرَغةً في الشكل الذي اراده لها عالَمُها الصغير ، مخلوقةً قَبَلية مكسوة بقشرة من ألف تحريم ديني (تابو) . وكان إذْ يسبر غورها ، بعض الأحيان ، في رفق ، مزيلاً طبقة بعد طبقة ، يكاد ينتهي الى روحها الصغيرة المروّعة،

فتصرخ في وجهه :

– « كوو! عظيم وبارع انت حين تحاول ان تسخر مني كرةً اخرى، أنت بتشامخك الرائع ! »

– « ليس عندي تشامخ ، يا حبيبتي ماري . »

– « تسلك مسلك دوق ، ولست غير صانع مشدات . »

وكان يهز كتفيه ويحني رأسه قائلاً لها انه آسف .

– « كنتَ تزدري الخدمة في البيوت ، مع انـي كنت سعيدة هناك، مع قوم كرام ، لا مع اقوام قذرين من مثلك . »

وكانت اذا ما اخذ منها الغضب مأخذاً شديداً تروي له اشياء تتصل بالخادم، وبسيدها القديم ، وبغيرهما ، ابتغاء إثارته وايذائه .

ولم تعد صناعته عليه بما يسد حاجاته وحاجاتها . فقد كان عمـل المشدات تجارة بعيدة المدى ، وما لم يكن بين لائحة زبائنك جماعة من الاثرياء وأهل الطبقة الرفيعة فعندئذ تجد نفسك مضطراً الى اغلاق الدكان. وفوق هذا فقد كانت ساندويتش أصغر من ان تحتمل صانعين اثنين من صناع المشدات . وحين لم يعد «بين» قادراً على ان يدفع اجرة الدكان، وحين لم يبق في صندوقه بنسٌ واحد عاد ادراجه الى كريغ ، ولكن هذا لم يرحب به . فقال «بين» لماري :

– « ينبغي لنا ان نبحث عن بلدة اخرى . »

وقلّدته في صوته وحركاته قائلة :

– « ولسوف تجعلني احيا حياةً خيراً من حياة دوقة ! »

فقال «بين» في هدوء :

– « الحياة مدٌ وجزر . أنا لم أيأس . »

ولكنه أحسَّ، للمرة الاولى في حياته ، انه شيخ ، وهو الفتى الذي لم تَعْدُ سنه الثانية والعشرين ، التائق الى طفولةٍ لم يعرفها قط ، المحبوس في القفص فهو يدور ويدور مثل سنجاب فوق دولاب كبير يـديره

السجناء بأرجلهم تعذيباً له . وتوقع ان تعود ماري ، هذه المرة ، الى الخدمة في البيوت ، ولكنها لم تفعل . لقد التصقت به ، ساخطة على نفسها من اجل ذلك ، ناقمة عليه نقمة اكبر ، متعلقة مع هذا بلمحة الحلم تلك التي عرفتها يوماً ، مُبغضةً اياه لبشاعته ، ولعدم كفايته ، ولعجزه كرجل لا يفقه من شؤون الحياة العملية شيئاً ، وان تكن متهيبة إياه في الوقت نفسه .

ولم تكن البلدة الاخرى خيراً من الاولى . ثم إنهما عرفا بلدة ثالثة ، وراحا يجران اقدامهما في شوارعها المغبرّة . فأما «بين» فكان يحمل ادواته على ظهره ، وأما ماري فكانت تحمل كل ما كانا يملكانه في جوف منديل . وكان يعصف بـ «بين» شعورٌ بالجريمة عميق ، فاذا ما صاحت ماري في وجهه : « انها غلطتك ، غلطتك ؛ لقد كنت مرتاحة جـداً هناك ، ومرفهة جداً ، » اكتفى بان يحني رأسه قائلاً في ما بينه وبين نفسه : « لست قادراً حتى على الاحتفاظ بسقف فوق رأسي! » اجل، كان هذا صحيحاً ، وكانت ماري لا تفتأ تندّد به :

— « افكار رائعة ! افكار رائعة ! افكار رائعة ! كنت تزدري — بأنفك الضخم — عملي كخادمة في المنازل! تريد ان تغيّر العالم ، أنت —كوو ! — المعلم « توم بين» ، انت الأخرق القذر الكسول ! »

وكانا يضطجعان خلف سياج ما ، في الليل ، فيستقر ضباب المساء البارد على جسديهما وتحمل الرياح المظلمة روائح الريف الانكليزي الحلوة، اليهما . وكانت ماري تلتصق بتوم ، حين يكون الجو قارساً ، فينعمان فترة قصيرة بالأمن والسلام . كان يضمها اليه قائلاً في ذات نفسه : أنا في قصري ، في بيتي ، ولسوف يغلبها النعاس فترضخ وتكف عني لسانها . وكان حبه لها من العنف والقوة بحيث كانت كل حركـة من حركاتها ، وكل عبرة من عبراتها ، وكل إجفالة من ذعرها تمس وتراً عميقاً من اوتار الألم في قلبه . بل كان حبه لها يسوقه الى تحدي الالـه

فيخاطبه بمثل قوله : «لقد اعطيتني هذه . انها ملكي ، وانها الجميلة ومحببة وفي استطاعتي ان اجعلها تحيا كما أودّ وأرغب .» ولم يكن لينحي عليها باللوم مكتفياً بأن يلوم نفسه ليس غير . إن شيئاً عميقاً وفظيعاً في ذات نفسه قد منحه القوة على ان يتطلع الى العالم ويعرف ، وعلى ان يرى العدل والظلم ، ويحس في روحه هو بالسياط التي تلهب ظهور الملايين من البشر . كان في الثانية والعشرين ، وكان عجوزاً ، وكان كل ما لم ينكسر الى الآن ، في داخله ، قد طُرِّق حتى لصار نواةً صلبة من فولاذ . ولكنها كانت مجرد طفلة . وكانت اذا نامت ، في موهن من الليل ، ينحني فوقها ويهمهم لها : « يا طفلتي ، يا عزيزتي ، يا حبيبتي . »

وسرق لكي يأكل ويطعمها ، فسلّحها هذا الصنيع بعصا أضخم تهدد بها رأسه ، فهي تصيح في حالات السخط والثورة : « سوف أسلمك الى السلطة ، ايها اللص ! » وكانت العقوبة على ذلك هي الموت . كذلك زحف يوماً الى احـد العنابر واستولى على كيس من اللفت . وكانت العقوبة على هذه الجريمة فسخ الجسم بواسطة فريقين من الخيل يشد كلٌ منهما في اتجاه معاكس لاتجاه الآخر . والى هذا ايضاً ، قتل ارنباً ، وكانت العقوبة على ذلك صلم الاذنين وجدع الانف . ولكنه كان خليقاً بأن يرتكب جريمـة قتل ، فقد كانت المرارة تعتصر قلبه وروحه . ولم يُظهر إلا نحوها ، وحدها ، أيّ عذوبة ورحمة .

وفي مارغايت ، حيث وصلا آخر الامر ، متورِّمي الأرجل ، خائرَي القوى ، استأجر دكاناً . كانت ماري حاملاً ، وكان يأس « بين » قد انقلب أو كاد الى ضرب من الجنون . وكدح طوال النهار فوق مقعد عمله ، وسلخ ساعات الليل في أعمال مختلفة كانت تعود عليه بأجر يسير . كان الألم يعضّها فهي تبكي وتنتحب مثل طفل صغير ، أصابه أذى . ولم يأكل « بين » ؛ وشيئاً بعد شيء باع أدواته الثمينة

ليشتّري لها زبدة ودجاجاً ، أو شريحة من لحم البقر مع قليل من الحلوى في بعض الاحيان . واذ كان نصف جائع فلم يكن في ميسوره ان يفكر بغير شيء واحد ، هو ان يحتفظ بسقف فوق رأسه ، وبنارٍ في الموقد ، وبقليل من الطعام في القِدر . وكانت تجّارته لا تكاد تعودً عليه بأجر الدكان ، وكانت جهوده للحصول على بعض الأشياء الضرورية الأخرى قد أصبحت ضرباً من الخبال . واخيراً تذكّر طاحونة الا « جن » ، ووضع خرقة على احدى عينيه ، ولفّ أحد أوصاله بعصابة ثم لواه على نحو يثير الشفقة ، ثم راح يطوف الشوارع ، يستندي أكفّ السابلة . وكان على يقين من ان في استطاعة اىما طبيب ان ينقذ امرأته . وبعد كثير من التهديد والاغراء ، وفّق الى ان يصطحب أحد الاطباء الى الدكان لقاء شلن واحد .

— « حمى خبيثة » ، كذلك قال الطبيب ، فيما كانت ماري تنظر اليه بعينين واسعتين ، مروّعتين .

وسأله توم بعد ذلك ، بعيداً عن الفراش :

— « ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ »

وقال الطبيب :

— « ينبغي ان نجري لها عملية َفصْد ، لنتخلص من الارواح التي تمدد أوردتها . »

وانشأ يحدّث « بين » بلغة مرصعة بالالفاظ اللاتينية ، حتى اذا أفهمه « بين » انه لا يفقه اللسان اللاتيني ، قال الطبيب :

— « آه ، ولكنها المصطلحات الطبية ، الصناعة الطبية ، الاسرار الطبية . أحكِمْ اغلاق الابواب والنوافذ ، لأنه حين يقبل المرض ترقص الشياطين . »

وفي تلك الليلة قالت :

— « تومي ، تومي ، لقد أشرفت على الموت ... »

– « لا ، لا ، الطبيب قال انك سوف تشفين . »

وزايلتها ضغائنها كلها ، وتشبّثت بيده وكأنما هي آخر شيء حقيقي على هذه الارض . وفي تلك الليلة أغمضت عينيها ، وقد حال لونهـا أبيضَ شمعياً لكثرة ما تفصّد من دمها ، وأشاحت بوجهها عن «بين» .

وطوال اليوم التالي جلس « بين » واسعَ العينين صامتاً ، فيما احتشد الفضوليون في المنزل ، وفيما كان الجيران الذين لم يشعروا بوجودهما قط من قبل ، يفدون الى المكان زرافات ، ويغادرونه زرافات . إنه لم يعرف الحزن في تلك الساعات ؛ كل ما عرفه غضبٌ ملتهب كان خليقاً بأن يشتعل في ذات نفسه الى الابد .

•

الى الغرب من بلدة فيلاديلفيا يقع مرج أخضر مُدرّج يدعى « الكومونز » . والى هناك اتخذ توم بين سبيله ليشهد تمرينات الحرس الوطني . وكان يحسب ، قبل ان يشخص إلى المرج ، أصيل ذلك اليوم المشمس الهادىء من ايام الربيع ، انه سيشهد تدريباً لجماعة من الغوغاء . ولكن ما رآه لم يكن غوغاء بحال . بل لم يكن جيشاً ، ولو باعتبار ما سوف يكون . بل لم يكن أيمّا شيء عرفه العالم من قبل ، هذا الحشدُ من الرجال والصبيان والاجراء والصناع ، والموظفين والطـلاب ، والحدادين والطحانين ، والنجارين والحائكين ، والحلاقين ، والطابعين ، والخزافين – رجالٌ في المآزر على ايديهم أثرٌ من حرفهم وصناعاتهم . كان هـؤلاء هم مواطني فيلاديلفيا ، ومع ذلك فلم يكونوا كلّ المواطنين . وفاتـه ان يلحظ الصفة الفارقة ، على الرغم من قيامها . فلم يكن اولئك الرجال عمالاً كلهم ، ولكن كان فيهم أرباب الاعمال والاغنياء ، كما كان

فيهم الاجراء سواء بسواء . وكان ثمة ايضاً صاحب مصرف ، وتاجرا منسوجات ، وصحافي هو توم جافرز الذي كان من الغنى بحيث يستطيع ان لا يعمل شيئاً على الاطلاق ؛ وثلاثة قسس ، ومضارب في بورصة القمح ، وبائـع فراء . وكان ثمة اصحابٌ من الكويكرز ، وهم مسالمون ، ومنهجيون أو ميثوديستز ، ومتطهرون بيوريتان ، ومعمدانيون ، وكـاثوليك ، ومشيخيون أو بريسبيتاريون ، ويهـود ، ومنشقون ولا أدريّون ، وزنادقة ملحدون ، وفوق ذلك كان جماعة من السود الاحرار الى جانب البيض ، وكان نفرٌ من العبيد الزنوج الى جانب مالكي رقّهم .

وتساءل « بين » : ما الذي حرّكهم ؟ ما الذي جمع شملهم ؟

وفي أناة ، طاف توم بالميدان، وقد تسارعت دقات قلبه من التهيج والخوف ، والامل الذي لم يعرف له ضريباً من قبل . وشهدهم يتدربون بأسلحتهم الخاصة ، شهد هذا الجيش الاخرق المتعثّر الخجل الذي كان أول جيشٍ من المواطنين عرفه العالم . وكان افراد هذا الجيش يحملون البنادق العتيقة ، وبنادق الزناد ، والفؤوس والحراب والسيوف القصيرة المحنية ، والسيوف الضيقة النصال ذوات الحدين ، والسيوف المتحفية ذوات المقبضين . أما من لم يوفق الى سلاح يتقلده فقد اجتزأ بالعصا يحملها في جد بالغ . وكان بعضهم ممن يملكون شلناً يستطيعون ان ينفقوه على التبختر قد لبسوا بذلات عسكرية واشتروا صناديق عيارات نارية مكتوباً عليها « الحرية » أو « الموت للطغاة » وغير ذلك من الشعارات . وكان لهذا الجيش ضباطه ، ففريتز فان غورت العجوز البدين كان زعيماً أو كولونيلاً ؛ وكان كل من جيمي غينزواي الضئيل الجسم ويعقوب راست الطحان برتبة كابتن . اما لائحة الضباط فكانت تبلغ الميل طولاً . وكانوا جميعاً يصيحون مصدرين أوامرهم في آن معاً : الى الامام سرْ ، قفْ ، الى الامام سرْ . وكان الرجال يتدافعون ، ويتعثّرون ، ويسقطون على الارض . وكانت بعض البنادق تطلق النار مصادفةً ، وكانت كلها

محشوة طبعاً .

وواصل « بين » طوافه في المرج حيث لم يكن وحده ، إذ اندفع نصف سكان المدينة ليشهدوا الحرس الوطني في تدريبه الاول . كانت النسوة متجمعات عناقيد زاهية ، وقد فتحن مظلاتهن وقاية لأنفسهن من أشعة الشمس ، وكان الاطفال يذرعون المكان جيئة وذهوباً صائحين زاعقين ، وكان الشيوخ يدخنون « بيباتهم » متسائلين ما الذي سيحلّ بالعالم . وكفّ رجال الحرس الوطني الذين رأوا الى زوجاتهم أو حبيباتهم أو اخواتهم ، عن التدرّب ، وأخذوا يلوحون لهن أو يصفرون . وكان السير آرنولد فيتزهيو نقطة الدائرة في حشد المحافظين الذي كان حافلاً بعلب السعوط الفضية . وكان يرسل السخرية المهذبة ، ويطلق بين الفينة والفينة ضحكه عالية كلما بدر من الجنود المواطنين عملٌ من الاعمال البلهاء . وحين اقترب « بين » من حلقتهم ، صاح فيتزهيو في مرح :

— « حسناً ، يا كاتب الحجج والصكوك ، ما رأيك في ثوارنا ؟ »

— « لم أوفق بعد الى التفكير في ذلك . »

— « اسمعوا ما يقول . إنه لم يستطع حتى الآن ان يفكر في الأمر . »

وقال القس بلاين ، وكان من الكويكرز :

— « ألاحظ انك لست معهم ، يا توم . »

— « لا ... »

— « هناك شبهات . »

— « شكوك ، في ما أظن . » قال « بين » ذلك في هدوء ، وهو يحسب انه اذا ما اندفع الان فعندئذ لن يجد سبيلا الى التراجع ، أبد الدهر .

فقال القس نصف حزين ونصف ملتاع :

— « انظر ما الذي حلّ بشبهاتهم . ان ههنا ثمانية عشر من رعيتي .

لقد قال الرب : لا تقتل ، ولكن الفرصة التي تتيح للمرء الاستمتاع بآلام الآخرين يجب إلا تضيّع في يسر . والآن ها هم يسيرون بعصيّهم ، وكأن القُنْية الوحيدة الجديرة بالانسان هي البندقية . »

فقال « بين » في لين :

– « غرب شيء في اميركة هو ان الرجال يملكون بنادق ، وحين يطلقون النار من هذه البنادق ... »

– « لست أفهم ما تقول ... »

فهز « بين » كتفيه وقال :

– « وانا لست أفهم نفسي . »

•

ووفد يعقوب راست على المطبعة وقال :

– « أريد ان تكون في صحبتي ، يا توماس . »

كان رجلاً بديناً قصيراً ذا صوت هادر جليل .

– « نعم ؟ »

– « سوف تكون لنا قوة صغيرة رائعة . »

فحنى توم رأسه وقال :

– « سوف افكّر في ذلك . »

– « وهل هو شيء يحتاج الى تفكير ؟ »

– « نعم . هنالك أشياء كثيرة يتعين على المرء ان يفكر فيها هذه الايام . »

– « انظر ، الآن ، ايها المعلم « بين » . لقد قدمتَ من انكلترة لأشهر خلت . وليس من ريب في ان الناس سوف يتساءلون : أهو مع انكلترة أم مع بنسيلفانيا ؟ أرائحته طيبة ام نتنة ؟ »

فكشر توم وقال :

— « لست ابالي برائحتي . »

— « ولكننا نحن نبالي ! »

— « انا لا أميـــل حيث مالت الريح . أنا اعرف ما ينبغي ان افعله ، او انني اخذت اعرف . ولست أدري ما اذا كنت انت في مثل حالي ، يا راست ؟ لست أدري ما اذا كنتَ تعرف علامَ هذا كله ؟ »

— « اننا ندافع عن حقوقنا كأنكليز أحرار ، وحق الآله ! »

— « صحيح ؟ »

— « ونحن عازمون على ان نقاتل من أجل هذه الحقوق ! »

وهزّ توم كتفيه واعرض بجانبه .

●

ولم يتغير شيء ، بالنسبة الى بعض الناس . لقد قصد « بـين » الى حفلة راقصة احياها جماعة من المستوردين الاثرياء ذوي الميول المحافظة . وإنما دعوه بوصفه ممثلاً لـ « مجلة بنسيلفانيا » ، ولبى هو الدعوة لانـه كان يلتمس اجوبة كثيرة ، اجوبة من مختلف المصادر ، اجوبـــة على شكوكه ، واشواقه ، وصلواته ، واحقاده . وبأربعة جنيهات ، اشترى سترة من الجوخ الاسمر النفيس ، سترة خيراً من أي من السترات التي وضعها على ظهره منذ أبصر النور . وطوق عنقـه بكشكش ، واعتمر بشعر اصطناعي ابيض جديد ، ولبس بنطلوناً جلدياً جيـــداً ، فاذا هو سيد كريم بكل ما في الكلمة من معنى ، يحمل بيده عصا ويضع على رأسه قبعة مثلثة الزوايا ، واذا هو يفد ، بدعوة من النخبة المختارة ، على ذلك الحفل الارستقراطي فيدخل قاعة تضيئها اربعمئة شمعة ، فلا يكاد أحد الارقاء الزنوج يرى اليه حتى يصرخ في صوت عـذب : « مستر توماس بين ! »

أربعمئة شمعة ، تضاءل امامها اشراق السماء في احسن احوالها . وكان الخدم السود يروحون ويغدون بأطباق فضية وآنية شراب فضية ، وبرواب من ضروب الكعك والحلوى الفاخرة ، وبلحم بارد من اثني عشر صنفاً مختلفاً من صنوف الطرائد ، وفيض من خمور « الكلاريت » و « الماديرا » و « البورت » كاف لجعل الاسطول البريطاني يطفو ويعوم . وكانت النسوة يرفلن بفساطين ثقيلة مقصبة بالذهب والفضة ، وكان الرجال يزهون بالوشي والأطلس والمخمل ، وكان هو توم بين ، وكان يُسأل رأيه في كل شيء .

— « مسألة لاكسينغتون هذه — طبعاً إنها عمل جماعة من رعاع الريفيين ، ولكن هنا في البلدة ، هل رأيتم الشحاذين وهم يتدربون عسكرياً ؟ »

وكانوا جميعاً قد رحلوا الى اوروبة في وقت أو في آخر .

— « وبالنسبة الى من قُدّر له ان يرى حرس الملك ! »

— « ولكنّ ، مستر بين ، ما قول الصحفي في ذلك ، أعني الرجل الذي يحمل رأساً فوق كتفيه ؟ »

— « لست اتصوّر ثورة — لست اتصور شيئاً اكثر من الجلبة والصياح. »

ولم يقل مستر بين شيئاً ما ، عملياً .

— « إنها لا تساعد التجارة . »

— « تساعدها ، من ناحية ثانية . يروّع الناس ، فيقبلون على الشراء كالمجانين . »

— « إني اطالع مجلتك في ايمان ، يا مستر بين ، » كذلك قالت امرأة شابة حسنة البزّة ، مليحة الوجه ، وهي ترنو اليه ، اليه هو ، توم بين صانع المشدات ، في كثير من الاعجاب . « اني اقرأ قصائدك . واحسب انها جميلة ، وان الرجل الذي ينظم الشعر لا بدّ ان يكون ذا روح ، ألست تظنّ ذلك ؟ . »

— « انا احسب ان كثيراً من الناس لهم ارواح. »

– « حقاً ؟ أليس ذلك شيئاً بارعاً الى حد مخيف ؟ انا لا استطيع ان اقول اشياء بارعة ، ولكن ذلك بارع الى حد مخيف . »

واحتسيا كؤوس الخمر ، وأكلا أقراص الحلوى ، وتمشّيا في الحدائق . كان ثمة قمر ونجوم . واخيراً قالت له انها لا تقضي العجب بسببٍ من عدم زواجه قطّ .

– « لقد تزوجت يوماً . »

وبعد لحظة أو نحوها اخبرها أن امرأته توفيت .

– « ايّ مأساة فظيعة ! »

– « أجل . »

– « ولكن ألا تعتقد انها جعلت منك رجلاً افضل وأرحب افقاً ، يا مستر بين ؟ »

– « ماذا ؟ »

– « انت لا تصغي اليّ ، البتة ، يا مستر بين . »

فقال :

– « انا آسف . ماذا كنت تقولين ؟ »

•

وكتب مقالاً للمجلة بعنوان « تأملات في الالقاب » . ولكنه مُنع من نشره . ومرةً بعد مرة قال في ذات نفسه :

– « ما يحلّ بي ليس بذي بال . يجب ان اكتب كما افكر واعرف واؤمن ، وهكذا سوف يصغي الناس . يجب ان يصغوا . »

واختصم مع ايتكن . ذلك أن « تأملات في الألقاب » طعنت على الطبقة المترفة ذات الامتياز ، وكان طعنها ذاك قاسياً . إن « بين » لم

يكن واحداً من الغوغاء ، أو واحداً من رجال الحرس المتدربين في مرج « الكومونز » ، بل لم يكن عضواً في حزب المؤتمر . كان يتلمّس سبيله ، وحيداً ، في الظلام ، وكان يبحث في يأس ، واحياناً في توحش ، عن اتجاه يمضي فيه . لقد كانت حياته قبل اليوم سلسلة من الاخفاق موصولة الحلقات ، فيتعين عليه ان لا يخفق اليوم ابداً .

وقال ايتكن :

— « لا تنشُرْ هذا المقال . »

— « ولكني سأنشره ! »

— « إذن تنفصل عني ! »

فقال توم :

« اذا أردت ان تسرّحني ، فافعل : انا لا أحب أنصاف الاجراءات » .

وغدا كلامه مقنعاً .

— « توماس ، ألم نستطع دائماً ان نتفاهم على جميع الامور بصرف النظر عن الحجج والمناقشات ؟ »

— « نعم ؟ »

— « ولماذا تصرّ على إثارة حساء الثورة ذاك ، اللعين ؟ »

— « هل أطبع المقالة ؟ »

— « إطبعها وعليك اللعنة . إطبعها وإني انذرك ! »

وهز « بين » كتفه . لقد أُنذر قبل اليوم . فهو بعد لا يبالي . انه لم ينقطع عن العمل في « مجلة بنسيلفانيا » ، ولقد وفق اخيراً الى ان يقذفها الى ما وراء السياج ويخضعها لأغراضه الخاصة . أما بوصفها جزءاً من حياته فكانت قد انتهت . أيّ شيء سوف يكون الجزء التالي من حياته ؟ لم يكن يدري ، إلا بقدر ما كان يدري ايّ شيء سوف يقع ههنا في اميركة .

وفي الخامس من نوار رجع بنجمان فرانكلين الى اميركة ، بعد ان

انتهت مهمته في اوروبة من غير ان تثمر جميع السنوات الـتي قضاها هناك ، أيما إثمار من وجهة النظر السياسية . كان رجلاً شيخاً يعود الى بلاد تغلي غلياناً . ولقد نزل في « ماركت ستريت » ضيفاً على آل باتش، وهناك حاول توم بين ، بعد بضعة ايام ، ان يراه . وخصص فرانكلين نصف ساعة ليس غير ، للاجتماع بـ « بين » .

كانت ثمة خطوط كثيرة يتعين عليه شدّها في اميركة ، كثيرة الى حدّ يجعل من المتعذر عليه الأيفاء على غايته في فترة قصيرة جداً . ولكنه تذكّر « بين » ، وصافحه ، وقال انه كان يقلّب الطرف في « مجلة بنسيلفانيا » ، وانها جيدة ، وبارعة . وسأله فرانكلين :

— « هل تحب اميركة ؟ »

وحنى « بين » رأسه . كان ثمة اشياء كثيرة يريد ان يقولها ، ومع ذلك فلم يعرف كيف يقولها . وإذ كان قد وقع في نفسه منـذ عهد طويل ان فرانكلين هو أعمق الرجال الـذين عرفهم واحسنهم واكثرهم حكمة ، فقد استشعر الآن خيبة أمل مريرة تكاد تبلغ تخوم العداء .

وقال فرانكلين :

— « لقد وجدتَ ذاتك . »

وخطر لـ « بين » ان ذلك شيء مبتذل ، بل شيء ابله . انه لم يجد شيئاً . وسأل فرانكلين :

— « ما الذي سوف يحدث ؟ هل تقع الحرب ؟ »

— « الحرب ؟ اذا كان القتال حرباً ، فنعم . لقد نشب قتالٌ ما ، ولسوف ينشب في المستقبل اكثر من ذلك . »

وسأله « بين » في جرْس يكاد يكون شرساً :

— « ولكن ما نتيجة ذلك ؟ الى اين نحن صائرون ؟ »

وتراءى له ، في الحال ، أن من القسوة البالغة ان يضايق هـذا الرجل العجـوز ، هذا الرجل العجوز المُتعَب كثيراً . وللمرة الاولى

استشعر « بين » في ذات نفسه وحشية عنيفة دافعة . وما كان ينبغي له أن يسأل الى اين المصير . لأنه ، هو نفسه ، كان ماضياً في وجهة واحدة ليس غير ، وكانت هذه الوجهة تتبلور يوماً بعد يوم .

وقال فرانكلين :

–« يجب ان نكون اقوياء. ذلك هو الشيء الرئيسي ، أليس كذلك؟ ومتى تمت لنا القوة الكافية فعندئذ ترى الوزارة وجه الحقّ . ليس ثمة من حاجة الى الحرب ، ولم يكن قط أيما حاجة اليها . الحرب خبيثة.»

وفكّر « بين » في ما بينه وبين نفسه :

– « كما يقول المرء ان الملح مالح . »

ومضى فرانكلين في حديثه :

– « نحن نطالب بحقوقنا . نطالب بحرياتنا ، بحقنا في ان نحيا حياةً كاملةً صالحةً – ذلك ما يُنشيء الرجال الصالحين : أن يُتساح لهم العمل ، وتوفير شلن بعد شلن ، وأن يكون لهم ارض يعيشون عليها وسقف يستظلّون به . نحن لسنا مِلكاً لأنكلترة لا يُستغنى عنه . يجب ان يدركوا أن المشاركة والمصالحة ... »

وسأله « بين » :

– « والاستقلال ؟ »

– « وهل نريد ذلك ؟ »

فقال « بين » متعباً :

–« لست أدري . عندما كنتُ صبياً صغيراً أحسست، حتى في ذلك الحين ، ان بعض الاشيـاء يجب أن لا تكون . وعندما تقبّل سائر الناس تلك الاشياء حسبت انني معتوه ، أنّ الشيطان راكب على كتفيّ. هل تستطيع أن تبني شيئاً صالحاً على اساس فاسد ؟ »

–« الشيوخ لا يعملون الثورات . »

فقال « بين » :

– « يا الـّهي . أنت لست شيخـاً يا سيدي ! لقد رددت عليّ شبابي ! »

•

وفي الاسبوع التالي عقـِد مؤتمر قارّي جديد في فيلادلفيا :

ومرةً ثانية تدفق الرجال من جميع المستعمرات على فيلادلفيا . وقام رجال الحرس الوطني بعرض عسكري ، ورحبوا بالوافدين ورحبوا، وكأنما يريدون ان يقيموا الدليل على ان تدريبهم لم يكن لغير ما هدف. وطوّفوا في الشوارع حتى تقرحت أقدامهم ، في حين شكّل الميسورون منهم فرقة فرسان وانطلقـوا لاستقبال المندوبين . وقال بعض الرجال لبعض :

–« من كان يظن أننا سنحيا لنرى ميناء بوسطن يحاصره البريطانيون، والكونغرس يعود فينعقد في البلدة ، وبنجمان فرانكلين العجوز لا يزال حياً وقد رجع الى هنا ثانية ! »

وكان قد رجع ايضاً كل من سام وجـون آدمز ، وراندولف الفيرجيني ، وجيفرسون وكان معه هذه المرة فيرجينيّ آخر ضخم الجثة يرتدي ، شأن ممثلي المسرح ، سترةً عسكرية فخمةً برتقالية وزرقاء . وكان ذلك الرجل هو زعيم (كولونيل) الحرس الوطني الفيرجيني ، ولم يكن وجهه مألوفاً في فيلادلفيا . كان اسمه واشنطون . وكان يمشي بخطوات واسعة رخوة ، ولا يكاد يفتح فمه البتة ، فهو حييّ، أو لعله أبله . وقدّمه توم جيفرسون الشابّ الى « بين » بقوله :

– « الكولونيل جورج واشنطون ، من فيرجينيا . »

ورمقه « بين » بنظر شَزْر .

– « انا سعيدٌ بلقائك يا سيدي . أحد المندوبين ؟ »

فقال « بين » وكأنما يريد ان يبرّر نفسه :

– « أنا كاتب . انا محرر مجلة بنسيلفانيا . »

– « اجل ، طبعاً . » قال واشنطون ذلك ، ولكن كان واضحاً أنه لم يقرأ ، في يوم ، « مجلة بنسيلفانيا » . ووقف صامتاً ، ناظراً الى « بين » ، وكأنما عجز عن ان يفكّر في شيء يقوله . وبعد ذلك اوضح جيفرسون في لهجة اعتذارية :

– « لعله اغنى رجل في اميركة ، ولكنه قليل الثروة النقدية مثل كثير منا نحن الفيرجينيين . انه ليس بارعاً ، ولكن له فؤاداً جريئاً . »

– « يريد ان يحارب وليس يتحدث عن ذلك . ان الناس ليتحدثون كثيراً . »

– « وما الذي جعلك تظن انه يريد ان يحارب ؟ »

– « السترة العسكرية . انه ليس مهرّجاً . »

فقال جيفرسون :

– « انا لم انظر الى المسألة من هذه الزاوية . إنه لغز بالنسبة اليّ . »

وقضى توم يومين في غرفته يناضل من أجل صَوْغ ما كان يعتقده في كلمات يخطهـــا على الورق . ثم انه قصد ليسمع البيان الذي وجهه المؤتمر الى العالم معلناً فيه ان الاميركيين قد امتشقوا الحسام للدفاع عن أرواحهم وممتلكاتهم . ثم انه احتسى الجعة مع سام آدمز ، ومايكال كلوسكي ، البولندي المُبْعَد عن بلاده . وكان آدمز هائجاً هيـــاجاً عنيفاً ، وكان ثائراً على كل تسوية . واذ عرف انه مزدرىً من رجال الكونغرس جميعاً ، بل ومن ابن عمه جون ، فقد انقلب الى هذين الرجلين اللذين تميّز عنفهما ، وإن لم يكن واضحاً ، بأنه يتخذ على الأقل اتجاهات غريبة .

وبعد أن أصغى « بين » نصف ساعة الى شكوى آدمز ، قال في هدوء :

ـ« أنت تعرف ما لستَ تريده. تلك فوضى ليس غير . ما الاشياء الايجابية ؟ هناك نارٌ تشتعل في مواطن كثيرة من هذه البلاد ، ولكنْ ماذا تعني النار ؟ »

ـ « انها لم تعنِ شيئاً ، » كذلك قال البولندي . لقد حدث الشيء نفسه في بلادِهِ . هل كانت هذه هي المرة الاولى التي يرفع فيها الرجل العادي رأسه ليثور ؟ ومع ذلك فقد كانت تلك الانتفاضات تنتهي دائماً الى لا شيء .

فقال « بين ».

ـ« أنصاف الاجراءات . والواقفون موقف المتفرج : والقـــائلون : سوف نسير الى هذا الحد لا الى أبعد . تلك هي العلّة ... »

ـ « الى اي حدّ سوف تسير ؟ » كذلك تساءل آدمز ، وهو يحدّق في فضول الى صانع المشدات البريطاني ،الى ذلك الرجل العريض، المهمَل ، المعقـــوف الأنف ، ذي اليدين الريفيتين الشبيهتين بألواح الخشب .

فقال « بين » في لين :

ـ « الطريقَ كلها . »

وكشّر آدمز ـ وكان سكران بعض الشيء،وقد اخذ وجهه المغطى بالتبن يترنح في ضوء الشمعة بينهما ـ مثلَ عفريت صغير ، وتساءل كم يبلغ طول الطريق كلها ؟

ـ « اريد عالماً جديداً ! »

فقال آدمز :

ـ « مدينة فاضلة ؟ »

ـ « لعنها الله . لا ! اريد ما عندنا هنا . اريد طريقة في الحياة، طريقة تتيح للاطفال ان يبتسموا . بعضَ الحرية . وأملاً للمستقبل . رجالاً ذوي حقوق ، ومحاكم لائقة ، وقوانين لائقة . اريد رجالاً غير

خائفين من الفقر ، ونساءً غير خائفات من الولادة ... »

وضجّ البولنـــدي بالضحك ، ولكنّ وجه آدمز علتْه ، فجأة ، سيما من الجدّ . وقال :

— « استقلال . »

فأقره « بين » على ذلك قائلاً :

— « كبداءة . »

وأخذه النعاس فجأة ، واستشعر التعب قبل المباشرة في العمل ، لا بعدهـــا ، وقد رأى الى حياته كلها منظمة مخيفة في وضوحها . لقد زايله الآن ، تقريباً ، ذلك الشك الذي تكوّن في كثير من البطء والألم . فهو يعرف بعض الاجوبة ، وإنه لخليق بأن يعرف ، عما قليل ، سائرها .

الفصل السادس

كيف ألّف توم بين كتيّباً

وكان فراقه لأيتكن وديعاً على نحو يثير العجب. وللمرة الاولى ادرك «بين» ان هذا الرجل الاسكتلندي يكنّ له بعض الاحترام ، والودّ . والواقع ان ايتكن الذي اعتبره «بين» مجرداً من العاطفة بأقصى ما يمكن الانسان ان يتجرد من العاطفة هزّ رأسه في عناد ، وعجزّ بادىء الأمر ، وهو يمدّ الى «بين» يداً مصافحة ، عن ان يقول كلمة البتة . وعرف «بين» ان هلاك «مجلة بنسيلفانيا» الوشيك لم يكن وحده السبب في انفعاله. فقد قضي على تلك النشرة بالهلاك ، لا لفقدانها محرّرهـا وحسب ، ولكن لأن البركان الثائر في المستعمرات كان قد جعلها أثراً قديماً من عهد لا يذكره الناس إلا ذكرى غامضة . فقد كانت هذه البلاد الآمنة التي جازت الأيام من غير ان تبدو عليها أمارات تغيّر واضح ــ شأن البلدان دائماً حتى حين يأخذ العالم في الاحتراق ــ تغلي داخلياً وتفور وتعدّ العدة للانفجار . وتراءى لـ «بين» ان ايتكن عرف ذلك ، لا بوصفه من أنصار حزب المحافظين ، ولا بوصفه ثائراً من الثائرين ،

ولكن بوصفه رجلاً اذا فقد السلامة والأمن فقد آخر سبب من الاسباب التي تبرر حياته .

وأشفق عليه «بين» ورثى له .

وسأله ايتكن :

— « ألا تغير رأيك ؟»

ولم تكن هذه هي المسألة كما عرف «بين» . إن جنيهاً في الاسبوع لراتبٌ حسنٌ يكفل لـ «بين» حياة رغدة مرفهة . ولقد مكّنه بالاضافة الى ما كتبه من مقالات للمجلات الأخرى من ان يدّخر عشرين جنيهاً يستطيع ان يفزع اليها في الملمات . ولعل من الجنون ان يتخلى عن مثل هذا الراتب ، خاصة وان الطريق التي اختطّها لنفسه كانت مبهمة جداً .

وألحّ ايتكن :

— « إنه رزقك.»

— « لا ، انا لست آسفاً . »

— « فكّر ملياً يا توماس . سوف يخدعك المخبولون . ثم إنه عمل يتنافى والروح المسيحية ، يا توماس . دع كل شيء على حاله . »

حتى اذا وجد الاسكتلندي أنه لن يقدر على إقناعه ، قال في خشونة :

— « انت لن تحمل اية ضغينة عليّ ، يا توماس؟»

— « وما الذي يجعلني احمل ضغينةً ما ؟ »

— « هناك رجالٌ اخسّاء ، ورجالٌ لطفاء، ولكنك لا تنتسب الى اي من هاتين الطبقتين ، يا توماس . »

فقال «بين» :

— « انا لم أحمل يوماً ضغينةً على احد ، إلا نفسي ! »

●

واكتسبه توم جيفرسون — وكان فارع الطول ، هزيلاً بهي الطلعة بقدر ما كان «بين» بشعاً — قلباً وروحاً . وكان جيفرسون نبيلاً من

النبلاء في ذاكرة «بين» التي ضاقت بتقسيم الاشياء تقسيماً حاداً في انكلترة ، فكان طبيعياً ان يشعر صانع المشدات الثيتفوردي نحوه اول ما يشعر ، بعداء نكد . وكان جيفرسون انيقاً حلو الشمائل ، متناسق الاعضاء ، اريباً ، بارعاً — وهي صفات كانت كلها تعوز «بين» — وقد رأى في اتصالاته الأولى به انه كان يبتغي عطف المجلة ليس غير . وصبّ الحقد الذي في نفسه حامضاً على جيفرسون . وإذ قد أعجب بالرجل وأخذت تعروه هزة الفرح إذا ما حنى له رأسه ، فقد كان رد الفعل الخارجي عند «بين» قاصراً على السعي من اجل تحويل الرجل الفيرجيني الى عدوّ لدود . ولكن جيفرسون ما كان ليُحَوَّل الى عدوّ . والله وحده يعلم ما الذي وجده في صانع المشدات الجلف الذي يعشّش القذر تحت اظافر يديه . ولكن ايّاً كان ذلك فقد تاق اعظم التوق الى ان يلتمس الرجلَ تحت تلك القشرة الصلبة . وتظاهر بأنه لم ير ما يرمي اليه «بين» في ملاحظته القارصة ، وعامله على اساس من المساواة الرحبة ، فاذا بتحفظ «بين» يتلاشى شيئاً بعد شيء . واذ كان جيفرسون من اعضاء الكونغرس المُقَدَّمين فقد عرف كل شيء ، واتصل بكل انسان ، وكان قادراً على ان يمهد السبيل امام «بين» تمهيداً كثيراً . كان اصغر من «بين» ببضع سنوات ، وكان يجمع الشباب الى النضج على نحو بدا لـ «بين» على الاقل ساحراً الى حدّ بعيد .

وكان «بين» يبتهج بمشاركته ركوة من قهوة ، ويجد متعة بالغة في تناول طعام الغداء معه . وكان اذا امضى سهرةً معه الى جانب نار الشتاء يشرق وجهه بسعادة دافئة لم يعرفها قط من قبل . وفي تبصّر وتأنٍّ استقى جيفرسون منه اقصى ما يستطيع رجل أن يستقيه عن قصة حياته . وكانت له براعة مذهلة في التقاط الذكريات المختلطة وتصنيفها واستخراج ما تنطوي عليه من مغزى . ولقد قال لـ «بين» ذات يوم :

— «كل هذا، على علاته، مع القذر، والحرمان ، والبؤس، وشراب

الـ «جن» ، واليأس الذي كان يغلّف حياتك وحياة المحيطين بك — كل هذا وحده برغم فظاعته كان يمكن ان يُحتمل ...»

وظلت الجملة معلّقة في الهواء ، وَجهِد «بين» لاستكناه ما الذي كان يرمي اليه بقوله ذاك .

وقال جيفرسون :

— « الفقر درجات . ولقد رأيت هنا في اميركة أناساً كان فقرهم كاملاً ومطلقاً ، ومع ذلك فقد احتملوا .. »

فقال «بين» :

— « الكرامة. »

— « اجل ، الكرامة . »

وفكّر «بين» :

— « إذن، فهذا كل ما نحيا من اجله . اذا كان للحياة الانسانية ايّ معنى فهو هناك ، في كرامة الكائن البشري . »

— « احسب ذلك . »

— « انا لم ادرك ذلك قط من قبل . لقد بدأت احس به هنا . ولكني لم اعرف الا بعد تحدُّثنا الليلة في ذلك . وهو صحيح برغم هذا. فطوال عشرة آلاف سنة أفسِد الناس بسببٍ من حرمانهم كرامتهم . وعندما توفيت زوجتي وتدفق الجيران علينا لينظروا الى جسدها الحقير المتعب الذي كانت انتفاضته الشريرة الصغيرة الشيء المهيج الوحيد في حياتهم ، وقد حمل كل منهم قليلاً من الطعام ضماناً للدخول — عندما وقع ذلك لم استطع ان افكر ، ساعدني الله ، الا في ما ينطوي عليه ذلك المشهد من هزل مُغرق . واذا كنا قد خُلقنا على صورة الآلة فما اعظم الفساد الذي انتهت اليه تلك الصورة ! »

وفي مناسبة اخرى دعا جيفرسون صديقه توم بين الى وليمة صغيرة اقامها لجورج واشنطون . وقد دُعي الى هذه الوليمة راندولف ايضاً ،

فرفض «بين» تلبية الدعوة باديء الامر . لقد غلب عليه الروع . وتفصيل ذلك انه كان يقدر صلته بجيفرسون قدْراً عظيماً ، وقد خشي ان يسخر منه في حضرة الرجلين الفيرجينيين اللذين كانت ثقافتهما ، ووجاهتهما ، وثروتهما تبلغ غاية ليس في ميسور خياله إدراكها . لقد سمع كثيراً عن «مونت فيرنون» حيث كان واشنطن يعيش مثل امير اقطاعي كبير ومن حوله حشودٌ من كلاب القنص ، وكتائب من الخيل ، وعدد لا يُحصى من الارقاء السود ، وأنهار من الخمر ، و «الاشراف» يغدون ويروحون في غير ما انقطاع ، وعربة بلغت نفقاتها الفي جنيه . وكذلك سمع اشياء كثيرة عن آل راندولف . فقد كان بعض الاصحاب الكويكريين من ابناء فيلاديلفيا لا يملون من رواية الحكايات عن هؤلاء الثلاثة اللاأدريين الملحدين ، ولم يكن لدى «بين» غير اساس ضئيل لتمييز الصواب من الخطأ . وأيُّ معنى يمكن ان يكون للثورة عنده او عند اي رجل من طبقة العوام اذا كان امثال هؤلاء الرجال هم موجهيها ؟ الم تكن كلها مجرد غطاء بارع لرغبتهم في التحرر من ديكتاتورية سماسرة التبغ البريطانيين ؟ الم يكونوا ، كأفراد طبقتهم جميعاً ، من قسوة الفؤاد بحيث يهرقون خمسة وعشرين الف غالون من الدم البشري لكي يروا الى مزارعهم الكبرى زاهرة ناضرة ؟

ولكنه نزل عند الحاح جيفرسون آخر الامر ، معاهداً نفسه على الاعتصام بصمتٍ نكد . وارتدى افضل بذلاته ، واعتمر بخير ما عنده من شعر مستعار ، ووفد على المأدبة . وأخذه الدهش حين رأى الى الى القوم يصافحونه في حرارة بالغة . لقد عرفوه . لقد قرأوا مجلة بنسيلفانيا ، حتى واشنطون الذي ظنّ «بين» انه ما كان يقرأ شيئاً على الاطلاق : وكانت تعلو محيا بيتون راندولف — وهو اكبر الفيرجينيين الثلاثة سناً — سيما لهفة واستطلاع ، وكان قد تاق الى الاجتماع بـ «بين» كما لم يتق الى اي شيء آخر . ولم يتكلم واشنطون الا قليلا . لقد جلس

وأصاخ ، مسنداً ذقنه الى يده في غير وقت الطعام ، وقد اكبّ وجهه الطويل على ما يُقال من كلام ، وتغضن جبينه بين الفينة والفينة في ظلّ من الانزعاج والضجر لعلّ معظمه لم يكن غير ضيق بقلة فهمه هو للحديث الدائر . والواقع ان جيفرسون تقلد زمام الحديث ونهض بالعبء الاكبر من الكلام . ولاحظ «بين» ان واشنطون كان اكثر الاربعة اسرافاً في الشراب ، وأقلهم تأثراً بما قد شرب .

وعبث جيفرسون بفكرة الاستقلال . لقد شاقته كمفهوم عقلي لما تحفل به من امكانيات مذهلة لا حدّ لها . ولكن طريقته في معالجتها كانت موضوعية خالصة ، وقد رأى « بين » انه كان يعتبرها حلماً من الاحلام ليس غير . وحين شبه حال الفريقين المتنازعين بحال ولد يُكرهه ابوه على مبارحة المنزل ، وكان الولد في التشبيه يرمز الى المستعمرات والاب يرمز الى انكلترة ، تبسم واشنطون ، فبدت أسنانه الرديئة ، وقال :

— « ولكنه يظل فرداً من الاسرة . »

— « اسمياً فقط . »

— « ومع ذلك فنحن انكليز . صحيح اننا فيرجينيون ، ولكننا انكليز على اية حال . » وحنى رأسه لـ « بين » ، فقد كانت اقليميتهم مهذبة بقدر ما كانت ضيقة .

فصاح راندولف بفروغ صبر :

— « أوه ، ولكننا في حالة حرب . لماذا لا يدرك الناس ذلك ؟ »

— « من اجل حقوقنا . »

— « حقوق ! حقوق ! ما هي الحقوق ؟ أين تبدأ واين تنتهي ؟ »

وضحك جيفرسون وقال :

— « ما رأيك بالحقوق يا مستر بين ؟ »

— « أحسب انه ليس ثمة شيء مثل هذا . انا أعتقد ان الاشياء كلها

هي ، بحق الولادة ، ملكٌ لجميع النـــاس . أنت تستطيع ان تنتزع الحقوق ، ولكنك لا تستطيع ان تعطي ما هو ملك للناس جميعاً . »

فسأله راندولف :

– « أليس عندك استثناء ، يا مستر بين ؟ »

– « مطلقاً ! »

– « واذن فسوف تُصلح انكلترة واميركة على حد سواء ؟ »

– « ليس اصلاحاً ان يطالب الناس باسترداد شيء هو ملكٌ لهم . »

– « ولكن هذا خطير . انت تبدو متعطشاً الى الدم ، يا مستر بين . »

فقال « بين » في اناة :

– « انا اكره الحرب . انها اسوأ الطرق لابقاء الانسان في هوة الاحتقار ، ولتحويله الى وحش ضار . لست اكره شيئاً على الارض اكثر من الحرب . »

•

ولم يدهش « بين » عندما اختار الكونغرس جورج واشنطون قائـــداً عاماً لجماعة المزارعين اليانكيين المرابطين كالذئاب الجائعة حول بوسطن . لقد كان في ذلك الفيرجيني الطويل الجافّ الوجه شيء يجعل الناس يثقون به ، « كما يثقون دائماً بالبلاهة » على حدّ قول الظرفاء في فيلاديلفيا . ولكن « بين » لم يكن متأكداً من ذلك . ويوم جاب واشنطون الشوارع على صهوة جواده وحياه الناس تحيات صارخة ، وقف « بين » وسط الحشد وحاول ان يفهم أيّ قوة بليدة غريبـة كانت قادرة ، في ذلك الرجل ، على انتزاع الاعجاب من هؤلاء المخبولين الهاتفين بأعلى الصوت؟

وعلى الرغم من ان حالة من الحرب الحقيقية كانت قد اخذت في النشوء ذلك الصيف من عـــام ١٧٧٥ فان شعب فيلاديلفيا لم يستطع ان يأخذها اخذاً جدياً كاملاً . فمن ناحية ، كانت ماساتشوستس نائية جداً ،

ومن ناحية ثانية كانت الاحوال التجارية حسنة . وحتّى حــين وردت الانباء الى البلدة بأن معركة فظيعة نشبت في بوسطن عنـد موقع يدعى « تلّ بنْريد » ، وان القتلى من الجنود البريطانيين منطرحون كالخنازير في أحد المسالخ ، لم يبدُ الأمر حقيقياً جداً في أعين الشعب الفيلاديلفي . وبعد ذلك الاندفاع الأوّلي المتحمّس انحسرت موجة التطوّع في الحرس الوطني انحساراً كبيراً . وأنشأ المجّان يرسمون صوراً كاريكاتورية تسخر من المتطوعة . وانتهت التدريبات العسكرية الى ان تصبـح مسألة مهملة يعوزها النظام . واخذ الجنود يحقدون على ضباطهم ، وبدت فكرة إنشاء جيش من المواطنين وكأنها تتداعى الى السقوط في وقت قريب .

وقضى توم بين هذه الايام الأولى من الصيف في كسل وتبطّـل . كان في جيبه ، لأول مرة في الحياة ، مقدار من المال يكفيه . فالمأوى الذي ينزل فيه لم يكن يكلفه إلا قليلاً ، وان بضعة شلنات في اليوم لتفي بحاجاته كلها أو تزيد . وكانت شهرته الـتي كسبها من عمله في « مجلة بنسيلفانيا » تتيح له أن يبيع مقالة لهذه الصحيفة ومقالة لتلك ، وقد غدا بعد تحرّره من القيود التي فرضها إيتكن عليـه قادراً على ان يكتب بأسرع من ذي قبل ، واقوى من ذي قبل ، واحسن من ذي قبل . وفي هذه الفترة قرأ « بين » كثيراً ، وتحدث كثيراً ، وتعوّد القيامَ بنزهاتٍ طويلة هائمة على ضفة النهر . لقد فتنَهُ ريف بنسيلفانيا ، الذي يشبه الريف الانكليزي كثيراً ، ومع ذلك فهو مختلف عنه ، فكان يهيم بين كثبانه ، حتّى اذا أدركه الليـــل بات في بيت حجري يملكه مزارع هولندي وأشعل غليونه ، وراح يحتسي جعةً طيبة بيتية الصنع ، ويجادل في كل شيء ، من محصول الحنطة ، الى الحكومة . ومع العمال ، كان توم قادراً على ان يُسقط الكلفة ، فاذا به وهو الذي كان الكلام الجيد لا ينقاد له إلا في عسر بالغ ، يخوض في يسرٍ عبـــاب اللهجة الممطوطة الدارجة في ريف بنسيلفانيا .

وذات يوم استبدّ به الغيظ والتعب فتسلّق سياجاً ووثب الى احدى المزارع حيث وجد فتاة مرحة جميلة الشعر في العشرين او الحادية والعشرين من عمرها تستخرج الزبدة بالممخضة ، فسألها « بين » :

— « هل استطيع ان أحصل على شيء من مخيض اللبن ؟ »

فصبّت له قليلاً في كوز خشبي ، وراحت تضحك اذ رأت اللبن يسيل من زوايا فمه على نحو غريب . ثم قالت :

— « آه ، انت عطشان . »

— « هل استطيع ان أدفع اليكِ الثمن ؟ »

وضحكت كرةً ثانية وسألته ما اذا كان مقبلاً من فيلاديلفيا .

— « أجل من فيلاديلفيا » ، قالها في زهو اذ كان طوال الطريق التي اجتازها لا يقلّ عن اثني عشر ميلاً . وكان قد تذوّق ههنا ، في اميركة فقط ، متعة السير وبهجته .

— « انت لا تبدو كالمشّائين . »

— « لا . »

— « ماذا تعمل ؟ »

واخبرها انه كاتبٌ ، فابتسمت ابتسامةً ساخرة وكأن كلمة « الكاتب » كانت أغرب ما وقع لها في حياتها كلها . ثم انها انصرفت عنه ، في مثل اليسر والطبَعية المقبولة اللذين تعرّفت بهما اليه ، وانهمكت في صنع الزبدة وكأن « بين » غير موجود البتة ، رافعة القشدة البيضاء الغنية من الممخضة ، مقولبةً إياها كالطين بين يديها القويتين النمشتين . واستلقى « بين » وقد عاوده النشاط في ظل احـدى الاشجار ، وراح يكحّل الطرف بالاشكال الرائعة التي خلعتها الشمس واوراق الشجر على ثيابه المغبرة ، باسطاً رجليه ، شارباً لبنه ، مراقباً الفتاة وهي تضرب الزبدة على اللوح الخشبيّ . وكانت المزرعة مزدهرة من غير شك ، فالبيت الحجريّ مربّع وطيد كأنه القلعة ، والعنبر نصفه من حجر ونصفه من

خشب ، وقد برزت من تحت افاريز سطحه عوارض قوية . لقد اتموا تجفيف العشبِ الاولَ ، فهو مركومٌ اكواماً ضخمة في الحقول ، وقد بدا من خلفه القمح والشوفان وكأنهما لا يستطيعان ان ينبثقا من بطن الارض بالسرعة المطلوبة . وكان ثمة زريبة ملأى بالخنازير ، وكان الدجاج يعدو طلقاً ولغير ما غاية . وفي الحقول الواقعة على بُعد نصف ميل أو نحو ذلكَ كان رجلان يسوقان فداناً من البقر . وكان ركام ضخمٌ من الدخان ينطلق من المدخنة مؤذناً بأن الاعمال ناشطة في الداخل .

حتى اذا انتهت الفتاة من عمل الزبدة ، رفعت اللوح الخشبي بذراعيها وقالت لـ «بين» في شيء من الخجل :

— «تفضل اذا شئت .»

ولم يستطع إلا ان يتبعها الى مطبخ طويل منخفض السقف حيث كانت امرأة اخرى ، هي امّ الفتاة في ما يبدو ، تعجن شيئاً من الطحين .

وفي ناحية من المطبخ كان موقدٌ ضخم يبلغ طوله ثمانية اقدام ، ويحيط به من كلا جانبيه فرنٌ هولندي . وكانت أرضِ المطبخ مفروشة بالآجر الاحمر ، وكانت نظيفة الى حدّ يغري المرء بأن يأكل عليها . وفي الوسط ، كانت تمتد طاولة طويلة ذات «جحشين» من جِحاش النجارين . وكان الى جانب الموقد مقعدان خشبيان ، وخزانة عريضة لأدوات المائدة مثقلة الى حدّ الخطران بالآنية النحاسية والخزفية . وكان ثمة الى هذا كله عددٌ من الكراسي المستقيمة . أما السقف فكان مكسوّاً بأدخنة لحم الخنزير ولحم الآيّل والبقر المقدد . ومن فوق أحد المقعدين الخشبيين تطلّع أربعة اطفال ذوي شعر ناعم — ثلاثة صبيان وبنت — الى توم بين في فضول شديد ، ولكنه صامت .

وقالت الفتاة :

— «ماما ، هذا رجلٌ كاتبٌ ، قطع المسافة من فيلاديلفيا مشياً على قدميه .»

وانحنى « بين » وقال :

— « اسمي توماس بين ، يا سيدتي . كنت اشكو القيظ والظمأ ، ولقد تكرّمت ابنتك عليّ فاعطتني كوباً من مخيض اللبن . »

— « ان عندنا كثيراً منه . » قالت المرأة ذلك وابتسمت ، من غير ان تفارق عملها . كانت في خريف العمر. ولكنها عريضة المنكبين قوية . وكانت رافعة ردنيها بحيث بدت ذراعاها العبلتان وقد غشاهما الطحين حتى المرفقين . وكان وجهها متغضناً من الاجهاد ، عذْباً في ملامحه الضخمة النظامية . ثم اردفت :

— « اسم عائلتنا رامبل . وهذه سارة . »

ثم انها أشارت الى الاولاد وسمّتهم باسمائهم:

— « افرايم . جدعون . صموئيل . »

اما البنت الصغيرة فكان اسمها راشيل . ثم انها انصرفت الى عملها ، واستراح « بين » في احدى الزوايا الباردة بعض الشيء .

وعند الظهر ، مُدت المائدة الطويلة ، ورجع المزارع يعقوب رامبل وأجيره من العمل ، وصافح « بين » وجلس الى المائدة . واوضحوا له من غير ما كلام ، انه مدعوٌ الى تناول الطعام معهم . ولم تكن به رغبةٌ في مغـــادرة المكان . وأعدت سارة مكاناً له الى جانب ابيها . وحين نظرت اليه التمع في عينيها وميض ، واستشعر « بين » حيناً بعد آخر أنها كانت تسخر منه . وتراكض الاولاد الى المائدة ، غير محوّلين انظارهم عن « بين » البتة . واخيراً قال المزارع ، وكان يدير الاسم ، منذ برهة ، في ذهنه :

—« كنت تشتغل في مجلة بنسيلفانيا ، أليس كذلك ؟ »

وحنى « بين » رأسه ، وقد سرّه ان يعرفه القوم ههنا .

وقال يعقوب في خشونة :

— « انا لا أؤيدها . »

— « وكذلك انا . »

— « واذاً فلماذا لا تكون من الرجولة بحيث تطّرح قلمك ؟ »

واخبرت سارة اباها ان طعامه قد برد .

— « لقد فعلتُ . »

— « آه ... »

وابتسم « بين » وقال :

— « وهذا ما يجعلني قادراً على ان ازور الريف . »

والتفت المزارع اليه ، فجأة ، وسأله :

— « هل أُخرجت من المجلة أم تركتها بطوعك ؟ »

— « شيء من هذا وشيء من ذاك . »

— « انا اعرف إيتكن . إنه رجلٌ شحيح يطوّق روحه حبل . هو يتذبذب نحو هذه الجهة حيناً ونحو تلك حيناً ، ولكن يعوزه الفؤاد الجريء الذي يمكّنه من الهجوم . هناك كتّاب جيدون ، وكتّاب رديئون يا « بين » . لقد قرأت بن فرانكلين وجيم هول . قرأت ماك كولو وتوم جيفرسون . انا أحب الرجل ذا المرارة . انا أحب الرجل ... »

وقالت سارة في هدوء :

— « لا تُلقِ بالاً الى أبي . »

— « .. الرجل الذي يستطيع ان ينظر الى الشيء ويقول : حق او باطل . الحق حق والباطل باطل . انا لا اؤمن بما يدعونه بينَ بين. وأحسب انني من انصار رجال الثورة ببوسطن . ذلك ان مِلْكي هو مِلْكي ما دمت اجد البارود لبندقيتي ... »

كان رجلاً فارع الطول ، هزيلاً ، اسمر الوجه ، ذا عينين صغيرتين زرقاوين .

وقالت امرأته :

– « انصرف الى طعامك ، يا يعقوب ! »

•

كانت أسرة رامبل خبرةً جديدة ورائعة بالنسبة الى « بين » . فلم يكن في انكلترة شيء مثلها ، وقد كان هو واثقاً من انه لم يكن ثمة شيء مثلها تماماً في أيما بقعة من بقاع الارض . كان يعقوب رامبل ، من حيث الثروة والممتلكات ، أغنى من ايما رجل من تابعـــي الاشراف وأصحاب الاقطاعات في الوطن (انكلترة) ومع ذلك فقد كان يعمل بيديه ؛ وكانت هيستر رامبل ، زوجته ، تقوم بمهمة الطبخ للاسرة الضخمة كلها . انهم لم يكونوا فلاحين ، ومع ذلك فليس في الامكان وضعهم في مرتبة اصحاب الاطيان من المزارعين الانكليز . لقد جلس اجيرهم معهم الى المائدة كواحد منهم ، لا كخادم ، واشترك الاولاد في خدمة البيت وكأنما يجدون متعة في مجرد العمل .

كان يعقوب رامبل يحرث حقوله الخاصة ، ومع ذلك فقـــد كان يقرأ في اثناء الليل لا « مجلة بنسيلفانيا » فحسب ، ولكنْ فولتير وديفو ايضاً . وكان بن فرانكلين هو إلـٰهه ، وصاحب الاثر الفكري الاعظم في حياته . وكان غير قادر على ان يتفلسف الا في لغة العمل . كان يصنع شموعه بنفسه ، وصابونه بنفسه ، وكذلك ثيابه التي كان يُعدّها من كتان أرضه وصوف انعامه . وكانت المزرعة ملكه ولكنّ أخاه الأصغر كان قد عبأ أمتعته في إحدى العجلات ووجّه وجهه شطرَ الغرب الى تلال فينكاسيل المنعزلة . وكان رامبل على مثل اليقين من أن بعض أولاده سوف يخطو الخطوة نفسها في المستقبل . وكانت زوجته تنحدر من اسرة بيوريتانية متطهرة ، ولكنه هو نفسه كان لاأدرياً ملحداً ،

على نحو مُريحٍ ، لا نتيجة لأعمال الذهن ولكن بسبب من ثقته التي لا تعرف الحدود بالكائنات والموجودات . كان هو والآلة يسيّران الأرض في تكافؤ . وكان يعمل ما يراه حقاً ، وكان راضياً بشكوكه. لقد ابغض الاسترقاق ؛ وحرّم على نفسه شرب الشاي على أساس مبدأيّ ، ولكن إعجابه بثائري بوسطن ، الذين اعتبرهم في نواح اخرى جماعة يُعوزها النشاط والتسامح ، ما كان ليُتْرجم الى عمل إلا متى زحف الجنود البريطانيون على ارض بنسيلفانيا . وحين سأله « بين » ما الذي يعتزم أن يفعله عندئذ ، أجاب في غير ما تردد :

– « أحمل بندقيّتي . »

– « والمزرعة ؟ »

– « أحسب أن المزرعة سوف تَعْرُج في سيرها . »

●

ولكن بعد ان زار المزرعة خمس مرات او ست مرات فرّحب به رامبل الذي كان من السذاجة بحيث يعتبر « بين » وجهاً لامعاً في الحياة الفكرية بفيلاديلفيا ، واتصلت اسباب الودّ بينه وبين الأطفال الذين راح يقصّ عليهم حكايات لا تنتهي عن قطاع الطرق وربابنة السفن الجوالة المكلفة ملاحقةَ سفن العدو – بعد ذلك لم يعد في ميسور « بين» أن يتجاهل بينه وبين نفسه ما الذي كان يستاقه الى هناك المرةَ تلو المرة . انه لم يقع في حب سارة ، بالمعنى المألوف من الحب . كان فؤاده جافاً فارغاً ، وكانت ذكرى الفتاة الخادمة التي ماتت في ذلك الكوخ الحقير بـ « مارغايت » لا تزال تثقل عنقه وكأنها الحجر .

ولكن وجوده مع سارة كان مزاجاً من الأمن والطمأنينة ، وضرباً من الحبور لم يعرف له نظيراً من قبل . كان الكسل شيئاً جديداً جداً

بالنسبة اليه . لقد عرف البطالة وعرف الجوع كما عرف الفقر والسُكْر والقذارة وصنوف الحطام البشري الذين ما كانوا يعملون شيئاً لأنه لم يكن عندهم ما يعملونه . ولكن متعة الكسل المحض ، والارتياح العذب الذي يُضفيه العبث في صيف من أصياف بنسيلفانيا ، كانا شيئاً غريباً عنه بمقدار ما كانت هذه الأسرة العجيبة ببيتها الحجريّ ذي الجدران البالغة ثخانتها قدماً واحدة ، غريبةً عنه .

كان يجلس في فناء العنبر ويراقب الفتاة ، أو في المطبخ حيث كان يروي حكايات ما تنتهي للاولاد ولهيستر رامبل سواء بسواء . لقد اكتشف في نفسه موهبة لضرب لطيف من التنكيت ، فهو يستطيع أن يقول أشياء تجعلهم يضحكون . وكان يعمد الى مساعدة سارة ما وجد الى ذلك سبيلاً . وكان ذلك عسراً ، لان قوتها كانت شيئاً مقرراً لا خلاف فيه ، على حين ان كثيراً من الناس كانوا يخطئون تقدير العضلات الريفية المفتولة في كتفي « بين » المنحدرتين . ولكن حمل دلاء الماء وأكياس العلف كان يسمح له بتحقيق مبتغاه بين الفينة والفينة ، ويوقع في نفسه حبوراً غريباً كلما استطاعت قوته ان تنتزع منها ابتسامة اعجاب حاقدة .

وكانت تتكلم قليلاً ، وكأنما كانت على مثل اليقين من انه يعرف مقدار ما تستطيع ان توحيه ببسمة أو بكلمة ، بل بمجرد حركة من رأسها الجميل . وحين قدّم اليها « بين » المؤلف الذي كان منصرفاً الى وضعه ، كان نصف شاكّ ما اذا كانت قادرة على ان تفهم اكثر من جزء منه . وقال لها مرةً :

— « انا اضع كتاباً صغيراً توضيحاً للاشياء . »

— « تعني رجال بوسطن ؟ »

— « هذا وانت . »

وابتسمت ، وحنت رأسها ، ولم تسأله ما الذي عناه بذلك .

وحاول ان يوضح مراده :

– « يخيّل اليّ انني قد عشت لشيء واحد . وهذا الكتاب هو ذلك الشيء الواحد . أريد منه ان يجرف كل شيء من الطريق بحيث يستطيع الرجال والنساء أن يبدأوا حياتهم من جديد . »

وقالت :

– « لست اشك في أن ابـي سوف يجد متعة بالغة في قراءته . »

ولم يتبادلا أيمّا كلمة من كلمات الحب . ولم يطبع على خدها قبلةً ما . فاذا اتفق ان بقي في بعض الامسيات الى ما بعد ايواء الاولاد الى مضاجعهم فعندئذ كانا يتمشيان في الزقاق الضيق بينا يدخن يعقوب غليونـــه في الرواق . كان ثمة قمرٌ ينمو ويذوي خلال الليالي ، وطيور يغازل بعضها بعضاً في ظلمة الليل وتتنافس مع الصراصير ، ونباح كلاب منطلق من مكان بعيد . ومع ذلك فلم يدهش حين سألته في احدى تلك الليالي :

– « هل تفكّر في ان تطلب يدي يا توم ؟ »

ثم أضافت ، وكأنما قد سألها هو سؤالاً :

– « أمي تقول ان بيننا فرقاً كبيراً في السنّ ، ولكني لا أقرّها على ذلك . اني لأحسّ ميلا شديداً نحوك . وأحسب اني أحبك من شغاف قلبي . »

كانت بسيطةً – كذلك قرّر – بسيطة ليس اكثر ، ولكن اندفاع الألم في فؤاده ، الألم اللاذع اليائس ، أنبأه انه لم يرجُ قط في حياته شيئاً اكثر من هذه الفتاة الشقراء . وفجأة غدا حبه لها أو عدمه شيئاً غير مهم . لقد كانت اولَ آماله الطيبة وآخرها . كانت كل ما يجعل الرجل انساناً . وبعدها لن يكون انساناً بحال . بعدها سوف يضطر الى ان يمشي صامتاً ووحيداً .

وتابعا طريقهما لحظة اخرى ، ثم جلسا على سياج حجري وقال لها :

– « لقد تزوجت مرتين من قبل . »

وتطلعت اليه في غير ما تأنيب ، وأنبأها من كانت زوجه الاولى وكيف ماتت .

— « هذا شيء محزن » ، قالت ذلك في غير ما تأنيب ايضاً ، ولكنه أدرك ان الأمر قد قضي ، وأن سارة عادت الى الحياة من جديد مُعتقةً من هذا الجوّابة الغريب المعقوف الأنف . وكان ينبغي له ان يمضي لسبيله عندئذ ، ولكنه أراد ان يخبرها . أراد ان يبرر نفسه حيثما لم يكن التبرير ضرورياً . وروى لها القصة في تردد . كان ذلك بعد تسع سنوات من وفاة زوجه الاولى ، وكان هو في الحضيض ، ولكن ما الذي كانت تعرفه عن الحضيض بصحتها الجيدة وحيويتها الدافقة ؟ لقد حاول أن يحدثها عن الاشياء التي عملها خلال هذه السنوات التسع ، عن الجحيم الذي كانته لندن بالنسبة الى الفقير ، عن توقه الوحشي المكبوت الى الحِرية ، عن الصناعات التي التمس الرزق عن طريقها ، عن المهانة ، والبؤس ، وموجات الأمل القصار التي عرفها يوم بشّر في المروج مع جماعة الميثوديين : « اتركوا الخطيئة وتعالوا الى ذراع الربّ » ثم عن ضياع الأمل ، ودرجات السلّم السفلى ، وأخيراً عن الحضيض ذاته ، عن الحضيض الأوضع ، عن اليأس الكامل حيث لم يكن شيء غير الموت .

وقال :

— « وعندئذ انتشلني ذلك الرجل . كان رجلاً طيباً ، يبيع التبغ في دكان صغيرة ، وكان بالغ الفقر ، ومع ذلك فقد انتشلني . ومثل المسيح ، لم يكن يميز الشرّ من الخير ، ولكنِ الضعيفَ من القويّ ليس غير . ساعدني الله ، لقد كنتُ ضعيفاً ، وكنت مشرفاً على الموت . »

— « ولكن أي قيمة كانت لحياته ؟ » كذلك كان جائزاً ان تقول في ذات نفسها ، بعد ان رأت هذه الصورة الموجزة للجحيم .

وسألها :

– « أكنت مديناً له ؟»

– « أجل . »

– « ثم إنه مات . وكانت له زوجة وبنت . وأردت ان أحيطها بعنايتي فلبثت معها . وعندئذ انطلقت الاقاويل . وإكراماً للأم تزوجت من الفتاة التي لم أكن أحب ... »

وكان في ميسورها ان تفهم ذلك .

وحاول ان يخبرها كيف تضعضعت تجارته ، وكانت صغيرة فقيرة الى أبعد الحدود ، وكيف بدأت زوجته تكرهه ، وكيف سعى لمساعدة الآخرين والقيام ببعض العمل الصالح . وأمست كلماته غير ذات غناء البتة . فلم يستطع ان يخبرها كيف شرعت زوجته تزدريه وتهزأ به ، وكيف هجرته الى الأبد ، أو أن يحدثها عن خوفه المذعور من السجن الذي يُزجُّ في غياهبه المدينون ، وعن فراره آخر الأمر . كان لا يريد أن يجعل من نفسه شيئاً ما ، ولكنه وجد انه كلما تردّى في مهاوي البؤس والضعة ازداد عجز سارة عن الفهم . فقد كانت دنيا الشقاء ، دنيا اليأس الراعب هذه ، غريبة عنها غرابة صحارى مصر . لقد كان البشر في عرفها مزاجاً من لحم ودم ؛ لا من ألم وذعر وتعاسة .

وحين ودّعها عرف انه لن يعود ثانيةً . وفيما كان يمضي لسبيله أتبعَتْهُ نظرَها ، لا سعيدةً ولا حزينةً ، ولكن مفكّرةً كيف انه يريد ان يكتب كتاباً صغيراً يوضح به الاشياء .

●

وكانت الاحوال أكثر هدوءاً في فيلادلفيا . فبعد ان قال اعضاء « الكونغرس القاريّ الثاني » كل ما كان في استطاعتهم ان يقولوه ، غير محققين في الواقـع شيئاً البتة ، ذكروا مزارعهم وممتلكاتهم ،

ومطاحنهم ، ودكاكينهم ، ومعامل التقطير الخاصة بهم ، وانسحبوا من البلدة واحداً إثر واحد ، واثنين إثر اثنين . واتخذ القائد العام الجديد ، الجنرال جورج واشنطون الفيرجيني ، سبيله المتمهّل نحو الشمال ، الى بوسطن ، ليتولى قيادة آلاف اليانكيين الذين كانوا يرابطون آنذاك حول المدينة في ضرب من الحصار . وكانت المعركة الدامية التي عُرفت بعدُ بموقعة « تل بانكر » والتي دُعيت يومها موقعة « تل بريد » لا تزال طرية في أذهان البريطانيين بحيث تحملهم على الزحف في حذر . والواقع ان كلاً من الفريقين كان ينتظر ، الآن ، من عدوه أن يقوم هو بالخطوة التالية .

وفي فيلاديلفيا اقبل الصيف قائظاً بطيئاً . واستشعر الحُصفاء من أصحاب الدكاكين ان في الجو عاصفة جديدة على وشك ان تهبّ ، فجرّدوا نوافذ دكاكينهم من مصاريعها . وعلى الجملة فقد كان أبناء البلدة راضين تمام الرضا لأن الاشياء لمّا تبلغ الذروة .

في تلك الاثناء ظلّ « بين » على أوثق اتصال بالمدينة ، فهو يعيش معها ويجسّ نبضها . ولم يعاود زيارة آل رامبل بعد تلك الليلة الاخيرة ، ومع ذلك فقد استحوذ عليه غرورٌ متجهم بسبب من أن الحادثة لم تدفعه الى الانقلاب على عقبيه . وفي أناة وعسر راح ينشىء من أجزاء حياته المتحطمة القذرة كلها خطة ، وسياقاً ، ومنهجاً . كان راضياً الآن بان يسير وحده . لقد علم اليقين ما الذي يريد ان يعمله ، واستشعر ثقة مشؤومة بأنه كلما تصرم الوقت ازداد ذلك وضوحاً . لقد رأى في المزرعة الآمنة المزدهرة شيئاً صالحاً مطمئناً عذباً ، ومع ذلك فقد كان نصف شاكر لأنها حُظّرت عليه .

وكانت له غرفة ، وفراش ، ووسادة ، وصندوق ، ومشجب ، وطاولة ، وبذلتان جيدتان ، وحبر وورق . وكان ذلك كافياً ، فليس ينبغي للرجل ان يطمع في شيء أكثر . وكان يحتاج الى بضعة بنسات

ثمناً للشموع ، والى بضعة أخرى ثمناً للطعام والخمر . وكان قد أخذ نفسَه في تلك الآونة بعدم السّكْر ، ولكنه لم يجد سبباً يحول بينه وبين الاستمتاع بقليل من الشراب . وكان شراب الـ « روم » يساعده . واذ كان لا يعنى بنفسه أو بما يمكن ان يحل به إلا قليلاً فقد كان مستعداً لأن يفيد من أيما شيء يمكن ان يُجري قلمه ، في سهولة أكثر ، على الورق . كان يكتب كلاماً منبثقاً من الفكر ، صانعاً شيئاً من لا شيء . وبعد ان اشتغل في اطراد طوال خمس ساعات أو ستّ أو سبع ، أطبقت الغرفة الصغيرة عليه . وهنا أسعفه شراب الـ « الروم » . وكان اذا ما شرب تتباطأ حركاته وتغدو موجعةً ، ولكن ريشة الكتابة كانت تواصل الحَدْش ، وذلك كل ما كان يهمه . ولم يكن على شيء من الغرور او الانخداع . فما يكتبه قد لا يحظى بأكثر من دزينة واحدة من القراء ، ولكنه كان كل ما يستطيع ان يفعله ، وما يتعين عليه ان يفعله . ان الرجال لا ينشئون عوالم جديدة في نصف نهار . ان الآجرة يجب ان توضع فوق الآجرة ، والسبيل طويلة وشاقة الى حد لا يصدّق .

وعلى غير ادراك منه ، أهمل مظهره ، مقيماً في غرفته أربعاً وعشرين ساعة بعض الاحيان ، حالقاً ذقنه في فترات متباعدة ، مدّخراً ثروته الصغيرة ، تاركاً جواربه تتهرّأ ، وثيابه ترثّ وتبلى . وزعم ابناء فيلاديلفيا الذين لاحظوا تغيره ان إيتكن كان حكيماً حين طرده من الخدمة قائلين : « تخلّصٌ طيب من نفاية رديئة . » حتى اذا شحّ ماله ، قضى ليلةً في نظم قصيدة ، ثم حملها في اليوم التالي الى إيتكن فأعطاه جنيهاً ، وهو ثمن لا تستحقه من غير ريب . ولكنْ هناك في مكان ما من جمجمته الاسكتلندية الشبيهة بالصوان غذا إيتكن ولوعاً قوياً بهذا الرجل ذي المشية المتثاقلة ، الذي يوشك ان يكون ثوراً ، والذي يؤمن إيماناً صبيانياً بأن العالم يريد ان يستمع الى الحل الذي

يقترحه لرزاياه .

وسأله إيتكن :

— « أين وصلت في رائعتك ؟ »

— « انها ليست رائعة . انها مجرد محاولة الى التفكير في حصافة ، وهو ما لا أملك منه ، علِمَ الله ، غير الشيء القليل . »

— « انا لن أطبعها . فلا تأتِ وتسألني ذلك . »

وكشّر توم عن انيابه .

— « أتحب ان تتناول طعام العشاء ؟ »

— « اجل . » قال « بين » ذلك وحنى رأسه . لقـــد انقضت فترة ، الله وحده يعلم طولها ، لم يتناول خلالها وجبة حسنة الطبخ ، ولقد استشعر توقاً فجائياً الى ان يقضي بعض الوقت مع قوم يعرفهم . وكان معه الى المائدة جوشوا كرايج ، وهو تاجر كتان قدم حديثاً من انكلترة محشواً بالانباء عن الصدى الذي خلّفته الثورة في لندن . وقد ذهب ، على المائدة ، الى القول :

— « إن مؤيدي المستعمرات أكثر من معارضيها . ولقد يخيل اليك ان الثورة انما نشأت هناك ، لا هنا . »

فقال « بين » في تفكير :

— « ولعلّها كذلك . »

— « وكيف تفسر ذلك ؟ ايها السيد ؟ »

وهز توم كتفيه واجتنب الاجابة عن السؤال . كانت ترتسم في ذهنه ارتساماً غامضاً صورة عن العالم كله يجدّد نفسه ، واحلام إخاء هي من الاتساع والكمال بحيث جعلت الصورة نصف المرسومة بالغة التأثير ، ممتنعة على التعبير .

●

ولم يلتفت جيفرسون الى الفاقة التي تلفّ « بين » والى قصوره في أمر اللباس . كان في سبيله الى الاعجاب بالرجل العاميّ . لقد أدهشه ان يرى ، هو الارستوقراطي الذي لا تشوب محتده شائبة ، ان « بين » قد انتهى من طريق الخبرة الى كثير من الاحكام التي اجتمعت له هو ، جيفرسون ، من طريق الفلسفة والمطالعة . ولكن بينا راود حلم الديموقراطية جيفرسون فترة كافية لالباسها ثوب الحقيقة ، فانــه لم يوفق قط إلى اعتناق فكرة الثورة اعتناقاً كاملاً . أما بالنسبة الى « بين » ، فقــد كانت القضية عكس ذلك بالكلية . وكانت فكراته وآراؤه تقارب فكرات الرجل العاديّ العامل وآراءَهُ أكثر ما يمكن لتفكير جيفرسون ان يقاربها . وإذ استمع جيفرسون الى « بين » يقرأ شيئاً مما كَتب ، أنشأ يتساءل ما اذا كان « بين » يعرف أيّ شياطين كان يطلقها على عالَم القرن الثامن عشر الهادي الذي كان يعيش فيه .

وقرأ « بين » في صوت مبحوح وجرس حيّ وقد استبد به الخجل أمام جيفرسون :

« لم تشرق الشمس يوماً على قضية أعظم شأناً وأكبر خطراً . انها ليست مسألة مدينة أو اقليم أو ولاية أو مملكة . ولكنها مسألة قارة ، هي على الأقل ثُمْن الكرة الأرضية الآهلة بالسكان . انها ليست همّ يوم ، أو سنة ، أو عصر ، فالذرية كلها سوف تتأثر ، قليلاً أو كثيراً ، بهذا الصراع الدائر اليوم ، بل ان تأثرها به سيظل قائماً الى آخر الأبد . اليوم هو أوان زرع الاتحاد القاريّ ، والايمان ، والشرف . وأقل كسر الآن سوف يكون أشبه شيء باسمٍ يحفر برأس الدبوس في اللحاء الغضّ من سنديانة فتية . إن الجرح خليق بان ينمو مع الشجرة ، وان الذرية خليقة بأن تقرأه بأحرف مشبعة ضخمة ... »

لم يكن ثمة اسلوب . انه كلام ينبثق في مثل خشونة العظات التي يُطلقها القسّ المنتسب الى جماعة الميثوديست . وإنه ليترك أصداء مدوية

كضربات المطرقة . وفي ميسور المرء ان يستظهر كلمات من مثل هذه ، ويسوق محراثه أو مطرقته وفقاً للنغم :

« أوه ! يا من تحبّون الجنس البشري ! يا من تجرأون لا على مقاومة الطغيان فقط ، بل على مقاومة الطاغية ايضاً . إنهضوا ! إن الضغط والاضطهاد ليعصفان بكل بقعة من بقاع العالم القديم . وإن الحرية لتطارَد حول الكرة الارضية كلها . لقد طردتها آسية وافريقية منذ عهد طويل ، واوربة تنظر اليها نظرتها الى رجل غريب . وانكلترة قد أخطرتها بضرورة الرحيل . أوه ! استقبلوا الطريدة اللاجئة ، وأعدّوا في الوقت الملائم بيمارستاناً للجنس البشري . »

ولم يبتسم جيفرسون . فههنا رجلٌ من العمال يختلس من التوراة كل ما يعرفه عن اسلوب الكتابة ، ويدعو بلغة مبشّر في الاصقاع النائية الى عقيدة جديدة يعتنقها البشر ، ومع ذلك فهو يقول شيئاً لم يجرؤ أحدٌ من قبل على قول مثله .

وسأله جيفرسون :

— « وما الاسم الذي سوف تخلعه على هذا الكتاب ؟ »

— « حصافة ، Common Sense ، في ما أظن . هذا كلّ ما ينطوي عليه . »

●

وطارت الانباء بأن توم بين يؤلف كتاباً . وراح الناس يقولون : « هذه حصافة » . ويقولون : « إنه يبشّر بالانحلال ، والكراهية ، والثورة ، والانفصال عن الوطن الامّ . » أو يقولون « حصافة أخرى » حين يتلفظ امرؤ بكلمة عن استقلال المستعمرات الثلاث عشرة .

كتاب صغير يُظهر للناس ما الذي ينبغي ان يفكروا فيه .

وقال له «بن» فرانكلين العجوز يوماً :

ـ «طبعاً ، الانفصال عندما يحين الأوان ، ولكن كن حذراً يا «بين» ، كن حذراً . »

وطوّف «بين» بالمخطوطة متغضنةً ، ملطخةً أوراقها بالحبر ، حتى اذا جلس في إحدى الحانات الى كوز من شراب الـ «روم» شرع يكتب ، ويصحح ، ويكتب ثانيةً ، ويسوّد ، ويلطخ بالحبر ويكشط ، في آن معاً ، مستقبل اميركة .

ويسأله بعضهم :

ـ «ألا تزال في الحصافة ؟ »

ووشّح بالكتاب المقدس ما كان يكتبه . وقال في ذات نفسه : ليتخطف الشيطان فاسدي المدينة . فالرجل صاحب المحراث هو الرجل صاحب البندقية . والرجل ذو المحراث ليس يقرأ إلا كتاباً واحداً وليس يؤمن إلا بكتاب واحد . وهكذا أخذ من التوراة كل ما يستطيع أخذه، واحكم نسجه مع سائر الكلام . وذات ليلة أسرف في الشراب ؛ بعض الشيء ، في مقهى من المقاهي ، وانشأ يتلو بصوت عال . وكان ذلك طبعاً من كتابه «حصافة» فاذا به يجتذب اليه حشداً كبيراً ، واذا ببعض القوم يصور الواقعة تصويراً موفقاً بقوله إن في استطاعة الشيطان ان يستشهد بآيات الكتاب المقدس .

ـ «اذهبوا جميعاً الى الجحيم وعليكم اللعنة ! » كذلك زأر في وجوه التجار الفيلاديلفيين ذوي الثياب الفاخرة والبطون العامرة . حتى اذا مضى تلك الليلة الى منزله هاجمته نصف دزينة من الاوباش الشباب ، فتمزقت مخطوطته إرباً ارباً وألقي به هو في الوحل وضُرب ضرباً مبرّحاً، ثم جُرّد من بنطلونه فجُلدَ بالسوط على قفاه عشرين أو ثلاثين جلدة .

ولم ينبس ببنت شفة حول هذا الحادث . وحين وفد إيتكن عليه وقال إن من الخير له ان يُلمع الى هوية المعتدين اكتفى بأن هزّ رأسه

ثم قال :

– « لا داعي لذلك . انا أعرف الصفحات القليلة التي مزقوها عن ظهر قلب . »

– « ولكنْ انت ، يا رجل ، انت ! »

فقال « بين » في ايجاز :

– « سوف أحيا . »

اما القس جارد هيث ، من جمعية الاصدقاء أو الفرندز ، فأخرج المسألة لـ « بين » في صورة اخرى .

وكان هيث رجلاً ضئيل الجسم ، نديّ العينين . وقد قال لـ « بين » في جدٍّ بالغ :

– « توماس ، انت لا تدري ما الذي تفعله . »

فسأله « بين » :

– « وما الذي أفعله ، على وجه الدقة ، من غير أن أدريه ؟ »

– « انك تثير الأخ على اخيه ، والأب على ابنه ، والعامل على صاحب العمل ، بهذا الذي تكتبه عن الاستقلال . ومن ذا الذي يدعو يا توماس ، الى الاستقلال ؟ يجب ان تعلم ان الداعين الى الاستقلال ليسوا هم الطيبين من الناس ، ولا المتبصرين من الناس ، ولا الهادئين الدمثي الأخلاق ، ولكنْ هم الناقمون الذين يسخرون من الله ، والأجانب في ما بيننا . إنك واحدٌ منا ، ومع ذلك ، فأنت تريد ان تغرقنا في بحر من الدماء . »

– « انا واحدٌ من أشياء كثيرة . » كذلك قال « بين » في كلال غيرَ راغب في ان يؤذي هذا الرجل الضئيل الجسم الذي أثار في ذات نفسه ذكريات عن أبيه وأعمامه ، والكنيسة القديمة في ثيتفورد .

– « تعالَ الينا ترَ النور . »

●

وانقضى الصيف ، وحالت الاوراقُ حمراءَ وسمراءَ وصفراءَ فيما هي تخشخش فوق شوارع فيلاديلفيا المرقعة . وهبت الريح الباردة النظيفة من الشمال الغربي ، وتوم بين لا يزال يكشط أوراقه ويحكها . لقد تمّ العمل أو لعله لم يتمّ قط . إنه لا يدوّي . لقد وضع كتيباً ليبصّر الناس بالامر ، وهو كتيب يدعو الى الاستقلال . وفي بغض مرويٍّ فيه ، مزّق فكرة الملكية بكاملها . لقد ألمع الى العهود الطويلة الـتي سلخها الانسان وهو مسمّرٌ على الصليب ، ودعا في كلمات يستطيع الفلاح ان يفهمها الى إقامة عالم جديد صالح في هذه الارض الجديدة الصالحة . بل لقد حاول ان ينصّ على نوعٍ بعينه من الحكومة . ولكنه كان يسهب دائماً في الكلام على واقعة واحدة : هي انه بصرف النظر عن الألم ، والعذاب ، وسفك الدماء ، يتعين ان تُنشأ ، ههنا ، دولة جديدة ومستقلة .

وكتب على الصفحة الأولى ، وكأنما يبرّىء نفسه : « حصافة ، بقلم رجل انكليزي . »

واخيراً تمّ وضع الكتيب كومةً من الورق المخَربَش عليه خربشةً عجيبة . إن احداً لا يستطيع ان يقرأه . ولعل اياً من الناشرين لن يقدم على طبعه . ولكن « بين » إنما وضعه لمجرّد الرغبة في ان يضع كتيباً يعبّر فيه عما يدور في خاطره .

●

كان مُتعَباً سقيماً ، ولم تكن به رغبة حتى في الشراب .

وفتنهُ تغير الجو الى البرودة فراح يتسكّع في شـوارع « فيلاديلفيا القديمة » الضيقة متنشقاً الرياح الهابّة من الغرب العريض الوقور ، المغلّف بالاسرار .

واكتشف — ما اضعف ذاكرة الانسان حتى للمزاح السفيه ! — ان قلة من الناس لا يزالون يذكرون انه « حصافـة » ، وان قلة اصغر تمطره بسخريتها . لقد خُلـِّف وحيداً ، وكثيراً مـا قال لنفسه لعل ذلك أن يكون خيراً وابقى .

وأذنَ لإيتكن في ان يقرأ مخطوطته المُنجـَزة . لقد نُزع ما في صدريهما من غِلّ . وركز إيتكن نظارتيه على انفـه ، وانشأ يتتبع خربشات « بين » في اهتمام وفضل روية . واخيراً قال :

— « انها ليست شيئاً رديئاً ، يا توماس . ولكنها عظيمة الخطر يا بنيّ . »

فقال « بين » :

— « اذا قرأها المرء . »

— « أنا لن انشرها . ولكن لمَ لا تحملها الى « بوبي بلّ » المغرم بهذه الامور غراماً جنونياً ؟ »

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « إذا كنت ترى ذلك . »

وكان « بلّ » اسكتلندياً ايضاً ، ذا وجه أسجح * ويدين ملطختين بالحبر . والقى التحية على « بين » ، ثم تناول المخطوطة واتكأ عـلى منضدته ، وشرع يقرأ . وأراح « بين » جسده على كرسيّ ، وأغمض عينيه ، وأخذته سِنـَة من الكرى ، ليفيق بعدُ فيجد الرجل الاسكتلندي قد انقلب الى الصفحة الأمامية . ان وجهه لم يتحرك قط ، وإن انطباعاته لم تتغير قط فيما كان يعاود النظر في المخطوطة . ثم انه طواها في عناية ، ووضعها على المنضدة وثقـّلها باداةٍ من تلك التي تصطنع لتثبيت الاوراق في أماكنها .

وقال « بين » :

— « انت لا تريدها . »

---

* الوجه الأسجح هو السهل الطويل القليل اللحم .

— « لا ... »

ونهض « بين » من مجلسه . ولكن الرجل الاسكتلندي سارع الى القول :

— « على رسلك . أنا لا اكفل من هذه المخطوطة ربحاً ، ولكني سأنضّد الحروف واجعل منها كتاباً . إن المرء لا يستطيع ان يقول هل ستروج أم لا . ولكني أميل الى ان أُناصر ما هو مِلكٌ لي . إنهـا لعواطف جيدة ، واضحة . »

فقال « بين » :

— « أنا لا اريد شيئاً من المال . لقد كتبتُ هذه المخطوطة لأنه كان عليّ ان أفعل ، ليس غير . فاذا ما وُفّقت الى شيء من الربـح ففي وسعك الاحتفاظ به . انا لا اريده . »

— « لستُ اناقش رجلاً يرغب في ان يلقي بنساً في حضني . »

— « وإذن فسوف تنشرها . »

فقال « بل » في اكتئاب :

— « سوف انشرها . »

ثم إنّ « بين » نهض وغادر الدكان في مثل الاحتراس الذي لفّـه عند دخوله .

الفصل السابع

حصافة

كان الدكتور بنجمان راش طبيباً فيلاديلفياً شاباً قرّر منذ فترة من الزمن ان الجنس البشري يعاني آلاماً غير الآلام الجسمانية المعروفة . وقد روى لبنجمان فرانكلين يوماً كيف فترت همة « بلّ » عن نشر كتاب توم بين فقال :

– « أحسب انه يخاف ، ولستُ ألومه . فهو مثل مئات الالوف من الناس لا يدري مع أي الفريقين مصلحته . وإن عنده لأشياء اخرى يفكر فيها ، شأنَ جميع الرجال في ما أحسب .. ولكن يا إلهي ! كلما فكّرت في الأمر تعاظم عجبي لفلاّحي لاكسينغتون هؤلاء ولجرأتهم البالغة التي مكّنتهم من الصمود . »

فسأله فرانكلين :

– « هل قرأت الكتاب ؟ »

– « نعم . »

– « وهل أعجبك ؟ »

– « إنه ليس شيئاً يحبه المرء أو يكرهه . لا ، وليس هو بارودا ً ،

أو نزف دم . »

فقال فرانكلين في هدوء :

— « طبعاً . ولقد حملتَ « بل » على أن يمضي قدماً ؟ »

— « وهل كان ذلك باطلاً ؟ إنه مدينٌ لي . واحسب أنـي أضغط بأصبعي على المكان الذي يؤلمه بعض الشيء . »

فقال فرانكلين وهو مستغرق في تفكير يكاد يكون محزوناً :

— « ان المسألة لم تعد مسألة حق أو باطل . نحن ماضون في سبيلنا ، وهذا كل ما هنالك . »

— « إنها مسألة حقّ وباطل ، طبعاً ! »

فهز فرانكلين كتفيه وقال :

— « طبعاً . لقد كان من حقّ الملوك أن يحكموا العـالم طوال الف عام . لقد كان من حقّ المستضعفين في الارض أن يتألـموا ويموتوا . وكان من حق الناس أن يكونوا عبيداً أرقاء بحيث لم تكن ثمة حاجـة الى سلاسل وأغلال . »

قال ذلك ثم أضاف بعد لحظة تردد :

— « أنا آسف أن اكون رجلاً عجوزاً . كنت احب ان أرى .. »

فقال راش :

— « اذا كنت راغباً في قراءة الكتاب فسوف يخرج من المطبعة بعد بضعة ايام . ولعلك اطلعت على أجزاء منه في شكلها المخطوط . ان « بين » ليس من غير شك رجلاً كتوماً . »

— « إيتني بنسخة ، كذلك قال فرانكلين وقـد حنى رأسـه ، وراح يفكّر كيف كانت له هو يدٌ في فتح « صنـدوق باندورا » أو ينبوع البلايا ، واستحوذت عليه رغبة صبيانيـة في ان يرى أي شيء سيقوله « بين » الذي يريد ان يهزّ العالم ويقوّض أركانه .

وخرجت الملازم من المطبعة ، وخيط بعضهـا الى بعض . وكانت

رائحة الحبر لا تزال تفوح منها ، وكان الحبر طرياً بعدُ فهو يلوّث اليد ، حين أمسك « بين » بها ، فاذا هو امــام كتاب رقيق مطبوع على غلافه بأحرف كبيرة « حصافة ، بقــلم رجل انكليزيّ » ، واذا الكتاب ما يزال دبقاً حين حاول ان يفتحه .

وقال « بل » :

— « انتهى . »

فردّ « بين » بقوله :

— « أنا لا اريد ان يصيبك الأذى بسبب من هذا . »

وهزّ « بلّ » كتفيه .

واضاف « بين » :

— « اريد ان اشتّري بضع نسخ . »

وحنى « بل » رأسه .

— « لكي أريها لأصدقائي . »

— « لا بأس . »

— « سوف تبيعني اياها بسعر أرخص قليـلاً من السعر العادي ؟ »

كذلك قال « بين » ، غيرَ قادر على ان يُخفي جَرَسْ القلق الذي استحوذ على صوته ، ماداً يـده الى جيبه ليخرج منها كل المال الذي يملكه .

— « أجل ، سوف افعل . »

— « لقد استوى كتاباً جميلاً . » كذلك قال « بين » .

●

وحملت مركبة السفر القاصدة الى بالتيمور رزمة من الكتب لم يدوّن

على ظاهرها اسم مرسلها او المادة التي تنطوي عليها . كل ما كُتبَ عليها اسم المرسل اليه : مُرْقُص ليد ، وهو كتبيّ صغير . ولكن « بل » اشترى سكوت الحوذي بأن اعطاه دزينة من النسخ ليبيعها هو الى من يرغب في شرائها ، بشلنين للنسخة الواحدة . ولم تكد المركبة تسير حتى اشترى المسافرون نسخة مشتركة وراحوا يقطعون الوقت في قراءتهــا . وكان بينهم قس بدين ذو نظارتين يدعى القسّ آموس كولوودي، وكان مبشراً ميثودياً حراً، فأنشأ يتلو في صوت جهوريّ :

— « ان ثمة شيئاً غريباً جداً في تكوين الملكية المطلقة » — وكان القسّ قد استشعر ذلك دائماً . — « انها تحول ، باديء الأمر ، بين رجل ما وبين منــابع الانباء ثم تعطيه القوة على ان يعمل في احوال تقتضي قدراً اعظم من التبصّر والتمييز ... » وكان يعقوب ستاتز — وهو طحان — جالساً الى جانب القسّ ، وكان يعرف انه إذا كان المرء لا يحيا بالخبز وحده فالخبز على الاقل ضروريّ كغيره من الاشياء. اما الآن فقد راح يتساءل ايّ ملك على الارض يستطيــع أن يصنِّف الطحين تصنيفاً بسيطاً .

وكانت الرحلة طويلة صاخبة . وقوّى القسُّ مركزه كساعد الالآه الايمن عندما تلا :

— « كيف جاء الملك بذلك السلطان الذي يخشاه الشعب ، والذي يجد نفسه مضطراً دائماً الى كبحه ؟ »

وهنا تساءلت السيدة رودريك كلوز :

— « كيف ، حقاً ؟ »

ورفع القسّ قبعته احتراماً لأحدى السيدات ، ونصّ في حزم :

— « ليس من حقٍ إلآهي في الانسان . »

— « مطلقاً ؟ »

— « مطلقاً ، اقول لك ، يا سيدتي . قد يكون هناك بالنسبة الى

المبّشر ، نداء علوي ، وحي ، انقشاع ظلمة ، او اقتراب من الله .
اما الحق الالآهي ، فاؤكد لك يا سيدتي انه شيء يمنحه الشيطان . »

●

وفي مقهى براكماير اجتمع بتدبير من الدكتور راش كلّ من داود ريتنهاوس ، وجيمس كانن ، وكريستوفر مارشال ، ولودويغ ريز ، وآمبرتون سانت آلن ، وهي تشكيلة غريبة من اهل الرفعة واهل الضعة يوحد ما بينها شعور يائس بأنه لم يعد ثمة منذ اليوم نكوص او تراجع. لقد ادركوا انهم مسوقون قبل غيرهم الى المشنقة اذا ما دخل الجنـــد البريطاني فيلاديلفيا.ولقد اوقع هذا الادراك في نفوسهم إحساساً بالمغامرة، احساساً بضرورة العيش في ترف وفي يسر ومجد . ليس هذا فحسب . لقد كان فهمهم للقضية فكرياً ، وكان بنجهان فرانكلين هو إلههم ، لا ابني العمومة من آل آدمز . وحين أخبرهم راش انه دعاهم ليقرأوا جميعاً احدى المخطوطات حنوا رؤوسهم ، وطلبوا صنوف الشراب ، واستعدوا للسماع .

— « ينبغي ان لا يعنينا المؤلف الذي كتب هذا ، » قال راش ذلك ثم أنشأ يقرأ ، في اناة وفي احتراس بالغ ، طوال ثلاث ساعات تقريباً ، متوقفاً بين الفينة والفينة للاجابة عن سؤال قصير ، فارضاً على مستمعيه ، في الاقسام الاخيرة من تلاوته ، أن يصيخوا إصاخة مستغرقة. حتى اذا أتمّ القراءة قال :

— « إنه يدعى حصافة Common Sense »

فحنى ريتنهاوس رأسه وقال :

— « طبعاً ، إنه من وضع « بين » .

— « هذا صحيح . »

وقال بعضهم :

– « إذا كانت هذه خيانة ... »

– « أنت لا تدرك ... إنه حافلٌ بخبث لعين . »

– « كم ثمنه ؟ »

– « شلنان . »

– « حسناً ، ينبغي ان يكون اقلّ . »

– « اتظنّ الناس يقبلون على شرائه ؟ »

– « وهل ثمة من لا يُقبل ؟ ان الرجل لشيطانٌ وعبقري . »

– « لا ، إنه فلاح . ألم ترَ يديه وكأنهما شرائح لحم البقر ؟ انه فلاح وهذا هو السبب الذي من اجله يفهمنا، لاننا امة من الفلاحين واصحاب الدكاكين والميكانيكيين . لقد وفد الى هذه البلاد منذ عام فاذا هو يعرف ما تنطوي عليه أحشاؤنا . انه لا يكتب لي ولك، ولكن للرجل الواقف وراء المحراث أو الجالس الى مقعد الشغل . ويا لله كم يصانعهم ، ويتودد اليهم ، ويدغدغهم ، ويغريهم ، ويتحدث بلغتهم، ويقول لهم : أليس هذا معقولاً ؟ أليست هذه حصافة ؟ لماذا لم تفعلوا هـذا منذ عهد طويل ؟ أغرقوا العلم بدماء الطغاة ! انتم وانا وسائر الناس ، لماذا نحن عبيد على حين نستطيع ان نكون احراراً ؟ اهو المسيح أم الشيطان ؟ لست ادري . كل ما ادريه بعد ان سمعت هذا الكلام يتلى ، انه لن يكون ثمة سلامٌ حقبةً طويلة من الزمان . »

– « كم يستمر ذلك ؟ »

– « ليس عشر سنوات . ربما مئة سنة او مئتي سنة. وقد يستمر الى الابد . انا لست ادري ما اذا كان الناس قد خُلقوا ليكونوا عبيداً ام احراراً . »

●

كان ابراهيم ماراه رجلاً يتاجر مع الهنود الحمر ؛ كان رجـــلاً متوحداً قوياً ولكنه كان اسود العينين أسود الطلعة. كان اسمه حين وفد على البلاد صبياً صغيراً ابراهيم بن آشير ، ولكنهم دعوه « ماراه » لانه كان صارم الوجه كئيباً ، حتى اذا شب وتطاولت اقامته في الغابات المظلمة دعا نفسه ابراهيم ماراه وفقاً للزي الجديد . كان يهودياً، ولكنْ في الكنيس كانوا يعرفونه كثائر . وكان يقول :

– « انا رجل حر . ان الله لم يصنع شيئاً من اجلي . »

بيد انه لم يكن بخيلاً منقبض اليد حين يُسأل الأسهام في مشروع ما . وكما قالوا : ما حاجته الى المال ؟ إنه امرؤ بلا بيت ولا زوجة، وليس عنده من الممتلكات غير الجراب الذي على ظهره وغير بندقية السناجيب البنسيلفانية الطويلة ، فهو يستطيع ان يطوّف في البلاد أشهراً موصولة .

لقد عرف الهنودَ الحمر على اختلاف قبائلهم – شاونيين ومياميين ووياندوتيين وهورونيين – وعرفـــوه . كانوا كلهم صيادي فِراء ، وكان هو يرجع بعد قضاء ستة اشهر في الغابة المظلمة حاملاً على ظهور حميره ثروة من الجلود والفراء . وكان ابراهيم على اهبة القيام برحلةً جديدة الى تلك المجاهل عندما وفد على « بل » واشترى عشرين نسخة من كتاب « بين » .

وسأله « بل » :

– « لماذا يا ابراهيم ؟ »

– « لأني قرأته ؛ لأنه حيث أذهب يفكّر الناس مرّتين ثم يلزمون آخر الأمر بيوتهم . »

وحمل النسخة الاولى الى « فورت بت » . وكان جون نيفل وحرسه الفيرجيني الوطني قاعدين الآن قعود الكسالى ، يعاقرون الخمر باكثر مما ينبغي لهم ، ويتساءلون أليس جديراً بهم ان ينقلبـــوا الى بيوتهم ،

ويعجبون لتنكّبهم السلاح على حين ليس عندهم غرض او سبب او هذف . كانوا رجالاً فارعي الطول ، أولي بأس ، يرتدون قمصان قنص قذرة ، ولم يُتَح لكثير منهم أن يحلّ كلمة واحدة خلال السنوات العشر الماضيات . ولكنْ ، كما قال اللفتنانت كاب هيدي ، عندما يهب يهودي شيئاً يكون ثمة سبب . وقرأ هيدي في صوت مرتفع، على ضوء نار المخيم :

— « في انكلترة ، ليس للملك من عمل اكثر من شنّ الحرب ومنح الرتب والمناصب . ومعنى هذا بلغة واضحة إفقار الأمة وايقاع الشقاق في ما بين افرادها . وإنها لصفقة رائعة ان ينعم رجلٌ بثمانمئة الف جنيه ، ثم يحظى فوق ذلك كله بضروب التقديس ! إن رجلاً واحداً مخلصاً للمجتمع ، هو عندي ، وفي نظر الآله ، خيرٌ من جميع الخلعاء المتوجين الذين عرفهم التاريخ . »

وكان هذا هو الشيء الذي يسرّ ابناء فرجينيا قراءته، فقالوا لهيدي:

— « تابع التلاوة . »

كانت طريق ماراه طويلة مطوّفة . وهكذا ترك نسخة في احدى حظائر كانتاكي ، وثانية في احدى حظائر اوهيو ، وثالثة في احد اكواخ البحيرات بعد ان وُعد بتذييعها ونقلها من يد الى يد. واحتُفظَ بثلاث نسخ للكنديين الفرنسيين ، وهم الرحالة الذين احبهم ماراه اكثر من سائر الاميركيين . وفُضّتْ نسخةٌ ، صفحة صفحة ، في ديار قبائل الأيروكوا فيما كان ماراه يترجم كتاب « حصافة » في عسر بالغ، الى اللسان الهندي .

●

كان الجنرال جورج واشنطون ، الفيرجيني ، قلق البال مضطرب

النفس . لقد غادر مونت فيرنون في فيرجينيا الاثيرة لديه، غادر بوتوماك العريضة البهيـــة ، مضحياً بكل ما تحفل به حياته من اشياء دنيوية صالحة ، بالحقول الخصبة ، والاشجار المثمرة ، ودنان الخمر الجيدة ليرابط ، الآن ، خارج بوسطن ، على رأس بضعـــة آلاف من يانكيي نيو إنجلند المضطجعين ، الكسالى الذين لم يألفوا النظـــام بحال . وكانت الحرب ، على ما يؤخذ من القرائن الظـــاهرية جميعاً ، قد انتهت الى التوقف . ولكن شكوك الاذكيـــاء من الرجال ، الذين كانت لهم فكرة ضئيلة عما عناه ذلك كله والى اين كان يستاقهم ، ظلت ناشطة لم تنقطع . والواقــع ان واشنطون ، الذي تصدّر لهذه القيادة من غير ما فكرة واضحة عن الوسيلة او الغاية ولمجرد حبه العارم للأرض التي يحرثها ، واحترامه المحتشم لكرامتــه وكرامة اصدقائه ، ولكراهيته للطريقة البريطانية في إدارة تجارة التبغ ، كان يتعاظم شكه ويغتلي ارتيابه يوماً بعد يوم . فلفظة «الاستقلال» كانت تطلق في كثرة واطّراد ، وانها لتنطوي على صفة من الهول ، والتحريق، والسلب ، والتقتيل – تنطوي على خلق العالم من جديد ! وكان واشنطون يحب العالم الذي يعيش فيه . ذلك ان الأرض كانت طيبـــة ، وكانت الثمار التي تحملها الأرض أطيب . ولكنّ إعادة صوغ هذا العالم الذي لا غبار عليه وتحويله الى هول من اهوال المستقبل ليس يمكن القطع في أمره ...

ذلك كان مزاج واشنطون حين جلس ليقرأ كتاباً حمله اليـــه من فيلاديلفيا رسولٌ خاص . وكان الكتاب موسوماً باسم «حصافة» . وقد كتب اليه جيفرسون يقول : « ... يحسن بك ان تعلم ان هذا الكتيب من تأليف «بين» . انت تذكره ، في ما أحسب . إن عنـــده لآراء سليمة حول إنشاء امة قوية موحدة ، وهو يعتبر اننـــا شعب يخوض

الحرب حفاظاً على حريته ... »

●

كان شعب فيرمونت غريباً حقاً . «كان شعباً هالكاً آثماً» كما قال احد قساوسة فيرجينيا ، « شعباً صلفاً متغطرساً . كانوا يشيدون مراكز حراستهم من الحجارة المنحوتة وكأنما يقولون : ان ايام الانسان على الأرض ليست معدودة . » وكانوا شعباً كثير السكوت ايضاً ، شعباً بارداً لا ينفق بنساً واحداً إلا بعد ان يجنيه . ولقد ذهب المَثَلُ بأن رجال مَيْن كانوا قساةً ، ولكن رجال فيرمونت أشدّ قسوة ، وبأن رجال مَيْن كانوا أخساء ، ولكن رجال فيرمونت أكثر خساسة . والحق ان الناس الذين لا يصطنعون الرقة في الكلام كانوا يقولون : غازِل فتيات فيرمونت وفي يديك قُفّاز !

كانوا يحبون الأرقام ، ويحبون ان يعرفوا ان اثنين واثنين تساوي أربعة ، ولم يكن لهم صبرٌ على المثل العليا . ان الاستقلال شيء صالح جداً لفيرمونت ، ولكنهم لن يتعجلوا ويحملوا بنادقهم من أجل الاجانب في نيويورك ونيو جيرزي . وفي الكثبان الخضر كان يشاع ان الأصقاع الوسطى لم تكن غير ولايات هولندية حيث يستطيع المرء ان يسير اسابيع وأسابيع من غير ان تطرق سمعه لفظة انكليزية واحدة .

واخذوا «حصافة» على حذر . وبعد بضعة اسابيع من صدوره حمل هيرام جاكسون تاجر الجلد دزينة منه عبر حدود نيوهامبشاير الى فيرمونت ، وقدمها الى المزارعين الذين كانوا يبيعونه جلود الحيوان ، قائلاً لهم : «بضاعة بوسطنية» وكان ذلك هو التعبير الذي يطلقه على كل ما يثير ويلهب ، ولو معتدلاً .

وقرئت النسخ في عناية . وعندما أشار «بين» الى ان اقل من ثلث

سكان بنسيلفانيا كانوا من اصل انكييزي أيقنوا من أمر كـان عندهم محلّ ريب . وحين قال «بين» ان المصلحة التجارية تقتضي الانفصال عن الامبراطورية واصلوا التلاوة . ووقعت نسخة في يد يرميا كورنيش، وهو طابع من بننغتون ، فأقرها بعد ثلاثة ايام من النقاش مع جيرانه . واذ اعتبر ان بنسيلفانيا واقعة في مكان قصيّ — قصيّ الى درجة تعفيه من طلب الاذن او دفع العائدات — فقد عقد النية على طبـع الكتاب بنفسه . وهكذا طبع الف نسخة بيعت كالخبز بشلن وأربعـة بنسات للنسخة الواحدة ، حتى اذا آنس يرميا في هذا الصنيع ربحاً صغيراً ولكنْ محترماً ، طبع خمسمئة نسخة اخرى وبعث بها الى نيو هامبشاير . وكان ايتشابود لويس ، وهو طابع من نيو هامبشاير ، يعرف من خلق ابناء فيرمونت ما اوقع في نفسه ان كورنيش قد اقدم على الطبـع من غير اذن ، فما كان منه الا ان سارع الى طبع ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب ، بعث بمئتين منها الى مين . وكان ابناء مين معروفين بالشح ، ومع ذلك فقد أحبوا الكتيب : كان فيه منطق سليم . ولقد رجّع بطريقة ما اصداء تفكيرهم ، كما رجّع من قبل ، وعلى نحو غريب ، اصداء ما كان النـاس يفكرون به في فيرمونت ونيو هامبشاير ، وماساتشوستس ، ونيويورك وغيرها من المستعمرات القائمة في الجنوب الاقصى . كان هو الشيء الملائم لأمسيّة من النقاش الهائج . بل لقد كان هو الشيء الذي يستطيع المرء ان يلوكه فيما هو يقوم بعمله .

ولم يعيدوا الطبع في مين . ولكنهم تناقلوا النسخ من يد الى يد حتى تهرأت وأصابها البلى .

•

وكان لآلين جونسون مزرعة تبعد سبعة أميال عن ترينتون ، وزوجة

وثلاثة اولاد ، واحدى عشرة نسخة من الكتاب المقدس . ولم يكن في حاجة الى هذه النسخ جميعاً . فالحقّ ان اربعاً او خمساً منها لم يقدّر لها ان تُفتَح قط . وبين الفينة والفينة كان آلين يخاطب نفسه في لحظة من لحظات المرطقة : «وما حاجة المرء على ظهر هذه الأرض ، الى اكثر من نسخة واحدة من التوراة ؟ » ولكن المبّشر كان يفد كلّ نوفمبر ، في نظامية كنظامية الصقيع لا تُخلف الميعاد ، وقد أُثقلت عربته بنسخ من الكتاب المقدس والتقاويم الدينية .

ولم تكن عند جونسون رغبة في التقاويم الدينيـــة ، ولكن كانت خطيئة مميتةً ان يأبى شراء نسخة من التوراة تُعرض عليه ، وهكذا تطاول صفُّ الكتب المقدسة وزاد نسخةً مرة كل عام . ولم ينــح جونسون باللائمة على المبشر ، الذي دعا نفســه القسّ ايمس ، فرزق امريء كثيراً ما يكون بلاءً بالنسبة الى غيره من الناس ، ومصائب قوم عند قوم فوائد . وهذه السنة ، تأخر القسّ إيمس نحواً من شهر عن ميقاته ، حتى اذا أطلّ كانت عربته خلواً من التقاويم الاكليركية . لقد حلَّ مكانها مئة وخمسين نسخة من كتاب صغير يدعى « حصافة » .

— « تعال الى كلمة الله » كذلك قال لجونسون .

وحاول جونسون جهده ان لا يسمع ، وانصرف الى تقليب صنوف البضاعة ، كدأبه كل عام . ثم انه تساءل :

— « لا تقاويم ؟ »

وكأنما لم يأتِ هذا العام إلا ليشتري واحداً منها .

فقال القس :

— « سياسة . فليباركنا الله . انها سنةٌ عظيمة للشؤون السياسية . »

وتناول جونسون نسخة من كتاب «حصافة» وتصفحها .

وقال القس ايمس :

— «شلنان.»

وكانت النسخة من الكتاب المقدس بأربعة . فقال جونسون :

ـ « سوف اشتري واحدة . »

ولم يتذكر جونسون الا في ما بعد ان شراء التوراة كان يعفيه من مهمة قراءته الشاقة ، وهي مهمة كانت تُسقَط عن كاهله كلّ صباح احد في الكنيسة . أما في هذا الكتاب الصغير فقد وظف شلنين اثنين ، فهو عازم اصح العزم على ان لا يطّرح المال الذي وظف او يفرط فيه ، ومن اجل ذلك فرغ في تلك الليلة ذاتها لقراءة الكتيب . وعندما سألته زوجته عن هذا الذي يقرأه أجابها :

ـ « أسألك بالله ، يا ماندي ، ان تتركيني وشأني ! »

وزوى ما بين حاجبيه ، وتابع القراءة . وشيئاً بعد شيء تحولت المهمة الشاقة الى كشف من أروع الكشوف وأدعاها الى الأذهال .

●

ودُهش «بل» الطابع ، بل كاد يلفّه الرعب . إن شيئاً من مثل هذا لم يقع له من قبل . وفي الحق إنه لم يقع لأيما رجل في بنسيلفانيا من قبل . فبعد ان نضّد الأحرف لطبع كتـــاب « بين » ، شرع في اخراج طبعة معتدلة تتألف من بضع مئات ، وذلك ما كان يقتضيه منطق تجاربه السابقة جميعاً . فالتقاويم الدينية التي كانت محببة الى قلوب الرجال في الريف كانت حسنة الرواج ، وكان يباع منها ، شأنَ تقاويم فرانكلين مثلاً ، عشرات الآلاف من النسخ . ولكن الرسائل السياسية لم تكن يوماً بضاعة مرغوباً فيها سواء في الريف ، او في المدن . وحتى الروايات الانكليزية الشعبية كان لا يباع من اشدها رواجاً اكثر من الف وخمسمئة نسخة ، في حين كانت الرواية التي تبيع الفي نسخة تُعتبر بالغةً الغاية من النجاح . وكان كتاب «بين» غالي الثمن . لقد عرف

ذلك . ولقد اقصاه سعره — وهو شلنان — عن محيط الاجراء ومعظم العمال وصغار المزارعين . ولكن «بل» وضع هذا السعر حرصاً منه على تغطية المال الذي انفقه في طبع هذا الكتاب الذي كان واثقاً ، كل الثقة ، من انه سوف يكسد في الاسواق . لقد كان لـ « بين » اصدقاء في فيلاديلفيا فأضاف «بل» الى هؤلاء جماعة الفضوليين والمعارضة فاذا به موقنٌ من قدرته على ان يبيع خمسمئة نسخة من الكتاب على الاقلّ .

ولكن الوقائع أظهرت خطأ حسابه . فلم ينقضِ اسبوع واحد على نشره الكتاب حتى وُفّق الى ان يبيع ما ينوف على الفي نسخة .

واخرج الف نسخة كاملة لنيويورك . ثم ثنّاها بألف اخرى . واستعان بأحد طابعي الصحف وبأجيرين صغيرين . وعملوا ليلةً بطولها لاعداد طبعة من ثلاثة آلاف نسخة لتباع هنا في فيلاديلفيا . وعرض فرانكلين غراي ، احد الكتبيين المحليين ، ان يشتري الف نسخة دفعة واحدة مقابل شلن وبنسين للنسخة ، فأقرّه «بل» على ذلك . ثم جاءه بالبريد رسالة من تشارلستون يطلب فيها صاحبها الفي نسخة . وطلبت هارتفورد سبعمئة نسخة . على حين اشترت قرية كونكورد الصغيرة في ماساتشوستس مئةً ، واشترت براكتون — وهي قرية لم يسبق له ان سمع بها — خمسين.

وكان آنجوس ماك غري — وهو كتبيٌّ طواف تنتظم منطقتـه ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ويبيع كتباً كثيرة من عربته الفوضوية المغطاة بالخيش ، مباشرة — زبوناً دائم التردد على محل « بل » ومحالّ غيره من طابعي فيلاديلفيا وناشريها وتجار الكتب فيها . وكان قد وقع على نسخة من كتاب « حصافة » في ماريلاند فأرخى زمام عربته طوال المئة الميل الفاصلة ما بين بالتيمور وفيلاديلفيا ، وأنشأ يقرأ ويعيد القراءة فيما كانت عربتاه العتيقتان ماضيتين في سبيلهما الهادىء الكسلان. ولو قد كان ثمة رجلٌ يعرف نبض اميركة وحمّاها ودرجة ايقاعها اذن لكان ذلك الرجل هو ماك غري . لقد أحب الكلمة المكتوبة دون حبه الكلمة

الملفوظة ، ولولا انه كان ينفق في التحدث عن الكتب جهداً اكبر من ذلك الذي ينفقه في بيعها لجمع ثروةً طائلة .

وكان اذا ما خلّف نسخة من كتاب ديفو في احـد الاكواخ القائمة في الغابات الخلفية يشرق وجهه زهواً وعُجباً . وكان هو الذي حدّث بضع مئات من أتباع الكنيسة المشيخية الطيبين فأقنعهم بأن الساعات الغضة التي قد يقضونها مع فيلدنغ لن تُفسد نفوسهم الهلكى . لقد باع مؤلفات سويفت وبوب الى نفر من ابناء الكثبان يرتدون جلود الوعول ، والى جماعة من مالكي المزارع المثقفين ، سواء بسواء ، كما روّج لترجمته الخاصة لكتاب « كانديد » . وكان حبه لاميركة يواكب حبه لكثرة عدد القارئين والكاتبين فيها . واذ كان اوروبيًّ المولد فقد دأب على إظهار اعجابه بهذا الشعب الغريب القوي العضلات المختلف الاعراق والاصول ، الذي يتكشف عن مثل هذا الحب الرقيق الحي للكلمـة المكتوبة .

حتى اذا أتم قراءة « حصافة » بعد أن عاود مطالعة بعض اقسامه ثلاث مرات او اربع مرات وحفظ بعضها عن ظهر قلب ، وطّن النفس على ان يلقى المؤلف ، حتى اذا وُفق الى ذلك قال في هدوء :

— « ولكنه رائع مَجيد . »

واذ كان « بين » لا يزال متعباً ، وغيرَ قادر على ان يفهم ما الذي حصل لذلك الشيء الصغير الذي كتبه ، فقد عجز عن ان يقول شيئاً ، مجتزئاً بتحريك رأسه تحريكاً ابله .

وقال ماك غري :

— « ينبغي ان يُقرأ في كل مكان . »

— « انا ارجو ذلك . »

— « لا تخف ، لقد جعلتُ لغيرك من الكتـاب ، مثل فولتير الفرنسي وسويفت الانكليزي شهرةً ليس ينبغي لرجل ان يستحي بها . »

ثم التفت إلى « بل » وقال :

– « أريد خمسة آلاف نسخة . »

– « وهل فقدت عقلك بالكلية ؟ »

– « انا في احسن احوالي العقلية . سوف ادفع شلناً في النسخة . ولن اساومك بحال ، يا بل . »

– « لا استطيع ... ! انا لا املك المطابع ، ولا الورق ، ولا اليد العاملة . »

– « ولكني سوف اعطيك مئتي جنيه – فممّ انت خائف ؟ »

وتنهد « بل » ، وكان هذا كله فوق طاقته على الفهم، وأقره على ما عرض .

●

وحين قدم بن فرانكلين العجوز الى دكان « بل » ليشتري خمسين نسخة جديدة تضاف الى الخمسين التي سبق ان اشتراها وبعث بها الى هنا والى هناك ، حاول « بل » ، في غير ما اتّساق ، أن يفسّر هذا الذي حدث . ولقد بدا الرجلُ الاسكتلندي شاحب الوجه احمر العينين من قلة النوم ، ملطخاً كله بحبر الطباعة .

وقال فرانكلين :

– « ليس ثمة معجـــزة . إن الكتاب يروج لأن الناس يريدون ان يقرأوه ، أو لانه يجيب عن اسئلة كانوا يردّدونها . »

وقدّم « بل » الى فرانكلين طبعتين زائفتين ، أعدّت احداهما في نيوإنجلند ، وأعدت الاخرى في رود آيلاند . فقال فرانكلين :

– « ليس في هذا ما يُغضبني . »

– « ولست انا غاضباً . انا رجل ضعيف ، ومطابعي لا تفتر آناء

الليل واطراف النهار . والله وحده يعلم كم نسخة طبعتُ ، لا أنا . لقد طبعتُ اكثر من مئة الف ، أؤكد لك . انا اتلهف على الورق، وانتحب من اجل الحصول على الحبر ، ولقد اخرجتُ أسرتي من هنا لكي أفسح المجال للأجَراء . إني أرى في المنام كوابيس ، وانها « حصافة » .

فتبسم فرانكلين ضاحكاً من كلامه وقال :

— « سوف يرى الآخرون مثل هذه الكوابيس . »

●

وخارج بوسطن ، تهـافت افراد الجيش اليانكيّ المضطجعون ، المتشاكسون ، الناقمون ، الذين سلخوا فترة من الزمان طويلة يحاصرون البريطانيين ، على كتاب « حصافة » تهافتَ النهم على قصاع الطعام . ذلك بأن الساعات الطويلة ، المستوحشة ، في مضارب الجيش الشتوية ، كانت قد حملتهم على ان يتساءلوا عن السبب الذي من اجله يقاتلون . فاذا بكتاب « بين » يجيبهم عما يسألون ، واذا بهم يحلمون بالعـالم الجديد . وانما قرئت نسخةٌ ، باديء الامر ، قراءة مملة على احدى الفصائل عقبتها مناقشة بين الجند . ثم تسربت اليهم بضعُ نسخ من الكتاب المثير ، ثم مئة ، ثم الفٌ . ولم يفتأ الكتاب يغزو مضارب الجيش غزواً موصولاً حتى صار في جراب كل جندي نسخةٌ مطوية قذرة من « حصافة » تصلح لان تمسح عليها شفرة الموسى ، نسخة تصلح لان توقد بها النار ، نسخة تفيد روح المرء وجسده ، وتمكن الافادة منها في تحرير الرسائل الاعتذارية الموجهة الى الاوطان :

« زوجتي العزيزة الودود .

« انت دائماً في خاطري ، افكر فيك ليلاً ونهاراً . ولكن لا ترميني

بالأنانية وتسخطي عليّ ، لأن ثمة اشياء ينبغي ان تعمل ، وليس من وسيلة الى ان يحيا المرء في طمأنينة وسعادة من غير القيام بها. لقد ذكر رجل انكليزي ، غير اميركي ، اسباباً شتى كلها سليم في كتاب له اسمه « حصافة » . انه يقول ، وانا اقره على ذلك: أوه يا من تحبون الجنس البشري ! يا من تجرأون لا على مقاومة الطغيان فحسب ، بل على مقاومة الطاغية أيضاً ، إنهضوا ! إن الضغط والاضطهاد ليعصفان بكل بقعة من بقاع العالم القديم. وان الحرية لتطارَد حول الكرة الارضية كلها . أنا أقره على ذلك . وكذلك انت سوف تقرينه عندما تقرئين الكتاب الذي سأبعث به اليك ... »

وفي جوف جراب متغضّن خاصٍ بأحد المساجين وقع الكولونيـــل بنتلي على نسخة من « حصافة » فقرأها وقدمها الى الجنرال هاو ، من جيش جلالته البريطانية . وقرأ هاو الكتاب ايضاً ، وقال لبنتلي :

— « يا إلٓهي ، ولكن ذلك الشحاذ بارع الى حد شيطاني . إني اريد ان يشنق مؤلف « حصافة » هذا ، افهمت ؟ ».

الفصل الثامن

فترة تمتحن فيها نفوس الرجال

– « يخيل اليّ ، من ناحية ما ، انك مجنون . أنت لست رجلا شجاعاً ، بل مجنون . » كذلك قال له فرانكلين .

– « وكيف ذلك يا سيدي ؟ »

– « هل سبق لك ان اطلقت النار من بندقية قديمة ؟ »

– « لا . »

– « او شحنتها ؟ »

– « لا . »

– « أليس أيما صبيّ ريفيّ من ابناء الغابات الخلفية أصلح منك للجندية ؟ »

فأقرّه « بين » على هذا قائلاً :

– « أحسب ذلك . »

– « ما الذي تعتقده ؟ هل انطلقت هذه الحرب من فوهة بندقية أم من عقل رجل ؟ »

فقال « بين » :

— « لقد وضعتُ كتيباً لاني أردت ان يرى الناس إلام يصوبون نار بنادقهم . انا لم أعرف ما الذي كان يمكن ان يقع . والآن أتريدنـــي على ان أقعد ههنا وأدع الآخرين يموتون من اجل ما قلتهُ ؟ »

— « واذن ففي استطاعتك ان تواصل قول ذلك . »

— « لا ... »

وهزّ فرانكلين كتفيه .

وقال « بين » :

— « انا سعيد . انا لم اعرف قط سعادة أعظم من هذه في عمري كله . وأحسب انه كان في ميسوري ان أحصل على بندقية أفضـــل ، ولكن البنادق قلّت فجأة بحيث تعيّن عليّ أن اقنع بما عندي . انا أعرف ما الذي خُلقت له . أنا لست مجنوناً ولا شهيـــداً ، ولكني مجرد رجل اكتشف أيّ عمل يستطيع ان يقوم به . »

فسأله فرانكلين :

— « ومتى ستمضي ؟ »

— « غداً . »

— « أرجو لك حظاً سعيداً اذن . »

— « اشكرك ، يا سيدي ... »

— « وحاوِلْ أن لا تموت . لا يخامرْك الشكّ في شجاعتك . أُذكر أن هذه ليست غير البداءة . »

إنه لم يعد توم بين . ففجاءَة وعلى نحوٍ غريب أصبح اسمه « حصافة » . لقد وضع كتاباً صغيراً ، هو أمـــل او اقتراح . وكان هو غريباً في مستعمرة بحرية تحدّتِ العالم . إنه لم يكن أحداً ، ومع ذلك فبفضل ذلك الكتيب امسى كلَّ احد ، لانه استطاع ان يرى ، بعيني الفـــلاّح الصافيتين ، أملَ الجنس البشري .

ومع هذا فلم يعرف قط ما الذى يجب ان يعمله . لقد وقف المزارعون

عند كونكورد ولاكسينغتون . وزحف الحرس الوطني الى حصون الغابات الخلفية وانتزعها من ايدي حامياتها البريطانية الصغيرة . ودانت نيويورك وفيلاديلفيا للمتطرفين على الرغم من انهم أُخرجوا ، وهم يلعنون ويقاتلون وتسيل دماؤهم ، من بوسطن . لكأن موجةً من نارٍ مجنونــة مفاجئة استعرت في اميركة كلها ؛ حاميةً تخطف الابصـار اولَ الامر ، ثم أخذت تخبو شيئاً فشيئاً ، لتصبح بعدُ مجرد غليان طفيف يؤذن وشيكاً بالخمود .

لقد غدا الآنَ « حصافةً » .

وذات ليلة فيما كان يسير وحده في الدجنّة القارسة ، متنقلاً من شارع من شوارع فيلاديلفيا الى آخر ، غـير ملتمس امراً معيناً ، لا دفء المقاهي واصدقاء المقـاهي ، ولا حرارة الشراب ، لا امرأةً ولا رجلاً ، ولكنْ باحثاً عن نفسه هو على ضوء تقديريّ ملائم – استعرض « توم بين » في ذاكرته ما الذي تمّ له فعله حتى اليوم .

إن الرجل النكرة لا يستطيع أن يبلغ الثريا فُجاءةً . كان المسيح نجاراً ، ولم يكن هو ، « توم بين » ، غير صانع مشـدات ، ومأمور جمـرك ، وإسكاف ، وحائك . وكان يقول لنفسه : « بين ، بين ، كن متواضعاً . » وعاد بذاكرته الى ايامه السوابق فأصـاخ الى حديث طفولته :

– « انت لست شيئاً . قذرٌ انت ، قَذَرٌ ، قَذَر . كلا خديك قد صُفع . لقد لقيت ضروب الهوان ، ومُرّغ وجهك بالاوساخ . »

ووجد نفسه يضحك ويصلي :

– « إلهي ، إلهي ، كيف شرّفتني ورفعتني مقاماً علياً ! »

وكان الحب الذي يعمر فؤاده أعظم من ان يخضع لقياس ، وكانت قوته كذلك لا تعرف الحـــدود والسدود . وقبض كفيه وبسطها مرةً ومرةً . إن الناس كلهم إخوة . وهمس :

— « أوه ، يا إخوتي ، يا إخوتي ! »

ثم قال :

— « لا ، انا لست في سبيلي الى الجنون ... »

●

وكان بنجامان راش قد قال له يوماً :

— « الثورة ، يا بين ، فنٌ يتعين علينا ان ندرسه من غير تاريخ : اننا نحن السابقون الأولون ، وهذا هو السبب الذي من اجله نتعثر بالاخطاء . فليس عندنا سابقة ، ولكنْ مجرد نظرية ، وتلك النظرية هي ان القوة تكمن في ايدي الجماهير المسلحة . أنا لا اتحدث عن المُثُل ، عن الحق والباطل ، عن الصالح والطالح ، بل لا اتحدث عن الفضيلة ، لان هذه كلها لا تعدو ان تكون ، في التحليل الاخير ، شعارات وحسب . والأداة الوحيدة هي القوة . »

وحنى « بين » رأسه . وفي بطء وعسر انتهى هو ايضاً الى وجهة النظر نفسها وقال :

— « القوة كامنة دائماً في الشعب . »

— « طبعاً ان الاسلحة النارية لا تغير ذلك . ولكنْ لم تكن ثمة قط ، في هذا العالم ، تِقنيّةٌ للثورة . كان ثمة تِقْنية للطغيان تدعمها القوة ، ولكنها قوة القلة دائماً . ان قوة الكثْرة هي الثورة ، ولكن اعجب العجب هو ان الجنس البشري قد سلخ بضعة آلاف من سني العبودية من غير أن يدرك هذه الواقعة . لقد تضرع المستضعفون من الرجال ، ولكن في أي عصر من العصور هبوا والسلاح في ايديهم قائلين : هذا لنا ؟ »

— « لم تنشأ الظروف الملائمة ، قط ، قبل اليوم . »

– « ربما . صحيح ان عندنا ههنا أمّة من الرجال المسلحين الذين يعرفون كيف يستعملون اسلحتهم ، وان عندنا تقليداً بروتستانتياً يقوم على المناقشة بوصفها عدواً للحكم الفردي ، وان عندنا فكرة ما عن كرامة الانسان ، وفوق ذلك كله ، ارضاً وأرضاً كافية لكل انسان . هذه كلها ظروف سعيدة ، ولكن علينا اليوم ان نتعلم التقنية أو الفن . لقد أخذ الرجل ذو القفاز الحديدي بخناق هذا العالم طوال آلاف من السنين لا يعلم غير الله مقدارها ، ففي أيّ مدى تظن اننا قادرون على انتزاعه من بين يديه ، ولا أقول الاستيلاء عليه ؟ »

– « انا لا احب أن افكر في ذلك . »

– « يجب ان تفكر . اننا نتعلم صناعةً داميةً مروعة هي تقنية الثورة ، ولكن ينبغي ان نتعلمها جيداً . لقد ألفت انت كتاباً صغيراً ، وبسبب من ذلك صار الناس يعرفون لماذا يقاتلون . لقد أردتَ الاستقلال ، ولسوف نفوز به . اذكر كلمتّي هذه : منذ ستة اشهر أُلقي بلك في الاقذار لان الناس عرفوا ما الذي كنت تكتبه ، ومنذ اسبوعين اثنين طُلي رجل بالقطران لأنه اعتزم ان ينشر رداً على كتابك « حصافة » ؟ هذه ليست فضيلة . هذه قوة . انها من فصيلة تلك التي اصطنعها الطغاة ، ولكنها اقوى منها الف مرة . والآن ينبغي ان نتعلم كيف نستعمل تلك القوة ، كيف نضبطها . نحن في حاجة الى زعماء ، الى برنامج ، الى هدف ، ولكننا فوق كل شيء نحتاج الى ثوريين . »

وحنى « بين » رأسه علامة الموافقة .

– « ما الذي سوف تعمله ؟ »

فقال « بين » :

– « سألتحق بواشنطون . »

– « أحسب انك على صواب . افتح عينيك جيداً ولا تدعْ لليأس سبيلاً الى قلبك . نحن شعب حر ، ولكنا لا تفصلنا عن العبيد غير

أجيال قليلة . سوف نُعْول ونصرخ وننتحب ، وسوف ندعو الى التسليم إننا لسنا شعباً محباً للنظام ، يا « بين » ، ولست أظن اننا نصلح كثيراً للجندية . وما هي إلا فترة حتى ننسى الهدف الذي نقاتل من اجله ، ونطرح بنادقنا . تذكّرْ هذا . دائماً تذكّرْ هذا . »

وجلست الشهرة قلقة على كتفيه . وفجأة نفرت منه فيلاديلفيا . انها بلدة سمينة مكتفية تتحدث الى الأبد ، وتنتقد في عنف ، ولا تكاد تعمل شيئاً . ففي الشوارع والمقاهي ، حيث كان كتاب « بين » يتحول في سرعة بالغة الى توراة جديدة ، كان حديث الاستقلال يدور في حرية وطلاقة ، ولكن في المجلس التمثيلي كان المندوبون الشرقيون لا يزالون يناوئونه . وكان مندوبو الحدود يتبخترون في الشوارع بوجوه مكفهرة ، ولكن لم يكن في ميسورهم ان يصنعوا شيئاً .

واقيمت وليمة تكريماً لـ « بين » . ولم يكن يملك المال الضروري لشراء سترة جديدة ، وقفاز مخرّم ، وما كان له ان يستعطي أو يستعير . ووفد على المأدبة كما هو ، رث الثياب ، من غير شعر مستعار ، وجلس الى المائدة ، كئيباً متجهم الوجه يفكر : « لقد اخبرت فرانكلين انـي سوف اذهب . لقد اخبرت راش — لماذا لا افعل ؟ » ولكنْ لا بأس . كانت الجيوش قاعدة لا تأتي عملاً . وطبعاً أعطِ شيئاً ما فرصة تجده ينشط ويثمر . وعلى المائدة ، كانت لوحة ضخمة من الورق المقوى تمثل كتاب « حصافة » .

وقال مدير الانخاب ثاديوس غرين :

— « اوه ، اي مجد خلعه هـذا الاجنبي على قضيتنا ! اوه ، إن كلماته النارية سوف تعيش الى الابد ! »

وكان غرين قد أقبل بثياب الحرس الوطني الرسمية ، بالازرق والاصفر . ثم أضاف صائحاً :

— « أليس خليقاً بالرجال الاحرار أن يجودوا بأرواحهم في حبور ؟ »

وكان « بين » يوشك ان يقع صريع الراح . لقـــد شرب اثنين وثلاثين نخباً ، فاذا به يدفن رأسه في طبقه ، واذا باللعاب يسيل من فمه . وكان الجمع كلهم قد تعتعهم السكر فهم ينخرون ، وهم يروون الحكايات القذرة ، رافسين النوادل القائمات على خدمتهم ، موسخين ثيابهم الرسمية الفاخرة ، هاتفين فجأةً :

– « لعن الله الملك جورج ! »

– « الحرية الى الابد ! »

وتمتم « بين » :

– « مثل هذا . ههنا مجد الرجال الاحرار . »

كان جيفرسون قد سأله ان يحضر . فجلس هناك في احدى زوايا الغرفة ، مستشعراً وكأنه مخبول ، واضعاً يديه على ركبتيه ، فيما كان جيفرسون يصور رَجْع واشنطون لدن قراءته الكتاب .

وقال جيفرسون :

– « لقد أسديت خدمة جليلةً لبلادك . »

ولم يجد « بين » مناصاً من التفكير في مبلغ الفراغ والبلاهة اللذين تنطوي عليهما هذه الكلمات . فما هي بلاده ؟ ومن يكون هو بالنسبة إلى هؤلاء المثقفين الارستوقراطيين ، الدمثي الاخلاق ، الغارقين في الموشّى من الثياب ، ذوي النزعات الديموقراطية ؟ ولماذا يستشعر دائماً أنه مخبَّلٌ أو مجنون ؟

وتابع جيفرسون حديثه :

– « طبعاً ، لقد قلتَ ما كنا جميعاً نفكر فيه ، وما كنا نقوله ايضاً . ومع ذلك فيجب على المرء ان يقول شيئاً لكي يفهمه الناس ويدركوه ، وهو حكم يصحّ حتى على رجل مثل واشنطون ، وليس واشنطون مجنوناً ، كما تعـــلم . لقد قال كتابك ذلك الشيء – وقاله لكل انسان . وها نحن الآن نطالب بالاستقلال . »

فقال « بين » :

– « كنت أنتظر . انا لم أكن قط واثقاً كل الثقة . »

– « وما الذي سوف تفعله الآن وقد اقتنعت واطمأن قلبك ، واني لواثق من ذلك ؟ »

– « سوف ألتحق بالجيش . »

– « وهل هذا من الحكمة ؟ »

وهز « بين » كتفيه . لقد كان في محاولة زحزحته عما اعتزم وفي هذا الموقف المتشامخ الزاعم انه ليس في ميسور المرء ان يخدم الحركة التحررية بأن يحمل بندقية في يده بل بأن يقيم ههنا في فيلاديلفيا متشدقاً متفحّصاً – لقد كان في ذلك ما يحطم أعصابه ويزعزع من عزيمته . وشيئاً بعد شيء انتهى الى ان يدرك ان رجال المستعمرات العظام أولي الخطر هؤلاء ، حتى جيفرسون الذي كان تفكيره عقيدة وديناً ، نظروا اليه بوصفه ضرباً من الحيوان المنفّذ ، فلاحاً مهمته ان يمثل الفلاحين الذين لا يحصيهم عدّ والذين سوف يؤلفون جيش الثورة ، ومهيجاً ثورياً بارعاً يفيدون منه في تحقيق أغراضهم .

وحين هاجم بعضهم ، في الصحف ، الحركة الثورية وفكرة اميركة المستقلة ، فردّ عليه « بين » في خشونة وعنف ، صفّق له القوم تصفيقاً كريماً .

وقال جيفرسون :

– « نحن في لجنة الآن – فرانكلين وآدمز وشيرمان وليفنجستون – واني لأضعُ مسوّدة الاعلان الذي ينادي ، بكل بساطـة وصفاء ، بالاستقلال . وأريد منكم ان تعرفوا انني أفيد من كتاب « حصافة » وإني بذلك لفخور . »

– « ولكنه ليس فخوراً الى درجة تحمله على ان يضمني الى اللجنة ، » كذلك فكّر « بين » ، ومـع ذلك فقد استشعر ضرباً من الارتياح

لبقائه خارجها ، ولأن في استطاعته ان يوجّه نفسه وفقاً لرغباته الخاصة .
ثم انه سأل :

— « ومتى تتوقع ان يجري التصويت عليها ؟ »

— « في تموز ، على ما أظن . »

— « وعندئذ ستصبح الولايات المتحدة الاميركية ؟ »

وهنا تبسّم جيفرسون وهزّ كتفيه :

— « نحن مدينون لك بشيء كثير . »

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « انا لم اعمل شيئاً . »

وفي ثقة بالغة بالمستقبل قال جيفرسون في أناة :

— « اذكُرْ ، يا « بين » ، انه إذا ما انبثق من هذا شيء واقعي وراهن ، دولة جمهورية ، فانك لن تجدها عقوقاً ناكرة للجميل . »

●

ثم ان الاعلان وُضع ، وأبدِع العالم المشرق الجديد . وفي مدينة فيلاديلفيا الهائجة المكتظة كانت قلةٌ تشكّ بأن الشعب سوف يهب لنصرة إعلان الاستقلال هذا ، المفرغ في قالب فخم بليغ شامل . وقال بعض الناس لبعضهم الآخر إن المجد قد وُلد في تموز ، سنة ١٧٧٦ . وتظاهروا في الشوارع هاتفين منشدين تلك القطعة من الشعر غير الموزون التي شاعت بين جنود الثورة : « لقد ذهب « يانكي دوديل » الى « لندن تاون » — ومن كان يدري انهم سوف يكونون كلهم هناك ؟ يغزون كندا ؟ لمَ لا ؟ ولمَ لا يغزون انكلترة ايضاً ؟ بل ويغزون العالم كذلك ، لكي يجعلوا من هذا النصرانيةَ الجديدة ؟ » صحيح أنه عندما قُدّم الى الكونغرس القاريّ مشروع الاعلان الذي وضعه

جيفرسون نهض بنجمان هاريسون هادراً :

— « هناك كلمة واحدة في هذا الاعلان لست أقرّها ، وهذه الكلمة هي لفظة كونغرس . »

ولكنْ من ناحية ثانية ، ألم يقطع قيصر رودني مسافة ثمانين ميلاً في اثني عشرة ساعة ، مهلكاً الخيل ، لكي يستطيع شهود المؤتمر في الرابع من تموز وتوقيع الوثيقة ؟

وشُرِّف « بين » ، شرِّف وأوذي ، عندما جاءه جيفرسون قبل بضعة ايام من تقديم الوثيقة ، وقال له في رقة ولطف :

— « دعني اقرأ هذه عليك . »

فقال بين » :

— « إقرأها اذا أردت . »

— « انها في الختام ، في الخلاصة ، ولقد صغتها انت . يا آلهي ، نحن لا نعرف كم نحن مدينون لك يا توماس ! ان التاريخ أشبه بتدبير منزلٍ رديء يُدرج في دفتر من دفاتر الحساب . »

وفكّر « بين » :

— « لماذا لا تستمر فيها ؟ »

وقرأ جيفرسون :

« واذن ، فنحن ممثلي الحكومة الاميركية ... »

وتطلع الى الرجل المنحدر الكتفين ، الاشعث الشعر ، الذي أعطاه تلك العبارة وقال :

— « كيف تجد جرسها ؟ »

— « إقرأها ! »

— « ... مجتمعين في مؤتمر عام ، مُشهدين قاضي الكون الاعلى على استقامة نياتنا ، نعلن باسم شعب هذه المستعمرات الطيب وبتفويض منه في مهابة وخشوع ، ان هذه المستعمرات المتحدة هي ، وبحكم الحق يجب

ان تكون ، ولايات حرة ومستقلة ، وأنها في حِلٍّ من أيمّا ولاء للعرش البريطاني ، وان كل علاقة سياسية بينها وبين بريطانيا العظمى قد انقطعت ، وينبغي ان تنقطع ، بالكلية ، وانها بوصفها ولايات حرة ومستقلة تملك الحقّ كله في ان تشنّ الحرب ، وتجنح الى السلم ، وتعقد المعاهدات ، وتحمي التجارة وتمارس جميع الاعمال التي يحق للدول المستقلة ممارستها . ومع الاتكال الراسخ على حماية العناية الالهية ، نتعهد جميعاً بنصرة هذا الاعلان ، بأرواحنا ، وأموالنا ، وشرفنا المقدس ... »

وقال « بين » :

— « حسناً ، قضي الامر . »

— « اجل ... »

وكان يجول في خاطر « بين » انه لم يبق ثمة ما يحمله على الاقامة هنا ، وان في استطاعته ان يرحل .

•

كان روبردو ، قائد حرس بنسيلفانيا الوطني ، رجلاً بديناً ذا وجه احمر كالشمندر ، ووركين ضخمين ، وسترة عسكرية زرقاء وصفراء . كان من قبل تاجراً ناجحاً ، وكان على مثل اليقين من انه سوف يغدو جندياً أكثر حظاً من النجاح ، حتى اذا اعتزم ان يقود فصيلة الى آمبوي ، جنوبي غربي جزيرة ستاتن ، اقتنع بأن متاعب الجنرال واشنطن قد انقضت . لقد عرض على « بين » ان يكون أمين سره الشخصي . وكان الشركاء ، كما دعا افراد الحرس الوطني أنفسهم ، قد سلخوا أشهراً صالحة في التدرب على القتال ، وقد ألمع روبردو لـ « بين » ان الانتساب الى هذه الفرقة ينطوي على شرف عظيم .

وقال «بين» :

– «سوف آتي . أنا لا اريد ان يناط بي عمل ما . واذا ما استطعت ان اخدمك كأمين سرّ كان ذلك حسناً . »

– « إن مسألة الأعمال هذه يمكن ان تُرتب . إنني افضل ، شخصياً، ان اراك برتبة ميجور . فذلك أدعى الى الاحترام من ان تكون برتبة كابتن او ليفتننت . وعدا هذا ، فهل عندك بذلة عسكرية ؟ »

واعترف «بين» بأنه لا يملك مثل تلك البذلة.

– « مهمّ يا بني ، مهم . إننا بالبذلات العسكرية وحدها نستطيع ان نغرس في نفوس مقاتلينا روحاً عسكرية ما ، مثل تلك التي التمعت كهالةٍ حول مارلبورو الكبير ، وحول فريدريك البروسي الشهير . »

– « سوف أمضي بدونها . » كذلك قال «بين» وقد ذكر بينه وبين نفسه ما رواه الذين شاهدوا جيش واشنطن من انه لم يكن ثمة ثوب عسكري موحّد للمحاربين جميعاً.

– « اذا كانت مسألة مال ... »

– « لا ، انها ليست مسألة مال . »

كان «بل» قد اعطاه خمسين نسخة من «حصافة» ، وكانت هذه بالاضافة الى بندقية عتيقة صدئة ، وقليل من البارود والرصاص وقنينة ماء وكيس من دقيق الذرة ، تؤلف متاع «بين» كله . وأغذّ السير مع سائر الرفاق ، لانه كان راغباً في ذلك ، من ناحية ، ولأنه لم يكن يملك من المال ما يساعده على ان يمتطي صهوة جواد ، من ناحية ثانية . ورأى روبردو في اتضاع «بين» اهانة شخصية له فكان لا يكلمه طوال ساعات برمتها . ولم يلحظ «بين» ذلك او يأبه له . كان كل ما يعنيه ان يسير الآن ، كتفاً الى كتف ، مع ابناء طبقته من اصحاب الدكاكين والموظفين والميكانيكيين ، والحائكين ، والنجارين وأصحاب الصنائع . كان كل شيء عاطفياً حتى ذلك الحين . ولم يكونوا قد لقوا عدواً ما،

او رأوا شيئاً من الحرب . ولم يكونوا قد عرفوا شيئاً عنهـــا غير ذلك الذي سمعوه في نيو إنجلند . وفي ماساتشوستس ألم تكن الخسائر الاميركية طفيفة الى حد عجيب ؟

وفي ليلة الهجود الأول ، يوم بات الجند من غير ما خيام وهم على أهبة القتال ، جلس «بين» الى النار يسخّن طعامه ، وقد استبد به الحياء ، وعجز عن الكلام ، وترقرقت دموع الفرح في مقلتيه . كانت اصوات الجند عالية ، حييّة بعض الشيء ؛ طربة مبتهجة . كانت تقول :

— «ضوء ، ايها الرفيق ! »

— «قاسمني طعامي — عصيدة مقابل لحم خنزير مقدد ؟ »

— «ليأخذ الشيطان ذلك . إن عندي ما يكفينا معاً ، ايها الرفيق . »

— ايها المواطن ، ما رأيك في نخب نشربه ؟ »

كانت ثمة عربة ملأى بشراب الـ «روم» المعبأ في براميل مطوّقة بالحديد . وفتح روبردو ، وهو يربت على وركه الضخم ، واحداً منها . وشربوا نخب الكونغرس ، وواشنطن ، و «لي» ، وجيفرسون الذي صاغ اعلان الاستقلال بمثل تلك البراعـــة والجمال ، ونخب بنجمان فرانكلين العجوز . وانطلق صوت شابٌ جهوريّ صافٍ يتغنى :

ايه يا سوات بنسلفانيا الرائعة
ايه ايتها المروج ذات الخضرة الحرجية
ايه ايتها الطيور والعنادل ،
ايه ، ايتها الأرياف ، بين الأرياف ،
ان احراجنا هي الفضلى .

وكان «بين» لا يُحسن حفظ الألحان ، ومع ذلك فقد أخذ يتغنى مع الآخرين . لقد كان رجال المدفعية فوق طوق مدفعهم ، مترنحين الى امام والى وراء ، على أنغـــامِ مدكّات بنادقهم . وسحبت النيران

حجاباً من الشرر نحو السماء . وهبّت ريحٌ حلوةٌ باردة من ناحية الغرب. كان ذلك كل ما فكّر فيه توم بين او حَلُم بــه عمرَهُ كله : أن يسير ابناء العامة معاً ، كتفاً الى كتف ، البنادقُ في أيديهم ، والحبُّ في قلوبهم .

لقد تحقق حُلم «بين» فهو يقول لنفسه :

«من ذا الذي يستطيع ان يقيس القوى المنطلقــة ههنا ؟ إن ذوي الارادة الحسنة من الرجال سوف يزحفون جنباً الى جنب مدركين حقيقة قوتهم . وبهذه القوة التي نملك ، من ذا الذي يستطيع ان يوقفنا او يعوق سيرنا ؟ أيّ شيء لا نستطيع تحقيقه ، اية عوالم جديدة ، أية أمجاد ، اية وعود ؟ !»

حتى اذا اشرق صباح اليوم التالي انتهت هذه الروعة وذلك السمو الى ان يصبحا شيئاً عادياً . ان الرفيق هو رفيق ، ولكنّ البثْرة التي تنشأ على عقِب المرء لا تُهمل او يُسْخر منها . لقد ظلتْ قضية الاستقلال الماجدة قضية ماجدة ولكن البنادق القديمة لم تَغدُ اخف ثقلاً . فقد كانت معظم البنادق التي يحملونها حديثة من صنع آنسون شميدت، وهو صانع بنادق تتعارض نظرياته في العمل ونظريات اصحاب الصناعة في الأقطار النائية . ففي الأجزاء الداخلية من بنسيلفانيا صُنعت بندقية حربية تتميز بأنها هزيلة خفيفة ذات اسطوانة طويلة . وكانت تطلق كتلاً رصاصية في حجم الحمصة الكبيرة وتصيب الهدف في دقة مذهلة من مسافة تزيد مئة ياردة ، على الاقل ، من مرمى سائر البنادق المعروفة لذلك العهد . ولكن شميدت زعم ، في كثير من الحق ، ان مثل هذه البندقية لا يمكن ان يفيد رجلاً لا يُحسن الرماية . من اجل ذلك جعل بندقيته ، «السيدة الوطنية» كما دعاها ، عريضة الفوهة ، مطوّقة بالحديد، ثقيلة كمدفع صغير . وكان في ميسور المرء ان يشحنها بأي شيء اراد: بالرصاص ، والمسامير والزجاج والشريط المعدني ، والحجارة ، فاذا

هي فعّالة الى حدّ وحشي من على مدى ثلاثين ياردة . وكان عيبها الأعظم انها تحتاج الى رجل قوي يحملها .

وكان الحرس الوطني ضعيفاً . لقد حملوا بنادقهم ساعات بكاملها ليخطر لأحدهم بعدُ ان يطرح سلاحه على عربة مؤن . وما هي الا فترة حتى كانت عربات المؤن تئن تحت ثقل مئات البنادق ، فثار روبردو وصاح متسائلاً اي نوع من الجيش هذا الذي يسعى الى الهيجاء بغير سلاح ؟

وقال احد الجنود للجنرال :

— «نحن في مأمن ما دمت انت على فرسك ، ايها القائد البدين ! »

— « لعنك الله . سوف تُجلد مئة جلدة بسبب كلامك هذا . »

— «ومن سوف يجلدني ! »

وتراجع روبردو ، ولكنه أكد للرجل انه سوف يشكوه الى الكونغرس القاريّ . وكان الرجال متعبين ، يسيل العرق من اجسادهم ، شكسين ذوي فظاظة ، ولم يكن الظرف ليساعد على ان يبحث القائد عن المتاعب. واذ كان «بين» امين سره فقد عهد اليه في ان يكتب ما يلي الى اللجنة العسكرية :

— « لما كان احد الجند ، الكسندر هارتسون ، قد تلفظ بكلام ينطوي على خيانة .... »

فقاطعه « بين » قائلاً :

— « لن اكتب ذلك . »

— « لن تكتب ؟ »

— « ان كلامه لم يكن خيانة . من الخير له أن يُجلد بالسياط . »

فقال روبردو :

— « احسب أنني اعرف كيف أفرض النظام في فرقتي . اكتب ما أطلب اليك كتابته . تلك هي مهمتك هنا . انا لست في حاجة الى

تعليمات في الأخلاق العسكرية من أي كاتب صكوك لا يساوي بنسين اثنين . »

فحنى «بين» رأسه وقال :

- « حسن جداً . »

وكان ثمة رجل فارع الطول رخو الأوصال تعوّد السير الى جانب «بين» . وكان اسمه يعقوب موريسون ، وكان قد أقبل من « وادي ويومينغ » الآبد الجميل . لقد ماتت زوجه وطفله بالجدري ، حتى اذا سئم العيش المتوحد في الغابات المظلمة وفد على فيلاديلفيا واشتغل عاملاً في احدى مطاحن الدقيق ، وهناك التحق بالحرس الوطني . واذ كان يتنكب بندقية طويلة ويرتدي قميص قنص وساقيتين (طماقين) من جلد الوعل ، فقد كان يبدو وسط ذلك الخليط العجيب من رجال الحرس الوطني وكأنه وحده الذي يصلح ، من بينهم ، للعمل الذي انتدبوا له. ومالت نفس يعقوب هذا الى «بين» ، لسبب واحد ليس غير ، هو ان «بين» أقام على حمل بندقيته القديمة فلم يطرحها شأن سائر الجنود . ولقد قال له ذات يوم في لهجته الريفية الكسلى :

- « ايها المواطن ، ما رأيك في حربنا الصغيرة هذه ؟ »

فقال «بين» :

- «ان الأشياء تبدأ في بطء . »

- «اجل ، ولكني أحسب انسي نادراً ما رأيت جماعة من المقاتلين أضعف من هذه الجماعة . »

- « حسناً أعطهم الوقت الكافي . انك لا تصنع الجنود بين عشية وضحاها . وليس في ميسورك ان تخلق عالماً جديداً في يوم واحد . »

فقال موريسون :

- « انت انكليزي ، اليس كذلك ؟ ما الذي حملك على ان تخوض غمار هذه الحرب ؟ »

فهز «بين» كتفيه .

وقال الرجل في لهجته الناعسة :

– « أما انا فلست ابالي . انا ليس عنـــدي ما أخسره . ولكن يا إلهي ، هناك عهودٌ مضطربة سوف تأتي ... »

وفي تلك الليلة اتخذ روبردو مسلكاً جديداً ، متحولاً من التهديـــد والوعيد الى التملق والمصانعة . فأصدر امره بفتح برميل جديد من شراب الـ « روم » واعلن على رؤوس رجاله :

– « ان معنا ، ايها المواطنون ، علماً من أبعد اعلام الوطنية شهرة . انه الرجل الذي كتب بكلماته النارية كتاب « حصافة » . ولقد وافق على ان يوجه الينا كلمة موجزة عن القضية التي اعتزمنا ان نفتديها بأرواحنا : المواطن توم بين ! »

ولم يكن « بين » على استعداد . فوقف يقظان كالنائم ، وتعثر نحو ضوء النار ، وراح يتحدث في كثير من الأناة اول الأمر .

« نحن ننهض بعمل من اعمال الرجال الصغار . وذلك مـــا نحن ، رجالٌ صغار ، ايها المواطنون ، العامة من الشعب . سوف نجد هـــذا العمل شاقاً ، ولسوف نتذمر ونتشكى ، وإن بعضنا قد ينقلب على عقبيه . وأحسب ان الثورة إنما تبدأ هكذا .. »

●

كان مخيمهم الدائم في آمبوي ، حيث يصبّ نهر راريتان في خليج نيويورك الادنى . وعبر النهر كانت كثبان جزيرة ستاتن ، ووراء ذلك ، فوق مانهاتان ، كانت مسرحية فظيعة رهنَ التمثيل . كانت أوامر واشنطون تقضي بالاحتفاظ بنيويورك من طريق الحرس الوطني الخاضع لقيادته ، وعدّة افراده عشرون الفاً ، ولكن اياً منهم لم يكن جنديـــاً مدرباً –

فمعظمهم فلاحون من نيو انجلند ، وبعضهم من بنسيلفانيا ، ومن جيرزي ، وكثيرون منهم فيرجينيون ، وماريلانديون ، وهؤلاء الآخرون كانوا أفضلهم جميعاً . ولكنّ فكرة الاحتفاظ بنيويورك بمثل هذه القوة المتنافرة كانت شيئاً مضحكاً يتعذّر تحقيقه . ففي كل يوم كانت السفن البريطانية تصل الى المرفأ ، فتنزل آلافاً وآلافاً من القوى النظامية المدربة ومن الجنود الهيسيين (الالمان) في جزيرة ستاتن . وفي الوقت نفسه كان واشنطون قد شطر جيشه شطرين ، واضعاً نصف رجاله في بروكلين ليصدّوا هجوماً التفافياً قد يعزلهم فوق روابي مانهاتان الهيفاء . وجواباً عن هذه الحركة حوّل البريطانيون جزءاً من جيشهم الى « الجزيرة الطويلة » . وفي ليل ٢٧ آب شنّ الجنرال هاو هجومه . لقد وجدوا موطن ضعف في الخطوط الاميركية ، واسروا عدداً من الخفراء النيام ، وطوّقوا نصف جيش واشنطون ، ثم أطبقوا فكي الكماشة عليه ، وتقدموا لتحطيمه وإبادته .

وبشجاعته الرزينة وحسب ، وبالمساعدة التي اسدتها اليه كتيبة من الصيادين ، استطاع واشنطون أن يرتد بما تبقى من جيشه المحطّم الى نيويورك . وهناك ، وقبل ان يفرغ لاعادة تنظيم قواه ، شنّ عليه البريطانيون هجوماً جديداً وقد وطنوا النفس هذه المرة على إبادة البقية الباقية من الجيش الاميركي .

وكانوا على وشك ان يحققوا امنيتهم تلك . ذلك بأنهم بعد ان هبطوا جزيرة مانهاتان من ناحيتي النهر الشرقي و « الخليج الاعلى » أخذوا يطبقون فكي الكماشة من جديد ، مطاردين قوات واشنطون المهزومة المذعورة في سباق على الاقدام وحشي اطرحت فيه جماعات الحرس الوطني سلاحها وولت هاربة كالارانب الى الخط المحصّن الذي كان الاميركيون لا يزالون محتفظين به حيث يقوم الشارع المئة والثاني والخمسون اليوم . وأباد الجند الهيسيّ كتائب بكاملها ، ومزقوا اجساد أفرادها إرباً إرباً بالفولاذ

البارد ، وامروا قوماً آخرين . وفزعَ فريق من الحرس الوطني الى العنابر والمتابن والغابات فاختبأوا فيها ، واغرق فريق آخر نفســه محاولاً ان يسبح عبر الهدسون ويصل الى شاطيء جيرزي . ولم يوفق جزء صالح من القوات الاميركية ، التي احتفظت بنيويورك الدنيا ، الى النجاة إلا باعجوبة ، وفي اسابيع قليلة انتهى العشرون الفاً الى ان يصبحوا خمسة عشر الفاً أو أقل قليلاً .

●

وفي تلك الاثناء كان عدد المتطوعة الفيلاديلفيين يتناقص في آمبوي . لقد جاءتهم الانباء بالذي كان يجري في نيويورك ، فلم يكن لذلك من نتيجة ملموسة غير الفرار . وكانت دعوة الجنـــد بعضهم بعضاً بلفظ « الرفيق » قد اصبحت حدثاً من أحداث الماضي ..

وكان « بين » قد جادل الجنرال روبردو والكولونيل بلاكستون قائلا :

— « مـا الذي نفعله هنا ؟ هناك في نيويورك يُسحق أمـــل الجنس البشري جملةً . ما الذي نفعله هنا ؟ »

— « نقوم بمهمتنا ، وهي حماية آمبوي . »

— « لا ، لا ، وحقّ المسيح ان في استطاعتنا ان نزحف عبر جيرزي وننضم الى قوات واشنطون . وخيرٌ من هذا ايضاً ان نعبر نهر راريتان ونهاجم البريطانيين في أضعف مواقعهم ، في جزيرة ستاتن . وفي استطاعتنا ان ننطلق ، كذلك ، الى بايون .. »

وتبسم روبردو في تفضل وقال :

— « انت كاتب ، يا بين ، أو فلنقل انك حالم . الحقائق العسكرية القاسية .. »

— « ليلعنها الله ، يا سيدي . ما الذي تعرفه انت من الحقائق العسكرية ؟ »

وشاع دم الغضب في وجه بلاكستون ، ولكن روبردو اكتفى بمجرد التجهم وبَسْطِ الذراعين في عجز قائلاً :

— « كان غيرك في السابق ينقلب عليّ وينطق بكلام ينطوي على خيانة ، فاذا بك انت تنطق الآن بمثل هذا الكلام ؟ »

— « خيانة ؟ يا إلهي ، أيكون كل شيء خيانة ؟ أليس من الخيانة أن نجلس ههنا على أعجازنا ؟ »

— « أوامر ... »

— « ممّن ؟ هل ادخلت الاوامر في الحساب ان جيش واشنطون سوف يشتت ، واننا سوف نخسر نيويورك ؟ هل أطلق ايما رجل من رجالك ، حتى الآن ، رصاصة واحدة ، أو واجه عدواً ؟ »

والتفت روبردو بوجهه السمين الشبيه ، في ضعفه وعجزه ، بالهلام ، الى بلاكستون الهزيل المتأنق ، احد أفراد اسرة « بن » ، وكأنما يلتمس العون منه ، فما كان من بلاكستون إلا ان نخر كمن يهزأ بهما جميعاً .

— « هل واجبي هو واجبي ؟ قُلْ لي ؟ أألام انا اذا طُرِد جيش واشنطون من نيويورك ؟ أألامَ انا اذا كانوا قد أعطوني بدلا من الجند مستخدَمي حوانيت ؟ »

ونشطت حركة الفرار . كانت فيلاديلفيا على مقربة منهم ، ففي كل ليلة كان نفرٌ من الحرس الوطني يغادرون المخيّم تحت جنح الظلام . وفُقِد النظام بالكلية ، أو كاد ، فقد اسرف معظم الضباط في الشراب فهم مخمورون ابداً يتعتعهم السكر ، حتى اذا اعترض القائد على مسالكهم هذه سخروا منه وضحكوا في وجهه . وغضب « بين » ، وتضرّع ، ونصح . ومن عجب ان الحرس الوطني لم يكن يستشعر أيما ضيق به . بل كان افراده يقفون بين يديه وكأنهم طلبة المدارس يوبخهم مديرهم أو ناظرهم . كان عندما يجلس الى جانب النار ويتلو عليهم فقرات من كتابه « حصافة » يصيخون في انتباه بالغ ، ويستبـد بهم ضربٌ من

السحر ، فاذا به قادرٌ ، في لحظة واحدة ، على ان ينفخ فيهم روحاً جديدة وحماسة جديدة :

- « أتفهمون . ان هذا لنا ، لكم ، ولي ، ولاولادنا من بعدنا ! نحن الطليعة ، وليس الذي ننهض به الآن غير بناء عالم جديد ! »

ولكنّ جذوة الحماسة ما تلبث ان تخمد . لقد برّح بهم الحنين الى الاهل والاوطان ، وافزعتهم التقارير الواردة من نيويورك فتساءلوا : اذا استطاع البريطانيون ان يسحقوا جيش واشنطون الضخم ، فما الذي سوف يحلّ بقواتهم المرتجلة الفجة ؟

— « أصيخوا لي ، ايها الرفاق ! »

ولكنهم كانوا قد أبغضوا العالم الآن . وما الذي تعنيه الكلمات حين لا تقود الكلمات إلا الى الموت ؟ لقد غدت الثورة مهزلة ، وكان امراً مقرراً لا يأتيه الشك ان البريطانيين سوف يشنقون الثوار جميعاً ، أو يلقون بهم تحت رحمة الجنود الالمان .

●

وكما قال يعقوب موريسون ، ينبغي ان يكون ثمة عشرون نفراً على الاقل يمكن الاعتماد عليهم . فراح يستعرض الاسماء ويروز كلاً من الرجال قائلاً لـ « بين » :

— « في جيرزي اللعينة هذه ، لا بد ان يوجد بضع مئات آخرين نستطيع العثور عليهم لانشاء كتيبة من الغزاة . لقد رأيت كثيراً من مثل روبردو ، الذي لا يصلح لشيء ، والذي ستجده بعد قليل يركن هو ايضاً الى الفرار — أذكرْ كلمتي هذه . »

فهز « بين » كتفيه . وقال :

ـ « ما اظنك مخطئاً . »
فتساءل موريسون في تهكم :
ـ « وعندئذ من الذي سوف يعوق نشاطنا ؟ الكونغرس ؟ »
وجلس « بين » ، مطوقاً وجهه بيديه ، شـــاعراً بالألم يعصف في رأسه . وقال لموريسون :
ـ « انه عصيان ، هل تدري ؟ »
وسأله موريسون ما اذا كان يرغب في الشراب فقال :
ـ « لا بأس . »
ولم يبق ثمـة تظاهرٌ بصيانة الـ « روم » .فكرع كل منهما كأساً تتسع لربع غالون ، وأنشآ يطوفان مترنحين حول المخـــيم ، منشدين بأعلى صوتيهما ضروب الاغاني البذيئة الفاحشة . وكمعلم مغلوب على أمره اخذ روبردو يسبهما ويشتمهما حتى لقد اندفع موريسون اليه والحربة في يده . ووقف « بين » الى جانب عربة من عربات المؤن ، مترنحاً ، واعظاً لحرس الوطني ، الذين لم يكونوا في نجوة من السكر هم ايضاً، مستدراً االدموع الغزار ، من اعينهم ومن عينيـــه ، مراقباً بمؤخر طرفه كيف كان موريسون يطوف بالمكان مترنحاً ، ملوّحاً بالحربة ، ليسقط بعدُ على الارض صريع الخمر .
حتى اذا جدّ الجد ، صباح اليوم التالي ، لم يجدوا في المخيم كله عشرين نفراً مستعدين للانضمام اليهم ، بل لم يجدوا عشرة انفار، وحتى نفراً واحداً ايضاً . وعقد روبردو وبلاكستون وعدد آخر من ضباط الحرس الوطني مجلساً حربياً تمخض عن قرار بالانكفاء الى فيلاديلفيا . وعندما استمع الجند الى القرار يُتلى هتفوا مهللين خمس عشرة دقيقـــة كاملة . وجلس « بين » وموريسون عند جذع شجرة محطمة ، وبندقية كل منهما على ركبتـــه ، وراحا يراقبان المخيم وهو يتقوّض . ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، ولم يخاطبهما روبردو بكلمة . حتى اذا شرع

الحرس الوطني في السير الى مراكزه الجديدة تلفت بعض افراده الى الوراء ولوّحوا لها بالايدي. وأخذ موريسون يتغنى مدندناً دندنةً رقيقة، وتنهد « بين » وراح يتأمل في بندقيته العتيقة الصدئة وكأنه لم يرَ اليها قط من قبل.

وقال موريسون:

– « حتى هذه الحال لست ابالي بها. انا احسب ان عنـــدهم ما حملهم على ان يعودوا. ان الواحد من العامة، يا توم، أرنب جبان – لا تدعها تلصق في حنجرتك. »

– « لا ... »

– « أترغب في شيء من الشراب؟ »

وحنى « بين » رأسه. وفي صمت أمرّ موريسون اليه وعاءً جلدياً من الـ « روم ». وهزاه الى امام والى وراء لحظة من زمان، حتى اذا فرغ ألقيا به جانباً. وردّد « بين » بعض الجمل من كتابه:

– « انتم يا من تحبون الجنس البشري ... »

فأجابه موريسون:

– « إخرس! »

– « انتم يا من لا تجرأون على مقارعة الطغيان فحسب، بل الطغاة ايضاً، إنهضوا! »

– « لعنك الله، إخرس! »

فحنى « بين » رأسه وقال:

– « حسن، ولكنْ دعنا نخرج من هنا – دعنا نخرج من هذا المكان اللعين فلا تراه بعدُ أعيننا. »

واجتازا نهر راريتان، وانطلقا يمشيان في اتجاه « فورت لي » على الضفة الغربية من نهر الهدسون، على نحو ثلاثين ميلاً الى الشمال. كانت ثمة حامية، وكان ثمة مكان في جيش واشنطن لرجلين اثنين أبيا ان

يلقيا السلاح . وسلكا الطريق القديمة الى « اليزابيث تاون » ، متنكبين بندقيتيهما ، بعد إذ لم يبق غيرهما من حرس فيلادلفيا الوطني كله — اثنان ليس غير ، احدهما ريفي فارع الطول من ابناء الغابات ، والآخر انكليزي منحدر الكتفين عريض الرقبة مهنته ثوريّ ، اثنان ليس غير من ذلك الخليط العجيب الذي كان يجري على طول الطريق ، وفيه الفارون من الجند ، والمزارعون ، ورعاة البقر ، وحلاّبات البقر ، بل وخفراء بريطانيون يظهرون بين الفينة والفينة ليدفعوا بهم غوْصاً الى الشجيرات الغضة النامية بين الدوح الباسق . كانت جيوبهما خاويةً من المال ، ولكن الجو كان حسناً ، وكان في ميسورهما ان يناما في حقل من الحقول ، ويشويا الذرة على نار يوقدانها .

واستشعر « توم بين » شيئاً من الفَرَج عندما تشتت شمل الفيلادلفيين. لقد ذهب الضعفاء وبقي الاقوياء ، وهو لا يذكر أنه عرف من قبلُ مثل هذا الرفيق البنسيلفاني الفارع الطول ، البطيء الكلام . وتلا عليه مقاطع من « حصافة » فاذا بالاحترام يشدّ ما بينهما . واخبره موريسون كيف ماتت زوجه ومات ولده ، وخلّفاه وحيداً في الغابة المعتمة . وفيما كان الرجلان يمشيان متثاقلين يهدّهما التعب تقاسما وحدانيتهما وعرف كل منهما افكار الآخر . ولم تكن سهـــول جيرزي مغطاة في ذلك الزمان بالمصانع النافثة أدخنتها ، وبشبكة لانهائية من الخطوط الحديدية . ولكن الارض الكبريتية السبخة كانت تمتدّ ، بين شجرات الصنوبر العاقرة ، أميالاً وأميالاً ، وليس يَعمرهـــا غير الطيور الدوّارة ، والحيات والضفادع ، فهي موحشة في النهار ، ولكنها تشرق بجمال غير أرضي في الضحى وعند الغسق .

ولم يكادا يجتازان « اليزابث تاون » حتى مشيا ساعات كاملة عبرَ هذا السهل الصامت المترامي الاطراف الذي كان يذكّر « بين » بالبطاح البريطانية . وتحـــدّث الى موريسون عما شهده وهو صبي في جحيم

الـ « جن » بلندن . وانتعشت آمالها الخابية ، بعض الانتعاش ، وأمدّتهما المستنقعات المتطاولة الهادئة بشجاعة جديدة . وعندئذ سخرا من روبردو وضحكا عليه .

ثم إن موريسون اصيب بطلق ناري في رأسه من بندقية خفير بريطاني تعثّرا به في الظلام . ووقع في قلب الخفير من الرعب اكثر مما وقع في قلب « بين » فولى الادبار . ثم إن « بين » ، الذي سمع الآن أول طلقة من طلقات الحرب ، اخذ بندقية صاحبه ومضي لسبيله .

وضلّ الطريق ، وتبللت ثيابه واتسخت . وفيما هو على هذه الحال أقبل على ضوء نار بدت له الى حيث كان يجلس اثنان من الفارين ، وكلاهما فتىً في السابعة عشرة ، فما كان منهما إلا ان صوبا بندقيتيهما اليه وصاحا في وجهه :

— « من انت ؟ »

— « بين - توم بين . »

— « وماذا تريد ، عليك لعنة الله ؟ »

— « الطريق الى « فورث لي » ، هذا كل ما اريده . » كذلك قال في هدوء ، ملاحظاً في فضول تأمليّ داخليّ انه لم يخف من هذين الولدين المروّعين ، لم يخف ولكنه استشعر حزناً عميقاً وانتبه فجأة الى ضَعْف الخيوط التي نُسجت منها احلامه .

— « من هنا ، » قالا ذلك مكشرين وقد زايلهما بعض ذعرهما عندما رأياه قد جازهما وأدركا انه كان وحده .

— « الا تزال في ايدينا ؟ »

وعصف بهما عاصف من الضحك الهستيري ، بعض الشيء ، وقال احدهما :

— « انها في ايدينا . »

— « لماذا فررتما ؟ »

– « اذهب الى الجحيم ، يا ابن الزنا . هذا ليس من شأنك ! »
– « لماذا ؟ »
ثم ان الآخر رفع قميصه ليريه آثار الجلد بالسياط ، وكانت طرية ما تزال .

●

كانت « فورت لي » تقوم ، مثل قبعة منخفضة الذروة ، في اعلى الـ « باليسايد » ، تجاه « فورت واشنطون » على شاطيء مانهاتان . كانت احداهما قد سميت باسم تشارلز لي ، وهو انكليزي باع خدماته للاميركيين لقاء مبلغ ضخم من المال ، وكان طوال حياته جندياً محترفاً ، وكانت الاخرى قد سميت باسم مزارع فيرجيني تورّط في قيادة الجيوش القارية جميعاً وكان منذ شهر آب قد مُني بالهزيمة تلو الهزيمة . وكان ذلك المزارع قد خسر حتى الآن جزيرة مانهاتان كلها ولم تبق في يده غير « فورت واشنطون » وبضع مئات الفدادين من الارض المحيطة بها . كان قد طُرد من مانهاتان وكاد يُسحق كعامل عسكري في « السهول البيضاء » ، وكان يعنى الآن – بأعادة تنظيم جيشه الممزق ، ويضع خطة لحملة يشنها ، ويقرر فوق ذلك كله – ما اذا كان من الخير ان يخلي « فورت واشنطون » أو يقيم فيها .

وكان الجنرال ناثانيال غرين ، الشاب الكويكري المليح الوجه المدافع عن « فورت لي » ، يعتقد ان كلا الموقعين المتقابلين عبر نهر الهدسون يمكن الاحتفاظ به ما دام ذلك ضرورياً . كان يعتبرهما ، وفي كثير من الحق ، مفتاح الطريق الى الهدسون ، ويعتبر الهدسون مفتاح المستعمرات جميعاً . وفيما كان ، الآن ، في « فورت لي » جاءه من يعلمه بأن رجلاً قد وصل الى المخيم يدعو نفسه «توم بين» .

– « بين ؟ » كذلك تساءل غرين . كان عنـــده كتاب أو توراة صغيرة اسمها « حصافة » قد تمزقت ورقةً ورقةً بعد ان قرئت اربعاً وعشرين مرة . واردف :

–« حسناً ، إيتِ به الى هنا . تقول ان اسمه « بين » ؟ طبعـــاً ، أدخله الى هنا . »

– « انا اعرفك ولا اعرفك ، » هكذا قال غرين لـ « بين » حين وقفا وجهاً لوجه ، احدهما فارع الطول احرقت بشرته الشمس ، مليح الوجه ، لبيبٌ بارع في سترته العسكرية البرتقالية الصفراء والزرقاء التي فصلت على طراز سترة قائـــده الفيرجيني ، والآخر عريض ، ضخم الجثة ، معقوف الانف ، اشعث الشعر ، ذو لحية لم تحلق منذ ثلاثة ايام ، وثياب ملطخة بالوسخ والدم ، وسأله غرين :

– « انت « حصافة » ، أليس كذلك ؟ »

وحنى « بين » رأسه ، وتصافح الرجلان . واخذت غرين خفـــة كخفة الصبيان ، واستدعى اعوانه ، وقدمهم اليه ، ومضى الى خيمته فجاء بنسخته الممزقة من كتاب « بين » وهو يبتسم ويحاول ان يصدّق عينيه اللتين كانتا تقولان له إن توم بين قائمٌ أمامه .

– « انت لا تعرف ، طبعاً – انت لا تعرف ما الذي عناه هذ بالنسبة الينا . لقد عنى كل شيء ، هل تصدقني ؟ »

– « أريد ان اصدقك . »

– « حسن . انت تعلم اننا قد هُزمنا . لا حاجة بنا الى إخفـــاء ذلك . لقد أُخرِجنا من بروكلين ، وطردنا من نيويورك . كل ما نحتفظ به في مانهاتان هو القلعة ، ومع ذلك فالآمال تراودنـــا في استردادها جميعاً . وليست هذه الامال عسكرية كلها ولكن بعضها يتجسد في هذا الذي أعطيتنـــا إياه ، هذا الشيء المكين الحقيقي الذي يُعجزهم انتزاعه منا . لقد اشتريت بنفسي خمساً وسبعين نسخة ،

وأكرهت على قراءتها نفراً من الناس لم يفتحوا قط كتاباً في حياتهم .. »

وهزّ « بين » رأسه دهشاً .

— « والآن ، ها انت ذا هنا . تلك هي الروعة ، وجودك هنا . واقسم لك يا سيدي اني أوثر وجودك بيننا على فرقة بكاملها ، ولست أشك في ان الجنرال سوف يقول الشيء نفسه حين يلتقيك . »

وتُرك « بين » وحده يوماً كاملاً . لقد اخبر « بين » القائد غرين أن ذلك ما كان يرغب فيه ، ان يُترك وحده ، ليطوّف بالمعسكر ، ولينظف نفسه ، ويفكر . وكان ثمة اشياء كثيرة يتعين عليه ان يفكّر فيها ، كما قال لغرين . فاجابه غرين :

— « إفعل ما بدا لك . وحين تصبح على استعداد للسير نسير معاً . »

وطاف « بين » في القلعة منقلباً دائماً الى الربوة الشاهقة حيث كان يستطيع ان يستند الى جذوع الاشجار ويرى عبر امواج الهدسون الصغيرة الراقصة الى كثبان مانهاتان المشجرة الخضراء . والواقع ان « فورت لي » كانت مخيماً اكثر منها حصناً . كانت تعوزها الحماية الصالحة ، ولكنها رائعة في شموخها فوق النهر . ووجد « بين » التحدث الى رجالها ايسر مما كان يتوقع . كانوا يانكيين ، في كثرتهم ، من القرى الصغيرة القائمة في نيو انجلند الوسطى . ولكن النبأ ما لبث ان سرى في المخيم بأنه هو مؤلف « حصافة » ، وكم كانوا سعداء بأن يجدوه رجلاً لا يقل عنهم بساطةً . كانوا هم عمالاً ، فاكتشفوا فيه جميع العلائم التي تميز من يستخدم يديه في غير اقتصاد : رأوا الى كتفيه المنحدرتين ، وراحتيه الثقيلتين ، واصابعه القصيرة ، وساعديه الغليظين المفتولي العضلات . وتحدثوا اليه حديث كتابه ، فدهش إذ وجدهم يجيدون تحليل الوقائع المادية ، وتجارة المستعمرات ، وإمكانياتها في بناء السفن والحياكة والانتاج الصناعي . ولم تمضِ عشر دقائق على اجتماعهم به حتى قصوا عليه حكايات ما كان في وسع غرين ان ينتزعها منهم بأقسى العذاب والتنكيل .

لقد حدثوه عن آبائهم ، وأزواجهم ، واولادهم ، ومزارعهم . كان كثير منهم فتياناً دون العشرين ، صبياناً متوردي الخدود يحفظون صفحات من كتابه عن ظهر قلب .

وكانوا يقولون له :

- « انت تذكر يا سيدي . »

ولكنه ما كان يذكر . ولم يكن ههنا أيّ من ذلك التشخيص الخجول الذي وجده عند حرس فيلاديلفيا الوطني ، ولا شيء من كلمات الرفيق والمواطن التي سمعها هناك . لقد وقع ههنا على ادراك مقهور لما يعنيه التصدي لأحسن الجيوش في العالم وتحمُّل الهزيمة تلو الهزيمة .

وكانوا عارمي الحيوية والحدة نزّاعين الى الجدل ، ولكن ثقافتهم ما كانت تشتمل على ضروب اللباقة واللياقة . كانوا يتمخطون بطريقة قذرة تنطوي على روية وتأمل ، وكانوا يمضغون التبغ ثم يبصقونه حيث يشاءون ، ولم يكونوا على شيء من النظافة . كانوا رجساً في نظر الفيرجينيين والماريلانديين الذين كانوا يختصمون معهم ابداً . ولم يكن في ميسورهم ان يتفاهموا مع الهولنديين .

واطّرح « بين » بندقية موريسون . لقد كانت بندقيته العتيقة تكفيه ، وكان في ريب من قدرته على ان يؤذي بها أحداً حتى ولو حشاها بطلقات من حجم كبير . أما بندقية موريسون الطويلة فأعطاها الى فيرجينيّ يحسن استعمالها .

●

عندما سمع غرين من « توم بين » حكاية « الشركاء » الكاملة حنى رأسه ، في غير تأثر ، وقال :

- « طبعاً ، ليست هذه هي المرة الأولى . لقد حصل ذلك في نصف

دزينة من المواطن . لقد حصل معنا ايضاً ، في ما اظن . »

فقال « بين » :

— « لم يكونوا جبناء . »

— « الناس ليسوا جبناء . ولكن المسألة مسألة موازنة ، فأما ان يكون من الخير البقاء والقتال ، وإما أن يكون من الخير الانكفاء والفرار . »

وقال « بين » :

— « لقد اعوزتهم القيادة . وأُفرغوا في قوالب معيّنة منذ مئات من السنين لا يعلم مقدارها الصحيح غير الله ، فكيف السبيل الى إعادة سبكهم بين عشية وضحاها ؟ وفقدانهم للقيادة زادهم ضعفاً . لقد اخبرني راش ، هناك في فيلادلفيا ، ان الثورة فنّ . فما الذي نعرفه عن ذلك الفن ؟ »

— « لا شيء . »

— « ومع ذلك فلست استطيع ان أقبل الفكرة القائلة بأن قضيتنا مقدَّرٌ لها الاخفاق . هل تظن انها مخفقة ؟ »

وقال غرين لا . ولكنْ في غير توكيد .

فهز « بين » رأسه وفرك جبينه باصابعه الغلاظ قائلاً :

— « لا ، طبعاً ، إنها لن تخفق . الثورة شيء جديد ، ولسنا نعرف مقدار جِدَّتها على التحقيق . إني افكّر في بعض الاحيان ان عهداً جديداً من عهود العالم قد استُهِلَّ في نيسان من العام الماضي . »

وسأل غرين كَمْ سيدوم ذلك ؟ فقال غرين إنه لا يدري ، فقد يستمرّ عشرين سنة وقد يستمر مئة . وتبسّم الرجلان جميعاً ، فبدت اسنان غرين الضخمة القوية ، وتغضّنت عيناه الزرقاوان ازدهاءً بالدور الذي لعبه كلٌّ منهما في هذه الرواية الهزلية العجيبة . وعمرت الطمأنينة قلب « بين » اذ وجد رجلاً ينطق بما كان يجول في خاطره . وقال غرين إنه كان سعيداً بوجود « بين » هناك .

واحتج « بين » :

– « ليس في ذلك كبير غناء . »

– « لا ، انا احاول ان أتعلم كيف أُعدّ حملةً ، ولكن ايّ نفع يُرجى من ذلك اذا كانوا لا يعرفون السبب الذي من اجله يقاتلون ؟ »

– « هل تظنّ ان في استطاعتي إخبارهم ؟ »

فحنى غرين رأسه وقال :

– « أحسب ذلك . »

– « حسن . »

وسأله غرين :

– « هل تريد ان امنحك رتبةً من رتب الضباط ؟ تلك مسألة يمكن ترتيبها ، كما تعلم . من اليسير مثلاً ان نخلع عليك رتبة كابتن ، وفي استطاعتك ان تكون كولونيلاً أو ميجراً اذا شئت – فعندنا كثيرٌ من هؤلاء – شَهِد الله . »

– « لا ، لست اظن ذلك . »

فقال غرين في تردد :

– « من ناحية ، إنها مسألة احترام. »

– « اذا لم أستطع ان اكسب احترامهم بوصفي « توم بين » فلست أجد في ذلك أيما غناء . »

– « أجل ... »

– « على كل حال ، كل ما استطيع ان أقدّمه اليهم هو شروح وأسباب . أنا لا اعرف شيئاً عن القتال . »

●

كان في هاكنساك عندما سقطت « فورت واشنطون » وثلاثة آلاف

رجل من حُماتها في ايدي البريطانيين . وفي هاكنساك ، على مبعدة خمسة اميال من « فورت لي » كان يقوم معسكر اكبر للجيوش الاميركية المهلهلة ، ينتظم رجالاً من جيرزي وبنسيلفانيا ، رجالاً يعوزهم النظام والنظافة ويمشون في الارض مرحاً . وعلى الجملة فقد كان كل شيء هناك يذكّر « بين » بحرس فيلاديلفيا الوطني . وكان المعسكر يضجّ بالخدم ، نساءٌ من مختلف الاعمار وفي مختلف مراحل الفناء . وكان الرجال يربّون الدجاج والخنازير وينفقون ساعاتهم في اكتساب عداوة المزارعين المحليين التي لا تموت .

وكان غرين قد قال له :

— « إذهب الى هناك وانظر ما اذا كان في استطاعتك ان تجعل هؤلاء الخنازير يفهمون لماذا يقاتلون . »

وكشر « الخنازير » في وجهه حين تحـدّث عن الجيش الثوري . ورشقوه بالوحل عندما حاول أن يخبرهم لماذا يتعين على المرء ان يرغب في الموت من اجل هذه الحضارة الحديثة القائمة على تخوم الغابات ؛ ولأول مرة منذ سنوات عدة اضطرّ الى ان يستعمل جُمع كفّه . كان قوياً على نحو خادع ، وكانت كتفاه العريضتان تخفيان طبقات من العضل القاسي كالجلد المدبوغ . ولقد احترموه حين جندل عدداً قليلاً منهم وطرحهم على اقفيتهم .

وكشر هنري كنوكس كولونيل المدفعية البدين الذي كـان يتولى إمرة المعسكر ، وقد داخله شيء من الارتياح ، قائلا :

— « إنهم يفهمون هذه اللغة . »

كان في وقت مضى كتبياً ، بل لقد كانت لـه سابقة طفيفة في التأليف والنشر ، فلما اجتمع الى « بين » اعتبر وجوده هبـة من السماء خاصة به ، ووجد فيه شيئاً يخفف من وطأة الضجر على قلبـه . كان يتحدث معه عن النجاح العجيب الذي حظي به كتاب « حصافة » ويستبقيه

في خيمته ساعات طويلة . وإذ كان مولعاً بالشراب فقد كان كثيراً ما يسكر هو و (بين) ، ليلة بعد ليلة ، سكراً هادئاً دافئاً . والواقع ان كنوكس كان آخر رجل في العالم يمكن ان يصلح لقيادة هذا المعسكر القذر ، الفوضوي ، المتمرد . كان شاباً بديناً بسّام الوجه ، متورد البشرة ، في السادسة والعشرين من العمر . وكان يتحـــدث ابداً عن زوجته ، ولا يملّ عن حمل « بين » المرة تلو المرة على ان يحدثه حديث الرواج الذي لقيه كتابه . هل زاد ما بيع منه على مئتي الف نسخة؟ تلك كانت القصة .

وما كان « بين » يدري . كان غير واثق من ذلك ، بعد ان باعدت الايام ما بينه وبين الناشر ، وبعد أن صار الكتاب يُطبع في كل مكان من غير ترخيص .

فقال كنوكس :

— « ولكنْ ، يا رجل ، يا رجل ، لقد كسبوا من ذلك ثروة! »

— « احسبُ ذلك . »

— « وانت لم تمسّها . وحقّ الاله ، لقد كان ذلك رائعاً . »

وهزّ « بين » كتفيه . ثم إن كنوكس راح يفكر في القراء الذين ينبغي ان يكونوا قد طالعوا الكتاب . لعلّ كل امرىء يعرف القراءة في المستعمرات اطّلع عليه . ولعلهم يبلغون مليون قارىء ، اي واحداً من كل ثلاثة اشخاص — ولكن هذا كان امراً عسير الوقوع . ومع ذلك فقد كان كافياً لأن يحرك الخيال .

وسأله « بين » :

— « وهنا ؟ ما الذي نفعله ، والى اين نحن سائرون ؟ »

وقال كنوكس إنه لا يدري . لقد كانوا هناك ، وكان البريطانيون عبر النهر ، وكان يبـــدو وكأن هذا الوضع سوف يستمرّ الى ما لا نهاية . لقد كانت حالهم مخيفة اول الأمر ، وقد مُنوا بالهزيمة في كل

معركة خاضوها ، اما الآن فكانوا يتمرّسون بالقتال . ولعلّ المظاهر لم تكن لتدلّ على ذلك ما دام المعسكر هو ما هو - ولكنهم كانوا يتمرسون ويتعلمّون ...

وكان ذلك قبل بضعة اسابيع ليس غير من سقوط « فورت واشنطون». وكان القوم يحسبون ان تلك القلعة القائمة على ربوة شاهقة على الضفة الشرقية من الهدسون ، امنع من عقاب الجوّ . كذلك ظنّ غرين ، وظنّ كنوكس . ولو قد كانت تخامر واشنطون ريبة إذن لأسرّها في نفسه . وكان تشارلز لي ، الذي يقود نحواً من خمسة آلاف رجل في وستتشاستر ، هو وحده الذي أصر على ان القلعة لا يمكن الاحتفاظ بها . وهكذا كان . فقد استولى العدو على الكثبان المحيطة بها ، وارتدّ حماتها الى الوراء والتفّ حولهم البريطانيون فحالوا بينهم وبين الانسحاب، واسروا نحواً من ثلاثة آلاف من الجند الاميركي. حتى اذا شهد واشنطون ذلك كله من على متن مركب في الهدسون رأى الى آخر آماله يتقوض ويتلاشى .

وكان « بين » قد لقيه قبل بضعة ايام من سقوط القلعة ، وكان القائد الفيرجيني قد قال له في جرْس شبه يائس :

- « من الخير ان تكون معنا هنا . انهم في فيلاديلفيا لا يعرفون - هم يحسبون أنّ خوض الحروب وعمل الثورات شيء سهل جداً . »

وشكره « بين » . فقال واشنطن :

- « تحدّثْ الى الرجال . تحدث اليهم وأفهمهم هذه المسألة . »

ثم إن القلعة سقطت وبدت النهاية للعيان . وجلس « بين » في بلاهة وبلادة يراقب كنوكس الشاب وهو يبكي في غيظه وخيبة أمله . حتى اذا التفت الى الرجل الانكليزي يلتمس عنده العزاء ، انقض عليه في احدى فورات مزاجه المرير النادرة ، وصاح في وجهه :

- « يا لك من مجنون بائس لعين ! أكنت تتوقع أن لا يحدث شيء؟

أكنت تتوقع منهم ان يعطونا اميركة ؟ »

– « لا ، ولكن الحامية بكاملها ... »

فقال « بين » في وحشية :

– « ولسوف يزيدون على ثلاثة آلاف رجل قبل ان نهلك . لا تكن أبله . كفَّ عن البكاء والنحيب . أهـذا كل ما تصلح له – الدموع ؟ »

وفي هاكنساك كان المعسكر تتقوّض اركانه . ففي كل يوم كانت جماعة تفرّ منه مؤثرةً العافية . وانتقل « بين » من رجل الى رجل ، يتضرع ، ويهدد ، ويستعمل جمع كُفيه الغليظتين . وأصغوا له ، لأنه لم يكن ضابطاً ، لأنه كان اشعث الشعر رث الثياب شأنهم جميعاً ، ولأنه كان يستطيع ان يقول بضع كلمات خليقة بأن تضع قلب المرء على النار . كان الوضع صعباً ، وإنه لفي سبيله الى ان يصبح اكثر صعوبة. لقد سلمّ « بين » بذلك ، ولكنهم لم يخرجوا في نزهة،أم لعلهم خرجوا؟ إنهم لم يقبضوا رواتبهم ، حسناً ، وكذلك هو ، ومدّ يديه الى جيوبه ليريهم فراغها . وإن احذيتهم بالية مخرّقة ، حسناً ، وكذلك حذاؤه . واذن فلماذا ينقلبـون على اعقابهم ؟ وكشّر قائلاً : « انا اعرف ما الذي أعمله ، إني أحاول ان احصل على قدر من المال اعيش به منعماً »؛ كيف ؟ حسناً ، لقد اخبرهم – من ناحية – ان الولايات المتحـدة الاميركية سوف تكون مكاناً صالحاً للعيش ، صالحاً للعامل والفلاح. لقد كان يعرف . لقد كان صانع مشدات ، ومرقّع احذية ، وحائكاً ، ومأمور جمرك ، الى آخر السلسلة . ومن ناحية ثانية فأن العدوّ لن ينسى ما وقع حتى الآن . « استسلموا وعندئذ تدفعون ما تبقى من حياتكم ثمنـاً . » كذلك قال لهم . ثم إنه اختطف برميلاً صغيراً من الـ « روم » من مخزن المؤن وسكر معهم ، فأنشأوا يهدرون ويصيحون بأعلى اصواتهم . وهنا قال لهم :

— « حسن ، حسن ، ايها المواطنون . قليل من هذا وقليل من ذاك . إنا ما زلنا في اول الطريق . »

●

ثم إن العدو اجتاز الهدسون والتف حولهم ، فكان على غرين ان ينسحب بحاميته من « فورت لي » ويهبط الطريق الى هاكنساك ومنها الى نيوارك Newark ، بعد ان لم يبق منهم غير ثلاثة آلاف او اقل قليلاً ، اذا أضيفوا الى الخمسة الآلاف المرابطين في وستشاستر تحت إمرة «لي» كانوا كل ما تبقّى من العشرين الفاً الذين دافعوا عن مدينة نيويورك. وهطلت الامطار ، وتحاملوا على انفسهم وسط الوحل ، حتى إذا بلغوا نيوارك سخر منهم مواطنو جيرزي الذين كانوا على مثل اليقين من انهم الفصل الأخير من دراما بائسة . وركضوا ، وسقطوا على وجوههم ، واخترقوا البلدة لاهثين تتقطع منهم الانفاس . وما كادوا يخرجون من احد اطرافها حتى دخل العسس البريطاني من طرفها الآخر .

وتحوّل المطر الى ثلج الشتاء الاول في الطريق الى نيو برونزويك . وبدا الجنود المنسحبون تحت قطع الثلج المتساقطة في بطء وكأنهم رتل من الاشباح المحزونة البائسة ، فلست ترى منهم غير بنادق عتيقة وحراب صدئة ، وعصابة لفّت على جرحٍ وقبعة مثلثة الزوايا ههنـا واخرى هيهناك ، ومدفع او مدفعين يتدحرجان في غير لباقة ، ولست تسمع لهم صوتاً او اغنيــةً او هتافاً . وكانت الطريق محاطة بجدران حجرية ، كساها الثلج رداءً ابيض ، وكانت الحقول ميتةً باهتة ، والبيوت تلبس اقنعة من مصاريع النوافذ .

ومشى « بين » الى جانب غلام يُدعى كلايد ماتون ، من ميْن . وإذ كان « بين » يحمل بندقيته وبندقية الغلام فقد طوّقت ذراعٌ كتفه

المزيل . وقال « بين » :

— « تكون المسافة قصيرة اذا فكّر المرء في الطريق لا في الخطى.»

— « أحسب انها اطول مما ينبغي ، في الحالين جميعاً . »

— « سوف نستمتع بنار دافئة الليلة . »

— « ليس في ذلك رفهٌ كثير . إني افكر في العودة الى بلدي .»

— « ولكن بلدك ناءٍ بعيد ، ههنا رجالٌ قلائل ، ولكنهم رجال صالحون . »

ومشى بحذاء عربات الجرحى وانشأ يقصّ عليهم الحكايات.واكتشفوا فيه قاصاً بارعاً ، يُجيد خَلع الفكاهة على الاشياء بقدر ما يجيد محاكاة النبرات على نحوٍ مضحك . وكان قد التقط لهجات المستعمرات المختلفة وبرع في ادائها اداءً كان انفه الغليظ المعقوف يتساءل عن مقدار اثره في نفوس السامعين بعد كل جملة او عبارة . وعلى الرغم من كل ما لقيه في حيـــاته من مكاره فانه لم يكن اقوى جسدياً منه اليوم . كان وجهـــه العريض المغطى بالنمش يوحي الثقة . وسواء اوقف امام عربة غائصة في الطين او امام رجل مغشيٍ عليه من الاعياء ، كان منكباه الضخمان ويداه المشبهتان الواح الخشب مستعدةً ابداً للعمل راغبة ابداً فيه. وقبل ذلك ، كانت القوة البدنية لا تعني شيئاً ، قوة البغال والخيل العاملة والعبيد ، اما الآن فقد انتهت الى ان تكون شيئاً يوقع في نفسه ضرباً مسكراً من السعادة — ففي ذات يوم تخلّف هو وكنوكس والكسندر هاملتون وعشرة نفر آخرين لبعض الاغراض العسكرية ، فوفّق هو وحده الى ان يصدّ هجوماً قام به جماعة من فرسان العدوّ خائضاً وسطَ الخيل والسيوف ، خابطاً إياهم ببندقيته الكبيرة وكأنها قصبة خفيفة ، من غير ان يصيبه شيء لقاء ذلك غير جرح طفيف فوق العين وحرقة بارود على صفحة الخد . واذ تحدّث هاملتون الشاب حديث ذلك في إعجاب ، قال :

– « إنه قذرٌ زريّ الهيئة الى أبعد الحدود . ولكنه أشجع رجـل رأته عيناي ، وان له لقوة رجلٍ مجنون .. »

وحملته آثار الدم التي خلّفته اقدامهم الحافيــة في الطريق ، على ان يرفض الحذاء العالي الساق الذي قدمه اليــه غرين . ولم يكن في ذلك مخادعاً او ممثلاً . ولكنه كان يحيا الحياة الوحيــدة التي هي حياته من غير شك ، ذلك الشيء الذي يدعونه ثورة ، ويتعلّم فناً وتقنية بين هؤلاء الجنود المنهزمين ، يتعلم الحياة الوحيدة التي يجب ان يحياها .

وفي المساء أشعلوا نيرانهم حين عجزوا عن أن يخطوا خطوةً اضافية واحدة ، وكان «بين» هو الذي يقوم بمهمة الطبخ لمئة من الرجال ، و «بين» هو الذي يهــدىء مخاوف الغلمان ، و «بين» هو الذي يقرأ الرسائل التي ترد الى الجند من ازواجهم او يكتب لهم الأجوبة اليهن ، و «بين» هو الذي يجلس ويداه القويتان متشابكتان حول ركبتيه الملويتين ليشرح للقوم السبب الذي من أجلــه يقاسون هذه الآلام ، وسياســة الامبراطورية والعالم ، ونضال الجنس البشري منذ عهد الرومان الى اليوم ، يوم العامة الجديد ، لا في اميركة وحدها بل في العالم كله .

وتركه الضباط وحده . فلم يكن ثمة ما يحمله على الاجتماع بهم ، وكانوا هم بدورهم قد ادركوا ان صانــع المشدات البريطاني القذر الطويل اللحية كان واحداً من الاشياء القليلــة التي صانت ما تبقى من القضية الاميركية من الانحلال والضياع .

●

ولم يكن واشنطون ذلك الرجلَ الذي التقاه «بين» في فيلادلفيا . لم يكن الارستوقراطي الفيرجيني الفــارع الطول الانيق المظهر ، ولم يكن أغنى رجل في اميركة وامير مونت فيرنون . ولكنْ كان رجلاً شاحب

الوجه هزيلاً ، احتقنت عيناه الرماديتان بالدم ، وتلطخت سترتــه العسكرية البرتقالية والزرقاء ببقعٍ من الوسخ والدم . كان واشنطون رجلاً قال لـ «بين» :

– «كل ما تستطيع أن تعمله ... »

فحنى «بين» رأسه :

– « قليلٌ ما استطيع أن أعمله . واذا كنت تسألني ان اكتب شيئاً أجبتك بأن من العسير ان تقول لرجل يقاسي ويضحي : يتعين عليك ان تقاسي اكثر وتضحي تضحيات اكبر . »

فقال الفيرجينيّ :

– «انا لا أعرفك . ولكن ثمة اشياء كثيرة لا اعرفها الآن وكنت احسبني عرفتُها يوماً . انا لا ادري كيف اضع ثقتي في صانــع مشدات ، ولكني افعل ذلك . أنا سعيد بأن أدعوك صديقي يا « بين » وإنــي اكون فخوراً اذا ما صافحتني ، لا بوصفك مؤلف « حصافة » ولكن بوصفك رجلاً يصافح رجلاً . »

وتصافحا ، واغرورقت الدموع في عيني «بين» .

وقال واشنطون :

– « اكتب شيئاً ، اذا استطعت ، لا للجيش فحسب ، بل للبلاد كلها . لقد قربنا جداً من النهاية ... »

وكان «بين» يقول في ذات نفسه إنه مستعدٌ لان يتقبــل الموت ، مبتسماً ، من اجل هذا الرجل . يتقبل الموت او يركع على الأرض التي يطأها .

●

حسناً ، ان الكتابة هي ما ينبغي للكاتب ان يصنعه . وهكذا راح

«بين» يخربش ويخربش طوال الليل ، والطبلة بين ركبتيـــه ، ورأسه منحرفٌ لكي يلتقط ضوء النار المترنح المتذبذب . وتحلق القوم حوله ، رجالٌ عرفوا «بين» وأحبوه ، رجال لمسوا قوة ذراعيه . وقرأوا فيما كان هو يكتب ، في صوت مرتفع احياناً ، بلهجاتهم الريفية الجاسية ، المنطلقة من الأنف :

« هذه هي العهود التي تُمتحن فيها نفوس الرجال . إن جندي الصيف ووطنيّ الشمس المشرقة سوف يستنكفان ، في هذه الأزمة ، عن خدمة بلادهما ولكنّ الذي يصمد اليوم للبلاء هو الذي يستحق حب الرجال والنساء وشكرهم . إن الطغيان ، مثل الجحيم ، ليس يُغلب في سهولة .. »

وقرأوا :

«اذا كان ثمة من بلاء ، فليكن في ايامي ، رجاة ان يعيش ولدي في أمنٍ وسلام .. »

وبعيون محتقنة بالدم قرأوا وتحدّثوا في لين :

« انا لا استصرخ القلة ، ولكن الجميع . لا استصرخ هـــذه الولاية او تلك ولكن كل الولايات ، قائلاً : هبوا لنجدتنا ، أبذلوا غاية جهدكم فلأن تكون لنا قوة اكثر مما ينبغي خيرٌ من ان تكون لنا قوة اقلّ مما ينبغي ، في هذه اللحظات التي يتهدد الخطر فيها مثل هذا الغرض العظيم . دعِ الأجيال القادمة تتحدث بأنه في غمرة الشتاء ، حين لم يكن ليعمّر شيء غير الأمل والفضيلة ، هرعت المدينة والريف ، وقد داهمها الخطر المشترك ، لمواجهة البلاء ودفعه .. »

— « انا اشكر الله على عدم الخوف ، » كذلك قرأوا ، في حين التمس آخرون ممن كانوا يقفون في حافة الحشد قائلين :

— «اقرأها ، يا توم . »

— «إن جميع كنوز العالم ، في ما اعتقد ، ما كان في استطاعتها ان تغريني بتأييد حرب عدوانية ، لأنني اعتبر ذلك قتلاً وازهاق ارواح.

ولكنْ اذا ما اقتحم لصٌ بيتي ، وحرق ممتلكاتي وأتلفها ، وقتلني أو تهددني بالقتل ، او تهدّدَ منْ في بيتي ، ثم أعلن رغبته في ان يقيدني في مختلف الأحوال والظروف بارادته المطلقة ، فهل يُطلب إليّ ان أصدع بأمره ! وما همّني ان يكون من يُقدم على مثل هذا الصنيع ملكاً او او سوقة ، من ابناء بلدي او من غير ابنـــاء بلدي ، شريراً فرداً او جيشاً من الأشرار ! إننا اذا ما تعمّقنا الاشياء لم نجد ايما فرق . لا . ألا فليقولوا انـي ثائر ، فلست اجد في ذلك غضاضة : ولكني خليق بأن اعانـي بؤس الشياطين اذا ما جعلتُ من روحي بغيّاً فدنتُ بالولاء لمن كانت شخصيته شخصية رجل ابله ، عنيد ، وحشيّ ليس يصلح لشيء .. »

كانت كلماتٍ قاسية عامية يفهمونها . وفي مثل الزئير الخشن الغاضب انطلقت اصواتهم :

— « إقرأها ! »

الفصل التاسع

الحرب الطويلة

كان الجيش وراء نهر ديلاوار ينعم موقتاً بالأمن ، على الضفة الجنوبية ، عندما اعتزم « بين » ان يمضي الى فيلادلفيا مع اسرائيل بوتمان العجوز لينشر الكتاب الذي وضع . واذ قد انبثق ذلك الكتاب من أشدّ الازمات التي عرفوها حرجاً فقد دعاه « أزمة » Crisis وأجمع واشنطن وغرين على أنه قد يكون ذا غناء . وكان بوتمان ، وهو رجل مُتْعَب عالي السنّ ، ذاهباً الى التماس المتطوعين وتهدئة المدينة وإقرار النظام ، ولكنه لم يكن مؤمناً كل الايمان برسالته . وفيما كانا في بعض الطريق ، وقد امتطى كل منهما متن فرس صغير أصابه الاعياء ، التفت بوتمان الى « بين » وغمغم بكلام يُفهم منه ان كل شيء قد انتهى .

فقال « بين » :

— « حسناً ، إنه لم ينته ، اذا كان ذلك ما تعنيه . »

— « تقريباً ... » وألمع بوتمان الى أنه هو ، أي « بين » ، شاب في مقتبل العمر ، في حين انه هو ، أي بوتمان ، عجوز مشرفٌ على الهلاك . إنه يشكو الروماتيزم ، ويكره فيلادلفيا . إنه يانكيّ من الشمال ، وهو يبغض أبناء الداخل . فقال « بين » :

— « إنهم مثل غير هم من الاقوام . انك لا تجد فرقاً كبيراً في أيّ مكان . الرجال السذّج الصافون هم الرجال السذّج الصافون . »

— « أتعني أبناء الزنا القذرين الملعونين هؤلاء ؟ »

وكان « بين » قد تلقى رسالةً من روبردو ، رسالة تنطوي على توسل واعتذار . وقد جاء فيها ان الفهم يقتضي بعض الوقت ، وان كل شيء قبل المعركة كان أشبه بعاصفة توشك ان تهب ، ولكنّ أحداً لم يصدّق ذلك ، وها هي ذي العاصفة في أوجها »

وتحدّث « بين » في لهجةٍ أقسى مما ينبغي ، مُلهباً بوتمان العجوز بسياط كلامه :

— « انتم الضباط كلكم سواء : لا شيء يهمكم غير النصر العسكري. أما الرجال الذين تتولون قيادتهم فأنكم تعتبرونهم جنوداً من صفيح ! »

— « بل هم دون ذلك . »

— « أيها المجنون العجوز ، ألم نعمل ما فيه الكفاية بمجرد وجودنا ؟ أكنت تتوقع ان تُحسم المسألة كلها في أسبوع ؟ »

وحدّق بوتمان الى « بين » تحديقاً شديداً ، وخرس . ومن ذلك الحين واصلا تقدّمهما في صمت . كانت الطريق المغطاة بالثلج خاليةً ، باردة ، موحشة . وفي كل مكان من جيرزي وبنسيلفانيا كانت مصاريع النوافذ موصدة . كانت أرضاً كثيرة الشكوك نكدة ، وقد استشعر كل منهما ذلك . ثم إنهما تنفسا الصعداء حين لاحت لهما أبراج كنائس فيلادلفيا من مكان بعيد .

•

كانت مدينةً مروّعة . لقد رأى بيتاً يحترق ، من غير أن يتحرك أحدٌ لمقارعة النيران . وفي مثل شؤم الشيطان ارتفع حجاب من الدخان

وأنشأ يتدحرج على الريح في اتجاه الشرق . كانت مدينةً مروّعة لا مدينة الحب الاخوي – فههنا آلة طباعة محطمة في الشارع ، وههناك عربة محملة ببضائعَ للاستهلاك المنزلي مقلوبة رأساً على عقب . كان الناس يركضون ، ثم يستأنون في بعض المواطن ، ليعاودوا الركض من جديد. وفي زاوية أحد الشوارع كان مبشر كويكري طوّاف ينادي : « كل من يفزع الى حمل السيف بالسيف ينبغي ان يموت ! . »

وكان ثمة ، في كل مكان ، فارّون ينشرون الانباء عما جرى في طريق الانكفاء المحزون الطويل ، من نيويورك الى ترينتون ، وكيف تلاشى الجيش مثل فقاقيع الصابون ، مُرجفين ان واشنطن ،قانص الثعالب الضالّ ، قد شنق نفسه من غير ريب ، وان تشارلز لي أسيرٌ في أيدي البريطانيين ، أسروه في بيت من بيوت الدعارة ، وان الجنود انتهوا الى أن يأكلوا جلود أحذيتهم ، وان غرين خان القضية وقتل جورج واشنطن ، وان هاو أسر واشنطون ، وان الفيرجيني سوف يتولى قيادة جيش من المحافظين يحارب به أبناء أمته أنفسهم .

وكان ثمة أناس محزونون انطلقوا بعد ان ركموا كل ما يملكون في عرباتٍ كسيحة ولسان حالهم يقول : العدو هنا ، الا تعلمون ؟

وأناسٌ اشداء ذوو وجوه صارمة مضوا إلى أعمالهم والبنادق في أيديهم ولسان حالهم يقول : دعهم يُقبلون !

واناس لم يفهموا شيئاً مما كان يحدث ، على اعتبار ان السلام كان باسطاً جناحيه حتى الامس القريب .

لم تكن هي المدينة التي غادرها « بين » . إن العالم ليسير ، ثم يحدث شيء ما فجاءةً ، وعندئذ تتقوض دعائم السلم والهدوء فلا تقوم لها بعدُ قائمة . ويتجرأ اللصوص والفُتّاك ، لأنهم أول من يستشعر أن عهداً قد أشرف على النهاية ، وان الاشياء لن تعود إلى مثل ما كانت عليه أبداً .

وأبى « بل » أن يطبع ما كتبه « بين » ،وكان على وشك أن يقفل مطبعته :

ــ « أتظن اني جُننت ؟ عندما يرحل الكونغرس ، سوف ارحل .»

ــ « أنت خائف . »

ــ « أجل ، ولست مستحياً من ذلك . »

ولاحظ « بل » ان « بين » كان غيره بالأمس : رجلاً كثير الأناة ، ضخم الجسم ، رث الثياب ، تتأرجح على منكبه بندقية عتيقة ، ولكنه معتصم بالصبر راغب في الشرح :

ــ « أنت مخطئ يا « بل » . إن الانكليز لن يستولوا على المدينة ، وهناك أشياء ينبغي أن تُعمل ، سواء دخلوها أم لم يدخلوها . ان هذه المخطوطة ينبغي أن تطبع . لقد دعوتها « الأزمة » . والواقع اننا اليوم في الأزمة الأولى ، ولسوف نجتازها . في استطاعتنا ، انا وأنت ، ان نصفّ أحرفها في ليلة واحدة . »

ــ « لا ! »

ــ « لعنكَ الله يا « بل » . لقد عملتَ ثروة من كتاب « حصافة » ، ولسوف تطبع هذا إذا ما وضعتُ حربة على عنقك . ! »

ــ « لا ! »

وانقضت لحظة تطلّع كلّ منهما ، خلالها ، في عيني الآخر . ثم ان « بين » همس :

ــ « لعنك الله . »

ومضى لسبيله ، فباع الكتاب لـ « مجلة بنسيلفانيا » ، لمحررٍ قال له وهو يبتسم ابتسامة متجهمة إن الكونغرس غادر المدينة إلى بالتيمور .

وابتسم المحرر وأضاف :

ــ « الشجاعة مفهومٌ غامض . طبعاً يجب أن نصون الحكومة . »

واعتذر « بين » لاضطراره إلى أن يتقاضى تعويضاً ما . إنه لم يكتب

هذا سعياً وراء المال، كما انه لم يكتب « حصافة »طمعاً في ثروة . ولكن حين تكون معدة المرء فارغة تصبح الشلنات القليلة شيئاً ضرورياً كالتنفس . وأوضح « بين » :

— « فيلادلفيا اسوأ من الجيش . إن الجيش يقاسي البرد والجوع ولكن ثمة دائماً كسرة من خبز . أما في المدينة فليس في استطاعتك ان تمكث طويلاً إذا لم يكن في جيبك شلن واحد . »

وحنى المحرر رأسه ، وتساءل ما إذا كان في استطاعة الجيش ان يفيد منه . لقد كان يقتات مما تقتات به المدينة .

وقال « بين » في قنوط :

— « لا تتهرب . لم يبق ثمة غير قلة تجرؤ على ان تطبع ما ينبغي أن يُطبع . »

وعملا معاً في تنضيد الحروف وطبعها ، ثم طفقا يبتسمان فيما كانا يسحبان نسخة إثر نسخة من ذلك البيان الاسود اللزج الذي كتبه « بين » على جلدة طبلٍ من الطبول .

وقال المحرر :

— « إنه نار موقدة . لقد اطلعتُ على كتابات كثيرة ، ولكني لم أجد ما هو أحمى من هذه . »

وأقره « بين » قائلاً :

— « أرجو ذلك . وحقّ الاله ارجو ذلك . »

والتقى بروبردو في الشارع . وصافحه القائد وسأله أين يقيم .

— « في لا مكان . »

— « إذن امضِ معي إلى المنزل . امضِ معي . »

كان عجيباً ذلك الهدوء الذي تكشّف عنه روبردو في تلك المدينة التي يلفّها الذعرمن أقطارها .

– « ان عندك لقدراً كافياً من الهموم . »
– « لا ، تعالَ معي . »
كان روبردو أكثر هزالاً وأعلى سناً من ذي قبل . وكان في مؤخرة عينيه ظلٌ لم يلاحظه « بين » في الأيام السالفة . حتى إذا سئل عن الحرس الوطني هزّ رأسه ، وقال لـ « بين » إنه كان في ذلك الحين هزلاً ولعباً :
– « طبعاً ، أنا لم أعرف . إن احداً لم يعرف في ما أظن . هل انتهى أمر واشنطون بالكلية ؟ »
وكان « بين » قادراً الآن على ان يبتسم :
– « انت لا تعرفه . »
– « لا . أنا لا اعرفه . »
وقال لـ « بين » إنه قرأ كتابه « الأزمة » :
– « هل تعرف ما الشعور الذي أوقعه في نفسي ؟ شعرت انني فاسد – فاسدٌ تماماً . »
وحنى « بين » رأسه . لقد أحسّ بالشيء نفسه وهو يكتبه .
– « ينبغي ان يُطبع على شكل كراس ، في ما أرى . »
– « ما من احد عنده الجرأة الكافية لذلك ، اليوم . لقد سألت « بلّ » ولكنه فرّ من المدينة مع الكونغرس . والطابعون الذين اعتزموا البقاء يوصدون دونهم الأبواب . »
وأمرّ « بين » أصابعه على عنقه وقال في لوعة واكتئاب :
– « أتدري ، إني بدأت أفكّر في الحبل الذي يوشك ان يلتف حول عنقي . أنا لستُ ابالي بذلك كثيراً ، فليس عندي ما أخسره ولن يقلق أحد عليّ – ولكن ان يموت المرء شنقاً ... »
فهز روبردو كتفيه وقال :
– « ادري . فلندرس امكانية طبعه . »

— « إيتنا بشيء من الشراب . »

وأزاحت الخمر أثقالاً كانت تنقض ظهريهما . وأخبر « بين » صاحبه برأيه فيه أيام كانا في آمبوي ، فاقترح روبردو عليه ، وهو يبتسم في تجهم ، أن يمضي فيستحم . وتصافحا ، و « بين » يفكر كيف يمكن لرجل ناعم تجاوز منتصف العمر أن يتغير من حال إلى حال ، ويمكث في مدينة ميتة من غير ان يخشى التفاف حبل المشنقة حول عنقه . وانطلقا يبحثان عن مطبعة ، واشتريا واحدة صغيرة ، وجرّاها في عسر إلى منزل روبردو . وكان « بين » متعباً حتى الموت ، راغباً في قليل من النوم ، تغتمض عيناه في الحوض الذي ملأه روبردو وولده ماء ساخناً ، لينام آخر الأمر نوماً ارقاً فيما كان الجنرال قد خرج في التماس الورق . حتى إذا أفاق من سباته نسي أين كان : فراش من ريش يكاد يسيل تحت يديه ، وعدة دُثُر ، وغرفة مشرقة ذات رياش جيد .

وحين رجع روبردو كان « بين » في غرفة الاضياف يشرب فنجاناً من القهوة السوداء ويتحدث إلى فتاة مليحة الوجه ، في الرابعة والعشرين ، هي ابنة أخي روبردو . لقد حدّثها عن الانكفاء من نيويورك ، وكانت منحنية إلى الوراء تشاهد ذلك بعينيها نصف المغمضتين ، وقد توتر وجهها وتوترت يداها .

وقال « بين » :

— « ولكننا بدأنا من جديد . إن المعركة لمّا تنته . »

فحنت رأسها وقالت :

— « أستطيع أن أرى ذلك . إن الطريقة التي تحدّثني بها عنهم تجعلني أثق بأنها لن تنتهي ، لن تنتهي أبداً . ولكنْ إلام تستمر هذه الحال ؟ هل تستمر أعواماً ؟ »

وهز « بين » رأسه .

وقالت في إصرار :
– « ولكن ألا يهمك ذلك ؟ »
– « لا ، لست أنا الذي أهتم بذلك . تلك هي حياتي ، كما – ترين لا أكثر ولا أقلّ . وحين تنتهي المعركة هنا ، تبدأ في مكان آخر ، وعندئذ أنطلقُ إلى هناك . »
– « كأني بك تريـد ان تقول : حيث لا حرية فهناك مكاني ؟ »
وحنى « بين » رأسه :
وقالت الفتاة :
– « أنا أرثي لك . »
– « ولماذا ؟ أنا سعيدٌ جداً . »
– « صحيح ؟ » قالت ذلك ودمعت عيناها . ثم انهـا نهضت وغادرت الغرفة .

ورجع روبردو بعد أن وُفّق إلى شراء مئات الأرطال من الورق على اختلاف أصنافه ، وبضعة غالونات من الحبر . وكان قد عثر كذلك على طابع يملك من الشجاعة مـا يمكّنه من أن يمضي بنفسه في العمل ، وكان رجلاً ضئيل الجسم يدعى ماجين ، ولم يكن في ميسوره أن يطبع أكثر من بضع مئات في اليوم الواحـد على طابعته القديمة . وفي تلك الليلة نضد « بين » الحروف . وسلخا الايام الثلاثة التالية في طبعها ، غير نائمين إلاّ غراراً ، ملطخي الثياب بالحبر ، مشتغلين كالمجانين ابتغاء إخراج بضع نسخ من الكراس قبل أن تسقط المدينة . وأعدَت شجاعتهم الطابعين الآخرين ، فخرجوا من مكامنهم . وفي خلال أسبوع كانت « الأزمة رقم ١ » في أيدي الآلاف من الناس باعثةً حيـاةً جديدة في دورة فيلادلفيا الدموية . وأرسلت رزم من الكراس إلـى الجيش حيث تُليت في صوتٍ عالٍ . وتسرّبت رزم أخرى إلـى نيويورك ، وكان البريطانيون يحتلونها ، وقد انطوت على بيان لزجٍ

طريء الحبر يهدر بالحنق ، والأمل ، والمجد .

وفي ليلة عيد الميلاد ، حقق واشنطون المستحيل . كان جيشه ينحل كما ينحل النديّ من الرمل . ولقد وجد انه لم يعد في طاقته أن ينفذ ما كان قد رسمه لنفسه من ضرورة التراجع في اتجاه الغرب ، والأمعان في التراجع إلى ما وراء الجبال إذا قضت الحاجة لكي يجتنب بأي ثمن الالتحامَ بالقوات البريطانية . ذلك بأنه بعد أن مُني بالهزيمة تلو الهزيمة انتهى إلى أن يدرك ان خيره ليس في أن يخوض حرب معارك ، ولكنْ حربَ مسافات ، حرباً يمكن ان تستمر سنوات وسنوات ، ما دام جيشه جيشاً سليماً لم يُمسّ ، جيشاً ليس في ميسوره أن يخسره .

ولكن جيشه لم يَعُدْ سليماً . وما لم يحقق نصراً ما على أعدائه يثير خيال الشعب ، فلن تقوم له بعد اليوم قائمة . وهكذا عبر ، عشية عيد الميلاد ، نهر ديلاوار من جديد ، وهاجم معسكراً من معسكرات المرتزقة الألمان ، وكانوا في حال من السكر شديد .

وأسر واشنطون ما يزيد على ألف مقاتل منهم . فكان ذلك أول انتصار أحرزه — وما كان أحوجه اليه — ومن ذلك الحين بدأ من جديد نضالٌ كاد يشرف على النهاية .

وأنقذت المدينة . وآبَ الذين ولوا الأدبار إلى فيلاديلفيا . حتى الكونغرس رجع آخر الامر . ولنصف دزينة منهم جلسوا في أحد المقاهي قال « بين » أشياء ما كان لها ان تُنسى في سهولة ويسر . كان سكران بعض الشيء . ولقد اعتذر لروبردو اعتذاراً ضعيفاً ، « أجل كنتُ سكران . وكيف يستطيع المرء أن يراقبهم على نحو آخر ؟ » كانوا يرسمون خطط الحملات العسكرية على غطاء المائدة ، ويصورون صعوداً ونزولاً ، وإلى أمام وإلى وراء ، كيف يستطيع واشنطون أن

يكسب الحرب في شهر .. وقال « بين » :

— « اذهبوا كلكم إلى الجحيم ! »

وسألوه عن الذي عناه ، فقال إنه عنى أن بعضهم كان قد أقام في المدينة وبعضهم كان قد فرّ منها .

ودافعوا عن أنفسهم قائلين :

— « ليس من ثورة بدون الكونغرس . »

وهدر « بين » :

— « بدون الكونغرس ! نجّنا يا رب — ولكن قولوا لي ، ما الذي عمله الكونغرس ؟ إن مدينة مثل هذه لو قُدّر لها ألف رجل يرابطون في البيوت ويسدون منافذ الطرق لاستطاعت أن تقاوم إلى الأبد — إلى الأبد ، أقول لكم — فلا توفّق الامبراطورية البريطانية كلها إلى أن تشقّ طريقها عبرها . ولكن الكونغرس مضى ؛ وفقدت المدينة رشدها . إني لأقول لكم إن الذي أنقذ القضية هو واشنطون ، لا أنتم ، وبضع مئات من الشياطين الفقراء ذوي الثياب الرثة ، لا انتم ! »

كان سكران ، ولكنهم لم ينسوا ، في سرعة ، ما قاله لهم . وفي ما بينهم وبين أنفسهم قرّروا أن من الخير لهم ان يستغنوا عن « بين » ، فقد كان عامل إزعاج أكثر منه كسباً . وألمعوا إلى الثياب التي يرتديها ، وهي غير جديرة حتى بشحاذ من الشحاذين ، وإلى شعره المستعار الذي بلي وتهرأ ، وإلى انه لا يفتأ يحمل بندقيته العتيقة في الشوارع .

وكانت الجيوش قد سكنت إلى خَدَر شتاءٍ طويل ، ووقع « بين » على غرفة يستطيع أن يكتب فيها . لقد انقضت ازمة أخرى ، فاذا بالشيطان يركب قلمه . إنه لم يعد مضطراً إلى التماس الكلمات ، فهي تتدافع على القرطاس تدافعاً وتنسال انسيالاً . وكانت كل كلمة كناية عن ذكرى مريرة : « .. ما شاخ الرجال يوماً قط بمثل السرعة التي شاخوا

بها في هذه الايام » ، كذلك كتب ، « لقد حشدنا عمل جيل بكامله في حدود أشهر معدودات ... » وكان يجلس ويفكّر في هذه الأشهر المعدودات ، وبرغم انصياع اللغة له فلم يَنْقَدْ له ما كان يبتغيه . كان يبتغي تبريراً للثورة ، ومنهاجاً ، وتقدماً . ينبغي ذلك كله وليس ذلك كله غير جزء مما يطمع فيه . حتى إذا تراءت له ، من خلال العتمة ، رؤيا نصف متبلورة عن عالمٍ مُنشأٍ من جديد ، استاقه عجزه إلى مثل الجنون . وعندئذ كان يقبل على الشراب فيسرف فيه ، ويكون في إمكان النفوس التقية الصالحة ان تشير اليه بالبنان .

وكان في فيلاديلفيا ذلك الشتاء عدد قليل من القساوسة ، الذين لم يتخذوا من « بين » موضوعاً لمواعظهم . لقد زأر أحدهم :

— « أنظروا إلى هذا الرجل الذي لا يعرف التوبة ! أي قضية يمكن أن تُخدم من طريق فمٍ نجس وعقل مخمور ؟ أهذه هي الحرية ، هذا الشبح المضحك الذي يطوّف في الشوارع ، ويطعن على كل ما هو أثير لدى الجنس البشري ؟ »

وقال « بين » للقلة الذين وقفوا إلى جانبه :

— « لا ، إنها ليست حرباً ، وليست ثورة . إن اولئك الذين يكرهوننا يأكلون ثلاث وجبات في اليوم ، وينامون على فُرُش محشوّة بالريش ، وليس فيهم من يبالي بأن جيشاً بكامله منطرح هناك على الثلج ... »

●

ووافق « بل » على ان ينشر « الازمة رقم ٢ » شرط أن يقدّم اليه « بين » الورق الضروري لذلك . وحملق « بين » الذي كان جيبه خالياً من درهم واحد ، في وجه « بلّ » ولم يقل شيئاً .

حتى إذا زعم « بل » أنه يخشى كساد الكتاب قال له « بين » :
— « وهل كانت « حصافة » مشروعاً فاشلاً ؟ أنا لا أسألك ان تقدّم اليّ حساباً ولكني أسألك : هل اغتنيتَ إثر طبعهِ ام افتقرت ؟ كم مئة الف نسخة بعتَ منه ؟ »
— « هذا حديث خرافة . »
— « صحيح ؟ »
— « هذه أيام صعبة . »
وأخيراً ارتضى « بين » شرط « بل » ، وتصافح الرجلان . ومضى « بين » يلتمس الورق . وكان روبردو قد برح البلدة ، كما برحها جيفرسون . وكان فرانكلين في فرنسة ، في حين كان صهره واحداً من أشد الناس ازدراء بتوم بين . ولم يكن عند ايتكن من الورق ما يكفي لطبع عشر نسخ . وشقّ « بين » طريقه ، خلال البلدة ، مجهداً جائعاً ، محاولاً ان يجد من يبيعه بضعة آلاف من الصحائف يدفع اليه ثمنها في موعد قريب . وكان جون كامدن وليناردد فريز — وكانا يملكان مقداراً كبيراً من ورق الصحف — قد أوصيا بأن لا يَقْرَبا صاحبَ « الأزمة » . فلم يكن في ميسوره الوصول اليهما . وثار « بين » وتهدّد وتضرّع ، ولكن الموظف المهزول أصرّ على القول :
— « أنا آسف . ليس عندنا ورق للبيع . »
وكان خليقاً بأن يشتري مئة الف ورقة ، ولكن التاجر ما كان ليبيع إلا نقداً ، وبالعملة البريطانية أيضاً . وعبثاً ألحف « بين » :
— « أقول لك ، لا تنظر إلى حالي . لقد نسي الناس « حصافة » واني اليوم لشحاذ قذر وسكّير مدمن . أنا أدري ذلك ، ولكن سلْهم هل تخلفتُ عن دفع دَين ؟ سلْهم ذلك ! سَلْ هل يوجد في فيلاديلفيا رجلٌ واحد يقتضي « بين » بنساً واحداً ؟ سَلْهم ! »
وانقلب إلى ايتكن كرّة أخرى .

وقال له ايتكن :

— « إذهب إلى اليهودي ، سايمون غونزولز . »

وكان غونزولز هذا أسود ضخماً ، وكانت له لحية جعدة تغطي صدره حتى خصره . وكان يرتدي جبة مخملية وطاقية . فلم يكد يرى إلى هذا الرجل الغريب عن ملة موسى ، العابقة منه رائحة الخمر ، حتى رمقه بنظرة مستطلعة . وإذ تنشّق بأنفه المحدّد ، حنى رأسه لاسم « بين » ، وكأنما يقول : اجل ، يجب ان يجتاز العتبة . وكانت في الغرفة الكبيرة المظلمة فتاة مدوّرة ناعمة مثل الدراقة ، فحدّقت إلى « بين » تحديقاً فيه خوف ، وفيه دهش .

وقال غونزولز :

— « أنا لا أفهم كثيراً في قضايا الورق . لقد تاجرتُ بالفراء يوماً . ولكن ما الذي عملتَهُ بتجارة الفراء بثورتك وهياجك ؟ »

وهزّ « بين » رأسه ، ولم يقل شيئاً ، ولكنه توسّل بعينيه الكليلتين :

— « من الغريب اننا نحن اليهود ، على الرغم من اننا تلاميذ الكتاب ، لا نعرف كثيراً عن ذلك الذي تُطبع عليه الكلمة . ولو أردت أن أساعدك ، فإلى أين أذهب ؟ »

وقال « بين » متضرعاً :

— « في استطاعتي أن اشتري بالذهب الانكليزي . بمئتي جنيه أستطيع أن أشتري مئة الف ورقة فولسكاب — ذلك نوع فاخر من الورق ، كما ترى ، وليس من الصنف العادي المألوف . انه ورق يُصطنع للاغراض الرفيعة . ولكن صدّقني ، إن ما كتبتُهُ يجب أن يقال . ذلك كل ما أستطيع ان أشتريه . »

— « أنا أعرف ما تكتب » ، قال اليهودي ذلك في شيء من المرارة . ومع ذلك فلم يرفع « بين » عينيه عنه فيما كان يمضي إلى

صندوقه المكين المطوّق بالحديد ويعدّ المال المطلوب .

وقال « بين » :

— « أنا أبدو أشبه بشحاذ . وإنّ رائحة السكارى لتفوح مني — ولكنني أفي ديوني . »

— « هذا ليس ديناً . »

— « أقسم لك ... »

— « لا تُقسمْ ! »

ووقف « بين » لحظةً متصلب الأوصال ، مرتجفاً بعض الشيء ، ثم أخذ المال وغادر الغرفة ، غير قادر على مقاومة رغبته الملحـة في العَدْو ، قابضاً على الذهب بكلتا يديه ، مستأجراً عربةً على الطريق لكي تُقلّ الورق إلى مطبعة « بلّ » .

وطوالَ تلك الليلة ، وطوال النهار التالي ، عمِلَ « بين » مـع « بلّ » ، وقد تندّت يداه بالحبر ، وملأت الرائحةُ الطيبة الحرّيفة الهواء الذي يُطيف به .

ورجـع روبردو إلى البـلدة ، ورآه في زاويـة من زوايـا شوارعها ، فتطلّع اليه كما يتطلع المرء إلى شبح ثم أمسك باحـدى ذراعيه ، وصاح :

— « بين ! »

— « نعم ؟ »

ولاحظ روبردو انه لم يكن سكران . وقال له :

— « تعال معي إلى البيت . »

— « نعم ... »

وقاد « بين » إلى منزله ، ولكنْ كان عليه أن يسير في بطء ، حتى لا يتخلّف الرجل المتعثر عنه . وكانت ابنة أخيه هناك حين بلغاه ، وقال لهـا روبردو :

— « إيرين ، مستر بين سوف يتناول طعام الغداء معنا . »

وحنى « بين » رأسه ، وابتسم ، ولم يقل شيئاً . حتى إذا جلسوا للطعام لم يقـل شيئاً كذلك . لقـد أكل في أناة ، ولكنه أكل وأكل مبتسماً ابتسامات اعتذارية بين الفينة والفينة . وفي غير ما لباقة سأله روبردو :

— « توم ، متى كان آخر عهدك بالطعام ؟ »

— « منذ يومين ، أو ثلاثة ، في ما أظن . »

وأدارت الفتاة وجهها . وحملق روبردو في صحنه ، وقال في فظاظـة :

— « في ميسورك أن تغيّر العـالم ، ولكنك لا تستطيـع ان تسدّ رمقك ! يا إلـهي ، هل أنت مخبّل يا بين ؟ »

وكان الجواب هزة كتفٍ ، لا كلمات .

— « ما الذي سوف تفعله الآن ؟ »

— « لست أدري . أنا أكتبُ « ازمة » جديدة ، نحن في حـاجة إلى واحـدة . »

— « أنت تكتب « ازمة » أخرى ؟ « بين » ، ألا تدرك ان الحياة تسير ، حتى في أيام الحرب ، وانك لست تخدم أحداً — لا نفسك ، ولا واشنطن ، ولا قضيتنا — بتطوافك تطواف الشحاذين السكارى في شوارع فيلاديلفيا ... »

— « إخرس ! »

— « لا ، سوف أتكلم ، لأنك جـدير بأن تكون أكثر من سكير قذر ملعون . لقـد أصغيت اليك في آمبوي ، والآن ينبغي أن تصغي إليّ ! »

ونهض « بين » وقال :

— « أنا ذاهب . »

— « أيّ شيطان أنت ! إيرين ، اخرجي من هنا ! »

وخرجت الفتاة ، ولكنها تمهلت لدى الباب لحظةً ، ملقية على « بين » نظرة عطف ، نظرة لطف انساني دافئ ، حملته هي ويد مضيفه الضاغطة الثقيلة على ان يغرق في كرسيه . وجلس روبردو قبالته ، وأخرج علبة سعوطه ، وقدّمها إلى « بين » ثم ملأ كأسين بالبراندي . وشرب الرجلان وجلسا في صمت نحواً من خمس دقائق .

— « قل ما تريد أن تقوله » ، وحنى « بين » رأسه . وفي تلك اللحظة انشأ روبردو يتأمل في هذا الرجل العجيب الذي ارتضع روح أميركة كلها ووجودها كله ، حتى الكلام واللهجة .. كان في لحيته الطويلة وأنفه المعقوف ، ورأسه العاطل من الشعر المستعار شيء ضارٍ ومجيد في آن معاً ، بل لقد كانت فيه وحشية طاحنة يمكن ان تجسِّد تمثالاً منصوباً لكامل معنى الثورة والقلق والقسوة ممتزجة بنمطٍ عميق الخطوط للتوجع والفهم الانسانيين .

وقال روبردو في احتراس :

— « لنفرض انك صنعت هذه الانتفاضة . ولنقل إنه لولا كتاب « حصافة » لما كان ثمة ولايات متحدة أميركية . وإنه لولا « الازمة رقم ١ » لما كان في استطاعتنا ان نجوز شهر كانون الأول من هذا العام ونتغلب عليه . فماذا اذن : أهي البداية أم النهاية ؟ كم مرةً قلتَ إننا لا نعرف إلى الآن ما الذي حققناه ؟ وفي السرعة التي تصطنعها ، يخيّل إليّ انك ستموت في مدى ستة أشهر . »

— « أنا أصلب من ذلك . »

— « صحيح ؟ لست أظن هذا . هناك طائفة تحبك يا « بين » ، ولكن كم تبلغ عِدّةُ أعدائك ؟ »

— « إنهم كثير ، في ما أحسب . »

— « حسن . يتعين عليك أن تقاتل ، ولستَ في حال تساعدك على القتال . يتعيّن عليك أن تعيش ، وليس في جيبك بنس واحد . أصغ إليّ الآن : ان لجنة المراسلة السرية سيُعاد تنظيمها كمكتب دائم للشؤون الخارجية . وثمة وظيفة شاغرة لسكرتير رسمي ، ولسوف أحمل آدمز على ترشيحك لها . »

وتبسّم « بين » :

— « من طريق الكونغرس ؟ »

— « من طريق الكونغرس . »

وغمغم « بين » :

— « إلى الجحيم بهم . أنا رجل ثوريّ ، ولست سياسياً قذراً خسيساً . »

ولكن روبردو قال في هدوء :

— « إبقَ هنا مع إيرين . أنا ذاهب لأجتمع إلى آدمز . »

وغاب فترة طويلة . وفي اثناء ذلك جلس « بين » في كرسيّ وثير وراح يصغي إلى الفتاة وهي تعزف على الـ « كلافيكورد » . وليس من ريب في ان سنةً من الكرى أخذته ، لأنه حين فتح عينيه وجد انها انتهت من العزف وأخذت تراقبه وتتأمله .

— « متُعَب ؟ »

وقال لها ، لا ، إنه ليس متعباً . وسألها عن صاحب القطعة الموسيقية التي كانت تعزفها .

— « باخ . »

— « أرجوك أن تعزفيها من جديد . »

وخشخشت الآلة الموسيقية وكأنها عود . ولاحظ « بين » ظهر الفتاة ، وحركة رأسها ، والعضلات القوية التي تحرك أصابعها بمثل هذه الخفة .

كانت قوية مليحةً أكثر منها جميلة . وكان في شعرها لونٌ أسمر يؤذن بعِرقٍ نورماندي في مكانٍ ما من الاسرة ، ومع ذلك فقد كانت فرنسية في كل حركة من حركاتها ، واشارة من اشاراتها . وفيما هي تعزف التفتت إلى « بين » فأذهلها شيء في عينيه . ولسببٍ ما حسب « بين » أنها سوف تمضي . فسألها ان تلبث .

— « أجل ، طبعاً . »

وجلست قربه ، وقالت :

— « حدثني عن نفسك . »

وأنشأ يحدّثها ، في صوت ناعم ، وعيناه نصف مغمضتين . فبعد برهة قصيرة يعود روبردو ، وثمة أملٌ كبير في أن يوفق في مسعاه . كانت السياسة حرفة ، وكان « بين » مُتْعَباً جداً .

وقالت :

— « أحسبُ انك أغرب رجلٍ قُدّر لي أن أعرفه . أحسبُ ... »

— « ماذا ؟ »

وتقدّمت اليه وقبّلته ، فتبسّم « بين » تبسّماً عجيباً . واعترفت قائلةً :

— « طبعاً ، ليس هذا حسناً . أنت لعين ، أليس كذلك ؟ »

ولم يقل « بين » شيئاً . ثم انهما اكتفيا بالقعود في انتظار عودة روبردو .

●

وكان دَهَشُ « بين » بالغاً حين فاز بالمنصب على الرغم من المعارضة العنيفة التي أبدتها زمرةٌ صغيرة على رأسها « ويذرسبون » ، القس الاسكتلندي . وكان ويذرسبون يكره « بين » ، لا لأنه كاتب غير هيّاب ، ولكنْ لأنه كان كويكرياً وانكليزياً في وقت معاً . والواقع ان الزمرة اتهمته بكل شيء ، من قَتل الاطفال والعمل سراً لمصلحة البريطانيين ، إلى كونه ملحداً وعفريتاً من غيرِ قرنين . ولكن آدمز

وجيفرسون وغيرهما انتصروا له فانتهى الأمر بأسناد ذلك المنصب اليه . وهكذا أصبح « توم بين » سكرتير لجنة وزارة الخارجية الجديدة ، براتب قدره سبعون دولاراً في الشهر .

واسبغت عليه الوظيفة سيما احترام . فالحقّ انّ السبعين دولاراً في الشهر لم تكن ثروة ، بل انها في النقد الأميركي المصدر حديثاً كادت لا تكون شيئاً . ومع ذلك فقد كانت أكثر من كافية بالنسبة إلى حاجات « بين » البسيطة ، فهي قادرة على ان تفي الديون القليلة التي كانت عليه ، وتشتري له بذلة من الجوخ حسنة ، وتكفل له مسكناً نظيفاً وإن لم يكن رحباً ، وريشة وورقاً للكتابة ، وأماناً من الجوع .

والاحترام ، طبعاً . ذلك بأن « بين » الثوريّ لم يكن شيئاً ، و « بين » الكاتب الذي قرئ كتابه وأعيدت قراءته من قِبل كل متعلم تقريباً ، في المستعمرات الثلاث عشرة ، وتُلي على مسامع الكثرة المطلقة ممن لا يحسِنون القراءة ، والذي حمل كتابه الوزارة البريطانية على أن تلعن اليوم الذي أصبحت فيه الكلمة المكتوبة في متناول العوام — « بين » هذا لم يكن أكثر من كاتب مخربش . و « بين » واضع الكراريس الذي عمل بقدر ما عمل أيما إنسان في أميركة من أجل الأبقاء على وجود الجيش في أحرج ساعاته ، لم يكن غير محرّض على الثورة ليس غير . أما « بين » سكرتير لجنة الشؤون الخارجية فكان رجلاً ذا خطر يخالط الزعماء ويعيش مع الآلهة ، فهو قادر على أن يُسدي إلى المرء خدمات جليلة ، ويقول الكلمة الملائمة في المقام الملائم . أو هكذا ظنّ الناس . ومن هنا نعِمَ بعدد أكبر من القبعات تُرفع له ، وبعدد أكبر من التحيات توجه اليه ، وبعدد أكبر من الخصور تنحني من أجله .

وأنشأ « بين » يعيش في الأوساط السياسية العليا حيث كان البرج العاجي يحمي حتى أكثر الناس حساسية . وما هي إلاّ فترة حتى اكتشف

انه حيث تبدأ تلك الاوساط المشتغلة بسياسة المستعمرات تقف الحقيقة . فقد خاضت البلاد تلك الحرب بجيش هزيل يائس يقوده رجل هادئ عنيد يدعى واشنطون ، ومع ذلك فلم يُبدِ المؤتمر القاريّ الذي ينتظم مندوبي المستعمرات الثلاث عشرة المتحدة كبير اهتمام بهذا الجيش الصامد في الميدان .

هذا من ناحية ، وقد يقال في الدفاع عن هذه الاوساط إنها كانت عاجزةً عجزاً ليس يمكن لأيما هيئة حاكمة أن تمنى بأقبح منه وأشنع. كانت قادرة على عقد المعاهدات ولكنها عاجزة عن تطبيقها ، وكان لها الحق في سكّ النقود ولكنها لا تستطيع أن تشتري الذهب أو الفضة، وكان من صلاحيتها أن تشنّ الحرب ولكنها عجزت عن أن تجنّد مقاتلاً واحداً . وفي اسوأ لحظات الازمة ، عندما اضطرت قوات واشنطون المرتجفة المهزومة إلى أن تنتقل ، آخر الأمر ، إلى الضفة الجنوبية الغربية من نهر ديلاوار ، تخلى اولئك السياسيون عن واجبهم وفرّوا مذعورين من فيلاديلفيا إلى بالتيمور ، تاركين لواشنطون سلطات الديكتاتور الكاملة .

وكانت معرفتهم بالحرب مقصورة على الكراريس العسكرية الأميركية التي قرأوها في حمّى بالغة . وكانت لكلّ منهم نظريته الحربية الشخصية فهو يناضل من أجلها . والحقيقة العسكرية الوحيدة التي أجمع رأيهم عليها هي ان من السخرية ان تُشنّ الحرب بالاسلوب الذي لا يعرف الأميركيون غيره ، أسلوب حرب الادغال الرهيبة الصامتة التي مزقت جيشاً بريطانياً شرّ ممزّق بين كونكورد ولاكسينغتون .

وكانوا أحزاباً متنافرة . فهناك أنصار الاتحاد ومعارضوه ، وحزب الشمال وحزب الجنوب ، وأنصار التسوية واعداء التسوية ، وانصار واشنطون واعداء واشنطون . وهناك الانعزاليون الذين قالوا بأن الثورة مِلكٌ خاص بالاميركيين المتحدرين من أصل بريطاني صافٍ والنازلين

على الساحل الشرقي من أميركة الشمالية فهي حرامٌ على ما عدا ذلك من الاشخاص والمواطن . وهناك الدوليون الذين قالوا بتألف الهولنديين ، والايرلنديين ، والاسكتلنديين ، والسويديين ، واليهود ، والبولنديين ، والفرنسيين ، والالمان ، والافـادة من كل نزعة تحررية أو مناوئـة للبريطانيين في القارة الاوروبية . وعلى أية حال فلم يكن أبناء الثورة الأميركية ، ولكنْ أسلافهم غير المحاربين ، هم الذين نشطوا من أجل تضييق رقعتها وقصْرها على فئة دون أخرى .

وزاد الطين بلة انهم كانوا قد اكتشفوا الاداة الاميركية البارعـة : محاولة التأثير في أعضاء المجلس واكتساب أصواتهم .

والحق انهم اصطنعوا هذه الاداة في كل شيء : اصطنعوها لكي تحمي القوات ولاياتهم ومدنهم وقراهم . وفزع اليها الجنوبيون لكي يُعتبر التبغ مادةً ضرورية للجيش ، وأبناء « ميْن » لاقناع كل امرئ بأنه ليس في مقدور احد ان يقاتل من غير حصة غير محددة من الـ « روم » ، وتجار الصوف لكي يبيعوا بطانياتهم الصوفية بأربعة أضعاف السعر الذي بيعت به في ايما وقت مضى ، وابناء الداخل لكي يبيعوا قمحهم ، وابنـــاء نيو انجلند لكي يجعلوا الجيش يقاتل على اللبن الخاثر ، والنيويوركيون لكي يجعلوه يقاتل على لحم البقر .

ولم يكن في ميسورهم الاتفاق على شيء ، لا على شكل الاتحاد ، ولا على أهداف ما بعد الحرب ، ولا على دستور للأمة . لقد حارب الرجال الامناء الجادّون من بينهم حرباً عنيدة وسحقوا قلوبهم سحقاً ، وهكذا صُنِعَتِ الاشياء على نحوٍ ما ، وتابعت الحرب سبيلها في خُرْق ووهن .

على ذلك الوسط أقبل « بين » ، « بين » الثوريّ الذي كان الجميع ينظرون اليه نظرة الشك والريبة . ولقد نهض بعبْ عمله ، وكتب « أزمة » أخرى . لقد جلس في احدى الحجُرات ودفع قلَمهُ كموظف .

وفي بعض الاحيان كان يرى ، حين يغمض عينيه ، رجالاً في ثياب بالية يحملون راية تمثل أفعى مجلجلة . وكذلك رأى إيرين روبردو وقال :

– « انظري اليّ . هل يعجبك هذا ؟ »

– « اظن انك تبدو أجمل منك في أي وقت مضى . »

– « صحيح ؟ وأنا أقول لك إن شيئاً يموت في باطني . أنا لن أطيق صبراً على ذلك أكثر مما فعلت . »

– « سمعتُ انهم يحيطونك بأعظم الاحترام والتقدير . »

– « صحيح ؟ إنهم ينتهزون الفرصة للتخلص مني ، وكلما كان ذلك أسرع ، كان أفضل . هذه الحرب حرب شعب ، ولقد يفيق الشعب على هذه الحقيقة في يوم من الأيام . »

– « أوَ لا تستطيع أن تنسى الحرب ولو لحظةً قصيرة ؟ »

وابتسم « بين » وقال :

– « لقد قلتِ لي إنني لعين . »

– « ولكنك لا تستعصي على الأصلاح . »

وحملت العربات إلى فيلاديلفيا خمسين من الجنود المصابين بجراح خطرة . فنشط « بين » مع نفر آخرين لإطعامهم والترفيه عنهم في الكنيسة الكويكرية العتيقة التي نُقلوا اليها . لقد عرف طائفة منهم ، وعرفوه هم بوصفه « حصافة » . ولقد وجد أوراقاً من كراريسه « أزمة » بين أمتعتهم . فكانت الورقة التي تُليت عشر مرات أو يزيد تنتهي إلى ان تصبح ضمادة لجرح ، أو حشوةً لبندقية .

– « قلب جريء ، » هكذا كان يقول .

وفي ذات مساء قضى الليل كله ممسكاً بيد غلام يموت ، حتى إذا طلع الصباح غسل جسده وواراه الثرى بنفسه . ذلك بأن النساء ما كنّ يتولين أمر العناية بالمحتضرين من الجند أو بجرحاهم في ذلك

الزمان . وكان المرضون الذكور شياطين عجائز قذرين من مدخني التبغ المدمنين . وبعد ذلك بقليل قال « بين » لأيرين روبردو :

— « سوف أمضي من هنا . يجب أن أمضي . »

— « إلى أين ؟ »

— « إلى الجيش . أنا لا أصلح لهذه الأشياء . »

وتوسلت اليه ، متسائلة ما إذا كان يكفيه أن ترتمي على قدميه .. فقال :

— « أنا لا أصلح لكِ . أنا لا أصلح لشيء أبداً غير هذا الاضطراب الذي أثرتِهُ . »

ومع ذلك فقد لبث في فيلادلفيا ولم يبرحها .

●

وأطل الربيع من جديد ، وتحركت الجيوش في ميادين القتال . فلم يكد الفلاحون ينجزون حراثة أرضهم حتى حملوا بنادقهم العتيقة وأزالوا عنها الصدأ ، وانطلقوا عبر الفجاج الريفية إلى معسكر واشنطون . لقد نُسي الصيف الماضي . نسيه مستخدمو الدكاكين وغادروا رفوفهم ، ونسيه الميكانيكيون فاطّرحوا أدواتهم . إنها نشوة طرب وحماة ، وعندئذ تضع الحرب أوزارها . وإنما يفعل الربيع ذلك ، وقد أقبل فجاءةً والسماء أشد زرقةً مما كانت في أي يوم من أيام الشتاء . وسخر الجند النظامي ، وعدّته بضعة آلاف ، كما سخر اليانكيون قبلهم ، من جنود الصيف افراد الحرس الوطني الذين نظروا إلى القتال نظرتهم إلى جولة من جولات قنص الطيور في ما بين الزرع والحصاد . وراحوا يعيّرونهم بالسؤال : « أين كنتم يوم عيد الميلاد ؟ » اشارةً إلى تلك العشية التي انطلقوا فيها كالذئاب العاوية وعبروا نهر ديلاوار . كانت تلك السنة آخر

سنوات الحرب وكان في استطاعتهم أن يقيموا الدليل على ذلك بالتقاويم، والنجوم ، ومن طريق قارئات الحظ الغجريات. كانت الجرايات وافرة ، وكانت قد جاءت من نيو اورليانز ، عند مصبّ المسيسيبي ، مقادير كبيرة من البارود ، ورصاص يكفي لصنع مليون من العيارات النارية ، وثلاثة آلاف حربة اسبانية شديدة اللمعان . ولم تكن قد وُقّعت بعدُ معاهدة مع اسبانية . ولكن المزارعين البسطاء الذين انقلبوا فجأة إلى سياسيين بارعين ، تغامزوا وهزوا برؤوسهم فيما كانوا يُمرون أصابعهم القاسية على فولاذ طليطلة ؛ ان المرء ليفهم في هذه الأشياء .

وكان في نية واشنطون ان يشنّ حملة في الشمال على بورغوين ولكنّ البلاد المتوسطة كانت تنتحب طالبةً الحماية . وكان « هاو » قد عبأ جنوده البريطانيين والالمان في سفنهم الكبرى ، وليس يدري أحدٌ أين سوف يهبطون . لقد شوهدوا من نهر ديلاوار ، ثم جاء النبأ بأنهم مبحرون إلى خليج تشيزابيك . فما كان من الجيش الأميركي ، الذي عزّزه تدفق الحرس الوطني تعزيزاً كبيراً ، إلا أن شرع في الزحف نحو الجنوب .

ورآهم « بين » يتبخترون عبر فيلاديلفيا . كان الوقت صيفاً والجو حاراً ، وكانوا متجردين حتى خصورهم من الثياب ، وقد تدلّت بنادقهم على ظهورهم ، ومشت كثرتهم حافية . وعلى الجملة فقد بدوا أقوياء ، مستعدين ، حسني الهندام .

ولم يُسَرّ « بين » ولم يحظَ باهتمام ما . لقد وقف وسط الحشد الذي راح يحيي ويهتف ويلوّح للمشاة الذين أحرقتهم الشمس ، وأشرقت وجوههم بالبهجة . وكان واشنطون في سترته العسكرية البرتقالية والزرقاء ، ممتطياً صهوة جواده ، وقد بدا انضر صحة وأزهى شباباً مما كان في الشتاء الماضي . وكان إلى جانبه ذلك الصبي الذي سمع به « بين » ولكنه لم يره من قبل ، « لافاييت » الشاب اللابس سترة من أطلس وقماش أبيض مقلّم

تعلوها جدائل ذهبية . وكان ثمة هاملتون أيضاً ، وهاري كنوكس البدين ، محتضنين بندقيتين من سقط المتاع ، وناثانيال غرين الذي لوّح له « بين » بيده – ولكنّ المرء ليس يمكن أن يُرى في الحشد .

وقصد « بين » إلى بيت روبردو ، ولكن إيرين لم تكن هناك . لقد تركت له مذكرة تقول فيها إنها خرجت لتشهد العرض العسكري .

ثم انهم هُزموا في « براندیواین کریك » ، ومُزّقوا شرّ ممزّق ، وتجدّدت الحكاية القديمة ، حكاية الرجال الراغبين في ان يموتوا ولكنهم لا يعرفون كيف . حكاية الاخطاء المتعاقبة الآخذ بعضها برقاب بعض ، وكلّ منها اسوأ من سابقتها وأشنع .

وبوجه أبيض ميّت سمع « بين » الأنباء ، ومشى إلى مكتب اللجنة في خطى مثقلة مجرجرة .

– « طبعاً ، يجب أن يبرح الكونغرس المدينة ، من جديد ، » كذلك قالوا جميعاً . إن أحداً منهم لم يعرف الحقيقة عمّا حدث . كانوا يتعدون من مكان إلى مكان مثل الدجاج ، رُفعت عن أعناقها سكين الذابح . كانوا مروّعين يلفّهم الذعر .

وسرت في المدينة كلها عدوى الذعر . فالمحافظون يخشون أن ينتقم الثوار منهم قبل رحيلهم ، والثوار يخشون ان يحول المحافظون بينهم وبين الرحيل . ولم يكن أيّ من الحزبين يعلم قوة خصمه علمَ اليقين . ولكن البريطانيين سوف يزحفون إلى فيلادیلفیا . ذلك على الاقل كان أمراً واضحاً لا ريب فيه .

ولقيَ « بين » إيرين ، فقالت له ما لم تجرؤ على قوله من قبل :

– « تعال معي نفرّ بأنفسنا من هذا كله . ألم تعمل ما فيه الكفاية ؟ ألم تقاس آلاماً كثيرة ؟ لقد انتهى كل شيء الآن ، وإذا ما واصلوا القتال فكم سيدوم ذلك ؟ عشر سنوات ؟ أم عشرين ؟ « بين » ، أنا لم احبّ قطّ انساناً آخر ، وإذا ما تركتني الآن ... »

— « وإذا بقيتُ معكِ ؟ أيّ سعادة يمكن أن تنعمي بها معي ؟ أنا ليس عندي شيء ، يا إيرين ، غير قميص عتيق وقلم اكتب به . أنا موكّلٌ بمعسكرات الثورة أتبّعها . أنا كاتب مخربش ، كاتب كراريس . »

— « لن أسألك ذلك منذ اليوم ، يا بين . »

وحنى رأسه ومضى من غير ان يقبّلها ، ومن غير ان يقول كلمة أخرى . وفي اليوم التالي سمع انها وعمها غادرا المدينة . والواقع انهما لم يغادراها وحدهما . فقد قام المحافظون بمظاهرة تكشف عن مدى قوتهم ، فلا تسمع إلا شجاراً وطلقات نارية وصيحات نساء ههنا وههناك — كانت المدينة تموت ، ولكن في غير يُسر ولا رفق . وكما فعل في المرة السابقة حين هُددت المدينة بالسقوط ، حاول « بين » ان يناقش زعماء الحرس الوطني . وكان الكونغرس قد غادر البلدة ، ولم يكن قد بقي من رجاله غير واحد أو اثنين من أصدقائه ، ولم يكونا صاحبي نفوذ كبير . فعمل بمعونتهما على الدعوة إلى اجتماع عُقِد في قاعة « كاربنتر » وشهده أقل من مئتي رجل . وحين خاطبهم « بين » أصغوا في بلادة وفتور . لقد صاح فيهم :

— « المدينة هي أمنع قلعة في العالم . إنها غابة الجندي المواطن ! كل شارع يمكن أن يحوّل إلى حصن ، وكل بيت يمكن ان يُجعل مصيدة من مصائد الموت ! لقد خسر الجيش معركة ، ولكن هذه الحرب حرب شعب ، وفي ميسور الجيش البريطاني ان يَقْصِم ظهره عند قلب فيلادلفيا الجريء المقدام ... »

ولم يكن في المدينة قلب جريء . وقعد « بين » في غرفته وكتب « ازمة » أخرى ، وتحته كانت الشوارع تُخلى وتُهجر . وتفرّق شمل أنصار الثورة ، واحداً إثر واحد . وفي المساء طرقت اذنه أصداء عيارات نارية . فقد قام المحافظون بعرضٍ في الشوارع وحملوا راية كبيرة مكتوباً عليها : « الموت لكل خائن لعين ! »

وحمل «بين» بندقيته الآن . لقد رآهم يبطشون بعجوز لاحول له ولا طول ، كل ذنبه انه كان يكنس المواقد في قاعة «كاربنتر» . ولقد قضى نحبه بعد ان حرّره «بين» ونفرٌ آخرون من الخازوق الذي شُدَّ اليه . فمكثت إلى جانبه دزينة كاملة من أصحاب الافئدة الجريئة — رجال نكدون يائسون في أيديهم البنادق — ودفنوه جهاراً . وقال «بين» :

— «كان الله في عونهم يومَ الحساب !»

كانت البيوت تحترق ، وكانت جمعية الاطفائيين المتطوعين قد تناثرت بالكلية ، فالنار تلتهم المنازل وتغادر ذيل دخانها عبر السماء الزرقاء .

وفكّر «بين» دَهِشاً في أثر مثل هذه الحال في الرجال . فقد كان بين الثوار القلائل الذين ظلوا في المدينة ايتكن المنقبض الصدر ، العالي السنّ ، الذي حنى رأسه حين حدّثه «بين» عن «أزمة» جديدة ، وقال :

— «سوف أطبعها .»

— «وعندما يأتي البريطانيون ؟»

وهز ايتكن كتفيه . وبدا وكأنه لا يبالي . وتوسّل اليه «بين» ان يتخذ الخطوات الضرورية لمغادرة المدينة واخراج مطابعه منها ، ولكنه هزّ رأسه في بلاهة وقال :

— «إنما يعمل الرجل ما يقدر عليه . ليس عندي مكان آخر أذهب اليه .»

ولبث في موضعه لا يريم . وحين أقبل «بين» اوداعه قدم اليه الاسكتلندي خمسمئة ورقة طُبعت حديثاً ، وقال له :

— «إمضِ في سبيلك ، قبل ان يفوت الاوان .»

ووجد «بين» حصاناً عجوزاً مائل الظهر ، واشترى سرجاً ببضعة دولارات ، ونجا بنفسه من أحد أطراف فيلادلفيا فيما كان الهيسيون الالمان يدخلونها من الطرف الآخر . وعند قنّة بالتيمور ترجّل عن

فرسه ، وجلس يستمع إلى ضربات الطبول البريطانية .

•

وسأل نفسه :

« ما أنا الآن ؟ داعية من غير مطابع ؟ مثير ثورات يمشي متثاقلاً أمام مشهدِ الموت بعد أن فرّت الغوغاء ؟ ثوريٌّ يُعاين الجثة الميتة ؟ »

ومضى على متن فرسه العجوز مستأنياً ، متلفتاً بين الفينة والفينة إلى المدينة التي احتضنت ، في يوم ، شيئاً يدعى اميركة . واستلقى لينام في أحد الاحراج الصغيرة ، بعد ان قيّد الفرس،ووضع بندقيته إلى جانبه . ولكن أحلامه التي رآهـا لم تكن جيدة . وفي اليوم التـالي وقف عند مزرعة وصاح :

— « هالوو ! »

ولكنه طُرد . لقد حملته احدى البنادق المغروزة في فجوة ضيقة من فجوات الغابة على الابتعاد . ونادى :

— « أين الجيش ؟ »

فجاءه الجواب من الفجوة :

— « لعنة الله عليك وعلى الجيش ! »

ألم تكن الحال هكذا كلما مُنوا بهزيمة ، فالريف يَحُوْلُ اسودَ كئيباً ، والبيوت توصد مصاريعها ، والماشية حبيسة في زرائبها ، ووجه الارض كله قاتمٌ مخيف ؟ كانت الحال كذلك في نيويورك ، وفي جيرزي ، وها هي ذي الآن في بنسيلفانيا . وراح « بين » يتساءل : من الذي عمل الثورة وحارب من أجلها ، عندما كان أصحاب الاراضي البدينون المترصنون يناوئونها هذه المناوأة المروّعة . وتابع سيره على نحوٍ دائري . وذات يوم واجهَ مزرعة فاذا برصاصة تمزق قماش سترته . وفي احد حقول

الحنطة اضطجع ، وحصانه مشكولٌ إلى جانبه ، وأنشأ يتأمل غروب الشمس الدامي . إنه لم يكن ، يوماً ، غريباً متوحداً إلى مثل هذا الحد ، في مثل هذه الأرض الموحشة . ولقد بَصُر مرة بثلاثة من الثوار يمشون في طريق بعيدة حفاةً مهزولين ، بالي الثياب ، فعرفهم بسيماهم ، فلم يكد يلهب فرسه ابتغاء اللحاق بهم حتى انطلقوا في اتجاه الغابات . وتقدّم إلى امرأةٍ حلابة ، وقد اضرّ به الظمأ والجوع ، ليسألها جرعة ماء ، ففرت من وجهه إلى احد العنابر . تلك كانت ارضاً مروّعة . وتقدّم « بين » على فرسه في دوائر واسعة بطيئة . سار منذ الضحى حتى غروب الشمس ، انكليزياً متوحداً ، وكويكرياً مرتداً يلتمس سراب الليل هذا الذي يدعى الثورة . لقد اضطجع وحده جائع البطن ، وتذكّر عيني إيرين روبردو وصوتها ، وحنجرتها وثدييها الناهدين ، ولعن نفسه ، ومصيره ، وقَدَره كله ، وكلّ شيء كانه « توم بين » .

وفي احدى الليالي صدّه عن سبيله خفيرٌ شرس نصف عارٍ ، تلفّ شعره الحصيريّ ضمادة ملطخة بالدم ، وسأله :

— « من هناك ؟ لعنك الله . أجِبْ وإلا أطرتُ احشاءكَ القذرة ! »

— « توم بين . »

— « ماذا تقول ؟ »

— « اذن ، أنظر إليّ . ما هذا ؟ »

— « معسكر الجنرال غرين . فلنلقِ نظرة ... »

•

وجلس إلى المائدة يتناول مع غرين طعام الغداء . كان ذباب الخيمة المرقّعة يُذاد عن الصحاف ، وكان هامشٌ من أشجار الخريف يلقي بأوراقه على ضوء نار المخيم ، البرتقالي . وقال غرين :

– « أقول لك ، يا بين ، إنك رددتَ عليّ روحي . لقد كنتُ مجهداً حتى الموت . هل تفهم ؟ »

وحنى « بين » رأسه . كيف جاز أن ينظر اليه غرين نظرته إلى منقذ وان يبسط يده ويحاول ان يشرح لـ « بين » هزيمة الجيش في براندیواين؟ لقد أصبحا أقرب الآن ، من حيث المظهر ، مما كانا في الماضي ، بعد ان زايلت النضرة وجه غرين وبدا وهو الشاب المليح ، وقد علت به السنّ فجأة ، وبعد ان نصلت سترته العسكرية ورثّت ، وبلي حذاؤه الطويل الساق ، أو كاد .

وقال غرين ، بعد ان حدّثه « بين » بكل شيء أيضاً :

– « هكذا خسرنا فيلادیلفيا . إن رصاصة لم تُطلق ، وإن يداً لم تُرفع ، ولكنا سلّمناها اليهم غنيمة باردة وكان في ميسورها أن تكون حصناً . ألست أنت الذي قلت إن هذه الحرب حرب شعب ؟ »

– « أجل ، أنا قلت ذلك . »

– « هل تعبتَ ، يا « بين » ؟ »

– « تعبت ؟ أجل . ليس في الحرب شيء صالح ، أو لائق ، أو نبيل . أنت تقول : يجب ان أحمل بندقية وأقتل أخي ، لأن الغاية تبرر الواسطة ، لأن حريتي هي دم روحي فكيف أستطيع أن أحيا بدونها ؟ حرّرِ الرجال حتى تشرق الأرض بنور الله المقدس ! وعندئذ يولّون الأدبار ، مغادرين بيوتهم ، موصدين مصاريعهم ، مطيّرين دماغك ، إذا ما قدّر لك – لا سمح الله – ان تسألهم جرعة ماء ، ويسبّونك بوصفك قاطع طريق . لو كنّا مثل الجنود الألمان لكان الوضع مختلفاً ، ولكنا رجال من العامة ، رجال من العامة متعَبون يائسون . »

– « أجل ... »

– « وماذا الآن ؟ »

– « الله أعلم . لقد هُزِمنا وهَزَمنا . »

— « وهو ؟ »

وهزّ غرين رأسه وقال :

— « واشنطون ؟ كنا على وشك أن نهجم — وأخذه الارتباك ، وكذلك ارتبكنا جميعاً . وأحصينا جندنا فوجدنا أنه قد بقي لنا أحد عشر ألف رجل بعد هذه الهزائم كلها — وهو شيء غريب ، أليس كذلك ؟ وكانوا هم في « جيرمانتاون » ، وكانوا أقلّ من سبعة آلاف رجل ، فعقدنا النية على الهجوم . ولكننا كنا خائفين . أخرُجْ إلى الجند ، بعدُ ، وتحدّث اليهم يا « بين » ، ولسوف ترى إلى أيّ حدّ بلغ بنا الخوف . وتشاورنا في الأمر ، ولكنّ احداً لم يعرف ما الذي ينبغي أن يُعمل . ولكن « واين » ، هل تعرفه ؟ »

— « أعرفه . »

— « لقد قعد في احدى الزوايا وتظاهر بأنه يقرأ كتاباً . ولم يقل شيئاً ولكن النار كانت تتقد في صدره . وكان يتطلع إليّ في بعض الاحيان وكأنما لم يبقَ عندي مقدار جرأة فأرة . وأخيراً سأله واشنطون رأيه في الوضع وما الذي يريد أن يعمل فأجاب : ليس عندي ما أقوله » اني أريد ان أقاتل ، يا سيدي ، ان اقاتل — هل تسمعني ؟ ان اقاتل ، لا أن أولي الادبار ، ولكنْ أقاتل ! »

وغارَ صوت غرين ، فنخسَهُ « بين » :

— « ثم ماذا ؟ »

— « ثم تطلّع بعضنا إلى بعض ، لأننا كنا خائفين جميعاً — وغداً سوف نقاتل . أستحلفك بالله ، يا « بين » ، إلاّ خرجتَ وتحدّثت إلى الرجال . »

— « أجل . »

ونهض ، فأمسك غرين بذراعه :

— « ما الذي سوف تقوله لهم ؟ »

— « سأحدثهم عن فيلاديلفيا . »

— « هل تظنّ ... »

— « يجب أن يعرفوا . لقد آن لهم أن يتعلموا البغض . هذه ليست ثورة ، ولكنها حربٌ أهلية . »

●

لم يكن في ميسور « بين » أن ينسى كابوس معركة « جبر مانتلون » حتى آخر يوم من أيام حياته . ولقد كان كابوساً حقاً ، كابوساً مستحيلاً إلى درجة جعلت العمل الحقيقي مستعصياً على الرتق والوصل بعد أشهر بكاملها . ففي اربعة صفوف عمودية هجم الجند الأميركي على البريطانيين والهيسيين الذين كادوا يقعون في الشرك المنصوب لهم . ولكن الصفوف لم تستطع أن تعمل في اتساق . فقد كان الوقت ضحى ، وكان الضباب يهيمن على الميدان مثل غطاء من الدخان الكثيف . وقد ركب « بين » فرسه ومضى إلى جانب غرين ، ولكنه ما لبث أن فُصِل عنه ، وضلّ سبيله ، واندفع نحو كتيبة كاملة من القوات الأميركية كانت ضلّت سبيلها أيضاً . وأطلقوا النار عليه صائحين في هياج . واختلط بهم فوجد نصفهم سكارى ، والنصف الآخر صرعى الاعياء فهم لا يقدرون على أكثر من الوقوف في بلادة وسذاجة . ثم انطلقت عاصفة من الرصاص أمامه وتفرّق شمل الجنود . واتجه « بين » نحو مُنطَلَق الرصاص فأذا به يُلفي سيلاً مطرداً من دماء الجرحى كان معظمهم منطرحين على الطريق ، وهم أعجز من أن يقدروا على حراك . وأحال الضبابُ النهارَ إلى مثل ظلمة الليل ، ومن طريق السماع فقط استطاع « بين » أن يميز الدكتور مولافي الذي كان مع غرين في « فورت لي » . كان في مئزره الملطخ بالدماء عندما نادى « بين » ليحمل اليه ماء ، وقد ظنّه وهو ممتطٍ جواده ضابطاً من الضباط :

— « ماء ، أقول ، ماء ! »

— « ماذا هناك ؟ »

— « بين ؟ »

— « أجل ، ماذا هناك ؟ »

— « الله أعلم . « بين » ، أين أستطيع ان أجد ماءً ؟ »

وانطلق بفرسه ، فقادته الى قلب شرذمة من المقاتلين الجرمان المرتدين ثياباً خضراً ، المقرقرين بالالمانية فيما اندفعوا يمرّون به ، من غير أن ينتبهوا الى وجوده . ثم إنه سمع ، من فوق جلبة المعركة ، صوت هاري كنوكس الهادر . فاتّبعه ، فرأى من خلال الضباب مدفعيين عراةً يركّزون بطاريةً مؤلفة من اثني عشر مدفعاً . كان الدم يسيل من جرح كنوكس ، والعرق يتصبب من جسده . وكان يصيح بأعلى صوته ، حتى اذا رأى « بين » اندفع نحوه وأشار الى بيت حجري كبير كان يلوح على نحو غامض وسط الضباب المتراكم .

— « انظر الى هناك ! أنظر الى هناك ! »

وكمثل السحر انبثق من غمرة الضباب والدخان خمسمئة شخص وراحوا يتسابقون عبرَ المرج الى ذلك المنزل . وفجأة انفجر البيت بالنار ، وارتدّ الشخوص على أعقابهم ، متساقطين كالأخراج المكاومة ، فأما بعضهم فاضطجع حيث سقط ، وأما بعضهم الآخر فراح يزحف ويحبو . وانطلقت من جهة أخرى عاصفة حقيقية من نار البنادق ،وصاح كنوكس في رجال مدفعيته :

— « أحشوا مدافعكم يا أبناء الزنا ! أحشوها يا أبناء السِّفاح القذرين ! »

وبرزت طائفة من الرجال ، تعدو أقصى ما تستطيع العَدْو ، ولم يدر أحدٌ ما اذا كان ذلك هجوماً أم تراجعاً . ومرّ بجانبهم ضابط يهمز جواداً فارّاً من الضباب ثم يهمزه راجعاً اليه من جديد . وأجفلت فرس « بين » ، وانطلقت تعدو حتى عاقتها عن ذلك كوكبة من الفرسان كانت تتهادى على أفراسها في تمهّل بالغ . وكان معظمهم يتكلمون البولندية ، فمضى « بين » الى جانبهم . وما هي الا فترة حتى اصطدموا بقنبلة

عنقودية مزّقتهم تمزيقاً ، وأطاحت بأفراسهم في كل جهة .

•

وسُكبت القهوة ، ووضع الكعك والدِّبس الرخيص على المائدة ذات القوائم المخلبية ، ساخنةً يتصاعد منها البخار ، فيما كانوا يفدون واحداً اثر واحد ويتجمعون حلقات حلقات . كانت الساعة التاسعة صباحاً ، بعد يوم من المعركة ، وكانوا مدعوين الى بيت « دايل » الصغير لتناول طعام الفطور . لقد وقفوا حول المائدة وليس فيهم من تحركه شهوة الى الطعام : « بين » ، وغرين ، وسوليفان ، ووواين ، وكنوكس ، وستيرلنغ ، والبولنديّ بولاسكي ، وستيفان — قيادة عليا لم يشهد أحد نظيرها تأسّفاً وتلطخاً بالدم ، وتمزّقاً وقذارة ، واعتصموا بحبل الصمت ، وران عليهم توقّع ذاهلٌ نكدٌ فيما كانوا ينتظرون واشنطون . ثم أقبل هاملتون ومضى الى المائدة وأخذ يحشو فمه ويقول :

— « جيدة ، لو علمتم . كلوا قليلاً . »

— « أين هو ؟ »

— « سوف يأتي وشيكاً . هذا فطور جيد ، ولستم تعرفون متى تحظون بآخر مثله . »

وتساءل واين :

— « غاضب ؟ »

— « كالعادة . »

ولم تكن ثمة كراسي كافية . لقد جلس بعضهم ، واستند بعضهم الآخر الى الجدار . وأمسك غرين بذراع « بين » وحنى رأسه . ثم وفدَ واشنطون ، متقدماً على نحوٍ مباشر ومن غير ان يلتفت يمنة أو يسرة . وصبّ لنفسه فنجاناً من القهوة وتناول قطعة من الكعك المصنوع

من ذرة ولبن وبيض ، وقال لهم في غير خشونة :

— « هيّا كلوا ، أيها السادة ! »

ومع ذلك فقد كانوا خائفين منه . وشرب « بين » شيئاً من القهوة، ووقف غرين مباعداً ما بين قدميه ، محدقاً الى الارض ، وكأنما كان ثمة مشكلة معقدة تتحدى فهمه . وشدّ بولاسكي شاربيه فيما كانت الدموع تترقرق في عينيه الزرقاوين الشاحبتين . وعضّ « بين » على أظافره . وقال الفيرجيني الضخم وهو يأكل في أناة :

— « لا فائدة من المناقشة في ما حدث أمس ، أيها السادة . الحديث عن الغد خيرٌ وأبقى . »

وتطلعوا اليه ، ولكن أحداً لم ينبس بكلمة .

— « ضعوا تقاريركم عن موقعة أمس . سوف نمضي في سبيلنا ، ولعل حظوظنا تمسي غير ما كانت من قبل ... »

ثم إن شيئاً ما حطّم السدّ ، فاندفعوا جميعاً يتكلمون في آن معاً — أصوات مبحوحة مُجهدة تحاول أن تخترق الضباب الذي كاد يهلكهم صباح البارحة . وأمسك واشنطون بذراع « بين » وقال :

— « قل لي ، أيها السيد ، لقد كنتَ في فيلادلفيا ، فهل كانت الحال سيئة هناك ؟ »

— « سيئة جداً . »

— « وهل تظنها سيئة جداً هنا أيضاً ؟ »

وقال « بين » في جزم :

— « لا ! »

— « لماذا ؟ »

فقال « بين » في هدوء :

— « لأنك غير خائف . »

— « لمجرد هذا ؟ »

— « لمجرد هذا . »
ثم تصافحا .

●

لقد ساروا جنوباً ليحولوا دون وصول الامدادات الى العدو ولكنهم أخفقوا في ذلك . كذلك أخفقوا في « فورت ميفلين » و «فورت ميرسير » وأخفقوا في كمين نصبوه لبضع مئات من الجنود الهيسيين ، وفي مناورة بسيطة قاموا بها لأن رجالهم تعثرت بهم الاقدام وخرّوا على الأرض إعياء . إخفاقٌ إثرَ إخفاقٍ إثر إخفاق . لقد قطعوا اثني عشر ميلاً تحت المطر ووسط الروث الرطب . ألفا رجل كانوا يتحاملون على أنفسهم من الضحى حتى الغسق ، واذا بالارض تتحول صلبةً ، ذات يوم ، تحت أقدامهم . واذا بالطرق التي كانت مستنقعات قائمة ما بين كتفي مرجة ما أو غابة ما ، شأنَ معظم الطرق في ذلك الزمان ، تصبح خطرة حادّة كصفائح الحديد المُغضّنة . ان سبيل البقرة وسط الروث ليتجمد فينقلب الى سلاح مميت . وان تموّجات الوحل لتتطلع رأسها من خلال غشاء في مثل رقة الورق . وتصبغ نقطةٌ من الدم الطريق ، ثم تعقبها أخرى ، وثالثة . وتتساقط رقاقات الثلج وكأن لحافاً قطنياً سميكاً قد فُتق وتناثر قطنه من السماء . وكعلامة على الطريق ، بدا الدم الاحمر الزاهي في الثلج الابيض البارد . وانهم ليزحفون الآن في اتجاه الشمال ، من جديد . فقد جاءهم أمر الفرجينيّ الفارع الطول بأن يلتحقوا به ، الى مكان يدعى « فالي فورج » .

— « أيها الرفاق : اني أقول ان قضيتنا حق لا ريب فيه . »

لقد تغير « بين » وذابَ لحمه . كان رجلاً قويّ الجسم ذا منكبين عريضين ويدين مثل سلّتين من قشّ ، ولكنه الآن مهزولٌ ، متخدد

الوجه ، غائر العينين . كان يمشي مع الجنود وبندقيته الثقيلة القاتلة على كتفه ، يهدّه السعال ، وتتعثر به القدم ، ويخرّ على الارض كما يخـرّ الآخرون ، ساحباً ذيل الدماء الخاص به . وهل تشتدّ عرى الاخوّة بين الرفاق الا كذلك ؟ وكرّر القول :

— « أيها الرفاق ، أقول ان قضيتنا حقّ لا ريب فيه . »

فيقول غرين ، الذي كان يقود هذا الجيش المثير للشفقة ، مخاطباً نفسه :

— « سوف يقتلونه يوماً ، لأنك لا تستطيع ان تُلهب بسياطك لحماً ميتاً . »

ولكنهم لم يقتلوه . لقد أصاخوا اليه . وسمع عشرون ممن كانوا خليقين بالفرار ، رجلاً يقول في همس :

— « إنما يحيا الناس بالمجد ، فاستمعوا اليّ ايها الرفاق . كل الاشياء تنبثق من ذلك ، وان العمل الذي اجترأنا عليه ليُعجز فهمي وأفهامكم. ولكن اذا أردتم ان تنقلبوا الى دياركم ... »

— « لعنة الله عليك ، يا « بين » ، لقد سمعنا هذا من قبل ! »

— « اذن فاذهبوا الى بيوتكم . »

وران الصمت لحظة . ثم قال أحدهم :

— « تابع كلامك ، يا توم ! »

— « الرجال صالحون » ، وتلفّت حوله الى جماعة الفقراء والشحاذين.

— « لماذا ؟ »

— « بسبب من هذه الحقيقة البسيطة نفسها : رغبتنا في الذهاب الى بيوتنا . ان الرجال الطالحين لا يريدون الذهاب الى بيوتهم . اننا رجال صالحون ، رجال هادئون ، رجال مساكين ، ونحن في سبيلنا الـــــى الاستيلاء على العالم . لقد ساقونا كالعبيد خمسة آلاف سنة ، ولكننا الآن بسبيلنا الى الاستيلاء على العالم ، وحين تنبعث أصداء أقدامنا الزاحفـــة ،

من ذا الذي يستطيع ، أيها الاصدقاء ، أن يوصد أذنيه بأصابعه ؟ ولكن هذه هي البداءة .. هذه هي البداءة. »

وقال له غرين ذات مساء :

— « أريد ان تبقى معي . توم ، أنا في حاجة اليك . اريد ان أمنحك براءة ماجر. »

وهز « بين » رأسه . وتابع غرين كلامه :

— « ولكن لماذا ؟ أنا لا أتحدث عن مكافآت ، لقد مضى ذلك الزمن. ولكن أيّ فضيلة في ان تكون لا شيء ، في أن لا تحصل على تعويض شلن واحد ، في أن تعرف أنهم إذا ما أسروك سارعوا الى شنقك بعد ساعة من الزمان ؟ »

فقال « بين » :

— « أنا لست جندياً . »

— « وهل فينا جندي واحد ؟ »

— « هذه الحرب حربك ، يا ناثانيال ، تقاتل فيها . وهي حربي أحاول أن أفهمها . أنا لستُ حتى أميركياً . وأين هي نهايتي ؟ سوف تغدو حراً ، أما أنا فسوف أكبّل بالاصفاد . »

— « لست أفهم ذلك . »

— « لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع . » قال « بين » ذلك في شيء من الضيق ، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة فيما راح يذكّر غرين بأنه لا يزال سكرتيراً لمكتب الشؤون الخارجية .

حتى اذا اقتربوا من « فالي فورج » أصيب « بين » بزحار (ديزانطاريا) حادّ . وكان الكولونيل جوزيف كيركبرايد ، الذي لقيه « بين » أول ما لقيه في « فورت لي » ، على وشك أن يمضي في اجازة ، فسأله ما اذا كان يرغب في المضيّ معه قائلاً :

— « تستطيع ان تحتمل راحة قصيرة . »

وأقرّ « بين » ، وكان لا يكاد يقوى على الحركة ، هذا العرض . وقدّم غرين اليه فرساً والى كيركبرايد . وتعلّق بيد « بين » ، متوسلاً اليه ان يرجع في وقت قريب .

وتبسم « بين » قائلاً :

— « سوف أعود . إن الفلس المزيّف يرجع دائماً ، أليس كذلك ؟ »

وكان كيركبرايد يقطن في بورديتاون ، في منزل خشبيّ مريح ، فيه مواقد عرضها خمسة أقدام ، وفُرُش محشوة بالريش ، وحمام بخاريّ في المطبخ ، وفوق ذلك كله كتبٌ كثيرة . فهناك سويفت ، وديفو ، وشيكسبير ، وأديسون ، وبوب ، وكليرمونت ، وروايات « دْريدْ » الشعبية الصغيرة . وكان « بين » مريضاً ، مهزولاً ، مُتعباً ، فتناسى الواقع وانزوى أمام النار ، وأنشأ يطوّف مع ليميوويل جيلفير ، ويهمز قاذورات الـ « جن » المحبّبة مع موكي دراي ، ويستولي على انكلترة « ديفو » كرةً أخرى ، ويحلم ويهمس بأجزاء من « همات » و « لير » ويأكل وينام . وكان زائروهما معدودين ، وكان كلا الرجلين راغباً في اعتزال الناس ، وفي التماس النسيان لحظة من زمان . لقد شربا فأسرفا في الشراب ، لا الى حدّ السكر ، بل الى غاية الهناءة الدافئة الناعسة التي تغمر الحيوانات بعد شبع وريّ . وتحدّثا قليلاً ، وتطلّعا من النوافذ فراقبا الثلج وهو يتساقط ، ثم يتراكم بعضه فوق بعض ، وقد أشاع في نفسيهما الارتياح انهما قادران على ان يتلفتا بين الفينة والفينة فيريا الى النار تهدر في الموقد .

وعلى هذه الشاكلة انقضى أسبوعان قبل ان ينهض « بين » ذات صباح ويعلن ، وكأن الفكرة لم تخطر له الا اللحظة :

— « سوف أعود من حيث أتيت » .

وفيما كان منطلقاً عبر طريق متجمدة كانت حوافر جواده تدوّي فيها مثل طلقات البنادق كلما اصطدمت بقشرة الجليد ، رأى « بين » لطخة

على المرج القائم الى جانبه ، حتى اذا حاذاها انحنى فاذا هو أمام رجل متصلب من الصقيع ، ميت لا حراك فيه ، وقد انطرحت بندقيته القديمة الى جانبه واتجه وجهه نحو السماء . . انه جندي هارب من الميدان ، ولكنه أميركي — حياةٌ مزهقة ، ووحشة باردة في أرض موحشة .

كذلك كانت الحال دائماً من قبل : يتحالف الشتاء والارض عليهم ، وتتحالف الابواب الموصدة والنوافذ المغلقة ، لا فرق في ذلك بين بنسيلفانيا وبين جيرزي .

وفي المساء ربض قرب نار صغيرة . ان الخطوة الواحدة قد تعني الموت . واحتفظ ببندقيته الى جانبه . ودفأ يديه المقرورتين واضطجع على بطانيته وانشأ يتطلع الى سماء الشتاء الباردة . ولم يكن مأموناً ان يسأل أحداً عن الطريق ، أو يعلن لأحد عن الحزب الذي ينتمي اليه . كان يبحث عن مكان يدعى « فالي فورج » ، وكان ثمة رجل واحد من بين جميع الذين تحدث إليهم يعرف شيئاً عنه :

— « انها بقعة حزينة ، إنتبه . »

وقضى ليلةً مباركة في منزل أسرة من « الاصحاب » أو « الكويكرز » . رجل ضخم الجسم مربّع رقيق الصوت ، وامرأة ذات ابتسامة بريئة كابتسامات الاطفال . حتى اذا حاول ان يشكرهما ويكشف لهما عن هويته قال له الرجل :

— « لا ، نحن لا نعرفك . ولكنا نعرف انك غريب أضرّ بك البرد والجوع . واذا كنت واحداً منهم فاعتصمْ بالكتمان . »

— « أنت لا تحب الاميركيين ؟ »

— « نحن نحب الانسان ، ولكنا نكره سفك الدماء ، والقتل ، وتجرّع الآلام . »

— « وهل الجهاد من أجل الحرية قتل ؟ »

— « إنك خليقٌ بأن تجد أضعاف أضعاف هذه الحرية في ذات

نفسك . »

واذ ودّعه « بين » سأله :

— « الطريق الى المعسكر ؟»

— « فالي فورج ؟ »

— « نعم . »

— « سوف تجدها . لقد اختار الله مكاناً للهلاك على الارض . ارفع بصرك الى السماء ، وحيث يقف الشيطان فثمّة يكونون . »

●

وانتهى الى « فالي فورج » . كان ذلك في موهن من الليل ، فاعترض سبيله خفير متلفّع بأحدى البطانيات . كان ثمة جسر عبر « شويلكيل » وسماء قرنفلية فوق الكثبان المكللة بالثلوج ، وكانت رايةٌ ترفرف فوق ساحة عرضٍ يكسوها الجليد . واشتعلت النيران ، وتحرّكت شخوص قاتمة أمام ضوء النار . وبرزت الكثبان كالعضلات العارية . وترنحت الأشجار العاطلة من أوراقها في مهبّ الريح .

وقال للخفير :

— « أنا بين . »

وسعل الخفير ، وضحك ، وكشر عن أسنانه الصفراء لهذا التلاعب اللفظي الضعيف * ثم قال :

— « كذلك نحن جميعاً ، أيها المواطن ... »

— « أنا توم بين . »

وانقلب الرجل الى ذاكرته يستعين بها . وفي الحال وجد ما يذكّره ،

* تفيد لفظة pain في الانكليزية معنى الالم . ومن هنا ظن الخفير أن « بين » يحاول ضرباً من التلاعب اللفظي فكأنه يقول : انا الألم . (المعرب)

فهز رأسه وقال :

– « حصافة ؟ »

– « أجل . اين الجنرال ؟ »

– « هناك ... » قال الخفير ذلك ، وانكمش في بطانيته بعد أن فقد الشوق والاهتمام .

وحملته « هناك » هذه عبر عددٍ من المخابيء والمدافع ومستشفى خشبي حيث كان الجرحى يئنون ، ويغنون ويصيحون ، وعبر خفراء آخرين أجابهم بالجواب نفسه :

– « بين . »

– « إمضِ . »

وكان قد جاز كيلومتراً من أرض المعسكر ، القائم على ضفة النهر ، وقد ارتفعت الكثبان فوقه والى شماله ، عندما رأى من خلال العتمة مقرّ قيادة واشنطون . كان الدخان ينبعث من المدخنة ، وكان ضوء ينير النوافذ ، وخفير من أمام وخفير من وراء . وأُذِنَ له في الدخول . كان هاملتون واقفاً في الرواق ، هزيل الجسم غائر العينين ، وقد بدا أسنّ بكثير مما رآه « بين » آخر مرة . فعرفَ صانعَ المشدّات القديم ، وتبسّم ، حانياً رأسه :

– « أهلاً بك . »

ونفخ « بين » في كفيه وحاول ان يبتسم .

وسأله هاملتون :

– « هل أعجبك موقعنا الصغير ؟ »

وكان في جَرْسه شيء جعل « بين » يتساءل في غير جزم :

– « وهل هو أسوأ مما قُدّر لي ان أراه ؟ »

– « يتوقف ذلك على مقدار ما قد رأيتَ . »

– « لقد سرتُ من الجسر الى هنا . »

فقال هاملتون في مرارة :

— « إذن فالمشاهد الفضلى لمّا تنكشفْ لك بعدُ . إذهبْ الى الجند ، يا « بين » . ينبغي أن تذهب وتتحدث اليهم ، ولعلّهم حين يرونك يحتزّون حنجرتك . هل تظن انك رأيتهم في أسوأ أحوالهم ؟ ولكننا نروّض نوعاً جديداً من الوحش ههنا . لماذا لا تسألني عن السبب ؟ »

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « أنا أعرف السبب . »

— « هل تعرفه ؟ ولكنك عملت مع ذلك الكونغرس الخنزيري . هل تعرف اننا جياع عراة يقتلنا المرض والبرد ، واننا نتفسّخ ونفسد ، أقول لك ، نتفسّخ ونفسد ، يا بين ! ؟ »

واقترب « بين » منه وأمسك بسترته وقال في أناة :

— « هدّيء روعك ! أنا لا أعرف حتى مكان الكونغرس . هدّىء روعك ! »

وضحك هاملتون في عصبية وقال :

— « أنا آسف . »

ثم ضحك ثانية وأردف :

— « أدخل الى هنا . إنه هنا . »

— « لا تكن أبله . »

فقال هاملتون :

— « أنا آسف . »

ونهض واشنطون حين دخل « بين » الغرفة ، وحدّق لحظةً كي يتبيّن هويّة الرجل الغريب ، ثم ابتسم وبسط يده مصافحاً . لقد بدا كما لاحظ « بين » أعلى سناً من ذي قبل — فقد كانت الحرب تجعل من هذا النفر من الشباب الغضّ اليائس شيوخاً وعجائز — وأكثر هزالا وأمعن في السذاجة . كان عاطلاً من الشعر المستعار ، مرتدياً شبه جبة

أو غنباز ، وطاقية من الطاقيات القديمة . وكانت عيناه الرماديتان أوسع مما تخيلهما « بين » في أي يوم من الايام .

ولم يكد يرى إلى « بين » ويتعرّفه حتى عراه حبور صادق ، ودعاه إلى ان يجلس وينزع سترته ، ثم وصف له في كلمات قليلة الوضع المتوتر المروّع في المعسكر ، وندرة الطعام والثياب ، وتفشي الأمراض التناسلية تفشياً مخيفاً ، بسببٍ من وفرة النساء اللواتي يَعشْنَ مع الجند ، وبعضهن -من توابع المخيم ، وبعضهن الآخر زوجات . وحدثه حديث الفراريين الذين يغادرون المعسكر في كل يوم ، وحديث النقص في المؤن والذخائر وطغيان موجة الغضب حتى على أكثر العناصر اخلاصاً وولاء بعد ان حُبست عنهم أعطياتهم طوال أشهر بكاملها .

وقال واشنطون في لين ورفق :

— « أقول ان الوضع اليوم اسوأ منه في العام الماضي ، وأنت تذكر ذلك . وما لم تهب البلاد للعون فسوف يقضى علينا وينتهي كل شيء . أستطيع أن اؤكد لك ذلك يا « بين » . ليس عندي ما أقوله غير هذا . ولكن يجب أن تعرف يا « بين » اننا أشرفنا على الغاية . ان بلاءنا الأعظم ليس يأتينا من أعدائنا ، ولكنْ من ذوات نفوسنا ، وعندئذ تنتهي الثورة إلى التلاشي كما يتلاشى حلم مزعج . »

— « وما تطلبُ إليّ أن افعل ؟ »

— « إذهَبْ إلى الكونغرس وتوسّل . طفْ ارجاء البلاد وأيقظِ النيام . أفهِمْهم — خبِّرهم ! »

— « أريد أن أبقى هنا . »

— « لا تبقَ هنا يا « بين » . ههنا الجحيم ، ولستُ أظن ان في ميسورك أن تساعدنا . اذهب إلى الكونغرس ، ولسوف نحاول الصمود ، بطريقة ما ، هذا الشتاء — أنا لا أستطيع أن أفكر في الشتاء التالي . اجل ، بطريقةٍ ما سوف نصمد ! »

الفصل العاشر

ثوريٌّ بالمعنى الكامل !

ووجد الكونغرسّ في يورك ، وكم كان عجبه حين رحب به أعضاؤه ترحيباً حسناً . لقد أقاموا مأدبة تكريماً له ، شهدها راش وآبينغتون ، وسام وجون آدمز ، ولي ، وهمنغواي وغيرهم . وكان ضيف الشرف ، توم بين ، حليق الذقن مرتدياً سترة جديدة وحذاء جديداً . وقال همنغواي :

— « إن ما رآه وقاساه يجب أن يكون مصدر وحي لنا جميعاً . »

كانوا رجالاً مخلصين ممتلئي البطون . وكانت خمر « كلاريت » هي شراب المساء ، فالزجاجات تَسْطعُ على المائدة صعوداً ونزولاً مثل صف كامل من الجنود البريطانيين . ونهض جيمس كرانشاو ، الذي أقيمتً المأدبة في بيته الجميل الرياش ، بعبء الضيافة على الطريقة القديمة ، حاملاً الخنّوص * المحمّر كلّه بنفسه . وعلى المائدة كانت صحاف من لحم البقر والكُلى والدجاج المشويّ أيضاً . وكان الخبز الساخن ، وبعضه

* الخنوص : ولد الخنزير .

من الذرة وبعضه من القمح ، يملأ الجوّ برائحته الشهية . ليس هـذا فحسب ، بل كان على المائدة كذلك أطباق ملأى بالفاكهة المجففة : « لأن الأرض خصبة ، فليعلم ذلك القاصي والداني . » وتحدث كرانشاو ، وكان يجلس إلى جانب « بين » ، عن جمال اثاثه الفيلاديلفي من طراز تشيبانديل * فقال :

— « تلاحظ يا سيدي الخطوط البسيطة وظهور الكراسيّ غير المزخرفة . أنا أعترف أن أحداً لا يمكن أن يضاهي خزائن الأدراج العالية التي تُصنع من خشب الماهوغاني في نيو بورت ، وبخاصة في معامل الاخوة غراني . أما في صناعة الكراسي ففيلاديلفيا هي التي تتربع على العرش ، وليس في انكلترة ما يماثل إنتاجها ، أقول ليس فيهـا شيء من ذلك ، يا سيدي . وفي نيو انجلند يدنّسون الكراسي بمقاعـد القشّ الريفية ، في حين تجدها عندنا آية من آيات الجمال . أنظر إلى الكرة والمقبض ، وإلى الظهر المشبّك الذي انتهى إلى أن يكون إغريقياً في حفره الناعم الرشيق . هل يستطيع أحدٌ ان يشكّ في مستقبل أميركة ؟

وقال « بين » مخاطباً نفسه :

— « لستُ أقضي العجب . »

وألحّوا عليه في الطعام والشراب ، وتحدّثوا عن كل شيء تحت الشمس ما خلا الحرب . ولم ينتبهوا إلى موضوع الساعة إلا بعد أن رُفعت المائدة ، وصُبّت الأشربة الساخنة المحلاّة ، وانسحبت السيدات إلى غرفة الاستقبال . عندئذ ، وفي جوّ عابق بروائح السعوط وأدخنـة السيجار راحوا يسائلون « بين » عما رآه في جيرمانتاون وفالي فورج . ونخسوه بقولهم :

— « ولكنك تقرّ معنا ان القيادة كانت هزيلة . »

---

* تشيبانديل نجار انكليزي بارع طارت له شهرة في القرن الثامن عشر ونسب اليه طراز من الأثاث عرف بطراز تشيبانديل . (المعرب)

— « القيادة ، أيها السادة ، ما تفتأ تضحّي وتتكشّف عن شجاعة بالغة . »

— « ولكنها بلهاء . »

— « أنا أنكر ذلك . فالجنود لا يُصنعون بين عشية وضحاها . نحن لسنا بروسيين ، ولكننا مواطنو جمهورية . »

— « ومع ذلك فلست تستطيع أن تنكر أن واشنطون قد أخفق إخفاقاً موصولاً . وليس ما شاهدتَهُ أنت في « فالي فورج » إلا البرهان الأخير على عدم صلاحه ! »

فقال « بين » في هدوء :

— « عدم صلاحه ! أيها السادة الطيبون ، ساعدكم الله ! »

— « انك تصوّر الوضع تصويراً مسرحياً ، يا « بين » . »

فتساءل « بين » :

— « ما الموضوع الذي تبحثون ؟ أتريدون أن تتخلّصوا من واشنطون ؟ »

فقال «لي» في رفق :

— « لنقل بالأحرى إننا نريد التعاون معه . إنّ ما عمله « غايتز » في ساراتوغا ، وأسْرَهُ جيش بورغوين بكامله لينهض دليلاً على .. »

فانفجر « بين » قائلاً :

— « انه لا ينهض دليلاً على شيء . هل نسيتم أن غايتز تخلّى بطوعه عن واشنطون ، عند نهر ديلاوار ، في العام الماضي ؟ أنا لست أخشى الكلمات أيها السادة ، ولست على استعداد لأن ألفظ كلمة « خائن » بمثل السرعة التي ألفظ بها أي كلمة أخرى . ان غايتز ليغدر حين يُدفع له الثمن ، ولست واثقاً من أن الآخرين ليس عندهم ثمن ... »

قال ذلك وحدّق إلى وجوههم واحداً واحداً .

— « بين ، أنت سكران ! »

— « صحيح ؟ اذن فسوف أقول ما لست أجرؤ ابداً على قوله وأنا صاحٍ — سوف أقول ، أيها السادة ، إنكم تبعثون في نفسي التقزّز ، إنكم تقضون على كل ما هو رفيعٌ في الكونغرس ، إنكم على استعداد لأن تخونوا ، أجل ، على استعدادٍ لأن تخونوا ، وانكم عندما تخسرون واشنطون سوف تخسرون الحرب ... »

وفي مساء اليوم التالي حاول بعضهم أن يقتله ، ولكن البندقية أخطأت فلم تنطلق منها النار . ثم إن راش التمسه في الحانة وقال له :

— « لا تظلمنا يا « بين » . نحن لسنا خونة ، صدّقني . »

— « ولكنكم تؤثرون أن تروني ميتاً ؟ »

— « ماذا تعني ؟ »

فقص عليه « بين » الحادث ، فاكفهرّ وجه راش واربدّ . وأكد لـ « بين » أنه لم يعرف شيئاً عن المحاولة قائلاً في اكتئاب :

— « نحن لسنا سفاحين ! »

●

وذات يوم التقى إيرين روبردو في شوارع يورك . فرحبت بـه في حرارة وبدت وقد لفها السرور الصادق لرؤيته . وكانت هي وعمهـا نازلين في الـ « دوبل كوتش » فمضى معها إلى هناك محدّثاً إياها في إيجاز عما رآه منذ فارقها ، فقالت له :

— « يظهر انه لا راحة لك ابداً . إنك لن تنعم يوماً بالامن ، يا بين . »

— « أظن ذلك . »

وأنبأته بأنها مخطوبة ، وانها سوف تُزف إلى خاطبها حين تُسترد فيلاديلفيا . وحنى توم رأسه ، وتساءلت على ضوء انطباعات وجهه ما

إذا كان ذلك النبأ قد أثار شيئاً من اهتمامه أم لا . ثم إنها سألته :

— « أتظن اننا سوف نحتل فيلادلفيا من جديد ؟ »

— « أنا واثق اننا سوف نحتلها . »

— « توم ... »

وتطلع اليها .

— « كان من الممكن أن تجري الأمور على غير هذه الشاكلة . »

كذلك قالت له .

— « لست أظن ان ذلك كان ممكناً . »

●

وتراكم العمل عليه بوصفه أمين سر للجنة الشؤون الخارجية . لقد عاد من جديد موظفاً يقطّع ساعات الليل كلها في كتابة كراريسه التي ينتظمها عنوان « ازمة » الشامل . ومع ذلك فقد حاول ان يُشعر القوم بخطره ، فضغط على النفر القليل الذي يعرف ، وتحدث حديثاً موصولا عن حاجة واشنطون إلى العون متوعداً مهدداً ، جاعلاً من نفسه إسفيناً يُدقّ في مختلف الدسائس الحقيرة ، مُفسداً إياها كلها ، محرّراً طلبات مزيّفة لكي ينتزع مقادير من الأحذية والملابس ، متحدثاً إلى سماسرة الأغذية ، واعداً بكل شيء تحت الشمس ، محوّلاً في كثير من البراعة شحنة من الحنطة إلى « فالي فورج » ، فازعاً إلى الخمر يشربها فيسرف في الشراب ، كاتباً كلماتٍ تقطع وكأنها السكاكين ...

●

وكان تطوّرٌ ما قد طرأ على الاشياء . ففي نهاية شتاء ١٧٧٧–١٧٧٨

بلغت الحرب مرحلتها الحاسمة وفاز الاميركيون ، لا من طريق المعارك ، ولكنْ لمجرد قيامهم كجيشٍ ، كقوة عسكرية . ذلك أن الغمرجيني التاعس الفارغ الطول الذي أخفق بوصفه قائداً ، أثبت كفاءته البالغة في لمّ شعث الجيش ، فإذا به يُوفّق خلال ذلك الشتاء القارس المروّع إلى ان يؤلف من رجاله نواةً صلبةً تلتف حوله . ولو قد هاجم هاو – القائد البريطاني– « فالي فورج » إذن لكان في ميسوره أن يسحق الجيش الأميركي – أو ما تبقى منه – سحقاً . ولكنّ فيلادليفيا كانت بلداً مؤنساً مريحاً ، فلم يشنّ هاو هجوماً ما . حتى إذا أطلّ الربيع لم تكن ثمة محالفة أميركية فرنسية فحسب – نتيجة لنشاط بنجامن فرانكلين العجوز وعمله الدائب – بل إحياء لتلك الظاهرة التي لا تُصدّق : الحرس الوطني الأميركي .

وهكذا تدفق جنود الصيف من جديد – وقد أتموا حراثة ارضهم – على المعسكر : أرباب أسرٍ ، وفلاحين ، ورجالاً ، وصبياناً . فاذا بالاربعة الآلاف الذين خلّفهم الشتاء في « فالي فورج » يصبحون سبعة آلاف ، ثم عشرة آلاف ، ثم اثني عشر الفاً . وكانت النواة لهذه القوات كلها تلك البزرة المريرة الصلبة التي ظلت حية تُرْزق في ذلك المعسكر الجهنمي .

وذُعر هاو . كان خليقاً به أن يكون هو المهاجم ، في يوم مضى . أما الآن فقد كان عرضةً لأن يُهجمَ عليه كل ساعة . وخرج من فيلادلفيا ، وسار شمالاً عبر جيرزي . وعند مونماوث صدّه واشنطون عن سبيله . ذلك أنّ ثلاث سنوات من الحرب ، ثلاث سنوات يائسة خاسرة ، لم تُفرغ الحديد في أولئك الأميركيين المهزولين البالي الثياب ، عبثاً ولهواً . فللمرة الأولى قاتلوا ولم يتزحزحوا عن مواضعهم . للمرة الأولى صمدوا لنار معركة مُوقَدة استمرت يوماً كاملاً ثم راحوا يسرّحون الطرف مراقبين جيشاً بريطانياً منسحقاً يغادر الميدان .

ولم تنته الحرب . بل لعلها قد ابتدأت حقاً . ولكنْ كان ثمة الآن جيشٌ أميركي .

●

كان « بين » قد أخذ يفهم حرفته الجديدة ، تلك البراعة المدعوة ثورةً والتي كان أول من مارسها بوصفها المبرر الأوحد لوجوده . لقد رأى الشعبَ يهيمن على السلطة ، والاساليب التي توسل بها إلى ذلك . لقد رأى قادته المعيّنين ، وهم مواطنون ليست الحرب صنعتهم التي يأكلون بها الخبز ، يجمعون شمله في وجه العدو . لقد رأى « الثورة المضادة » تُطلع رأسها مرةً ومرةً في نيويورك وفيلادلفيا ، في جيرزي وبنسيلفانيا . لقد رأى الجيش ينقسم إلى فرق متناحرة ، ورأى وطنيين مخلصين لا يعفّون عن الخيانة حين يُدفع لهم الثمن الأعلى . وها هو ذا الآن يشهد وجهاً أخيراً من وجوه الأحداث : انفراج الشقة بين حزب الشعب وبين حزب المال والتجارة والقوة والارستوقراطية . ومن عجب ان هذه القوى الأخيرة تألبت كلها على رجل اشتهر بأنه أغنى إنسان في أميركة : واشنطون المزارع الفيرجيني . وكانت خطتهم تقضي أولاً بأقصاء واشنطون عن القيادة واسنادها إلى غايتز ، ثم بتلطيخ سمعته وانتزاع القيادة العليا منه ، وأخيراً بالاتصال المباشر ببريطانية العظمى . وهكذا وجّهت بريطانية عبرَ المحيط جماعةً من رجالها زوّدتهم بصلاحيات واسعة . وسمّت لهم الشخصيات الأميركية التي يتعين عليهم ان يتصلوا بها . فما كان من « بين » إلا أن بعث رسولاً إلى واشنطون وأنشأ يكتب غامساً قلمه بمداد من الحنق والهياج .

وظهرت « أزمة » جديدة قال فيها « بين » في نبرة مجنونة صاخبة :
« أي نوع من الناس أو المسيحيين تحسبون الأميركيّين الذين بعد أن

رأوا إلى أذلّ عرائضهم تُرفض في إهانة ، وإلى أظلم القوانين تُسَن للتضييق عليهم في كل مجال ، وإلى حرب غير مُعلَنة تُشَنّ عليهم ، وإلى الهنود الحمر والزنوج يُدْعون إلى المذبحة ، الذين بعد أن رأوا إلى أقربائهم وأبناء عشيرتهم يُقتلون ، وإلى مواطنيهم يجوّعون حتى الموت في السجون ، وإلى بيوتهم وممتلكاتهم تخرّب وتحرق ، الذين بعد دعواتهم الصارخة الموجهة إلى السماء ، وعهودهم القلبية على التضامن من أجل الفوز بأمانيهم ، والذين بعد أن التمسوا عون الأمم الأخرى ووُفقوا إلى التحالف معها ، تسألونهم أن يتخلوا عن جميع هذه الالتزامات ، من مدنية ومقدسة ، من طريق الاذعان لعرضكم الجهنمي الخبيث . »

ولم يكن ليحجم عن اتهام بعض الأميركيين بالخيانة ، اتهاماً مباشراً ، ولكنه ما استطاع أن يعثر على ايما بيّنةٍ مكتوبة تمكّنه من دعم شكوكه وظنونه فيهم .

فهو لم يثق بصموئيل آدمز مثلاً ، مؤمناً في صدق واخلاص انه ونفراً غير يسير من جماعة بوسطن خليقون بأن يخونوا القضية لو ان العروض صيغت صياغة أكثر ملاءمة ، لو انّ الثمن كان أعلى من ذلك ، أو لو ان التسوية كفلت لهم المناصب التي طالما تاقوا إليها . ومع هذا كله فلم يقع على ايما دليل راهن يدينهم به . ولقد أوقفه «ريتشارد هنري لي» ذات يوم في الشارع وقال له في مرارة :

— « يبدو ، يا « بين » ، انك تجد متعة في اكتساب الاعداء . »

— « إن أعدائي من الكثرة بحيث لا يضيرني إضافة نفر قليل اليهم. »

— « الصديق قد يُسعِف . وكذلك اللسان الساكن أيضاً . »

— « إن صديقي الأوحد هو الثورة . وإن لساني ليتذبذب مثل لسان أيّ فلاح ملعون . »

— « أريد أن أقول لك مجرد كلمة تحذير ... »

فابتسم « بين » وقال :

— « لست في حاجة إلى أن أحَذّر ، يا صديقي . »
وبعد ذلك تماماً جاءت فضيحة « سيلاس دِين » .

●

كان « بين » ، بوصفه سكرتير اللجنة الخاصة بالشؤون الخارجيه ، يقف في ما بين الفينة والفينة على أشياء تبعث على التساؤل والاستغراب. فقد كان ثمة شركة أوروبية تعرف بـ « رودريك هورتاليز وشركائه » ، وكان هو على اتصال بها عندما تأزم الوضع أبشع التأزم في الشتاء الماضي. ذلك بأن الجند الأميركيين الذين راحوا يلفون أقدامهم بالخرق البالية والمسوح الخشنة كانوا في أمسّ الحاجة إلى أحذية طويلة الساق ، وإذا بالمستر ستيفنز من تشارلستون يقول إن في استطاعته أن يقدم إلى الجيش ألف زوج من الأحذية الجيدة لقاء ليرة فرنسية لكل زوج . وكان ذلك السعر مرتفعاً ، ولكن المرء يتوقع ارتفاع الاسعار في زمن الحرب . وفاوض « بين » من اجل إتمام الصفقة ، حتى إذا جاءت الأحذية ظهر انها مصنوعة من جلدٍ اسباني ، وأن الفاتورة قدّمت من جانب « رودريك هورتاليز وشركائه » . وكانت الشركة ذات شهرة واسعة بين الأميركيين ، ولكن من الذي استأجر المستر ستيفنز ومن الذي دفع اليه ؟ وتعمّق « بين » درسَ القضية فاكتشف ان معظم المساعدات الخارجية التي تدفقت على أميركة — شحنات القمح من فرنسة ، وشحنات السلاح من نيو اورليانز ، وشحنات الجبن المجفف من هولندة ، وحتى صفقة الأردية الاسكتلندية التي هُرّبت بطريقة ما من الجزر البريطانية — كلها كانت تحمل فواتير بيع من قِبل « رودريك هورتاليز وشركائه . »

كان كثير من الناس يعرفون كل شيء عن هذه الشركة ، ولكنهم لا يرغبون في الكلام . فكان قلع الضرس أسهل على « بين » من انتزاع

التفاصيل منهم . ولقد قال له هنري لورينز ، رئيس الكونغرس ، وهو رجل شريف كان يحاول أن يشقّ طريقه وسط تيهٍ من الأكاذيب والمخاتلات والانانية ، رجلٌ كان « بين » يحترمه ويحبه :

— « وأيّ بأسٍ في ذلك ما دام يخدم القضية ؟ »

فقال « بين » :

— « ولكن الاسعار ... »

وابتسم لوريتز . كان ذلك منذ فترة غير بعيدة .

ومن آرثر لي في باريس جاءت رسالة تقول بأن ثمة احتمالاً ليس أكثر ، بأن تكون كلٌّ من فرنسة واسبانية قد قدّمت هباتٍ سرية إلى أميركة تقدر قيمتها بنحو من مليون ليرة فرنسية . وكان « دِيْن » يحصل على عمولة خمسة بالمئة على جميع المشتريات التي تمت من طريق الشركة ، وكانت الفواتير تقدّم إلى الكونغرس الأميركي . ثم إن « بين » وجد في رسالة وردت من فرانكلين ما اعتبره شبه برهان قاطع على ان جميع المؤن والذخائر اشتُريت بهبة من الذهب قدمتها الحكومتان الفرنسية والاسبانية ، هبة تسلمها شخص غامض ليس يمكن تخيّله يدعى كارون دو بومارشيه . لا يمكن تخيّله لأنه بدا القوة الكامنة وراء رودريك هورتاليز وشركائه . وغامض لأن الحكومة الفرنسية آثرته على هذا النحو بسببٍ من أنها لم تكن في حرب مع انكلترة حين قُدّمت الاموال اليه . إن الدولة المحايدة لا تستطيع ان تحابي فريقاً من المتحاربين على فريق ، ولكن الشركة الدولية تستطيع ان تتعامل مع من يحلو لها التعامل معه .

وكان هنري لورينز قد علّق على ذلك كله بأن ابتسم وقال :

— « وأيّ بأس في هذا ؟ »

إن في ميسور الدول ان تمثل دور الاطفال في الشؤون الدولية ، وإن التستّر كان امراً محتوماً . والعالم كله يعرف ان الكونغرس الأميركي كان في أغلب الظنّ أفقر سلطة حاكمة على وجه الأرض ، وانه لا يكاد

يملك من المال ما يساعده على شراء الاقلام والورق والحبر الضرورية لجلساته . وهكذا ما كادت الفواتير تقدّم إلى لجنة الشؤون الخارجية حتى تهمَل في تأدّب ولطف ، وتُسجّل ، وتصنّف ثم تُطرح خلفَ الظهور . ان المرء ليفهم هذه الأمور .

وتساءل « بين » :

— « ولكنْ هل فهمها أحدٌ حقاً ؟»

وطلب إلى روبردو ان يدعو إلى مأدبة صغيرة يشهدها لورينز . فلم يكد يلتقي به على المائدة حتى وجّه الحديث نحو مسألة الفواتير هذه .

وسأله لورينز في شيء من حرج الصدر :

— « لماذا تُسهب في الكلام على ذلك ، يا « بين » ؟ إن هذه الفواتير لن يطالَب بدفعها البتة . ففرنسة في حرب مع انكلترة الآن ، والبضاعة التي قدّمها الينا هورتاليز ، أو فلأقل التي قدمتها الوزارة الفرنسية الينا بواسطة هورتاليز ، ليست غير جزء صغير جداً من الفائدة العسكرية التي جنتها فرنسة من وقفتنا طوال هذه السنوات في وجه بريطانية . لقد أوضح فرانكلين ذلك لهم أحسن إيضاح . »

— « ومع ذلك فلو طالبتنا شركة هورتاليز بالدفع فعندئذ يكون من الاحراج للحكومة الفرنسية ان نصرّ على اننا تلقينا تلك البضائع بوصفها هباتٍ . هل تعرف كم تبلغ قيمة الفواتير ؟ »

فقال لورينز في نكد :

— « عندي فكرة عن ذلك . »

فقال « بين » :

— « انها تبلغ اربعة ملايين ليرة ونصف . في استطاعة بورمارشيه ان يصبح مليونيراً — لقد دفعنا ثمناً مضاعفاً لكل شيء — إذا ما اقتضونا الثمن . وحتى الخمسة بالمئة المخصصة لـ « دِين » خليقة بأن تجعل منه رجلاً غنياً . »

وصفر روبردو وهزّ لورينز رأسه :

— « لم اكن أحسب انها تبلغ هذا المقدار . »

ونخسهما « بين » بقوله :

— « انه أكبر اختلاس في عصرنا . »

— « وماذا تعتزم ان تفعل ؟ »

— « سوف أهاجم دِين قبل أن نُطالَبَ بالدفع ونفقد بقية اعتبارنا»

— « ليس عندنا دليل يؤذن بأن دِين يتوقع ان يحصل على عمولة . ينبغي أن تقدّم الفواتير للتسديد ، أولاً . »

— « دليل ... يا إلهي ، أليس دليلاً كافياً أن دِين قام بجميع المفاوضات ؟ إذا كانت البضائع هباتٍ فلن يأخذ دِين شيئاً . ولكن إذا أُكرِهنا على الدفع فعندئذ يصبح « دِين » رجلاً غنياً . »

●

وبعيد تلك المأدبة انطلقت الفضيحة من عقالها . فقد مدّ بومارشيه — من طريق شركة هورتاليز اللُّغْز — يده إلى الكنز وطالب بدفع الفواتير ، ورجع دِيْن إلى أميركة لتحصيل المال . واتسعت شقة الخلاف بين حزب الشعب ، وحزب التجارة والقوة . وإذ رزح الكونغرس تحت وطأة اربعة ملايين ليرة ونصف ليس في الامكان إعادة دفعها سأل السفيرَ الفرنسي :

— « أهبةً كان ذلك المال أم لا ؟ »

— « كان هبةً من غير ريب ، » كذلك اكد لهم السفير . ولكن لا سبيلَ إلى إعلان هذه الواقعة على رؤوس الاشهاد . لقد كان شرف فرنسة في خطر . »

وطالب هورتاليز ، كرّةً ثانية ، بالدفع . ومثلَ دِين أمام الكونغرس

واقتضاه ، وهو يبتسم ، النسبةَ المئوية التي يدّعيها . ولم يداخله الخوف ، فقد كان يعرف شيئاً أكثر مما ينبغي عن الكونغرس ، وشيئاً أكثر مما ينبغي عما جرى في فرنسة لآرثر لي وفرانكلين . وعندما رفض الكونغرس الاستماع اليه نقل القضية إلى ميدان الصحافة ، مهاجماً أسرة « لي » كلها ، معلناً نفسه مخلّصاً لبلاده ، طالباً العدالة والانصاف . وكان ذلك فوق ما يستطيع « بين » احتماله ، فردّ عليه رداً هائجاً لاذعاً.

لقد ادعى « دين » شرف العمل على تزويد البلاد بالمؤن المرسلة اليها من وراء البحار . ولكن « بين » فتح سجلات لجنة الشؤون الخارجية وأثبت ان الهبات الفرنسية والاسبانية قُدّمت قبل ان يُبحر سيلاس دين ، أول مرة ، إلى فرنسة . وبدأت فيلاديلفيا في الغليان .

ثم ان السفير الفرنسي ، جيرار ، اجتمع بـ « بين » اجتماعاً خاصاً وقال له :

— « يجب ان تضرب صفحاً عن هذه القضية . »

فسأله « بين » في خشونة :

— « لماذا ؟ »

— « لأسباب لا أستطيع شرحها . إن لبعض الشخصيات صلة بالمسألة . ينبغي أن تكفّ عن هجومك على دين . »

— « وإذا رفضتُ ؟ »

وهزّ جيرار كتفيه وبسط يديه قائلاً :

— « وهل ترفض ؟ »

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « أنا آسف . إننا ماضون في سبيلنا . إن حركتنا هذه ليست مؤامرة حقيرة لمصلحة الرؤوس المتوجة في أوروبة ، انها ثورة . أفهمت ؟»

— « فهمتُ . » قال جيرار ذلك ، ثم أعلن في اليوم التالي ، أمام الكونغرس :

— « إن جميع المساعدات التي أرسلت بواسطة المسيو بو مارشيه إلى الولايات ، سواء أكانت سلعاً أو مدافع أو أعتدة حربية ، إنما قُدّمت على سبيل التجارة . وقد باعت دائرة المدفعية جميع الاسلحة الصادرة عن مستودعات الملك ومصانعه الحربية للمسيو بومارشيه ، الذي قام بالتزاماته في ما يتصل بأثمانها . »

وتضاغى « بين » من الألم وتضرع إلى روبردو :

— « البرهان — لو كان في يدي البرهان ... »

وكتب مشيراً إلى دين :

— « لم يكن من نصيبه أن يشهد حملة من حملات الشتاء ، وينام من غير ما خيمة أو بطانية . لقد رجع الى أميركة عند انقضاء الخطر ، ولم يقاس منذ ذلك اليوم أيما مشقة شخصية . فما هي اذن الآلام التي تحملها مستر دين ، وما هي التضحيات التي يزعم انه بذلها ؟ هل خسر شيئاً من مال في الخدمة العامة ؟ لست أعتقد ذلك . هل عنده شيء من مال ؟ ذلك ما لا أعرفه ... »

ولم يحذر السفير « بين » ، كرة أخرى . لقد توسل إلى غرضه من طريق الكونغرس الذي يكره « بين » كراهة مريرة . واستدعى الكونغرس « بين » وسأله هل كتب « حصافة للجمهور أو قضية مستر دين . » فاعترف « بين » :

— « أجل ، كتبتها . »

وفي جلسة سرية هاجم أعضاء الكونغرس « بين » هجوماً لا رحمة فيه ولا استبقاء . وتسامع « بين » بالاشاعات السارية عما كان يجري خلف الستار ، ولكنهم أنكروا عليه كل توسلاته للرد على التهم . وسمع ان موريس حاكم نيويورك الغنيّ قد قال خلال الجلسة :

— « أيّ فكرة يمكن أن يحملها الرجل الأوروبي الكريم عن مستر « بين » هذا ؟ ألا يظنه رجلاً ذا ثروة ضخمة ، متحدراً من احدى

أسر هذه البلاد المحترمة ، تشدّه إلى الناس روابط قربى متينة متشعبة ويتحلى بأنبل معاني الشرف ؟ ليس من ريب في انه خليق بأن يظن ان جميع ضمانات الولاء هذه ضرورية لشعب يجوز مرحلة دقيقة كالتي نجوزها . ولكن واأسفاه ، ما الذي سوف يقوله ذلك الرجل الأوروبي نفسه إذا ما علم مصادفة ان سكرتير لجنتنا الخارجية هذا لم يكن غير مغامر من انكلترة ، لا ثروة له ولا اسرة ولا أنسباء ، وانه يجهل حتى قواعد اللغة نفسها ؟ »

وقال لورينز لـ « بين » :

— « إستَقِلْ قبل أن تسنح لهم الفرصة لتسريحك . الله هو الذي يعلم ما سوف يقع ، يا « بين » ، وليس أنا . »

ثم أضاف :

— « إني سأخطو الخطوة نفسها . ولسوف يتعيّن عليهم ان يبحثوا عن رئيس آخر لمؤتمرهم هذا . »

واستقال « بين » .

وفي فيلاديلفيا كانت جهنم على وشك أن تندلع نيرانها .

والواقع ان فيلاديلفيا لم تكن هادئة ، إلا ظاهرياً . وحتى ذلك الهدوء كان آخذاً في التلاشي بسرعة بالغة . فقد كانت المدينة الكويكرية عاصمة ثورية ، احتلّها البريطانيون ثم استردّها الأميركيون . ولم تكن هي مركز الولايات ، من الناحية الجغرافية ، فحسب بل مركزها من الوجهة الايديولوجية أيضاً . ذلك ان الفتور اعترى بوسطن وشيكاً ، وكانت الكثرة الكبيرة من مزارعي ماساتشوستس الذين مزّقوا في يوم ما جيشاً بريطانياً في كونكورد ولاكسينغتون قد انقلبت إلى مساحيها ومحاريثها . فقد كان إحساسهم اليانكيّ المرير البارد بالحرية الشخصية مرتبطاً ارتباطاً لا تنفصم عراه بأرضهم الشخصية ، وكانت فرديتهم الضارية تجعل منهم مادة هزيلة لأيما ضرب من الحرب غير ذلك الذي تؤهلهم الغريزة له :

حرب العصابات . وإذ لم تُشنّ الحرب الأميركية على هذا الغرار — ولعلها لو شُنّت كذلك لانتهى الصراع في مدة أقصر — فقد انسحب اليانكيون من الميدان .

وهكذا وقع عبء القتال على كاهل أبناء الداخل البنسيلفانيين — بخاصة — والجيرزيين ، والنيويوركيين ، ورجال كونكتيكوت ، وجزيرة رود ، وديلاوار ، وماريلاند ؛ وفي الجنوب على كاهل أبناء فيرجينيا وكارولينا . ولكنّ لبّ المقاتلين النظاميين ، الرجال الذين جاعوا وجلّدوا وعطشوا ، بضعة الآلاف الذين تعلّقوا بصورة واشنطون النحيلة في أحلك الساعات وأحرجها ، كانوا في كثرتهم المطلقة من أبناء بنسيلفانيا وجيرزي . وبالنسبة اليهم ، كانت فيلاديلفيا محراب الثورة ومذبحها ، وكان أشد الأيام قتاماً ذلك الذي فرّ فيه الكونغرس من غير أن يقوم بأيما محاولة للدفاع عن المدينة .

وكان البريطانيون ، الذين اعتبروا المدينة غير ذات غناء بعد أن استولوا على نيويورك ولم يجدوا في قواتهم فضلةً يستغنون عنها لحماية المدينتين معاً ، قد أخلوها من غير ما محاولة للدفاع شأن الأميركيين من قبلهم . حتى إذا زحف الأميركيون في أعقاب البريطانيين ليحتلـوا مواقعهم ، لم يتكشّفوا عن لياقة أو رفق . كانوا يريدون الانتقام . فصبوا جام غضبهم على بعض الناس ، وكانت المدينة قذرة ، مشوّشة ، مهدّمة البيوت مسلوبتها ،وكانت « فيلاديلفيا تشيبانديل » مفخرةُ المستعمرات كلها ، ممزّقةً محطمة . وانقلب الأميركيون إلى المدينة شاكي السلاح . وكان « واين » الشبيه بشفرة السكين عزماً ومضاء يقود البنسيلفانيين . ولقد قال للجنة من المواطنين البارزين : « كلّ من ينتسب إلى جماعة المحافظين ابن زنا ، في داخله ... » كانوا متعوّدين اللغةَ القاسية ، ولكنهم لم يألفوا الكلام العنيف إلى هذا الحد . واعلنوا ولاءهم . فقال « واين » :

— « كما أفهم أنا الولاء سوف أجعلكم تفهمونه ... »

ولكن التمييز بين الثائر والمحافظ كان متعذراً . فمن بين آلاف المواطنين الذين تخلّفوا في المدينة عندما دخلها البريطانيون من ذا الذي يستطيع ان يقرّر أيّ الناس كان موالياً وايهم لم يكن ؟ كان ثمة عدد كبير من العيون والمخبرين ، ولكن حتى هؤلاء القاسية قلوبهم أجفلوا من الحول الدموي الذي كان الاتّهام بالجملة ، خليقاً بأن يؤدي اليه . كان ابناء الداخل رجالاً ذوي صلابة وقسوة ، ولكن ليس إلى هذا الحد .

وكانت بنسيلفانيا ديموقراطية أيضاً . كانت حكومتها أقرب من حكومات سائر الولايات التي تشكّل الاتحاد إلى ان تكون حكومة العمال والفلاحين — عمال وفلاحين مناضلين وضعوا دستورهم الحرّ الخاص بهم ، واختاروا شكل حكومتهم ذات المجلس الواحد بُعيد اندلاع نار الحرب . وكان العمودَ الفقري لهذه الجماعة حرسُ الحدود اللابسون ثياب الجلد ، المقسمون ان يقولوا كلمة أو كلمتين لبنادقهم الطويلة قبل أن يستولي الارستوقراطيون على أرضهم .

وفي هذه الغمرة برزت قضية سيلاس دين فزادت النار اشتعالاً

وأطلعَ روبردو « بين » على رسالة موجهة إلى روبرت موريس الذي احتكر منذ مدة سوق الدقيق في الاقسام الداخلية من البلاد . وكان روبردو قد حصل على الرسالة بطرائق لم يكن راغباً في الكشف عنها. وأشار إلى سطر فيها جاء فيه : « إنه لمن مصلحة الطبقة النبيلة في البلاد ان يموت مستر توم بين ... »

وهز « بين » كتفيه وقال :

— « في مقدورهم ان يقتلوني ، إذا شاءوا . لقد جربوا ذلك من قبل ... »

— « لا تكن مجنوناً . لقد انقضى الزمن الذي كان باستطاعتك فيه أن تحارب هذا الوضع وحدك . »

— « ماذا تقترح اذن ؟ »

واقترح روبردو ان تُدرس المسألة في اجتماع عاجل . وأعلن رغبته في أن يتمّ الاجتماع في بيته . كان يعرف نفراً قليلاً ممن يوثق بهم ، وكان « بين » يعرف نفراً قليلاً . واتفقا على أن يكون ذلك مساء اليوم التالي .

كان « بين » مُتعباً جداً . ففي ميسور المرء أن يحمل بندقية ويدعو إلى ثورة ، ويكتب كراريس يتضرع فيها إلى مواطنيه أن يدعموا الحرب ، ويكشف القناع عن دسائس ومؤامرات ، ويعارض الشغب والشقاق ، ويخسر سمعته ومورد رزقه ، ويصبر على الكره والاحتقار ، ويصيح بأعلى صوته إن الرجال لم يقاتلوا ويُقتَلوا ، وإن فيلاديلفيا لم توجد لمجرد رفع أسعار الغذاء والكساء والاعتدة والحيوانات الاليفة — ولكنّ لطاقة المرء حداً . فليس من الهيّن اليسير أن تعلم أن الناس يتربصون بك ليقتلوك . لقد أوقع ذلك الخوفَ في نفسه وهو الذي لم يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه في سُوح القتال . فإذا هو يخاف الشوارع المظلمة ، يخاف أن يسرف في الشراب ، يخاف أن ينام في غرفته الحقيرة — البالغة اجرتها شلنين — من غير أن يحكم إيصاد الباب بالقفل والمفتاح .

لقد أدرك فجأة ، آخر مرة قُدّر له فيها أن يرى إلى نفسه في المرآة ، انه في سبيله إلى الشيخوخة . إن شبكة من الخطوط الصغيرة لتنتشرُ حول عينيه وعلى خديه . ذلك كان « بين » ، صانع المشدات ؛ لقد تزوجت إيرين روبردو ، وأنجبت ولداً . ولقد سار العالم ، ولكن ها هي ذي صورته تطالعه في المرآة : إنها صورة « بين » شحاذ الثورة .

●

وقال « بين » في ما بينه وبين نفسه إنها مجموعة ممتازة هذه التي اجتمعت في دار روبردو . مجموعة مكينة ، كل فرد من أفرادها مختار وكلّ فردٍ من أفرادها أهلٌ للثقة والاعتماد .

كان هناك « داود ريتنهاوس » ، العالم والميكانيكي ، وهو رجلٌ ذو شأن ومال ، ومع ذلك فقد كان يؤثر أن يعمل بيديه . وكان هناك جاكسون غارلاند الذي صبّ ، قبل أن يخرّب البريطانيون مصنعه ، تسعة وأربعين مدفعاً لهاري كنوكس . وكان غارلاند اسكتلندياً ، مهزول الجسم فظاً في ظاهره ؛ ولكنه رجل ذو عقل ، وكثيراً ما شرح لـ « بين » نظريته في اتحادات العمل المقبلة . وكان هناك تشارلز واسون بيل ، الضابط في الجيش الأميركي ، وهو رسّام ذو براعة مذهلة ، وكان شديد الولاء لواشنطون . والكولونيل ماتلاك ، وهو كويكري اقتنع بأن ثمة أشياء جديرة بأن يحارب من أجلها ، وأعلن على رؤوس الأشهاد ذات يوم انه يؤثر ان يموت مقاتلاً إخوانه أنفسهم على أن يرى عصابة موريس تحطّم دستور بنسيلفانيا . وتوماس شاني وفرانكلين بيرس ، وكلاهما كابتن في الجيش ضرّسته الحرب ومن مشاة بنسيلفانيا . وفوق ذلك ، فقد كان في استطاعته أن يتكل على تأييد فعّال من لورينز وجيفرسون ، ولم يكن أيّ منهما حاضراً .

وقدّم روبردو إلى ضيوفه خمرةً وحلوى ، ثم أعلن انعقاد الجلسة . كان القوم ساكنين تعلو وجوههم آيات الجدّ والصرامة ، وكانوا على شيء من الحيرة والارتباك . لقد أحسوا احساساً غامضاً بأن انشقاقاً مكشوفاً قد يقع في الجبهة الأميركية ، وتمثلت لهم نتائج ذلك الانشقاق المخيفة . من أجل ذلك استشعروا انهم يدوسون على بارود. لقد كانت الثورة المنظمة لا تزال شيئاً جديداً جداً في العالم ، وكانت الراديكالية المنظمة المنشقة على اليمينيين العاملين ضمن نطاق الثورة شيئاً جديداً بالكلية .

•

واقترح روبردو ، وقد شاع الدم في وجهه البدين ، أن ينهض « بين » ويشرح الغرض من الاجتماع . فما كان من « بين » إلاّ أن أجاب في قلق :

— « لست أريد أن أتطفل . قد يقال انني أقلّ المجتمعين شأناً . أنا أشعر ... »

فصاح ماتلاك :

— « لا ! لا ! ليس هذا أوان المجاملة . أنت تعرف المسألة ، فهيّا تكلمْ ، يا « بين » .

وتطلع « بين » إلى الآخرين . وانحنت الرؤوس . فأنشأ يتحدث في هدوء ولكن في طلاقة :

— « لست في حاجة إلى أن أمهد لكلامي بمقدمة . لقد انقضت فترة كانت الثورة فيها جديدة علينا جميعاً ، ولكنا عشنا معها عدة سنوات الآن — وقد لا تكون طويلة إلى درجة تمكننا من فهمها فهماً تاماً ، ولكنها طويلة إلى حد يعطينا فكرة ما عن تكوينها . الثورة وسيلة قوة يصطنعها حزبٌ ليس له من السلطة شيء ، وهذا الحزب في رأينا هو حزب الشعب ، الذي لم يقدّر له أن يتولى مقاليد السلطة في اي‍ما عهد من عهود التاريخ . وعندما هبّت الولايات الثلاث عشرة الـتي تؤلف اتحادنا لانتزاع السلطة ، كان الاتحاد كله في ثورة على الأمبراطورية البريطانية . ذلك أمرٌ ندركه ، والاتحاد كله هو الآن في حرب مع دولة بريطانية العظمى ذات السيادة .

« هذه واحدة . ولكن أسلوب الثورة نفسه اصطُنِـعَ افرادياً في كلٍّ من ولايات الاتحاد ، وفي كلٍّ من هذه الولايات ناضل حزب الشعب من أجل السلطة . وقد نجح الشعب في بعض الولايات ، وأخفق في بعض الولايات ، ولكنّ القضية لم يُقْطع فيها نهائياً في كلتا الحالتين . ان عملَ الثورة لمستمرٌ في الولايات الثلاث عشرة القائمة في هذه القارة .

هناك حربٌ أهلية في كل مكان . ففي نيويورك يضع المرء روحه على كفه إذا ما جرؤ على السفر وحده في اقليم وستتشاستر . وفي ماساتشوستس يتمتع جماعة المحافظين بنصيب من القوة يجعلهم يصبغون مداخنهم بعصائب سوداء تمييزاً لأنفسهم . وفي بلاد البحيرة * تحالف المحافظون والهنود الحمر وهاجموا قواتنا . وفي كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية يقاتل الأخ اخاه ، فمُحِيَتْ في هذا الصراع الأهلي أسرٌ برمتها . وليس أحدٌ ممن ارتحلوا عبر جيرزي أثناء انسحاب سنة ستٍ وسبعين يستطيع أن ينسى كيف هبّ الريف كله ضدنا ، وتركَنا فريسةً الجوع ، كما تُركنا فريسة الجوع في « فالي فورج » بعد عام واحد ، سواء بسواء.

« في مكان وحيد ليس غير انتصرت الثورة انتصاراً موصولاً ، حاسماً ، لا يأتيه الشك ، وما ذلك المكان غير بنسيلفانيا هذه ، أغنى أراضي القارة ، وربما أكثرها ولاء ، ومن غير ريب أعظمها قوةً وسلطاناً . فاذا سقطت البلاد الداخلية ، فعندئذ تسقط الثورة ، وإذا ذهبت ريح البلاد الداخلية فمن ذا الذي يستطيع ان يقول إن مشاة بنسيلفانيا لن يتخلوا عن واشنطون وينقلبوا على أعقابهم للدفاع عن بيوتهم ؟

« ومع اني لست في حاجة إلى تذكيركم ، اسمحوا لي أن استعرض معكم القوانين الثورية التي سنتها بنسيلفانيا . فانتم تذكرون كيف نظّم عمال فيلادلفيا ، حتى قبل موقعتي كونكورد ولاكسينغتون ، أنفسَهم في حرس وطني مسلّح . ولو قد كانوا وحدهم ، وهم الذين لم يختبروا أيما ضرب من ضروب الحرب ، اذن لما كان في ميسورهم أن ينتصروا ، ولكنّ آلافاً عديدة من القناصين الوافدين من الأرياف الخلفية ما لبثت ، لحسن الطالع ، أن انضمت إلى صفوفهم . وبالبندقية الطويلة وجلد الايّل وبالبنادق القديمة استطعنا التغلب على أعداء الدستور . وانسحب

* يقصد ببلاد البحيرة ولاية ميشغان . (المعرب)

الارستوقراطيون من الميدان عندما هددناهم بالحرب الأهلية ، وعندما رأوا إلى أسلحتنا . لقد كسبنا دستوراً ، وكسبنا مجلساً تشريعياً . ثم إننا بعثنا بالآلاف من رجالنا ليقاتلوا إلى جانب الجنرال واشنطون يحدونا على ذلك ولاؤنا للاتحاد . لقد رأيت ذلك بنفسي ، كنتُ في نيوارك Newark عندما حمى البنسيلفانيون مؤخرة الجيش ، وفي « فالي فورج » عندما استلقوا على الثلج وعضّهم الجوع ، ولكنهم قاوموا وصمدوا . وفي مونماوث قصم رجالنا المرتدون جلود الايائل ظهور البريطانيين . ولقد كنت في ديلاوار سنة ست وسبعين ، أيها السادة ، عندما انطلق واشنطون إلى الضفة الغربية الآمنة بعض الشيء ، وأصدر أمره بأحصاء المقاتلين فاذا هم ثمانمئة رجل — ثمانمئة ليس غير للدفاع عن مستقبل الرجال أصحاب الارادة الحسنة ولانشاء دولة من هذه الآلام التي نقاسيها — وعندئذ رأيت شيئاً لن أنساه ولو عُمّرتُ الف عام . رأيت افراد الطبقة العاملة في فيلادلفيا ، وعدّتهم ألف ومئتا رجل كلهم قويّ ذو بأس ، يزحفون من المدينة ويحمون خط ديلاوار ريثما ينضمّ سوليفان إلى واشنطون . لقد فرّ رجال الحرس الوطني قبل ذلك بستة أشهر ، ولم يكن هذا عاراً على أحد . وإنك لفي حاجة إلى ستة أشهر من الجحيم لكي تُفرغ الحديد في نفوس الرجال . حتى إذا انطلقوا من فيلادلفيا كرةً ثانية — المستخدَمون والبناؤون والحدادون والطحانون والحائكون وباعة الاقمشة — كانوا غيرهم بالأمس . واستسلمت بنسيلفانيا في سهولة ونلنا جزاءنا .

« وفرّ الكونغرس ، وسلّم مدينتنا للبريطانيين وجماعة المحافظين . ولكننا انتزعناها ثانية لكي يكون في ميسورها ان تصبح حُلم واحد من التجار المضاربين ، لكي يستطيع دين أن ينهبنا ، لكي يستطيع غرايفز أن يرفع سعر التبغ اثنين وعشرين دولاراً لكل برميل ، لكي يستطيع جاميسون أن يكدّس أصوافه على ضفة النهر فيما يرتجف أفراد الجيش المقاتل من الصقيع ، لكي يستطيع مستر جامي ولسون ، الذي

تعرفونه كما أعرفـه ، ان يغتصب أراضي في الريف الخلفيّ يقدّر ثمنها بمليون دولار — بعد أن غادرها أصحابها وانضموا إلى صفوف المقاتلين. وكأنما لم يكفه ذلك ، فراح يهاجم كل شيء حاربت هذه الولاية مـن أجله ، في جريدته العفنة المثيرة للفتنة ، الحاملة اسم « باكيت » (الرزمة) ولقد وجد حليفاً صالحــاً في « الايفننغ بوست » التي لا تقلّ عن صحيفته سفاهة وشراً . وكل ذلك أيها السادة ، ليس مجرد مصادفة ، ولكنــه هجوم منظمّ على الثورة في بنسيلفانيا . أما ما يدعونه الجمعية الجمهورية التي يوجّه سياستها مستر روبرت موريس فلا يربطها بالفكرة الجمهورية أكثر مما يربط الملك جورج الثالث . إن مهمتها الوحيدة ، في ما أرى، هي القضاء على الدستور الكامنة فيه قوةُ الشعب .

« أحسب أني تحدّثت أيها السادة أكثر مما ينبغي . ذلكم هو الوضع الذي أحاول أن أناهضه وحيداً ، والذي يعتقد الجنرال روبردو أن في استطاعتنا أن نناهضه ، مناهضةً أفضل ، إذا تعاونا جميعاً . إني أترك البقية لكم ... »

ولم يصفقوا له . لقد جلس في صمت ، والعيون كلها تراقبه . كان مُتعَباً جداً ، وكان رأسه يؤلمه ، وبعد لحظة قال ماتلاك وكأنما يفكّر في صوتٍ عالٍ :

— « مهما فعلنا فنحن في حاجة إلى اصطناع القوة . واشنطون ... »

فحنى ريتنهاوس رأسه وقال :

— « أعتقد أنه سيكون معنا . »

— « وهل تظنه يفعل ، على الرغم من ذلك ؟ »

وقال « بين » أن نعم . أما بيل فدعا إلى العمل المباشر : إذا كان بعض الرجال يكسبون كسباً غير مشروع فينبغي أن يقدّموا إلى المحاكمة ويُنْزَلَ بهم القصاص . يجب أن يُدافع عن الدستور بالقوة ...

— « واذن ، فتلك حرب أهلية . »

— « لتكن كذلك . لقد أرادوها هم . »
— « والتأييد ؟ »
— « إكشفوا الغطاء عن هذه القضية يعبِّر الشعب عن موقفه . وعندئذ نرى . »

وتنهّد روبردو . كان آخذاً سبيله نحو الشيخوخة ، وكان السلم حُلماً الآن . وتعاظم الهمُّ ريتنهاوس وقال إن عليهم ان يتحركوا في حذر ، في حذر .

— « إلى الجحيم بهذه السياسة ! »
— « سفك الدماء ... »
— « هم أرادوا هذا ، » كذلك قال غارلاند في صوت أجشّ . وأيدت كثرتهم وجهة النظر هذه . فقد كانوا يعملون في صفوف الجيش ، فاذا ما شُنّت الحملة انقلبوا إلى تلك الصفوف من جديد . ولكن « بين » أوضح ان هذه الخطوة ينبغي ان تصدر عن الشعب . واقترح بيل عقد اجتماع شعبي . فقال روبردو إنه سوف يُعدّ العدّة لذلك . وطُرِحت الفكرة على التصويت ، وأقرّ الآخرون الطريقة .

وتصافح القوم وانقلبوا إلى بيوتهم . إنّ احداً منهم لم يبتسم . إنّ شيئاً كان في سبيله اليهم منذ أمد ، حتى إذا مثلَ أمامهم الآن عصف بهم القلق وزايلتهم السعادة .

*

وعُقد الاجتماع في فِناء « دار الولاية » . لقد شهده بضع مئات من الناس ، وخطب فيه كلٌّ من « بين » وروبردو . واقترح ماتلاك إنشاء لجنة تحقيق ، وطُرح الاقتراح للتصويت العلني . وكان « بين » أول من نتُخب ، ومن بعده الكولونيل سميث ، وهو من أشد انصار الدستور

صلابةً ، ومن رجال الحرس الوطني ، فهو اذن من الشعب ، ومن بعدهما ريتنهاوس ، وماتلاك ، وبيل . كان التجهم يخيم على الحشد ، وكانت الجمعية الجمهورية قد حاولت المشاغبة على الاجتماع ، ولكن الحشد كان من التأثر بحيث لم يسمح لها بذلك . ولولا جهود ريتنهاوس وروبردو لما كان في الامكان اجتناب اللجوء إلى العنف .

وفي اليوم التالي تناول بيل و « بين » الطعام مع الكابتن هاردي قائد احدى الكتائب البنسيلفانية النظامية ، وكان يعسكر ، موقتاً ، في الهواء الطلق ، في المدينة . وتحدث بيل عن الأحداث المنتظرة وقال :

— « أنا خائف من الغوغاء . ليت رجالك يساعدوننا ... »

ورفض هاردي باديء الأمر . فلم تكن تلك منطقته . وطلب أن يوافق واين على ذلك ...

— « ولكن ليس ثمة متسع من الوقت لهذا ! »

وتناقشوا ساعةً كاملة : ثم إن هاردي قبِل أن يعرض المسألة على الجند أنفسهم . وتحدّث كلٌ من « بين » وبيل . وبعد مشاورات في ما بينهم وبين أنفسهم وافق الجند على تأييد الرجلين .

وهكذا أعلِنت الحرب ، بمعنى من المعاني ، في فيلاديلفيا .

وتسامعت المدينة بالأمر . لقد كانت أشبه بمعسكر مسلح . كان الناس يحملون بنادقهم في أيديهم ، وكانت الغوغاء تطوّف في الشوارع ، وكان ثمة عملٌ لرجال هاردي . وألفت لجنة التحقيق محكمتها ، وسيقَ للمثول أمامها التاجر تلو التاجر ، فأمرتهم بأن يفصّلوا القول في تجارتهم ، وبأن يُطلعوها على دفاترهم ومستنداتهم . وقد اكتشفت المحكمة ان تاجراً يدعى مستر دوني يخزن في مستودعاته ثلاثة آلاف وستمئة زوج من الاحذية ، اشترى كلاً منها بثمن متوسط يبلغ احد عشر دولاراً ، ليبيعه بعدُ بستين ولاراً . وكان « بين » قد أعدّ البيّنة في كثير من العناية . كذلك اكتشفت المحكمة أن شخصاً يدعى مستر سوليكوف ،

وهو رجلٌ من بالتيمور تكتنفه الاسرار ، كان شريكاً لموريس في احتكار سوق الحنطة . ووُضعت نصوص الاتّهام .

وغمرت صحيفة الـ « فيلاديلفيا بوست » موجة من الشجاعة فراحت تهاجم « بين » بأقذع وأقذر مما هاجمته في أيما مناسبة أخرى . وكان « بين » خليقاً بأن لا يأبه للأمر قائلاً :

— « إنها ليست المرة الأولى . »

ولكنّ المسألة لم تكن رهن ارادته وحده . فطوّق ماتلاك بناية الصحيفة بالجند ، ووجّه إلى تاون ، صاحبها ، من يسأله ما إذا كان راغباً في أن يلتفّ حبل المشنقة حول عنقه فترةً من الزمان . وكان ذلك الوعيد كافياً :

وقال ريتنهاوس :

— « أنا لا أوافق على ذلك . إن حرية الصحافة ... »

ولكن اللجنة أكدت له أنه عندما تنتصر الثورة تُمنح الصحافة حريتها كاملة .

ولم تكن اللجنة تملك سلطة انزال العقاب ، ولكنها كانت تملك قوة ضخمة للتهويل والارهاب ، وكانت تنعم بتأييدٍ مكينٍ من جند فيلاديلفيا كله . وادّخرت أدلتها للانتخاب القادم ، وفي اجتماع شعبي كبير قدّمت دعواها ضد موريس . وفي اليوم التالي رأى موريس ، والذعر يلفّه ، إلى احتكاره ينهار وتتقوض أركانه .

•

وذات ليلة مضى « بين » إلى مأواه ، إثر اجتماع عقدته اللجنة . ولم يكد ينتهي اليه حتى اعتراه فجاءةً ضعفٌ أحاله إلى مثل عجز الطفل ، فاذا به لا يقوى على أن يرتقي السلّم الخشبيّ الواهن إلى غرفته .

واضطجع « بين » في فراشه ، تستبدّ به الحرارة طوراً ويعصف بـه البرد طوراً ، فهو يرتجف ، ويهذي ، وينشب أظفاره في ذاكرته ، ويبكي بكاء متقطعاً في بعض الاحيان ، ولكنه أضعف من أن يقدر على اشعال النار في الموقد . وطوال اليوم التالي وجزءٍ من النهار الـذي عـَقـِبه ، ظلّ في فراشه يعاني الحالة نصف الواعية نفسها . كانت أشياء كثيرة تحدُث ، وكان « بين » قد نُسِيَ إلى حين . لقد جثمت المحكمة على صدر فيلاديلفيا ، وكانت المدينة مفزّعة ، مُغْضَبَةً ، منقسمة على نفسها . وتلاطمت الغوغاء في الشوارع حاملةً المشاعل . وحاول جند « بيل » ، وهم قلّة موزّعة في انحاء المدينة ، أن يحفظـوا النظـام ولكن عبثاً .

وتذكّر روبردو الكاتبَ الغائبَ . وحتى ذلك الحين كان « بين » على قيد خطوة من الموت ، صورةً شاحبةً قذرةً في غرفةٍ كريهة قذرة . وعندما ثاب « بين » إلى رشده كان أول شخص رآه إيرين روبردو . كان ذلك حلماً ، وكانت هي ملاكاً . وقال لها « إنني أموت ... » ولكنها لم تُصِخ لكلامه . كان أضعف من أن يحسّ شيئاً غير ضرب من السعادة المتوحدة . وكان لا يقدر على أكثر من مقاومة جهود إيرين لأخراجه من ذلك المكان الذي يدعوه بيته .

ولبثت معه تسعة أيام تمرّضه في تفانٍ وبراعة . ثم إن « بين » ، الذي ما كان ليطيق صبراً على ذلك أكثّر مما فعل ، توسل اليهـا ان تذهب . فذهبت ، فاذا به يعاني وحدةً أقسى ، وبرداً أشد من ذي قبل . وحين نهض من فراشه وتطلّع إلى قطعة الزجاج التي كان يدعوها مرآته لم يُواجهه توم بين ، ولكن قناعٌ أصفر منتشرٌ على عظـام ناتئة ، وعينان غائرتان ، وأنفٌ عظيم ، وشعر أشعث طويل .

وفيما كان « بين » طريح الفراش كانت الحرب الأهلية تندلع نارها في فيلاديلفيا . لقد سمع طلقات البنادق المتبادلة في المعركة السوداء التي

دارت رحاها بين جماعة ولسون والدستوريين . سمع ذلك طوال ليلةٍ بكاملها فبكى كالطفل لأنه حبيسٌ في غرفته ، عاجز ليس يستطيع حراكاً . وكان لا يزال مريضاً عندما أدت انتخابات الولاية إلى فوز الدستوريين فوزاً ساحقاً . لقد أخبره بيل بذلك ، فحنى رأسه وحاول أن يبتسم ابتهاجاً بالنصر .

●

وأقبل شتاء قاتمٌ آخر . كانت سنة ثمانٍ وسبعين . وتمرّدت طائفة من جند بنسيلفانيا بسبب من نقص الطعام والملابس والأعطيات . لقد سلخوا خمس سنوات في ميدان القتال ، فهم يريدون أن يروا بيوتهم ، وزوجاتهم ، وأولادهم . وأفرغ واشنطون فؤاده في رسائل تنضح بالضراعة والتوسل . وقرأها « بين » . كان هو سكرتير المجلس التمثيلي الآن . وكان في جملة ما كتبه واشنطون :

« عزيزي بين ، أليس ثمة شيء يمكن أن يُعمل ، أليس ثمة شيء ؟ »

كانت الانتخابات حاسمة جداً . وبتسلّم الدستوريين مقاليد السلطة فقَدَ موريس ، وراش ، وغيرهما من زعماء الحزب الجمهوري كلَّ رجاء . لقد قضي على الثورة المضادة ، ولن تقوم لها قائمة بعدُ ، طوالَ سنواتٍ عديدة . وكان على « بين » أن يعيش بطريقة ما . كان من اليسير عليه أن يكتب « أزماته » وأن يطبعها ، ولكن الناس الذين قرأوها لم يكونوا يملكون بنساً يدفعونه إلى المؤلف . وفي تلك الفترة بالذات عرض روبردو وبيل على « بين » منصب سكرتير المجلس التمثيلي الخاص بالولاية . فقبلهُ معتذراً بقوله : « كنت أرجو انْ أعود إلى الجيش . » ولكنه لم يكن يملك القوة الكافية . لقد تقدّمت به السنّ

على نحوٍ غريب هادئ . وكان شعره قد أخذ يشيب ، وكانت عيناه الملويّتان الغريبتان تنطويان على ظلٍّ من الخوف .

وبوصفه سكرتيراً للمجلس التمثيلي ، قرأ « بين » نداءً من واشنطون : « ... كل فكرة يمكن أن تكوّنوها عن البؤس الذي يحيق بنا جديرة بان تكون دون الحقيقة الواقعة ... » وكان هذا النداء موجهاً لبنسيلفانيا عندما سقط كل شيء آخر ، إلى الرجال الذين انتزعوا زمام السلطة وانشأوا أول محكمة ثورية . « مثل هذه المجموعة من الظروف والملابسات التي تستنزف صبر الجند فلا تبقي منه شيئاً ... اننا نشهد في كل شعبة من شُعَب الجيش أخطر مظاهر التمرد والشغب ... » اما « بين » فقد توسّل اليه الفيرجيني الفارع الطول باكثر من ذلك : « أنت يا بين — يا من عملت هذه الثورة بقلمك — أنت تستطيع أن تتحدث إلى الرجال . » كان مريضاً . وكانت يده ترتجف . وأصاخ المجلس التمثيلي وكأنّ على رأسه الطير . ثم تطاول الجدل على غير طائل ، فنائب يقول : « ما الذي نستطيع أن نفعله ؟ » وآخر يضع السؤال نفسه في قالب آخر .

وكان عنده ألف دولار أميركي : فأخذ نصفها وخطا أولى خطواته في سبيل إصلاح ما فسدَ مع حزب المال . وإذ أرسل هذه الخمسمئة دولار إلى بلير ماكليناغان ، وهو تاجر تبغ وأنسجة كتانية من أصل اسكتلندي ، وكان عظيم الاعجاب بـ « بين » ، اقترح عليه أن يفتح اكتتاباً لأغاثة واشنطون . وعرض الاسكتلندي الفكرة على سالومون ، وهو يهودي صغير تكتنفه الاسرار ويتخذ من أحد المقاهي في « الشارع الأمامي » مقراً له . وقد أشيع أن سالومون هذا حطّم احتكار القمح وساعد على تخفيض أسعار البطانيات . وأياً ما كان ، فقد كان هواه مع الدستوريين الذين كانوا يعتمدون ، أكثر ما يعتمدون ، على اليهود ، في سدّ حاجاتهم المالية .

وقال سالومون للاسكتلندي :

— « إمضِ في ذلك . هذا هو السبيل الوحيدْ — ولكني لست الرجلَ الذي تريد . ان في استطاعتي ان أستغني عن بضعة آلاف . خمسة ربما ، ولكنك في حاجة إلى مقادير ضخمة من المال . إذهب إلى موريس ، وريد ، وراش . أعتقدُ أنهم لن يتوانوا عن المساعدة . »

— « بعد ان حاربهم « بين » على تلك الشاكلة ؟ انها فكرته . »

— « بعد أن حاربوه هم على تلك الشاكلة . إنهم يريدون أن تكون الثورة ثورتهم ، ولكنهم لا يريدون ان يخسروا الحرب . »

وقصد ماكليناغان إلى موريس . فقال موريس في مرارة :

— « أنا أكره ذلك الرجل — ولكنه على صواب . اننا في سبيلنا إلى الخسران . وإذا استطعتُ ان أقنع ولسون ... »

فابتسم الاسكتلندي وقال :

— « إذا استطعتَ ... »

وقال موريس في تجهم :

— « ومع ذلك فلا بدّ ان يدفع مستر بين ، يوماً ما ، الثمن . اننا لن ننسى . »

وتُرِك مبلغ الكراهية التي أثارها « بين » لاكتتاب آخر . وفي تلك الليلة ، وعلى أساس من الخمسمئة الدولار الأميركية التي قدمها ، نُظّم بنك بنسيلفانيا لتزويد الجيش بحاجاته من الطعام ، والملابس ، والذخائر الحربية .

●

وكتب « بين » كراريس جديدة بالحرارة البيضاء نفسها ، ولكنْ كان عليه أن يشربَ أكثر فأكثر لكي يضرم النار في قلمه . ومضى إلى

الجيش مرتين اثنتين . كان « حصافة » العجوز أشد هزالاً وأكثر شحوباً سنه في أيما وقت مضى . ولكن الجنود رحبوا به وما انفكوا يصرخون في وجهه : « ولكن يا إلنّهي ، ليس في هذا منطق البتة ، يا توم . » وشرح لهم الأمور ، مرةً ومرةً ، في كثير من الصبر والأناة . كانوا أولاده ، وكانوا قذرين ، شاحبين ، متهرئين مثله . وقال له واشنطون : « لا تدعني أقدّر في يوم من الأيام ، يا بين ، كم تبلغ قيمتك . »

وفي « ازمة فوق العادة » كان في أحسن أحواله الثائرة الحادثة ، مناشداً التجار تأليف جبهة مشتركة ، متضرعاً اليهم ان يؤمنوا بأن رجال الاعمال لن يجدوا الميدان الارحب لبراعاتهم إلا في ظل الديموقراطية . وفي « ازمة حول الخبر العام » التمس من أعضاء الاتحاد ان يقاتلوا معاً ، لا ان يتخاصموا ، وتلهيهم خلافاتهم الاقليمية عن العدو المشترك . ولقد شرع يفكر في حكومة وطنية الآن . فما وقع في بنسيلفانيا كان نذيراً كافياً .

وسلخ اسبوعاً من السكْر الخالص ، استشعر بعده أنه انتهى وأنه لن يقوى على المضيّ أكثر مما فعل . بيد أنه ما لبث أن انتشل نفسه من هذه الحمأة ، أكثر هزالاً من ذي قبل ، ولكنه أشدّ تصميماً وأمضى عزيمة — وفي جعبته خطة تقضي بأن ينقل الثورة شخصياً إلى انكلترة . كان على استعداد لأن يذهب إلى هناك بنفسه ، ليكون « حصافة » جديدة للمواطن البريطاني ، للعامل البريطاني ، والفلاح البريطاني .

ولكن ناثانيال غرين استطاع ان ينزع هذه الفكرة من رأسه قائلاً له :

— « إذا استطاع البريطانيون ان يقدّموا رأس « بين » إلى المشنقة فعندئذ يصفّون حسابهم . أنا اخشى ان نكون ما زلنا في حاجة اليك . »

وفجأةً ، لا في يوم ولا في اسبوع ، ولكن على نحوٍ من الفُجاءة كافٍ بعد تلك السنوات كلها ، أخذ الأمركيون سبيلهم إلى النصر . صحيح ان الحرب لمّا تنتهِ بعد ، وان معاهدة الصلح لمّا توقّع بعد ،

ومع ذلك فقد ربح الأميركيون الحرب ، وانقضت فترات الجزع واليأس ، وأسِرَ جيش بريطاني في يوركتاون ، وتمزقت قضية البريطانيين في أميركة شرَّ ممزّق ، وجاءت منحة فرنسية مؤلفة من عدة ملايين فحلت المشكلة المالية ، وتشتت شمل المحافظين . وتطلّع « بين » وحيداً مروعاً إلى هذا كله وتساءل :

— « أين أنا ؟ من أنا ؟ »

لقد قُوِّضت الدعائم من تحت قدميه . كان ابداً خارج الدائرة ، كان أبداً الرجل العامل وراء الكواليس ، الرجلَ الداعية أبداً . وها قد جاء الزمن الذي لم يبق فيه محلّ للدعاية ، أو حاجة إلى رجال يعملون من وراء حجاب . ففي صفوف الجيش المنتصر ، لن تثير صورة « بين » المتضرّعة الحاثّة المنذِرة شيئاً غير الضحك . كانت صناعته الثورة ، وها هو ذا الآن من غير صناعة .

— « إرجعْ إلى عمل المشدات ، إذن » . كذلك خاطب نفسه في نكد . وكان أصدقاؤه ورفاقه يوجهون وجوههم نحو السياسة ، والانشاء. في حين كان آخرون ينشبون أظافرهم ، لأن النصر يعني الغنائم . أما هو ، الذي ما كان بحال رجلاً من رجال السياسة ، فلم تكن به حاجة إلى غنيمة ما .

وكانت ثمة رحلة إلى فرنسة . ذلك بأن صديقه القديم رئيس الكونغرس السابق ، هنري لورينز ، وقع في أسْر البريطانيين فيما كان يبحر إلى هولندة : ولقد حاول « بين » ، الذي كان يعرف ابن لورينز ، أن ينتشل الصبيّ من غمرة البؤس التي تردّى فيها . فقال لجون لورينز :

— « إن ذلك لن يستمرّ إلى الأبد . سوف يجري تبادل أسرى ، في وقت قريب . سوف تنتهي الحرب ... »

وكانت لـ « بين » طريقة في اكتساب الناس ، فاذا بالصبيّ يقدّسه تقديساً . حتى إذا عزم لورينز الصغير على الذهاب إلى باريس للتعجيل

في إقرار القرض الفرنسي توسّل إلى « بين » أن يرافقه ، فأقره « بين » وهو الذي كان يرى ان عمله في هذه الناحية من المحيط الاطلسي قد شارف على النهاية . لقد كانت ، بمعنىً ما ، عطلة لـ « بين » ، بل العطلة الأولى التي عرفها في حياته كلها : واستقبلته فرنسا استقبالاً كريماً، وتضرع إليه كثير من رجالها البارزين أن يوقّع على نسخهم الخاصة من كتاب « حصافة » ، مُوْقعين في نفسه ، كما لم يقعْ في نفسه من قبل ، أنه — هو « بين » — شخص ذو شأن .

وانقضت تلك العطلة بأسرع مما ينبغي . ونجح لورينز في مهمته : وبدا كل شيء ناجحاً الآن . واذ رجع « بين » إلى العام الجديد على سفينة محمّلة بمليونين ونصف مليون ليرة فرنسية فضية لم يستطع إلا أن يفكر في التطور الذي طرأ على هذا الاتحاد الصغير من المستعمرات ، الذي يطلق على نفسه اسم أميركة . فعندما كتب آخر « أزمة » من « ازماته » مثلاً ، قبيل رحلته إلى فرنسة ، لم يلق أيما عناء في البحث عن ناشر يطبع له الكراس . على العكس ، لقد تصدرت دزينةٌ من الطابعين للفوز بشرف طبعه ونشره . لقد أصبحت كراريس « الأزمات » عملاً تجارياً مضموناً الآن بعد أن اجتازت البلاد أزمتها الخطيرة .

ودعته السيدة جاكسون ، التي كانت من قبلُ إيرين روبردو ، وزوجُها إلى مأدبة عشاء تقام على شرفه ، إثر عودته إلى أميركة . ولم يكن فرانك جاكسون يستشعر أيما حسدٍ لـ « بين » . وقال لأيرين في هدوء :

— « ولكنه يكاد يصبح رجلاً عجوزاً ! »

كانت إيرين ما تزال في ريعان الصبا والجمال . فلم تكد تجلس إلى جانب « بين » واضعةً طفلها على ركبتها حتى تجلى إلى أي حدّ أثرت المتاعب والاهوال في مظهر « بين » الخارجي . كان رجلاً عجوزاً . كان مشرفاً على النهاية . وما كان اجتراؤه على ان يحب هذه المرأة إلاّ

أضغاث أحلام .

وسألته :

– « ما الذي تنوي أن تفعله الآن ، يا توماس ؟ »

وحاول أن يتخلص من الجواب بابتسامة ، وكأنما يريد أن يقول إن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تُعمل . لقد كان رجلاً مشغولاً – كذلك قال – غارقاً في لجة من الكتابة والمآدب ...

وقال فرانك جاكسون :

– « لقد انتهت الثورة . »

ولم يكن في استطاعة « بين » إلا أن يوافق . ثم استطرد فرانك :

– « إنهم لن ينسوك . »

كانت ترضيةً له . وتمتم :

– « وما الذي يحملهم على ذلك ؟ »

وقالت إيرين :

– « أنت مُتعَب جداً ، في ما يبدو . »

والواقع انه كان متعباً ، متعباً إلى حدٍ لعين ، راغباً في أن يعبر من هذا المنزل ، وأن ينكبَّ على زجاجات الشراب . من هم هؤلاء القوم ، وكيف أقبل للجلوس في دارهم ؟ ومَنْ هو غير صانع مشدات متجول قُدّر له أن يكون شيئاً آخر فترةً قصيرةً من الزمان ؟

وقالت إيرين :

– « أنت في حاجة إلى راحة . »

وأقرّها على ذلك قائلاً :

– « يخيل اليّ أني سأرتاح . »

وبعدها لم يستطع أن يغادر المكان في كثير من السرعة :

●

لم يَعدِ الآن سكرتيراً للمجلس التمثيلي . كان لا شيء ، مجرد توم بين ، مجرد ثوري سابق ، أكثر رثاثة من ذي قبل ، وأكثر فراغاً في المعدة . وكان الشيء المتوقع بعد انتصار يوركتاون هو سكرة صالحة ، فاستغرق في الشراب اربعة أيام كاملة ، ولكن ذلك ما كان له أن يستمرّ . فقد كان عليك أن تأكل وتشرب . وانك لترى إلى جلد حذائك يتهرّأ ، وإلى حاجتك الماسّة لغرفة تأوي اليها مهما تكن صغيرة وقذرة وحقيرة .

وما كان لليل التوحّد ان يتقاصر . فقد شخص روبردو الى بوسطن وسار غرين على رأس حملة في كارولينا . وحين كتب ان ايّامه هناك خليقةٌ بأن تشبه الايام القديمة لولا أنّ « بين » لم يكن هذه المرة الى جانبه — حين كتب غرين ذلك فكّر « بين » في كآبة :

— « انها لا تشبه الايام القديمة . كانت الحاجة ماسّة اليّ آنذاك . أنا لستُ جزءاً من النصر . »

وكان واين يقاتل عبر جيورجيا مع جند بنسيلفانيا الذي طارت له شهرة واسعة ، الآن ، والذي اعتُبر أحسن جند في العالم . لشدّ ما تُغيّر الايام الاشياء . وكان في استطاعة « بين » ان يتذكر خمسمئة منهم باسمائهم .

وأقبل واشنطن الى فيلاديلفيا للاحتفال بالنصر ، ولكنه كان احتفالاً أجوف . كان ابن زوجته قد توفي منذ فترة يسيرة . ولقد بدا الفيرجيني الفارع الطول مُتعباً فارغ الفؤاد . وحين دعا « بين » لمقابلته استشعر توم الخجلَ لثيابه القذرة ، ولمظهره الزريّ ، ووجهه الملطّخ . وقال واشنطون :

— « يا صديقي القديم ! »

وأخذ « بين » يتمدّح بنفسه . كان يفكّر في ان يكتب تاريخاً للثورة . هل يعرف واشنطون كم نسخةً طُبعت من كتابه « حصافة »؟

وتباهى « بن » قائلاً :

– « أنا أعرف قيمتي الذاتية . »

وابتسم واشنطون وهو يفكّر الى أي حدّ من البؤس والتعاسة انتهى هذا الكاتب المخربش بعد ان ابتعد عن نار المخيم والجنود المتمرّدين ، وقال :

– « يا عزيزي «بن» ، إن أحداً منا لن ينسى قيمتك أبد الدهر . »

ولكن لماذا يتهافتون جميعاً على الغنائم والمكافآت ؟ وكيف يتلاءم هذا مع عالمٍ سداه السّلم ولحمته النظام ؟

وسارع واشنطون الى القول :

– « حتى موريس يقدّر جهدك العظيم . ففي الجبهتين ، الجبهة الاهلية وجبهة القتال ، كان « بن » هو الذي حفظ على القضية تماسكها. أقول لك ذلك وأنا مقتنع أعمق الاقتناع به ، يا صديقي الطيب ... »

وافترق الرجلان بعد ذلك بقليل . ولم يكن واشنطون هناك ليرى الى « بن » وهو يبكي .

●

وزاره وفدٌ من الجنود أصحاب الرتب الصغيرة . لقد انقضت شهور وشهور من غير ان تُدفع اليهم أعطياتهم ، فهل يستطيع « بن » ان ينطق بلسانهم أمام المسؤولين ؟ هل يستطيع ان يصوغ مطالبهم ويقدّمها الى الحكومة ؟ إن أحداً لا يعرف أكثر من « بن » كم قد تألموا خلال سنوات الحرب . ان أحداً لم يكن أقرب اليهم من « بن » . لقد أطلق قلمه شرارات من نار في سبيل الثورة ، فهل قد بقيت فيه بقية من لهب لخدمة هؤلاء الذين قاتلوا تحت راية الثورة ؟

وقال لهم « بن » مُتعَباً :

– « لقد تحققت أمانينا . والآن ، يتعيّن عليكم ان تصبروا : إن كل مطلب تدعمه القوة قد يحمل معنى الفتنة ... »

وحملق الجنود في وجهه ذاهلين .

وقصد « بين » الى روبرت موريس ،وزير المال،وبسط له المسألة قائلاً :

– « طبعاً ، ان دعواهم عادلة . »

إن أحداً لا يستطيع ان يقول غير ذلك . ولكن هل هذا هو الوقت المناسب ؟ هل في استطاعة موريس ان يعمل شيئاً ؟

– « طبعاً ، أستطيع . » قال موريس . لقد انقضت تلك الايام التي حارب فيها أحدهما الآخر . ثم استطرد مؤكداً لـ « بين » :

– « هؤلاء الرجال يستحقون كل عطف . ولسوف تُدفع اليهم حقوقهم. لقد أصبتَ في عدم تشجيعك اياهم على الفتنة . واذا كان لنا ان نعتبر اننا خرجنا من الحرب منتصرين فعندئذ ينبغي أن تتخذ بعض الاجراءات القانونية ... »

وفكر موريس قليلاً ثم قال :

– « في استطاعتك ان تحوّل مقدرتك الكتابية العظيمة الشأن لمصلحتنا، يا « بين » . وفي ميسورنا ان نحمل الحكومة على ان تُدرك ... »

– « أنا لم آت من أجل هذا . »

– « لا ، إنها مجرد فكرة . لنتركها الآن في مكانها بحيث نستطيع ان نتلقّفها كرةً ثانية في فرصة أخرى . »

وبعد لحظة ، قال موريس :

– « ليس ثمة سببٌ يحتم ان نكون عدوّين . »

وحنى توم رأسه وغادر المكان .

طبعاً ، ليس ثمة سبب . لقد انتهت كلٌ من الثورة والثورة المضادة الآن . وإن الرجال جميعاً ليوجهون وجوههم شطر الاشياء المعقولة .

•

كان يُنفق ساعات وحدته في شيء من الكتابة ، وكان يتقاضى راتباً من حكومة لم تعد في حاجة اليه . ولقد اشترى منذ قريب بذلةً جديدة وكتب قطعةً تشرح أهداف الثورة للاوروبيين ، قطعةً مهذبة ، « أزمة » أخرى تضطرم بمثل النار القديمة — لماذا لم يُقَرّ الصلح إقراراً قانونياً ؟

وقضى بضعة أسابيع مع كيركبرايد . وزاره نفر من الجنود القدماء على غير انتظار . وراحوا يتحدثون عن أحداث وقعت لألف سنة خلت عندما زحفوا من هاكنساك الى ديلاوار . ولكن كان ثمة اتجاه آخر في الحديث . فقد تبدّى المستقبل متعاظم الاشراق والازدهار في أميركة .

ولكن أين هو من ذلك كله ؟

وفي يأس حاول ان يتعزّى بالتفكير في مستقبل أميركة ، في الغنائم والامجاد ، في المفاخر والذكريات ، في الهبة الشعبية القادمة وفي الاعتزاز بأن يكون مواطناً حراً في جمعية عظيمة .

— « حيث لا حرية فثمة بلادي » ، كذلك قال هو يوماً .

وأشرق فجر السلم . وتبخترت أميركة مثل ديك رومي ، بعد ان حظيت بالحرية والاستقلال . فلست ترى غير ألعاب نارية ، وأعلام خفاقة ، واجتماعات خطابية ، ومآدب ليس لها انتهاء .

وكتب ذلك الانكليزي المُتْعَب الذي كان في يوم من الايام صانع مشدات وأشياء أخرى :

« لقد انقضى الزمان الذي امتُحِنَتْ فيه نفوس الرجال . وتمت أعظم وأكمل ثورة عرفها التاريخ على نحو مجيد سعيد ... »

وكان خليقاً به ان يوقّع هذه الكلمة هكذا : « توم بين ، ثوريّ بالمعنى الكامل . »

القسم الثاني

أورُبَّة

الفصل الحادي عشر

اعطني سبع سنوات

وقال بلايك ، الرسام والشاعر ، له ، لتوم بين :

— « سوف يشنقون شخصاً ما ، وقد تكون أنت ذلك الشخص . إنهم يهدفون الى أن يكون ذلك الشخص هو أنت . فلطالما تاقوا الى ان يلفّوا حول عنقك حبلاً منذ عام ١٧٧٦ . انك لا تستطيع ان تتحرّش بالأسد في عرينه ، الى ما لا نهاية . وانكلترة ليست أميركة ... »

— « انكلترة ليست أميركة ، » كذلك أقره « بين » على ما ذهب اليه . لقد صار يعرف ذلك الآن .

— « واذن فاهرب من لندن . اهرب من انكلترة . انك اذا مت تصبح غير ذي غناء لأحد من الناس . »

— « أهرب ! » كذلك تمتم « بين » . وضحك بلايك في تجهم . وقال « بين » :

— « أنا لا أستطيع أن أضحك . »

لقد تحطّمت آماله كقصر من ورق اللعب . وكانت السنة سنة

الف وسبعمئة واثنتين وتسعين ، وكان هو توماس بين ، الثوريّ بالمعنى الكامل ، يعبّيء على وجه السرعة حقيبة قديمة ، استعداداً للفرار من لندن ، والنجاة بنفسه من حبل المشنقة الذي لم يَحِنْ وقته بعد . إنه لا يزال في الخامسة والخمسين . ولقد قال يوماً : « أعطني سبع سنوات أكتبْ « حصافة » لكل أمة من أمم أوروبة . » وها قد انتهى كل شيء الآن بالنسبة الى انكلترة . لقد ألّف كتاباً دعاه « حقوق الانسان » ، ولكن لم يكن ثمة مثلُ أولئك المزارعين العنيدين أولي البأس الذين تنكّبوا بنادقهم في كونكورد ولا كسينغتون . وكان هو في الخامسة والخمسين ، مُوهَنَ القلب ، فاراً بعنقه من حبل المشنقة.

كان الظلام حالكاً ما يزال ، قبلَ ارتفاع الضحى بساعة أو نحوها عندما طرق « فروست » و « أوديبيرت » بابه وسألاه أيّ شيء على ارض الله هذه يبقيه حتى الآن .

كان كل شيء في الحقيبة الآن . نسخة من « حقوق الانسان » ، وقميص داخلي ، ومخطوطة نصف تامة .

— « أنا عائد ... »

— « إن عربة دوفر لا تنتظر . وكذلك الجلاد ! »

— « قلت إنني عائد ! »

لقد انقضى الامر الآن ، وانقلبت انكلترة الى ما كانت عليه انكلترة من قبل . لقد انطفأت شعلة المجد السريعة الساطعة ، وماتت الخطط الصغيرة التي نُفِثَت في السراديب والحانات . وكانت البنادق الاثنتان والاربعون خليقةً بأن تبقى في الدور الارضيّ من منزل ثاديوس هاتر حتى يفتّتها الصدأ . وكان برميل البارود قد ألقي به في نهر التيمس ، وكان صانعو السفن وعمال المناجم والحائكون وأصحاب الدكاكين تحدّق بعضهم الى وجوه بعض في مثل نظرات الرجال المجرمين الخجلين الذين

حلموا لحظة بالمستحيل واجترأوا على الايمان به .

– « أنا عائد ، » كذلك قال بين .

وفي العربة المترنحة فوق الطريق المجدورة المؤدية الى دوفر وكـــزه فروست وهمس في أذنه :

– « في المقاعد الامامية ليونارد جاين . »

وكان جاين عيناً من عيون التاج ، واحداً من أولئك الرجال ذوي الوجوه الحادّة الذين كانوا ينتقلون من مكان الى مكان ويراقبون الأشياء. وكان ذلك قبل ان تُنشأ دائرة الشرطة السرية .

وتشكّى « بين » في نكد :

– « حسبتُ انكم قلتم إن أحداً لن يعرف . »

– « حسناً ، انهم يعرفون ... »

وفيما كان الضحى يرتفع شاحباً أول الامر ليشيع الدمُ في وجهه بعد ذلك بفضل شمس الصباح ذات الحمرة الزاهية ، انشأ « بين » يتأمل ما معنى ان يموت المرء ، ان يلتف الحبل حول عنقه ، وان يسمع الى تلك المقطوعة من الشعر غير الموزون يصيح بها الصبية فيما يُساق هو الى المشنقة :

« بين ، بين ، ليكن اسمه ملعوناً ،
لتكن ملعونةً شهرتُه ، وليكن سرمدياً عارُهُ ،
لعن الله بين ! لعن الله بين ! »

وفي زحمة أفكاره همس في أذن أوديبيرت :

– « اذا قبضوا عليّ ، فاذهبْ الى أميركة ، وقابل واشنطون الذي يذكرني ، وارو عليه كيف جرت الامور هنا ، وقُلْ له ليس من فرق بين انكلترة وأميركة الا في الحاجة الى رجل مثله ... »

ولم يقبضوا عليه ، وذلك لأنه لم تكن لهم ثقة بأنفسهم . وقـــال أوديبيرت :

– « حتى هنا ليس في استطاعتك ان تلقي القبض على رجل من غير

إجازة . »

كان خطأ ما قد وقع . وكان من نتائج ذلك ان بلغت العربة جمرك دوفر والاجازة لمّا تصِل بعد .

وفتش رجال الجمرك كل قطعة من أمتعتهم ،وعثروا على كتاب « بين » ، ومزّقوه نصفين وطرحوا أوراقه على الارض . وقال أحدهم

— « هذا من أجل حقوق الانسان ، والله يلعنك ! »

ونسي « بين » ما معنى أن يُشنق المرء وقال :

— « أغلِقْ فمك القذر ! »

ثم التقط نصفي كتابه ...

وحُبسوا في احدى الغرف ، حُبسوا ثلاثتهم ، ومن الثكنات القائمة تحتهم سار ستّة من الجند الملكي ليقوموا بمهمة الحرس خارج الباب .

— « اذا سارت العربة وخلّفتنا هنا ... » قال فروست ذلك ، ثم رسم بأحد أصابعه خطاً على حنجرته :

وكان حشد من الناس قد أخذ يتجمع حول مركز الجمرك ، وما هي الا فترة حتّى شرعوا يصيحون :

— « بين ، بين ، ليكن اسمُه ملعوناً ! »

وهنا قال فروست ساخراً :

— « شعبك الذي توقعت ان يرفع علمَ الحرية والفضيلة ... »

— « يا لهم من شياطين مسكينة . »

— « لا تُرق قطرة من العطف عليهم . اذا لم نخرج من هنا في الحال احتجنا الى كامل عطفك ورثائك . »

— « لماذا يوقفوننا ؟ »

— « في انتظار الاجازة ، هل ثمة شيء آخر ؟ »

ثم ان قائد مركز الجمرك فتح عليهم الباب وقال :

— « بنعمة الله فقط ، يا « بين » ، تغادر الآن هذا المكان . لا تعد

الى انكلترة بعد الآن . »

ثم إن « بين » ورفيقيه شقّا طريقهما وسط الحشد الصافر الصائح استهزاء ، الى العربة . ورُفعت المرساة ، وأخذ زورقان يتمايلان في اجتيازهما معبر القناة الصغير . وكان « بين » واقفاً على ظهر واحد منهما .

وسأله أوديبيرت ، فيما كانت الصخور الطبشورية الشاهقة تتقهقر :

— « هل ستعود ؟ »

— « أجل سوف أعود . سأشخص الى فرنسة وانكلترة وأميركة — وبعد ذلك أطوف العالم كله : سوف أعود . »

●

وحين استشعر « بين » السلامة على ظهر الزورق ، مغادراً انكلترة ، مغادراً الجلاد والغوغاء ، أنشأ يفكر في السهولة والمخاتلة اللتين استُهلّ بهما هذا البلاء كله . فهناك في أميركة ، يوم وضع الصراع أوزاره ، جعل « بين » الثورة خلفَ ظهره ، وغلبت عليه الرغبة في ان يكون توماس بين السيد ، وراح يحلم بشيء لنفسه شبيه بذلك الذي يملكه واشنطون في مونت فيرنون . انه لم يكن عجوزاً ، يوم انتهت الثورة . كان في السادسة والأربعين ليس غير ، وحياة الانسان لا تنقضي في مثل هذه السن . أنظر الى فرانكلين .

تمرّ بالمرء فترة يحبّ فيها أن يجلس ويقول لنفسه : « لقد بذلت جهداً كافياً . أريد أن آكل واشرب وانام واتحدّث وأفكر . » واتفق ان قضى « بين » فترة ما بعد الظهر من ذات يوم ، وإنها لفترة رائعة ليس يمكن أن تنسى ، تحت أشعة الشمس الدافئة ، مع بنجهان فرانكلين ، وانشأ الرجلان يتحدثان عن أشياء علمية وأشياء فلسفية . ولقد قال له

فرانكلين ذلك الاصيل :

— « تسلَّ بالعلم . هذا هو العصر الجديد ، فجر العصر الجديد . »

فقال « بين » وفي عينيه فضولٌ غريب :

— « أحبّ أن أتسلى . »

حسناً . ولقد كان يستحق العون ، أليس كذلك ؟ صحيح أنه لم ينهض بعبء الحرب وحده ، ولكن لا واشنطون ولا جيفرسون ولا سام وجون آدمز نهضوا بالعبء وحدهم . إن دوره لم يكن ضئيلاً ، فهو خليقٌ بأن يُلحف في طلب مكافأة صغيرة ، وفي تقديم عريضة إلى الكونغرس يرغب فيها إلى الاعضاء أن يعينوا له راتباً يعيش منه ، إذ لم يكن عنده غير الثورة ، وقد انقضت الثورة الآن ، وإذ كان اختصاصياً في الانقلاب ، وقد تمّ الانقلاب الآن .

واجتمع الكونغرس وأقرّ اقتراحاً باعطائه مبلغاً صغيراً من المال ، ومنزلاً في بوردنتاون وآخر في نيو روتشيل . وكان ذلك كافياً . فعاش في بساطة : قليل من الشراب ، وطعام خفيف ، ومُختَرَف — ومراسلات مع كبار العلماء المتطلعين نحو المستقبل في طول العالم وعرضه .

وكان يوقع رسائله هكذا : « توماس بين ، اسكواير . * »

كان متوقعاً أن يتغير المرء . فقد انقضى ذلك العهد الذي امتُحنت فيه نفوس الرجال . وخاض غمار السياسة ، ولكنْ على نحو ارستوقراطي : شأنَ موريس أو راش . فكان إذا ما رأى شحاذاً ، أو أحمق بائساً سكيراً ، أو جندياً قديماً حطّمه الزحار والزهري ، أو جندياً مهذاراً ذا يد واحدة ، أو مدفعياً اطفأ انفجار البارود عينيه — إذا رأى ذلك كله لم يكن ليبالي ، أو ليذكر أيام بؤسه السالفة .

ولكن ذلك كان متوقعاً أيضاً .

وكان في بعض الأحيان يستشعر قليلاً من الخجل من اولئك القوم

* لفظة تشريف ، وتعني السيد أو المبجل (المعرب)

الغلاظ الذين يفدون على بيته صائحين :

— « هاي ، توم . هاي ، هناك . أيها الحصافة القديمة ، هاي هناك ، أيها الرفيق القديم ! »

كانوا يتحدثون عن الأيام الخالية ، وعمّا جرّته عليهم من بلاء . ولكنّ الأيام الخالية كانت قد انقضت .

لعلّ خيراً من ذلك ان يتناول طعام الغداء مع واشنطون ، قانص الثعالب الفارع الطول الذي كان اسمه يحاط اليوم بهالة من التقديس ، والذي لم ينسَ مع هذا ذلك السير القارس عبر جيرزي :

— « أتشرب الماديرا ، توماس ؟ »

— « إني اوثر خمر الكلاريت . »

— « ولكن الماديرا ، يا توماس ، الناضجة بأشعة شمس البرتغال كلها ذات السماء الزرقاء ... »

من الخير أن يتناول طعام الغداء مع موريس ، وريد ، وراش ، بعد أن زالت الاحقاد القديمة ، واطّرحت الخلافات العتيقة . كان هؤلاء من أبناء الطبقة الارستوقراطية ، وكانوا ذوي خطر . إنهم يرتشفون « البراندي » ، ويتحدثون في القضايا المالية الكبرى ، وكانوا هم القوة الكامنة وراء هذه الولايات المتحدة الأمبركية الجديدة . ولقد سُمِحَ لـ « بين » ان يجلس معهم ويرى أي تدبير دقيق بارع يجعل العالم يدور •

ان المرء ليتغيّر . أو لعلّ ذلك خطأ فليس يتغير المرء أبداً . فههنا ، في سنة الف وسبعمائة واثنتين وتسعين هذه كان « بين » متكئاً على درابزون المركب الذي كان يحمله إلى فرنسة مبتعداً عن انكلترة التي كانت على وشك ان تشنقه ، مراقباً صخور دوفر الطبشورية البيضاء ، مراجعاً في ذاكرته الحوادث ، واحدةً تلو واحدة ، في التسلسل الذي وقعت فيه .

●

كان ثمة الجسر الحديدي ، وكان تجربة علمية – ألم يقل بنجامان فرانكلين إن له رغبة ودقة نظر في العلم ؟ وكان الجسر شيئاً جديداً في العالم ، طبعاً ، ولكن في استطاعة الحالم ان يرى ان الحديد سوف يغدو وشيكاً سيّد مصير الانسان . واذن فلم لا يحاول ان يصنع جسراً ، على اعتبار انه شيء نافعٌ جداً ، وشائع جداً ؟ وهكذا راح يداعب الفكرة ، ويضع مسوّدات الرسوم ، لينتهي آخر الأمر إلى صنع نموذج صغير لجسر من حديد . واقبل الناس من مبعدة اربعين ميلاً ليلقوا نظرةً عليه . وقال كلٌ منهم ان الجسر كان « حصافة » حقاً ، جاعلين مما كان في يوم ما مجداً ضخماً تَوريةً هزيلة . وكانت نسخ « حصافة » مكدّسة في العلّيات والخزائن . ولكن الناس قالوا :

– « إنّها قاطعةٌ جبارة ذكية ، يا بن . إن المرء ليحسبها رجلاً من اليانكي . »

وحمل النموذج إلى فيلاديلفيا واقامه في حديقة بنجامان فرانكلين بماركت ستريت . أي عهد كان ذلك ؟ كان كثيرٌ من المواطنين ينادونه « الدكتور بن » حتى لأخذ يصدّق ذلك أو كاد . كانوا يشربون نخبه في المآدب والحفلات . وكان يملك أربع عاريات من الشعر الابيض . وكانت قمصانه معالجة بالنشاء ، نظيفة كالثلج .

وقال له راش ذات يوم :

– « كيف تبدو قراءة « حصافة » الآن ، يا بن ؟ »

– « حصافة ؟ » لكأنما كانت مسألة صغيرة ما ، ليس يستطيع أن يتذكرها في سهولة .

وقال في تعقل :

– « كانت مناسبةً لذلك العهد . »

وضحك راش وقال :

– « وأيّ عهد كان ، تلك الأيام القديمة ! »

– « كان بعضنا يأخذ بخناق بعض . »
– « ولكن هناك ما يكفينا جميعاً ، الآن . »
فأقرّه « بين » على ذلك :
– « طبعاً ، يكفينا جميعاً . »

●

ثم إنه حمل نموذج الجسر إلى فرنسة . كان ذلك منذ خمس سنوات ، عام ١٧٨٧ ، عندما عبر توماس بين ، اسكواير ، الاوقيانوس العظيم إلى فرنسة ، لا بوصفه رجلاً جلفاً مريضاً في عنبر السفينة القذر المتقيح ، ولكن بوصفه رجلاً رفيع الشأن ذا مقدرة ، رجلاً فيلسوفاً ، عالماً ، سياسياً ، ومالياً إذا شئت ، ينزل في غرفة من غرف الدرجة الأولى ، ويتمشى على ظهر السفينة فيشير اليه المسافرون بالبنان .

وكانت مغادرته أميركة تذكّره في ذات نفسها بالماضي . كان لا يزال له عددٌ من الأعداء كافٍ لحمل ولاية بنسيلفانيا على أن تحجم عن إقامة جسره الحديدي ؛ وعلى الرغم من انه كان يرجو أن يقصد إلى فرنسة على أية حال ، فقد كانت مسألة الجسر هي التي وجّهته إلى هناك ، في المحلّ الأول . وكان قد راسلَ جماعةً من العلماء الفرنسيين ، وحدّث فرانكلين عنهم ، وكان على مثل اليقين من أنهم أبرع علماء العالم قاطبةً ، وأكثرهم ظرفاً . وأغلب الظن ان فرنسة سوف تتبنّى جسره الحديدي ، ثم يتبناه العـالم ، وبعد ذلك تنقاد اليه الشهرة ، فالثروة . وعلى ظهر السفينة استشعر الشبابَ إلى درجة أغرته بأن يغازل سيدةً تدعى المسز غرانجر ، من بالتيمور ، مغازلةً دفع بهـا إلى جانب الفراش في لباقـة وبراعة ما كان يحسب نفسه قادراً عليهما . ولكنْ لِمَ لا ؟ إنه لا يزال في صيف عمره ، أحسن صحةً مما كان في أيّ وقت سبق ، شهيراً ، نسيَهُ الناس كصانع مشدات وإسكافٍ ورجل مكوس .

إنه الآن « بين » الفيلسوف والعالم .

ورحبت به فرنسة ، فرنسة العتيقة ، الامبراطورية . وكان الملك لويس يقيم في قصره الملكي بفرساي . وإذا كان ثمة همسات ووشوشات ، فأيّ شأن لـ « بين » بها ؟ كانت هـذه هي فرنسة ، لا أميركة . وإذ كان قد كوّن فكرةً من بنجهان فرانكلين فقد رغب في أن يلعب دور الأميركي البسيط ، ولكنْ الحكيم . فارتدى بنطلوناً أسمر ساذجـاً ، وقميصاً أبيض ، وسترة سوداء ، وحذاء أسود ، وجوارب قطنية ، ولم يصطنع أيما شعر مستعار أو سائل عطري مكتفياً بابتسامة ودية جـاذبة تعوض عن جهله لسان القوم . ولقد اجتمع بالفرنسيين جميعاً ، سياسيين وفلاسفة ، ظرفاء وخلعاء ، علماء وامراء ورجال بحث متواضعين ، فالرجل ذو الموهبة ليس تعترض سبيله الحدود — والطعام الفرنسي ؟! كان يقول :

— « آه ، نحن في أميركة نأكل ، ولكننا لا نطهو .. »

●

ولكن لمَ لا يذهب إلى انكلترة ، إلى وطنه الأول ، من جديد ؟ انه على مقربة منه ، ولقد انقضت الآن سنواتٌ كثار . ومسألة الجسر لم يقطع بها الفرنسيون نهائياً . لقد أعجبوا به ، ولكن دون الكفاية . وفي انكلترة ، أيضاً ، كانت الاحقاد القديمة قد نُسيتْ . فأنت قد تحـارب القوم مرةً ، ولكنك تتاجر معهم أبدَ الدهر . وفوق هذا ، ألم يُقَل إن جورج واشنطون كان في انكلترة بطلاً عظيماً يتمتع باحترام ليس يتمتع به في أميركة نفسها ؟

وعبر « بين » القناة إلى انكلترة :

وتناول طعام العشاء مع السير جوزيف بانكز ، رئيس الجمعيـة

الملكية ، وماركوس هاولي ، العالم الفلكي ، والسير جون تيتليتون من شركة الهند الشرقية . وصافح كل من هؤلاء « بين » وانحنوا له ، مؤكدين له عن إيمانهم الصادق بأن تعرّفهم اليه شرف كبير ، قائلين :

— « إنه لشرفٌ ، يا سيدي ، أقسم لك انه لشرفٌ ... »

وتحدثوا عن كتابه « حصافة » فقالوا :

— « جبار ، يا سيدي ، جبار . وبريطاني تماماً ، إذ هو توكيد جديد للبراءة العظمى **Magna Charta** القديمة . لقد رفضتنا أمريكة ولكنْ كان ثمة حَرَنٌ بريطاني صالح في ذلك الرفض . ومن ذا الذي يستطيع ان يقول إن البلدين ليسا أكثر حكمة وأشد ميلاً إلى أن يندمجا في كلٍّ واحد عندما تسنح الفرصة ؟ »

— « في كلٍّ واحد ؟ »

— « لقد كانت الحرب خطأ ارتكبناه . نحن رجال أذكياء ، وانّا لنعترف بذلك . »

وهل كان في استطاعته إلا أن يوافق ؟ هل أثاروا مرة كونه في وقت ما صانع مشدات ، وانغماسه في حمأة الـ « جن » ، وبيعه التبغ في دكان ؟ لقد كانوا اسمى تهذيباً من أن يفعلوا ذلك . كانوا يعيشون امتيازهم بأكثر مما يعبّرون عنه . ولكن ذلك الامتياز كان واضحاً إلى درجة جعلت « بين » ، وقد غلب عليه الذهول ، يكتفي بمجرد الابتسام ، وتجرُّع الخمر في اسراف ينوء به جسمه ، والموافقة على كل شيء . انك حين تقضي ليلة مع رجال مثل هؤلاء تستطيع أن ترى لماذا يحكمون : ذكاء ، وظرف ، وسحر ، وأناقة ؛ ولعلك تفكّر عندئذ بمزارعي ماساتشوستس المتكئين على بنادقهم الضخمة الصدئة الباصقين هنا وهناك ، أو لعلك لا تفكّر بهم البتة .

وحين قدّم اليهم نموذج الجسر ، ضجّت القاعة بعاصفة من الأعجاب .

— « ثِقْ ان المستعمرات تتقدمنا مئة سنة في مضمار الاختراع . »

وفكّر جزء من عقل « بين » :

— « إنهم لا يزالون يطلقون علينا اسم المستعمرات . »

ثم انه زار ثيتفورد . ولقد حزّ في نفسه ان يجد الموطن القديم على حاله لم يتغيّر البتة . إن حجراً واحداً لم يتحرك من مكانه ، وان الطرق ذات الأخاديد ما تزال هي هي كما كانت من ألف عام ، وها هو ذا غراب جاثمٌ على قنّة سياج يخيّل إلى « بين » أنه رآه جاثماً عليها منذ عهد بعيد . والحق ان ذلك كان ، بعد أميركة ، شيئاً غريباً عن العالم بالكلية . ذلك بأن أميركة كانت تعيش بالتغير والتحوّل ، فهي تـدكّ بيتاً لترفع بيتاً أفضل منه ، وتهدم أهراء لتبني اهراء أفضل منه ، وتعبّد الشوارع وتقيم البواليع . ولمَ لا ؟ لقد عمل الرومان ذلك . وتشيد كنيسة أعلى ، وبرج كنيسة أسمى ، وقاعة بلدية أكبر .

ولكن ثيتفورد لم تتغير . كان المزارعون مستأجرو الأرض شأنهم من قبل كتلاً من التربة سمراء ، لا كمثل فلاحي أميركة ، الفارعي الطول ، المهزولين ، العنيدين . وكان مالك الأرض الجديد بديناً ، متورّد الخدين ، كثير الانتفاخ مثل أبيه . وكان يشكو ، منذ الآن ، داء النقرس في إحدى رجليه .

ولم يتذكّروا « بين » . إن أحداً منهم لم يتذكره . وكان الفلاحون يحدقون إلى وجهه ويقولون :

— « أي ، يا سيدي ، أنت تبحث عن بيت « بين » ؟ »

كانت أمه لا تزال حيةً : مجرّد شيء صغير ذابل ، في التسعين من العمر ، عمياء نصفَ عمى ، صماء نصفَ صمم . ولم تتذكّره . وحين عرّفها بنفسه قالت :

— « آه . أنت ابني ؟ »

— « توماس ، امي ، توماس ، » واستشعر ضرباً مخيفاً مـن الاشمئزاز ، والعزلة ، وانه قد اجتاز مسافةً بالغة البعد إلى درجة جعلت

عودته عملاً تجديفياً .

— « توماس ؟ لقد مات . »

— « أنا توماس . انظري اليّ ، يا أمي ! »

— « أنت توماس ؟ » قالت ذلك غير مصدّقة ، فاركةً وجهها الذابل . ومع ذلك فلم يأخذها ، بمعنى ما ، الدهش ، بل لم يستحوذ عليها القلق .

وتعشّى مع مالك الأطيان ، الغلام الذي شنقه ذات يوم من قدميه ، وكان على المائدة لحم بقر محمّر ، ونقانق ثقيلة ، وأكواز ضخمة من الجعة . وكان الفتى النبيل مشغولاً الآن في حشو جوفه فكل ما يستطيع أن يعمله هو أن يقذف ، على نحو جانبيّ ، كلمةً بين الفينة والفينة .

— « لقد عدتَ الينا ، يا « بين » ... »

وقطع شريحة من لحم البقر ، ورفعها كلها إلى فمه ، وتناول بأصابعه كتلة من النقانق وقذف بها خلف قطعة اللحم ، ثم كرع نصف كوز من الجعة في سرعة بالغة جعلت بعض الشراب يجري من زوايا فمه ، ليصيب بعدُ منديلاً كان قد علّقه في عنقه .

— « لحم بقر ؟ »

وقذف بشريحة أخرى في فمه ، وقد تولت السكين القديمة مهمة الشوكة والملعقة والطبق جميعاً .

— « أتجد المكان متغيراً ؟ لقد طوّفتَ في العالم تلاحق الشهرة والثروة . ما رأيك في المستعمرات ، يا بين ؟ أنا شخصياً من حزب الأحرار ، ولكني لا أهضم الأميركيين : إنهم غير ناضجين ، يا «بين» ، غير ناضجين إلى حد ملعون . »

وازدرد لقمةً أخرى من النقانق وجعلها تسبح في خضم من الجعة استغرق فمه كله .

وغادر ثيتفورد بعد ذلك بقليل ، فارضاً لأمه تسعة شلنات تُدفع اليها كل أسبوع ما بقيت حية .

تلك كانت هي الحياة كما ينبغي ان تُعاش . ان رجل الظرف ، والمقدرة ، والفلسفة ليس يبقى في مكان واحد . لقد قال ذات مرة : « العالم قريتي ، فحيث لا حرية فثمة بلادي : » وها هو ذا العالم يمسي قريته كرة أخرى ، فحيثما اجتمع ظرفاء الرجال يتجاذبون اطراف الحديث امام كؤوس البراندي واقداح القهوة فهناك موطنه . وعبرَ القناة عائداً إلى فرنسة . وفتحت الحياة الزاهية ذراعيها له . لقد غدا « بين » بهيجاً حقاً . ولو كشطتَ ظاهره وكشطت اذن لما كان في ميسورك أن تقع على صانع المشدات والاسكاف ومثير الرعاع الذي انحنى ذات ليلة متجمدة على صفحة طبلة وانشأ يكتب :

— « هذه هي العهود التي تُمتحن فيها نفوس الرجال ... »

وفي باريس ، بعد هذه السنوات كلها ، التقى بتوم جيفرسون كرة أخرى . ولم يكن جيفرسون في ريعان الشباب الآن — ولكن أياً منهما ما كان ذلك الفتى الغض الذي التقى رفيقه في « كاربنترز هول » — على الرغم من أنه لم يتغير كثيراً . لقد غدت خطوط وجهه الطويل الحساس أكثر عمقاً ، ولقد غدا صوته أبعد غوراً ، بعض الشيء ، واكثر انذهالاً . ولقد سرّ سروراً عظيماً بأن يرى « بين » . وفيما هما يتصافحان قال جيفرسون :

— « توم ، توم . هذا يُنعش فوادي . إنها لنفحةٌ من الايام الخالية ان يجتمع صديقان قديمان ، أليس كذلك ؟ ان المرء ليستشعر التوحد والوحشة حين يكون على مثل هذا البعد عن الوطن ، وإنما يتعاظم توحده وتتفاقم وحشته عندما ينكبّ على ذكرياته يتأملها ، ويأخذ يشكّ فيها . »

وتحدّث « بين » عن الجسر ، عن رحلته السابقة إلى فرنسة ، وعن رحلته إلى وطنه القديم .

فسأله جيفرسون :

— « كيف تجد الأمور هنا ؟ »

فهز « بين » كتفيه وقال :

— « سوف يقوم لويس ببعض الاصلاح . العالم يسير في هذا الاتجاه . »

وتساءل جيفرسون :

— « أهو يسير فعلاً ؟ هل سار الينا ام كنا نحن الذين سيرناه ؟ لقد كانت آنذاك بعض فصول الشتاء القارسة ، يا توم ! »

●

واذن فليكن ما يكون . إنه يذكر الآن كيف رجع ثانية إلى انكلترة وكيف خاطب نفسه وقد نظر إلى مرآته : « لقد بذلت جهداً كافياً ، جهداً كافياً ! » وفي آب ، وايلول ، وتشرين الأول من عام ١٧٨٨ فتحت دنيا لندن الاجتماعية ذراعيها له . وآنذاك ، في نهاية القرن الثامن عشر ، كانت لندن هي انكلترة في ما يتصل بالحياة الارستوقراطية الناعمة . وبعد الدمدمات والتمتمات المهموس بها في فرنسة بدت لندن وكأنها عالم الارستوقراطية المترفة برمّته . كان المجتمع الرفيع ثابت الاركان ، مجلوّاً أحسنَ الصّقال . ولمْ تكن سدوده لتُرْفَعَ إلاّ عندما يصبح احد الرجال الموهوبين جزءاً من الارستوقراطية لا يتجزأ بقَدر ما يُعتبر البنطلون الضيق الى ابعد الحدود أو كرافات « بو برومبل » جزءاً منهـا .

وكان « بين » واحداً من اولئك الموهوبين . وتبنّاه بورك . بورك الذي القى ذات يوم ذلك الخطاب العظيم عن ضرورة عقد الصلح مع

أميركة ، والذي اكتسب شهرة صالحة بوصفه متحرراً ذا شأن . والواقع أن التحررية عند بورك كانت ذكرى من ذكريات شبابه الماضي . لقد رأى في « بين » طلائع تغيّر في رجل مفكر ، تغيّرٍ مرّ هو نفسه به منذ زمن ، ثم غلبَ على كيانه مشؤومَ الطلعة لا يأتيه الشك ، من بين يديه ولا من خلفه ، كتصلب الشرايين . ومن أجل ذلك قرّرَ أن « بين » يمثّل تحوّلاً راسخاً مأموناً . فأقام له الولائم ، وصحبه إلى مختلف مصانع الحديد الخليقة بأن تتبنّى جسره الجديد . وقدّمه إلى الرجال العظام من مثل « بيت » ، وفوكس ، ودوق بورتلاند — أنهار من خمر الـ « بورت » ، وخمسمئة شمعة تشتعل في غرفة صغيرة واحدة ، وسيدات عظيمات ذوات ملاحة وجمال . وقدّم « بين » إلى أعضاء نادي بروك المقصور على رجال حزب الاحرار ، وهو النادي عينُه الذي طاف « بين » ببابه منذ سنوات عديدة ، وقد امتلأ قلبه بالحقد والمرارة . ولم يكن قلبه طافحاً بالمرارة الآن عندما سارع فوكس إلى دعوته للتقدم إلى الموائد الخضراء والقاء نظرة على ما يجري حولها .

كانت الثروات تتزحلق على الموائد في نادي بروك ، فتضيع عشرة آلاف جنيه بسبب من ورقة من أوراق اللعب ، وتطير إقطاعة بكاملها بسببٍ من ورقة أخرى . وفي مكان ما من لندن كان الفقراء المساكين ، وهم يعدّون بالآلاف ، يتضورون جوعاً ، ويمزقون احشاءهم بالـ « جن » الساخن ، ويعيشون كل اثني عشر شخصاً في غرفة ، ويعملون لقاء ثلاثة بنسات طوال النهار . ولكن في نادي بروك كانت العشرة الآلاف جنيه ، والعشرون الفاً ، والثلاثون الفاً تتأرجح تحت رحمة ورقة ليس غير من أوراق اللعب .

وذكر « بين » تلك المرأة التي قالت له في بعض حفلات الرقص ، وليس يدري أكانت اللايدي ماري ليدز ام السيدة جاين كارسون :

– « مستر بين ، هل تعرف إلى أي شيء أعزو نجاحكم أنتم أبناء المستعمرات في الحرب الأميركية ؟ »

– « لست أعرف ذلك حقاً ، يا سيدتي . »

– « إلى ستراتكم العسكرية الزرقاء والبيضاء الجميلة ، الجميلة ، الجميلة ، الجميلة . أنا أمقت اللون الأحمر – لقد قلت ذلك للجنرال آرنولد ، قلته في وجه فخامته – أنا أمقت اللون الأحمر ! »

●

ثم إن عنصراً مقلقاً طرأ على حياة توم بين الجنتلمان . ذلك بأن رسائل هادئة شفيقة أخذت ترد عليه ، من جيفرسون في باريس ، معلنة انبلاج فجر الثورة الفرنسية . والحق ان هذه الرسائل انتهت إلى أن تصبح سوسة تنخر في نفسه وتهيجها ، فما هي إلاّ فترة حتى استسلم لسلطانها وشخص إلى فرنسة نزلة أخرى ليرى ، اجل ليرى ويستطلع ليس غير .

وفي ذلك الصباح الذي انطلق فيه توم بين من لندن الرخيّة الناعمة إلى فرنسة الثورية ، لمجرد الفضول الذي لا يليق غيره برحالة حول العالم وبفيلسوف ، سار في اناة ، كما يسير مكافح النيران وسط الدخان ، عبر احياء العمال ، ورأى النظرات السود تلقى عليه لأنه كان انكليزيّ الملامح على نحو لا يخفى ، وشاهد البنادق في الدكاكين ، على مقربة من قبضات الباعة والتجار ، ورأى إلى الباستيل الذي سقط في أيدي العامة منذ قريب .

كان الجو ههنا مثله في فيلادلفيا في الايام الخالية : مواطنون يعون مسؤوليتهم في تجهّم ، مواطنون أدركوا فجاءة انهم كائنات بشرية لا قذراً تدوسه الاقدام . انه دخان ونار ، بالنسبة إلى « بين » ، وانه ليتنشّق

أنفاسهما .

ولا تسَلْ بعدُ عن الترحيب الذي حظي به عندما عرف الشعب انه توم بين . وقال له صديقه القديم ، « لافاييت » ، الذي كان قائداً للحرس الوطني :

— « حرس وطني يا توماس . أنت وأنا فقط نعرف ما الذي يستطيعون فعله . »

وكان كوندورسيه لا يزال آنذاك رجلاً ذا خطر . وقال له ذات يوم بأنكليزيته الشديدة الرداءة :

— « أقول لك ، أيها المواطن بين ، ان الكلمة المكتوبة لا تموت . لقد فرغتُ تلك الليلة لكتاب « حصافة » فغمرتني البهجة ، غمرتني البهجة ، يا صديقي بين . نحن شعب طيّب ،نحن الفرنسيين ، نحن شعب قوي لا يعرف التشكّي . ان الحضارة لن يقدّر لها ان تستحي بنا . »

فهمس « بين » :

— « الحضارة فخورٌ بكم . »

وقدّم لافاييت مفتاح الباستيل الضخم الصدئ إلى « بين » ، فأمسك به صانع المشدات السابق بين يديه وقاوم عبراتٍ تريد أن تتحدر على خديه .

واندفع لافاييت إلى القول في انفعال :

— « ابكِ ، ابكِ ، أيها الصديق . لقد بكينا في مناسبات أخرى . لقد حركنا العالم وأيقظنا الأجيال النائمة . أيّ شيء يتعيّن علينا أن نستحي به ؟ »

وتساءل « بين » :

— « أيّ شيء ؟ »

وابتسم لافاييت :

— « نحن نهدي المفتاح لأميركة . قدّمه إلى قائدنا . »

وكانت كلمة « قائدنا » لا تزال تعني واشنطون لا أي رجل آخر .

وقلّب « بين » المفتاح ، مرةً ومرةً ، في يديه ، وقال في ذات نفســه :

— « أنا رجلٌ عجوز متعب ، فأيّ شأن لي بهذا كله ؟ »

وعاوده الأرق القديم ، ذات ليلة ، وقد اكتظّ عقله بخمسين سنة من الذكريات غير المستحبة كثيراً ، وطفق يقاتل نفسه ، ملتمساً الراحة في زجاجةٍ من البراندي ، غافياً لحظة ليرى في ما يرى النائم مزرعةً ببنسيلفانيا حيث كان الحب قد مرّ كلمحٍ بالبصر ، سائلاً نفسه من جديد : « أيّ شأن لي بهذا كله ؟ »

حتى إذا نهض من فراشه تلمّس المفتاح . كيف اقتحموا الباستيل ؟ إن العامة هي التي تنهض بمثل هذه الاعباء . هو يعرف ذلك . ولقد تذكّر كيف زحف شعب بنسيلفانيا ، وقد تشبثت أيديهم القاقة بالبنادق العتيقة الضخمة ، إلى ديلاوار ، لأنه هو — « بين » — كتب شيئاً عن الأيام التي تُمتحن فيها نفوس الرجال .

وجلس في الظلمة وراح يقلب بين يديه ذلك المفتاح الذي كان يفكّ مغالق الباستيل . لقد أعطاه لافاييت إياه ليقدمه إلى واشنطون . وكان واشنطون في مقام الآلهة ، وكان لافاييت زعيماً من زعماء فرنسة ، وكان هو « بين » ، بينهما ، لا شيء البتة . ولكن بينهما كان الحافز المحرّك للثورة ، وهو قوّة اختُصِرَتْ في ذات نفسه ، ودعوةٌ متقدة لا تُكسب مجداً ولا شهرة ، ولكن بقوة الكلمة المكتوبة تحرّك العوالم .

وسأل نفسه :

— « من أنت ، يا « بين » ، وما أنت ؟ »

وكان عالم لندن الارستوقراطي لا يزال يتمطى مثل حلم من الاحلام . لقد كان « بورك » و « بيت » و « فوكس » عقولاً ضخمة ، ورجالاً لامعين . فلماذا كان على « بين » أن يختار بين فاقة أيامه الأولى وقذرها ،

والعالم المهذّب الرفيع الذي ذاقه ؟ وهل ينقلب المرء على عقبيه ويلتمس القذر بطوعه ؟ وإذا كان بميسوره أن يرى في هذه الثورة البطيئة التي تتكشّف عنها فرنسة الفجرَ الزاهي لعالم جديد ، للأخاء الانساني ، أفلا تستطيع عقول انكلترة الضخمة أن ترى الشيء نفسه أيضاً ؟ كانت المدنية شيئاً معقولاً ، وفي استطاعة فرنسة وانكلترة وأميركة معاً أن تشكل الاساس المكين لنظام جديد . وهم في انكلترة معجبون به، وهم خايفون بأن يصيخوا لكلامه . ولسوف يرون ان الثورة آتيةٌ وشيكاً ، وانهم سوف يستسلمون من غير ان يتسبّبوا بأراقة الدماء .

كذلك فكّر « بين » ، وكان رجلاً تجاوز الخمسين واستروح فترةً قصيرة عبرَ الطمأنينة والرفه ، وطفق يكتب إلى نفر من الرجال في انكلترة ، إلى بورك ، وبيت ، رسائل مشرقة متوهجة عمّا حدث في فرنسة ...

« انها تنطوي على أمل جديد لنا جميعاً ... »

« ان ثمرات اكتمالها وتعظيمها للروح الانسانية ستكون دانية القطوف لكم ولأحقر منظف مداخن ، على حد سواء ... »

« كن ذا قلبٍ جريئ ... »

ثم انه سمع ان بورك وقف في مجلس العموم وأطلق عاصفة عاتية ضد الثورة الفرنسية تؤذن بجنون صاحبها باكثر مما تؤذن بغضبه .

وقال كوندورسيه لـ « بين » :

— « وهل سترد عليه ؟ »

فحنى « بين » رأسه .

وهكذا انطوى توم بين على نفسه وانشأ يحدّق إلى القلم الذي في يده ، ويحدد طرفه حيناً بعد حين ، كاسراً احدى الريش ، قاذفاً بالشتائم الأنكلوسكسونية الخصبة الناضجة التي سبق ان تعلّمها في عالم لندن الخفي ، موجهاً صواعق الكلام ، وقد طالت لحيته من جديد، ونهضت

إلى جانبه زجاجة من البراندي فليس يعسر على الرجال الحفاة الذين ساروا معه عبر جيرزي ان يتبيّنوه لأول وهلة . وكان قد استأجر غرفة في خان « المَلاك » القائم في آيلينغتون خارج لندن ، ووضع إلى جانبه كتاباً موسوماً بـ « تأملات في الثورة الفرنسية » بقلم ادموند بورك . وكان كتاباً ليس يهاجم الثورة الفرنسية فحسب بل يهاجم كل ثورة ، كل تقدّم ، كل أمل ، وكل ايمان يعمر قلب الانسان في مقدرته على الارتقاء حيث يقيم الآلهة .

وكان بورك قد قال : إن الانسان ، بوصفه إنساناً ، ليس له حقوق . فانصرف « بين » إلى الكتابة عن حقوق الانسان ، وإلى تدوين ذكرياته عن الثورة الفرنسية ، وشرحها للناس — فلم تكن بها حاجة إلى أن تُبرّر . وكتب « بين » في اهتياج ، وفي حرارة وفي غضب كما قد كتب دائماً قبل المعركة ، قبل ان تقذف فوهات البنادق النار .

وعاوده شبابه كرّةً أخرى .

وقالوا في الخمارة القائمة تحته :

— « إنه خليع . انه خليعٌ مُخنْثَق . »

— « ومن هو ؟ »

— « أميركي لعين . »

— « وما الذي يُغضبه ؟ »

— « العالم اللعين كله يُغضبه . »

ولكن عندما هبط من غرفته ليحدّق إلى المَشْرب ، ويتكئُ عليه ، ويحملق في يديه الضخمتين المفلطحتين ، ويطلب كأساً من شراب الـ « الروم » ، فثانية ، فثالثة ، تركوه وشأنه .

وأقبل توماس كليويز على رأس وفد من عمال المناجم لمقابلته . كانوا رجالاً قصاراً عراض المناكب يعلو الوسخ شعرهم ،وعيونهم ،وجلودهم ويتحدثون في لهجة ريفية ويلزية غليظة .

وسأله كليويز :

– « أنت بين ؟ »

– « أنا بين . »

– « يقولون إنك تعدّ جواباً على ابن آوى اللعين الذي يسمونه بورك ؟ »

– « أجل . »

– « نحن عمال مناجم . إننا نبحث عن طريقة ، عن زعيم ، وعن وسيلة . الأحوال سيئة ، ولست أحتاج إلى أن أخبرك عن مبلغها من السوء . ما الذي تكتبه ؟ »

فابتسم « بين » وقال :

– « كتابٌ للثورة . »

– « وما الذي فيه مما يحمل المرء على التفكير ؟ »

فقرأ « بين » :

« وأخذت الجيوش الأجنبية تزحف نحو المدينة ... » وأوضح قائلاً : باريس ... « وتقدّم البرنس دي لامبيسك ، وكان يقود كتيبةً من الفرسان الألمان ، من ناحية قصر لويس الخامس عشر المتصل ببعض الشوارع . وفيما هو يقوم بزحفه ذاك أهان رجلاً عجوزاً وضربه بسيفه ، إن الفرنسيين معروفون باحترامهم للشيخوخة . »

وحنى العمال رؤوسهم قليلاً ، فيما كانوا يراقبون « بين » في انتباه

« ... وكان للغطرسة التي تمثلت في تلك الضربة ، بعد أن اتحدت بالهيجان العام الذي كان سائداً باريس آنذاك ، أعظم الأثر في إلهاب النفوس ، فاذا صيحة « إلى السلاح ! إلى السلاح ! » يتردّد صداها ، في لحظة ، في طول المدينة وعرضها .

« ولم يكن عندهم سلاح ، ولم يكن بينهم غير قلة تعرف كيف تستعمله . ولكن العزم اليائس يسدّ الحاجة – فترة قصيرة – إلى السلاح ،

حيثما تعرّض الأمل للخطر . وكانت إلى جانب المكان الذي رابط فيه البرنس دي لامبسيك أكوام ضخمة من الحجارة جُمِعت لبناء الجسر الجديد ، وبهذه الحجارة نفسها هاجم الشعب فرسان الألمان . ولم تكد طائفة من الحرس الفرنسي تسمع طلقات النار حتى انطلقت من مراكزها ، وانضمت إلى صفوف الشعب . حتى إذا هبط الليل ارتد الفرسان على أعقابهم مدحورين .

• وشوارع باريس ، بوصفها ضيقة ، تساعد على الدفاع . وكان في ارتفاع بيوتها المؤلفة من عدة أدوار ، ما يمكّن حماتها من أن يصبوا ضروب الازعاج على رؤوس الجند ويقيهم غائلة المفاجآت الليلية . ولقد قضوا الليل وهم يزوّدون أنفسهم بمختلف أنواع الاسلحة التي استطاعوا أن يصنعوها أو يحصلوا عليها ، من بنادق ، وسيوف ، ومطارق حدادة ، وفؤوس نجارة ، وقضبان حديدية معقوفة ،وحراب ، وبلطات ، ومذار ، وسفافيد ، وهراوات ، الخ . الخ . وأوقعت الاعداد الغفيرة التي اجتمعت في اليوم التالي والعزم المزلزل الذي تكشّفت عنه ، الرعبَ والذهول في قلوب الاعداء . ولم تتوقع الوزارة الجديدة مثل هذه التحية إلا قليلاً . وإذ كان أعضاؤها متعودين هم أنفسهم الذل والعبودية فلم يخطر لهم ببال ان الحرية قادرة على ان تنفخ في نفوس الناس مثل هذه الروح الجبارة ، أو ان جماعة من المواطنين العزّل عكن أن تتجرأ على مواجهة قوة عسكرية عدتها ثلاثون ألف رجل . وأنفقت كل لحظة من لحظات ذلك النهار في جمع السلاح ، ورسم الخطط ، وتنظيم صفوف الثائرين على أفضل وجه ممكن في مثل تلك الهبّة العفوية . وكان بروغليو لا يزال يرابط حول المدينة فلم يقم بأيما حركة ذلك اليوم ، وانقضت الليلة التالية بأعظم ما تسمح به حالة كهذه من هدوء .

• ولكن الدفاع لم يكن غرضَ المواطنين . كانت لهم قضية يتهددها

الخطر ، وكانت حريتهم أو عبوديتهم رهناً بهذه القضية . كانوا يتوقعون هجوماً ، في كل لحظة ، أو يتوقعون ان يسمعوا بهجوم يشن على الجمعية الوطنية ، وفي مثل هذه الحال تكون الاجراءات الاكثر سرعة هي الفضلى . كان هدفهم الآن هو الباستيل ، وكان صدى الهجوم على مثل هذه القلعة وانتزاعها من يد مثل هذا الجيش خليقاً به أن يوقع الرعب في قلب الوزارة الجديدة التي لم تكد تجد متسعاً من الوقت تجتمع فيه . ومن طريق بعض الرسائل المحجوزة اكتشف ان رئيس بلدية باريس ، ديفليسيل الذي بدا محازباً للمواطنين ، كان في الواقع يخونهم . وبعد هذا الاكتشاف لم يبق ثمة شك في ان بروغليو سوف يهرع لنجدة الباستيل في المساء التالي . وإذن فقد تعيّن عليهم ان يشنوا هجومهم في ذلك النهار ، ولكن كان ينبغي قبل الاقدام على تلك الخطوة أن يحصلوا على مقادير من السلاح اكبر من تلك التي يملكونها .

« وكان على مقربة من المدينة مستودع للسلاح ضخم قائم في مستشفى الجنود العجزة (الأنفاليد) ، فسارع المواطنون إلى القاء الحصار عليه . وإذْ لم يكن المستشفى موقعاً يمكن الدفاع عنه ، وإذ لم يجرّب حماته الدفاع عنه كثيراً ، فقد وُفق الثوار إلى الاستيلاء عليه . حتى إذا غنموا سلاحاً كافياً زحفوا على الباستيل جماعاتٍ غفيرةً مختلطة من مختلف الاعمار ، ومن جميع الدرجات ، مسلّحة بضروب السلاح كلها . والحقّ ان الخيال ليعجز عن أن يصف لنفسه سير هذا الموكب واللهفة التي عمرت نفوس أفراده للأحداث التي قد تقع بعد بضع ساعات أو بعد بضع دقائق . وكان الشعب داخل المدينة يجهل الخطط التي أعدتها الوزارة بقدر ما كانت الوزارة تجهل أعمال المواطنين . كذلك ما كان المواطنون ليعلموا بالحركات التي يمكن لبروغليو أن يقوم بها لتخفيف وطأة الهجوم عن الحصن . كل شيء كان لغزاً ومصادفة ... »

وتطلّع « بين » إلى وجوه العمّال الويلزيين العريضة القاتمة ، ورأى

في أعينهم بريقاً ، بل شعاعاً يكاد يكون عسكرياً كالذي عرفه في الايام الخالية . ومضى في تلاوته :

« أنا لا أريد ان افصّل الكلام على هذا الهجوم ، فالعالم كلـه لا يزال مأخوذاً بحماسة تلك البطولة التي قوّضت أركان الباستيل ، وفي ساعات معدودات ، والتي لا يمكن ان يبعثها غير الحرية في أقـوى عزماتها . ولكنني أريد أن ألفت النظر إلى المؤامرة التي دبرت ضد الأمة الفرنسية ، والتي أحبطت بسقوط الباستيل . ذلك ان السجن الذي كانت الوزارة الجديدة تعتزم ان تزج بالجمعية الوطنية في غياهبه انتهى بالاضافة إلى كونه معقل الطغيان الأكبر ، إلى أن يصبح هو هدف الهجوم المقدّم على كل هدف . وشتّتتْ هذه الخطة شمل الوزارة الجديدة فراح أعضاؤها يفرّون بأنفسهم من الخـراب الذي أعدّوه لخصومهـم . وتفرّقت قوات بروغليو ، وولى هو نفسه الأدبار ... »

وختم « بين » التلاوة ، ووقف عمال المناجم هناك صامتين جامدين لم يتأثر فيهم شيء خلا عيونهم — فقد كانت النار في أعينهم ، موقّرين الرجل وهم يستعيدون في ذواكرهم ما قرأ ، مقارنين بين هذا الكلام وبين القصص الواردة في الجرائد منذ بضعة أشهر ليس غير . ولكـن أيّ فرق شاسع هذا الذي يميّز فقرات « بين » عن سخرية المراسلين البريطانيين المتشامخة المتغطرسة ! لقد رأى « بين » ، وحسِبَ ان فـي استطاعتهم ان يروا ، الى الهياج في شوارع باريس ، فيما كان الرعاع يصبحون شيئاً آخر غير الرعاع ، وفيما كانوا يموتون وينظمون قوتهـم الخاصة ويكتشفونها .

وقال كليويز في أناة :

— « واذن فهذه كتابتك ، يا مستر بين . »

— « هذه وأكثر . هل تجد فيها ما يحمل المرء على التفكير ؟ »

فابتسم كليويز وقال :

— « انها تحمله على التفكير في هذا ، وانها تحمله على التفكير في ذاك. ولكن ما الذي ينبغي للمرء ان يعمله ؟ »

— « يجب ان ينتظر في الوقت الحاضر . هل عندكم أي سلاح ؟ »

— « نحن عمال . لسنا جنوداً ولا صيادين نبلاء .فأين يمكن ان نخبيء بنادقنا يا مستر بين ؟ »

— « أليس فيكم من له خبرة بصناعة الحدادة ؟ »

— « أجل ، بيننا حداد أو حدادان . »

— « هل يستطيع ان يحوّل يده عن حافر الفرس الى أسطوانة البندقية؟ »

— « ممكن . ولكننا أرباب أسر مسالمون يا مستر بين . إننا نغدو ظلامةً قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة ، تبعاً لآراء أولئك الذين يدينون الناس . ان ما عمله الفرنسيس هو من شأنهم وحدهم ، ولست أدين ابن عم لي حمل السلاح مع جنرالكم واشنطون . بعضهم يقول ان من الظلم ان يغوص رجلٌ في الحفر لقاء بنس واحد في اليوم ، وبعضهم يقول انه عدل . بعضهم يقول ان من الظلم ان يجوع الرجل الذي يربي البقرة ويُعنى بها في حين يسمن صاحب الاطيان الذي يأكل لحمها ، ويطفح وجهه صحة وعافية . وآخرون يقولون انه ليس من الجميل ان ترى الى امرأتك تموت على فراش الوضع لحاجتها الى قليل من المرق الساخن ، وان ترى الى احشاء أولادك تُنسَف وتُدَكّ ، في حين يقول غيرهم ان هذا شيء كان دائماً ، وسيظلّ الى الابد . وعندي أنه كان ثمة بعض الرجال الاحرار في هذه الجزر يوماً ، وقد يظهر بعضهم في المستقبل أيضاً . »

وفي هدوء قال بين :

— « قد يظهر بعضهم أيضاً . »

— « اذن فنحن ننتظر . ومن يدري ، فقد يحوّل الحدادون أيديهم الى هذا أو ذاك . »

•

وهكذا كان فيها من جديد . وكرة ثانية صار اذا ما مشى في الشوارع – شوارع لندن هذه المرة – مشى مدركاً ان كثيراً من الناس خليقون بأن ينعموا بحظ أوفر من النوم لو قضى «توم بين» نحبه . وأكمل وضعُ الكتاب ، وطُبع ، وقدّم بكلمة اهداء الى جورج واشنطون ، وعنُونِ بـ « حقوق الانسان » . والواقع أن نشر ذلك الكتاب لم يَلق مصاعب كثيرة كالتي لقيها كتاب « حصافة » ، على اعتبار ان هذه كانت لندن لا فيلاديلفيا . ولكن الطبعة الاولى ، التي نهض بعبئها رجلٌ يدعى مستر جونسون ، ما لبثت أن ألقيت في وجه « بين » ، وقد أخذ الناشر يصيح في حنق بالغ :

– « ولكن يا إلهي ، هذه خيانة ، خيانةٌ محضٌ لا شك فيها ! »

فابتسم « بين » وقال :

– « الآن اكتشفت ذلك ؟ هو ذا الكتاب قد نُضّدت حروفه وأرسل الى المطبعة ، وهي ذي الف ورقة مطوية جافة ، ولم تكتشف أنه خيانة الا الساعة ؟ هل من سياستك في النشر ان لا تقرأ المخطوطة ولا تفهمها الا بعد ان تنضّد حروفها وتُطبع – أم انك كنت تراسل مستر بورك ومستر والبول في أمر كتابي ؟ أعتقد انك رجل قذر حقير ! »

– « لست أسمح بأن أهان في عقر دكاني ، يا سيدي . »

فقال « بين » :

– « ليس في الامكان إهانتك . »

وأوصاه رومني الطابع ان يجتمع الى جوردان ، في « فليت ستريت » فقصد « بين » الى هناك وابتدر جوردان بقوله :

– « لعلها خيانة يا سيدي . فلا تطبعها أولاً ثم تكتشف ذلك في ما بعد . »

وضحك جوردان وقال :

– « وإذن فأنت « بين » ، وليس عليك لا قرون ولا شوارب . أنا

سعيد بلقائك . »

واذ رآه « بين » ملطخاً بالحبر مهزولاً ، فأسيّ الوجه قال في ذات نفسه :

— « انه مغرم بصناعته ، ومستعدٌ لأن يموت من أجل كلمة الحق . سوف ينشر بيان الشيطان ، اذا ما آمن به . »

وقال جوردان :

— « لننظر الى الخيانة . »

ووضع « بين » رأسه الى رأس جوردان وراحا يقرءان طوال ساعات الاصيل . حتى اذا انتهيا الى فقرة كهذه قرأ « بين » في صوت عال ، وضغط جوردان على شفته السفلى وأنشأ يشدها ، وغمرته موجة من التبصّر وإصالة الرأي :

— « ليست الالقاب الا أسماء تهكمية ، وكل اسم تهكمي هو لقب . انها لا تنطوي في ذات نفسها على ضرر ما ، البتة . ولكنها تغادر في الشخصية الانسانية ضرباً من التكلف والحذلقة يحطّ من شأنها . انها تمسخ الرجل الى مصغّر رجل في الاشياء الجليلة ، والى امرأة مزوّرة في الاشياء الحقيرة ... »

وكشر جوردان وقال :

— « خيانة ؟ »

— « ذلك رهنٌ بالطريقة التي تنظر بها الى الكلام . »

واستشعر أنه أنضحُ بالحياة وأحفل بالحيوية منه في ايما لحظة من لحظات السنوات الثماني الماضية . لم يفكر انه قد انتهى في الظنّ وفي الواقع الى ان يصبح ثورياً محترفاً ، وانه لم يعد ثمة ما يوقع السعادة الحقيقية في ذات نفسه غير الاشتغال بصناعته . كل ما عرفه انه كان في مصيدة الجرذان بلندن ، وانه سوف يغدو وشيكاً رجلاً مطارداً ، وانه ما عاد يبالي بذلك البتة .

وضحك جوردان ضحكاً مكتوماً وقال :

— « أنا أحب هذا . »

ثم قرأ :

«ان التسامح ليس نقيض اللاتسامح . ولكنه نسخة طبق الاصل عنه . كلاهما طغيان . احدهما يدعي لنفسه الحق في تقييد حرية الضمير ، والآخر يدعي لنفسه الحق في منح هذه الحرية . أحدهما هو « البابا » متسلحاً بالنار والحطب ، والآخر هو « البابا » مانحاً صكوك الغفران أو بائعاً اياها من الناس . الاول هو الكنيسة والدولة ، والثاني هو الكنيسة والتجارة .

« ولكن التسامح يمكن أن يُنظر اليه على ضوء أقوى من ذلك بكثير . ان المرء لا يعبد نفسه ، ولكنْ يعبد خالقه . وحرية الضمير التي يطالب بها ليست لخدمة ذاته ، بل لخدمة إلـهه . واذن فيتعيّن علينا في هذه الحال ان نتمثّل الفكرة المترابطة أو المتداعية عن كائنين اثنين : الفاني الذي يقوم بالعبادة ، والخالد الذي يُعبد . وهكذا ينهض التسامح لا بين الانسان والانسان ، ولا بين الكنيسة والكنيسة ، ولا بين فرقة دينية وأخرى ، ولكن بين الله والانسان ، بين الكائن الذي يَعبُد والكائن الذي يُعبَد . وبالسلطة المفترضة عينها التي يجيز فيها للأنسان ان يؤدي واجباته التعبدية ، يتصدّر في كثير من الغرور وعلى نحوٍ تجديفيّ لأن يجيز للكليّ القدرة تقبّل تلك العبادات .

«ولو قد قُدّمت الى البرلمان لائحة عنوانها « قانون يمنح الكليّ القدرة الحرية في قبول صلوات اليهودي أو التركي * » أو « يمنع الكلي القدرة من قبول هذه الصلوات » إذن لذهل الناس جميعاً وعدّوا ذلك الصنيع تجديفاً وكفراً . وعندئذ تثور ضجة صاخبة . ذلك بأن غرور التسامح في الشؤون الدينية يتجلى في مثل هذه الحال سافراً غير مقنّع ؛ ولكن هذا الغرور لا يمكن ان يكون أقلّ سماجة اذا ما اقتصر ذلك

* المقصود بالتركي هنا : المسلم . (المعرب)

القانون على كلمة الانسان ، لأن فكرة العابد والمعبود المترابطة لا يمكن ان تُجزّأ . فمن تكونون أنتم ، يا أيها الغبار الباطل والرفات الفاني ،مهما كان الاسم الذي يُخلع عليكم ، ملكاً أو أسقفاً ، كنيسة أو دولة ، برلماناً أو أيّ شيء آخر ، حتى تُقحموا تفاهتكم بين روح الانسان وخالقها ؟ »

وقال جوردان :

— « خيانة ؟ جائز جداً . أتطلب اليّ ان أنشر كتابك يا مستر بين ؟»

— « أطلب ذلك . »

— « اذن أقول الى الجحيم بالخيانة ، ولعنة الله عليها ! انا معجبٌ بما كتبت . »

وتصافحا . ثم اقترح جوردان عليه :

— « اذا لم يغضبك ذلك يا مستر « بين » ، اسمح لي ان أقترح اصدار طبعة تباع بثلاثة شلنات ، السعر المحدّد لكتاب بورك . إنتظرْ دقيقة .. »

كان « بين » يحدق اليه ويتساءل :

« ومن يستطيع أن يشتريه بثلاثة شلنات ؟ »

— « أقول ذلك كاحتراس صغير حتى لا تُقبل الذئاب وهي تعوي وتهرّ قبل ان تبرد المطابع . أنت تعرف كيف يفكرون — إنهم سوف يرون شكلاً وحجماً جميلين ، وعندئذ يقولون : حسناً : « ليس يهمنا أمر الناس القادرين على شرائه ، وهذا على الاقل يمنحنا متسعاً من الوقت . وبعد ذلك أطبع لك ، اذا أردتَ ، خمسين ألفاً سعر الواحدة منها ستة بنسات وأرى إلى حبل المشنقة يلتفّ حول عنقي ... »

— « اذا استطعت أن أصدقك . »

— « لعنها الله ، يا رجل . أنا لا أعتزم أن أعيش الى الابد . لعلك أنت وحدك تجرؤ على أن تقول ما كتبته هنا ، ولكن الآخرين فكّروا مثل تفكيرك هذا . واذا كنت لا تصدّقني ففي استطاعتك ان تذهب

من هنا الى الشيطان ! »

وتبسّم « بين » ضاحكاً ، وبسط يده لمصافحته من جديد وقال :

— « لست أحسب ، يا مستر جوردان ، أن أباً منا سوف يعيش الى الابد . »

ونُشر الكتاب ، وغرق « بين » في حمأة السكر يومين اثنين . وحين رأى الى نفسه والى حقارته وبؤسه اللذين تجلّيا في أبشع حالاتهما وقد انكبّ على احدى موائد الحانة يتعتعه السّكر ادركَ من هو « بين » تماماً وكرِهَ ذاته ، ولكن نشوة النصر ما لبثت ان استحوذت عليه اذ ذكر ما تمّ له عملهُ حتى الآن ، من « حصافة » الى « أوراق الازمات » الى « حقوق الانسان » : ذلك كان « توم بين » وتلك كانت الشرارة الخاطفة الخالدة ، التي قلبت الامبراطوريات رأساً على عقب ، وأعطت الانسان أملاً ووضعته وجهاً لوجه مع الله . وكان على تلك الحال من السكر ، يعوي بضروب الاغاني القذرة البذيئة عندما عثر عليه بلايك الشاعر ، وروملي الطابع ، فسأله أولهما :

— « يا إلهي ، ماذا دهاك يا « بين » ؟ »

— « المجد ! المجد ! »

— « « بين » ، أخرج من هذه البؤرة النتنة ! »

— « المجد ! المجد ! المجد ! »

وقاده بلايك الى منزله ، وأعدّ له حماماً ، وراح يعظه ويكشف له عن سريرة نفسه :

— « بين ، أنت وأنا فرسا رهان — هذه الطريقة ليست صالحة أقول لك ، ليست صالحة . »

لقد اجتمع ببلايك لأشهر خلت ، وسلخ ليلة وهو يتحدث اليه ويروي على مسمعه حكايات عن الثورة في أميركة . وأحبه بلايك ، فاذا هو منذ ذلك الحين على اتصال شبه دائم به وبرومني ، وشارَبَ

النقّاش ، وهول ، وبارلو ، وفروست ، وأوديبيرت ، وكلهم صديق لبلايك ولرومني ، وكلهم من الاحرار الفضوليين غير المنسجمين مع دنيا لندن الارستوقراطية في القرن الثامن عشر . وتلا بلايك بصوته الليّن العميق شيئاً من شعره ، فتنهد « بين » قائلاً :

— « مجد ! مجد ! مجد ! ... »

وفي اليوم التالي قصد الى جوردان وقال :

— « دعني أستروح الحبر — دعني ألمس المطابع بيدي . »

وكانت الكتب الجديدة قد كدست رزماً في كل رزمة مئة نسخة . وفي طول العالم وعرضه ، في انكلترة ، في فرنسة ، في أميركة ، كانت رائحة حبر الطباعة الزكية هي هي من غير فرق أو تفاوت . وحدثه جوردان عن سير البيع ، فقال انه بطيء أول الامر ، وان معظمه يتم هنا في دكانه ، ولكنه آخذ في التسارع — لقد أرسل ثلاثمئة نسخة الى ويلز ، ثمن كل منها ثلاثة شلنات . وتساءل جوردان :

— « هل يوجد في ويلز ثلاثمئة شخص يملك واحدهم ثلاثة شلنات يستطيع أن يدفعها ثمناً لكتاب ؟ »

●

وكانت ثمة ألف نسخة من الطبعة الرخيصة تزحف الى اسكتلندة : واشترى أحد محافظي المقاطعات ، من كارليسل ، مئتي نسخة ، وذلك قبل ان يصدر الحكم باعتبار الكتاب خيانة . ولكن الرجل كان ذا ولوع بهذا الضرب من الكتابة ، وأيّ موقف غير هذا كان يمكن لك ان تتخذه من كتاب موسوم بـ « حقوق الانسان » ؟ ولكن النسخ الالف نفدت ، ونفدت في أثرها ألفان آخران : ثم ان ناشر ماكدوويل أعدّ في أدنبره طبعة قرصانية ، اذا جاز التعبير ، عدّتها ثلاثون ألف نسخة على ورق

رديء — فهل يكون من عجب بعد اذا ما صاح رئيس بالمدية غلاسكو قائلاً ان كل خادم في الكثبان ، كل حائك ، كل عامل في الطاحون وكل صانع حداد كان يقرأ قطعة من الخيانة القذرة تدعى « حقوق الانسان » ؟

واستخرجوا ثلاثة آلاف كلمة وطبعوها على قصاصات من الورق ، في كارديف . وحمل رجلٌ ألف نسخة من هذه الطبعة الى المناجم ، في قلب بنطلونه .

وبدأت لندن تلتهم طبعة الثلاثة الشلنات . لقد اشترى كل متحذلق متعاظم نسخةً ، وراح يطالعها مكشّراً ، لاعناً ،متهكماً على البهيمة التي ألّفته . واشتراه والبول ، وبيت ، وبورك ، وفوكس — ولكنهم لم يتخذوه هزواً وسخرية . وفي الـ « هوايتز » وضع دوق أوف دافونشاير الذي عاش حياته الدوقية على موائد القمار أكثر مما عاشها في أيما مكان آخر — نسخةً مفتوحةً من كتاب « بين » الى جانبه ، وراح ينزع ورقة من أوراقها كلما احتاج الى إشعال غليونه . وقرأ اللورد غرينفيل ، زير الخارجية ، الكتاب ، ومزّقه إرباً إرباً ، ووضع مذكرة ذهنية بضرورة شنق المؤلف . ولكنّ حكومة المحافظين ، بعد ان جازت مرحلة الهياج الاوليّ الذي انتابها ، عقدت جلسة نهض خلالها « بيت » وقال في عزم — ولعلّه كان يفكّر في أبيه الذي لم يشأ أن يخسر أميركة ، أو لعله كان يفكر في حكومة المحافظين ليس غير :

— « في الوقت الحاضر أيها السادة ، لن نحرك ساكناً على الاطلاق .ان كتاباً يباع بثلاثة شلنات ، وان يكن خرقة بذيئة ، لا يستطيع أن يوقع أيما أذى الا اذا روّجنا له ترويجاً ضخماً بجعل الثلاثة الشلنات ثمناً يجب أنْ يُدفع ... »

وكانوا في ذلك مخطئين . فقد قال جوردان لـ « بين » :

— « لا شيء يفسر هذا الرواج الذي تحظى به الطبعة الغالية . لقد عملتُ

في صناعة النشر مدةً تؤهلني لمعرفة مدى اقبال الطبقة الارستوقراطية عندنا على القراءة — حتى ولو أدخلنا في الحساب أولئك السياسيين الذين يقرأون الكتب بحكم وظائفهم ومصالحهم . من أجل ذلك أعتقد ان ثمة جمهوراً جديداً ههنا ، جمهوراً لم يقرأ قط كتاباً واحداً من قبل ، جمهوراً يمدّ أيديه الى جيوبه فيجد فيها بطريقة ما ثلاثة شلنات ... »

والتمسه أحد الحائكين ، آنغوس غراي ، وقال له :

— « وما قولك في الحائكين يا مستر بين ؟ »

— « أنا لم أفكر فيهم الى الآن . من أنت ؟ »

فقال الرجل ، وكان رثّ الملابس ، مهزولاً ، داكن العينين ، يلعق شفتيه في أناة وتعمّد :

— « ولكنا كنا نطالع كتابك ، ونحن نعتزم أن نقوّم الاشياء المعوجّة ، ولو حصلنا على سلاح أو سلاحين ، على بندقية قديمة أو غدّارة صغيرة فهل يكون ثمة ... »

قال ذلك وترك السؤال معلقاً في الهواء . فقال « بين » :

— « قد يكون . »

— « ومتى ، يا مستر بين ؟ »

— « عندما يحين الوقت . » كذلك قال « بين » . وما الذي كان يستطيع أن يقوله أكثر ؟ ما الذي كان يستطيع ان يقوله أكثر من ذلك لأمثال « آنغوس غراي » هذا من أصحاب الوجوه الشاحبة ،الجوعى ، الظامئة الى مدينة فاضلة عثروا عليها في كتاب ، مدينة فاضلة كانت أميركة هي البرهان الحيّ عليها ؟

وبعد ذلك اختفت عشرة آلاف ، فعشرون ألفاً ، فخمسون الف نسخة من الطبعة الرخيصة في معدة لندن ، ومانشستر ، وشيفيلد ، وليفربول ،الفاغرة فاها ... كانت النار تضطرم تحت انكلترة ، وأخذ القوم يستشعرون انعكاساتها المكبوحة .

●

وتقوّضت آماله وكأنها أوراق اللعب ، ومع ارتفاع الضحى أطلق ساقيه للريح . لقد سقطتْ على رأسه بسبب من عدم إدراكه أنه ما من شيء واحد ، أو رجل واحد ، أو سبب واحد تمكن أن يحرّك العالم . فعندما وضع كتابه « حصافة » وجّه الخطاب الى قوم كانوا قد استثيروا للحرب ، وعصف بهم عاصف من حنق وسخط ، وشهروا السلاح شارحاً لهم السبب الذي من أجله ثاروا ، والسبب الذي من أجله يتعيّن عليهم ان يواصلوا القتال ، والهدف الذي من أجله يحاربون. كان وراءهم مئة عام من الاستقلال المسلح ، من وجهة النظر الواقعية ان لم يكن من وجهة النظر السياسية . لقد سبق لهم ان قاتلوا الهنود الحمر ، وقاتلوا الفرنسيين ، ولقد عاشوا والسلاح رفيقهم الذي لا يفارقونه — وكانوا في كثرتهم خوارج دينيين من منهجيين (ميثوديستز) وطهريين (بيوريتان) ومن منتسبين الى الطائفة الأبرشية . وحتى الكاثوليك واليهود فيهم إنما فروا الى أميركة التماساً للحرية .

أما « حقوق الانسان » فكانت ملابساته مختلفة جداً . لقد قذف به رؤوس قوم ليسوا على استعداد بالكلية ، قوم كانوا يتخيلون ، في كثير من الأحوال ، انهم يملكون حرية خرافية ليست بأي حال حقيقية ، ولكنها تتمثل في الاغاني والقصص والخرافات وكأنها شيء يملكه كل رجل انكليزي .

لم يكونوا مسلحين ، ولم يكونوا مستعدين ، ولم يكونوا خوارج دينيين . لقد نظروا في كتابه ، وتاقوا الى الحرية ، ثم ارتدّوا الى أعمالهم ، الى أحيائهم القذرة ، الى طواحين الـ « جن » الخاصة بهم — أما تلك القلة التي كانت تنطوي على جرثومة من تنظيم ، أما عمال المناجم الويلزيون العراض الوجوه ، وعمال الحياكة في الاقاليم الشمالية ، وعمال الحديد فهؤلاء وحدهم هم الذين أعملوا الذهن في كتاب « بين » وعدّوا رصاصاتهم ، ثم دفنوا بنادقهم القديمة ، مذعورين ، ولم يفعلوا شيئاً .

وعندما تسامعوا بأن « بين » فرّ من انكلترة انتهت حتى أحلامهم نفسها.

وكانت غلطته الابتدائية – وقد أدرك ذلك في ما بعد – هي عودته الأولى الى فرنسة. عندئذ تبلورت في مخيلته تلك الفكرة الغامضة الضخمة التي ما كان يجرؤ على التفكير فيها حتى ذلك الحين، ورسخت في ذهنه كحتمية : ولايات أوروبية متحدة مرتبطة بحلف مع ولايات أميركية متحدة، إخاء انساني خليق بأن يتحقق في مدى سبع سنوات على الأكثر، وقد يعمّ قبل نهاية القرن الثامن عشر العالمَ كله. ولسوف تكون هذه الحكومة حكومةً من الشعب لخدمة الشعب، حكومة ليس يجوع في ظلها إنسان وليس يفتقر انسان، حكومة تقضي على الكره والبؤس والجريمة من طريق التربية والتنوير، حكومة تعمل على إرخاء قبضة الدين المنظّم الحديدية الضاغطة على خناق العالم والاستعاضة عنها بعقيدة رفيقة تؤمن بوجود الله ولكن تُنكر الوحي، عقيدة تجعل الاخاء الانساني يوجّه وجهه نحو وحدانية الله وخيريته، عقيدة خلوٍ من البغض أو الضغينة، أو الخرافة. وعندئذ لا يبقى ثمة حربٌ ولا ملوك ولا طغاة؛ ويظهر المسيح على الارض في خيرية جميع الناس البسيطة – خيرية كان يؤمن بها في حماسة بالغة ويوجّه جميع الناس وجوههم شطر الله فلا يُحرمون أبداً نعمة الرؤيا.

ذلك كان حُلم « بين »، أو تصوّره – وإنه لتصوّرٌ كانت مضامينه من الفظاعة والروعة بحيث لم يكن ليجرؤ على التحدث عنه في إسهاب وإكمال حتى مع نفسه. وكان تحقيقه رهناً بأشياء كثيرة : رهناً بسير الثورة في فرنسة، وبقدرته على توجيه الناس بالكلمة المكتوبة، وبسير عالم ما بعد الثورة في أميركة – وأخيراً بالثورة في انكلترة.

وتذكّر أنه عبرَ القناة، كرةً أخرى، الى فرنسة، مثيراً أكثر فأكثر ظنون المحافظين الذين أخذوا يعتقدون أنه كان على اتفاق مع الفرنسيين. ودرس مع لافاييت تنظيم جمعية جمهورية كان ينبغي ان

تكون لها فروع منتشرة في مختلف أرجاء العالم . وانضمت مدام رولان وكوندورسيه الى نواة هذه الجمعية ، وكتب « بين » إعلاناً ملتهباً للفكرة الجمهورية صبّ جام النقمة على فرار الملك من باريس ودعا الى تنازله عن العرش . وأقام حزب المحافظين البريطاني على صمته وتريثه ، وشرع « بين » يعتقد أن في استطاعته إنفاذ خططه جميعاً من غير أن يوقظ حكومة المحافظين ، في يومٍ ، من سباتها . وكانت هذه هي الخطوة الاولى : أن تضاف الى الجمهورية الاميركية ، جمهورية فرنسية . وما كان يدري ان عيون الحكومة البريطانية كانوا قد بدأوا حتى في تلك اللحظة يجمعون التقارير المدوّنة عن نشاطه . ورجع الى انكلترة بعد ذلك، فاذا به يجد ان « بين » الذي أهمِل يوماً قد أصبح رسولاً من رسل الشيطان .

وأطبقت قوى الحكومة عليه في أناة . كانت انكلترة تدمدم ،ولكنهم سمعوا دمدمتها من قبل ، وأحسنوا فهم مزاج الناس ، فأنت حين تسحق ثورةً تفسح المجال واسعاً لنشوب ثورة أخرى ، وعندئذ يتعذر اكراه العفريت على العودة الى القمقم أبد الدهر . ولكنك اذا ما أرهبتَ وهدّدت في رفق ، واعتقلت في خفاء وُفّقت الى ان تحطم الثورة قبل ان تبلغ غايتها من القوة . لقد علّمتهم أميركة درساً .

وكان أصدقاء « بين » ومناصروه قد اعتزموا الاجتماع في فندق يدعى « التاج والمرساة » ليشربوا نخب الذكرى السنوية الثانية لسقوط النظام الاقطاعي في فرنسة . واتصل احد عملاء الحكومة بصاحب الفندق فأوصد أبوابه في وجوههم . وتوارى كليويز عن الانظار . ووُجد رجلٌ يدعى لونيدين كان قد اقترح على « بين » فكرة انشاء حرس وطني غير رسمي على غرار حرس فيلاديلفيا الوطني ، قتيلاً في خندق قرب دوفر. واعتُقل ماسترسون عامل الحدادة . ومن ناحية ثانية ، قال لورد ادورد فيتزجيرالد الارلندي الشاب لتوم بين :

— « فكّر في الجزيرة الخضراء عندما تحتاج الى رجال مقاتلين ، يا مستر بين ، واحسِبْ أنك سوف تجد فيها عدداً منهم يزيد على حاجتك . »

•

وقال مخاطباً نفسه :

— « مهما حدث فيتعيّن عليّ أن أكتب ، أن أفسّر ، أن أجعل هذا الامر واضحاً . »

وأعدّ جزءاً ثانياً من « حقوق الانسان » . كان جسره الحديدي قد نُسي ، وكانت أحلامه بالمجد العلمي والاجتماعي قد تقادم عليها العهد الى درجة جعلته يعجب لنفسه كيف استطاع يوماً ان يراودها وتراوده. كان هو « بين » القديم العجوز ، فثيابه بعيدة عن الجودة ، وعيناه قد عاودها الانحناء من جديد ، وكأن العبء الذي تحملان كان ثقيلاً ، ثقيلاً الى حد فظيع .

وكتب في سرعة ، بعد أن زايلته معظم شكوكه . لقد كان الجزء الاول كتاباً أو مرجعاً للثورة ، ولسوف يكون هذا خطةً — ابتدائية وفجّة — ولكنها على أية حال ضربٌ من الخطة لهذا العالم الذي حلم به. وكان يدري — وهو يكتب — انه محلّ مراقبة ، وكان يتوقع تدخلاً ما من جانب الحكومة . حتى اذا عدِم هذا التدخل كان حذراً أكثر منه متعجباً . ثم إن تشابمان ، الناشر الثريّ ، وفد عليه ليسأله ما اذا كان يسمح له في نشر الجزء الثاني من « حقوق الانسان » .

وقال « بين » في ما بينه وبين نفسه :

— « يا له من أخرق تعوزه الدراية ! أوه يا له من أخرق ! »

ثم قال لتشابمان :

— « سوف أعهد الى جوردان في نشره . »

فأجابه تشابمان :

– « إن جوردان ليس شيئاً . إنه فأرة صغيرة تقرض أطراف قماش الطباعة والنشر . ان كتاباً في مثل قوة كتابك وخ ره يستحق أحسن طباعة ، وأجود ورق ، وأفضل تجليد يمكن لمؤلف أن يفخر بها . أنت وأنا رجلان مجربان مارسا الحياة وخَبَرَاها ، ونحن نعرف ان جمهور القراء ، لعظيم تَخبّله وتغفّله ، إنما يحكم على الكتاب من ظاهر غلافه، فكلما كان جلده فاخراً ، وصناعته بارعة ... »

فابتسم « بين » وقال :

– « أنا أنشر عند جوردان . لقد قال بعضهم ، يا مستر تشابمان ، وليس في كثيرٍ من الهدوء ، إن كتابي ينطوي على خيانة . إن ناشراً في مثل مقامك ... »

– « والمغامرة جزء من صناعة النشر . نحن ننتصر للكلمة المطبوعة ، لحرية الرأي والصحافة . »

– « والشروط ؟ »

– « مئة جنيه لجميع الحقوق . »

فابتسم « بين » وقال :

– « لجميع الحقوق ؟ أليس ثمة عائداتٌ تُعطى للمؤلف تبعاً لعدد النسخ المبيعة والطبعات المختلفة ؟ – هل صحيح ان كتابي لا يستحق إلا هذا المبلغ الضئيل ؟ »

– « لقد أشرتُ إلى المغامرة . أنت لا شك تقرّ ... »

فقال « بين » :

– « أنا أنشر عند جوردان . »

– « أعطيك مئتي جنيه . »

– « واذن فقد تعاظمت قيمة كتابي . هل ترغب في أن تشتري فوق ذلك ، حق تسليم مخطوطتي إلى مستر والبول حالما يُدفع الثمن ؟ »

وضبط تشابمان أعصابه ضبطاً يدعو إلى الاعجاب . وقال :
— « خمسمئة جنيه ، يا مستر بين . »
فضحك « بين » وقال :
— « إن حياة الكاتب لا يمكن أن تكون بليدة خاملة . إذهب إلى الجحيم يا مستر تشابمان ! »
— « لا تكن مجنوناً ، يا « بين » . سوف أعطيك الف جنيه ولن أدفع بنساً واحداً فوق ذلك . »
— « إذهَبْ إلى الجحيم ! »
— « إني احذّرك يا « بين » . خُذِ الألف : ان الرجل الذي يلتفّ حبل المشنقة حول عنقه ليس في حاجة إلى المال . »
فصاح « بين » :
— « أخرج قبل أن أقذف بك إلى بعيد . »
وحسمت كلمته هذه الجدالَ مع تشابمان . ولكنها لم تحسم أشياء أخرى . فحين حمل المخطوطة إلى جوردان قال الطابع :
— « إن الروع لا يأخذني في سهولة . ولكن الأمور تتأزم . هل تذكر كارستيرز الذي اشترى الف نسخة من الطبعة الرخيصة لاسكتلندة؟ لقد وُجِدَ مدقوق العنق في قعر صخرة شاهقة — وكأنما كان يتسلق الجبل . متى كان كارستيرز يتسلق الجبال ؟ »
وهرّ « بين » :
— « ألا تعتقد اني أراهم يضيّقون الخناق ؟ »
— « أنا لست خائفاً ، إنتبه . »
وأعطاه « بين » وثيقة مكتوبة أعلن المؤلف فيها انه هو الناشر ، وقال إنه هو وحده المسؤول عن كل ما ورد في « حقوق الانسان . »
واحتج جوردان :
— « لا داعي لأن تفعل ذلك . »

— « أريد أن أفعل . »

— « ولا تمشِ في الشارع أثناء الليل . »

وابتسم « بين » ذاكراً أحوالاً سابقة قُذِف فيها بمثل هذا التحذير نفسه .

●

وبعد ذلك ، وفي سرعة مذهلة ، انتهى كل شيء : ذلك بأن الحكومة سحقت جميع الخلايا الثورية المنظمة ، سحقت عمال المناجم في ويلز ، وعمال الادوات الجارحة في شيفيلد ، وعمال أحـواض السفن في ليفربول وتاين ، والخزافين ونجاري العربات ، وجميع اولئك الذين كانوا يلتمسون في « بين » زعيماً لهم ، قبل أن يجد الفرصة للدعوة إلى مؤتمر ، أو يصدر أمره بانشاء حرس وطني ، بل قبل ان تتخذ خطوط الثورة الرقيقة شكلاً يمكّن المرء من جذبها وشدّها . وأخيراً ، وكمثل النهاية المبتورة ، جاءته رسالة من جوردان .

وفرّ « بين » بأسرع مما يستطيع . لقد سمع منذ لحظة باعتقال الزعماء الموجهين لأربعٍ من الخلايا الثورية . وكان هو مستعداً لكل شيء . ولكنه ما كان قادراً على ان يبتسم عندما أطلعه الطابع الفارع الطول على أمر يطلب اليه ، هو جوردان ، أن يمثل أمام مجلس القضاة الملكي : كانت التهمة هي خيانة التاج بسبب من نشر كتاب اجرامي يدعى « حقوق الانسان . »

وقال « بين » :

— « سوف أمثل أنا أمام المحكمة . »

فأجابه جوردان في عزم :

— « لا ، يجب أن لا تفعل . لأنهم إذا شنقوك انتهى كل شيء ،

أما شنقي أنا فأشبه ما يكون بضجة كبيرة حول لا شيء . لقد عشتَ يا « بين » هنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، طارقاً كل باب ، أو كما قلتَ أنت ، إن العالم قريتك . ولكني رجل انكليزي ، ليس غير ، وإني لأحب هذه الجزيرة والشعب العائش عليها حباً مخبولاً . إني أراهم يعضون كالخيل شُدّت إلى عربات ، واني لأرغب في أن أقطع سيور العربة . ذلك هو السبب الذي من أجله نشرت الكتاب ، وذلك هو السبب الذي يحملني على أن أرتضي الموت ، ببساطة ، إذا ما قدّر لي ذلك . أنت الثورة . وأنا الطابع . هذا كل ما هنالك ، يا بين . »

وتوسّل اليه « بين » ، ولكنه كان أمام رجل أكثر عناداً منه . وقصد إلى أصدقائه من رجال حزب الاحرار متوسلاً ، ولكن الابواب القليلة التي لم تُوصد دونه إنما فُتحت لكي تطلّ منها وجوهٌ انيسة متهكمة كانت تقول له :

— « ولكن حقاً يا بين ، أنت لم تتخيل قطّ اننا سوف نؤيد الثورة ؟ حقاً ، نحن بريطانيون كما تعلم ... »

وكانت تنصحه :

— « أخرج من انكلترة قبل أن تشنق . »

وبعث اليه رومني برسالة تقول :

— « سوف يشنقونك يا « بين » . هذا أمرٌ ثابت ثبوت الله . »

وكتب اليه بلايك :

— « بين ، اهرب إكراماً لله ! »

ووجه بياناً إلى الخلايا الباقية ولكنه لم يحظ بغير الصمت الميت . كتب يقول « هذا أوان العمل » ، ولكن لم يكن ثمة غير الصمت الميت .

وخطت الحكومة خطوتها الثانية فأصدرت أمراً ملكياً بمنع جميع الاجتماعات غير المرخص بها وجميع الكتابات المثيرة للفتنة . وكل من يعلم بشيء من مثل هذا ولا يرفع تقريراً به إلى السلطات يحاكم

أمام القضاء .

ولكن الكتاب كان يبيع ، ويبيع في جنون وفي وحشية وبآلاف النسخ . وفي المدة القصيرة الباقية أبقى جوردان مطابعهُ دائرةً ليلَ نهار ، فالكلمة المكتوبة ، متى أطلقت مرةً ، لا يمكن أن تُسترجع ولو جُنّدت في سبيل ذلك قوة التاج كلها . وكتب « بين » في جهد موصول . كتب رسائل وبيانات ونداءات . فقد كان جديراً به إذا ما خذلته الخلايا الثورية أن يوجه الخطاب إلى الشعب كله . وقرأ الشعب نداءاته ، وتهامس أفراده بها في ما بينهم ، ثم لم يعملوا شيئاً : إنهم ما كانوا مزارعي ماساتشوستس المسلحين ، ولكن فلاحين وأصحاب دكاكين خائفين مروّعي الافئدة .

وهكذا قضي الأمر . وفي ساعة من توسّل اقنعه بلايك بأن الأوامر النهائية قد أمضيت . وأقبل فروست ليُعلمه بأنه قد اجيز لرجال الأمن أن يلقوا القبض عليه . وجاءه من فرنسة رسول يتوسّل :

— « إسمع يا « بين » . لقد عُمل كل شيء في انكلترة ، وعندما تموت أنت تموت آمال الشعب الانكليزي ، فلا تقوم لها بعدُ قائمة . أما في فرنسة فالأمر لا يزال في بدايته ، وعندما يدوي اسم الجمهورية الفرنسية في طول أوروبة وعرضها فعندئذ يجد شعب انكلترة قوته . ولكن لا تبق هنا لكي تساق إلى المشنقة . »

وقال « بين » مخاطباً نفسه :

— « أأفرّ ، وفي استطاعتي أن أبقى هنا وأموت ؟ ولكني رجل عجوز . في سنة ٧٦ كنت شاباً وكان ثمة شبان آخرون في أيديهم البنادق — وكان في استطاعتي ان أتحدث اليهم . ولكن أين هم الآن ؟ »

وقال لنفسه :

— « سوف أعود من جديد ! »

وأخذ على ذاته عهداً :

ـ « سوف أعود ـ بعد سبع سنوات على الاقل . ولسوف يســود الاخاء علاقات رجال لم يعرفوا في حياتهم غير البغض والخوف . إن الميت لا يعود ابد الدهر ، ولكني أنا سأعود ...! »

وكرر ذلك في ذهنه مرةً ومرةً ، فيما كان واقفاً على متن سفينة القناة ، يراقب صخور دوفر الشاهقة وهي تبتعد عن ناظريه ، في صباح يوم من أيام الخريف من أيلول سنة ١٧٩٢ .

الفصل الثاني عشر

جمهورية فرنسة

كانت البداءة دائماً . وكانت الريح الباردة الهابّة عبر القناة منعشة محيية ، وكذلك كانت السماء الزرقاء ، وطيور البحر وتذبذبُ ظهر السفينة تحت قدميه ، والبهجة اللاهثة التي تغمر قلب المرء حين ينجو من موتٍ محقق . لقد تغيّر مزاجه كله ، وزايله اليأس الأسود ، واتخذ إخفاقه في انكلترة مكانه في سياق الأشياء الطبيعي . فطوال آلاف من سني التاريخ المدون كانت الأمور تجري في الاتجاه المعكس ، والاخاء الانساني لا يمكن أن يمتد رواقه في ساعات أو في أيام : انه خليقٌ بأن يعود إلى انكلترة ووراءه ولايات اوروبية متحدة ، وعندئذ سيهب الشعب مظفّراً لتلبية ندائه . ولكن متى يتحقق ذلك ؟ بعد خمس سنوات ، أو عشر سنوات . إنه الآن لا يعدو الخامسة والخمسين : ولقد كانت حياته حتى هذه اللحظة تدرّباً ، وتدرّباً ، وزيادةً في التدرّب . لقد كان هو « بين » نصير الانسان وحامي ذماره .

وسأل فروست :

– « هل أبدو عجوزاً ؟ »

فأجابه فروست وقد أخذه الدهش بعض الشيء ، بسبب من أنه لم يفكر في ذلك إلا الآن :

— « أنت لم تبدُ في يوم أفضلَ مما تبدو اليوم . »

— « متْعَب ؟ »

— « مطلقاً . »

— « ممّ أنت خائف يا فروست ؟ »

— « إن المرء لا ينجو من حبل المشنقة بعد أن لم يبق بينه وبينها غير بضعة إنشات ثم يبتسم لذلك . »

— « لا تكن مجنوناً ! إنّ حياتك ليست شيئاً ، انها مجرد اداة موقتة تلهو بها فترةً من زمان . مجرد آلة تضعها موضع الاستعمال . وإذا ما حطمها شيء فعندئذ تتحطم ، هذا كل ما هنالك . »

فقال فروست في مرارة :

— « آسف لأني لا أستطيع ان أنظر إلى الاشياء هكذا . لقد كانت تلك الديار موطني » — والتفت إلى انكلترة — « أما الآن فقد ذهبت ، أما الآن فلن أرجع اليها أبد الدهر . »

وهنا وضع « بين » ذراعه على كتف الشاب وأشار إلى أوروبة قائلاً :

— « هذه أكبر — هذه هي العالم كله . أنا لا أملك شيئاً ، وليس معي شلن واحد من عائدات كتابي » — ذلك ان ما أصابه من هذه العائدات تركه مع جوردان — « ليس من شلن في جيوبي ، ولستُ أملك غير خرقة في حقيبتي والثياب التي على ظهري ، ولقد بلغت الخامسة والخمسين ، ومع ذلك فأنا غير خائف . »

•

وفيما كانوا يقتربون من الساحل الفرنسي هبّت عليهم عاصفة من

عواصف القناة الخاطفة القاتمة ، وكانت السماء تمطر حين ألقت السفينة مراسيها . وبرغم العواصف والامطار خرجت « كاليه » كلها تقريباً للترحيب بـ « بين » : فصيلة من الجند ، وطبول ومزامير تعزف نشيد « المارسيلياز » أولاً ، ثم أغنية « يانكي دوديل » وقد توهمها القوم نشيد أميركة الوطني الثوري . وهتف المواطنون وصفروا ولوّحوا بأيديهم لـ « بين » الذاهل الذي ما كان يتوقع شيئاً مثل هذا .

— « ليحي بين ! »

ومشى الجند جيئة وذهوباً ، وجيئة وذهوباً . وعانقه الكابتن دومون ، وكان ضئيل الجسم فهو في نصف حجم « بين » ، مرةً بعد مرة . ثم تقدّم رئيس البلدية فعانقه ، وتبعهُ أربعة من أعضاء المجلس البلدي ، وضابطان من رجال الحرس الوطني ، فأعلنوا « بين » بالفرنسية أولاً ، ثم بأنكليزية رديئة جداً ، انه أختير عضواً في الجمعية الوطنية — نائباً عن « كاليه » ، وان في ذلك شرفاً لهم هم طبعاً ، شرفاً غامراً عظيماً .

وغمغم « بين » بالانكليزية :

— « أنا الذي شُرّفت أعظم التشريف . »

وتدفقت الفرنسية ، ولم يكن ليفهمها إلاّ في مشقة بالغة ، تدفق السيل على أذنيه . وكان أعجز من أن يتكلم الآن ، وكانت عيناه نديتين . وبكى الفرنسيون معه ، بكوا وهتفوا ثم عادوا إلى البكاء من جديد .

وقالوا له :

— « إذا كنت ترضى . طبعاً إذا كنت ترضى . أما التعويض فثمانية عشر فرنكاً في اليوم . وهو ليس شيئاً ، بل هو بالنسبة اليك أقل من لا شيء . ولكن أنْ تُمَثّلَ « كاليه » في الجمعية الوطنية في

شخص توم بين ... »
وحنى رأسه ، واصطحبوه إلى وليمة كانوا قد أعدوها تكريماً له .

●

كان السكون الميت يخيّم على الجمعية الوطنية حين وفد « بين » ليتخذ مقعده فيها . ولم يكد القوم يعرفون هويته حتى تحوّلت العيون كلهـا نحوه ، ونُزِعت القبعات ، وحُنِيت الرؤوس احتراماً له بل تقديساً ، حتى إذا ارتفعت الأصوات ضجت القاعة بتصفيق بلغ عنان السماء . كان هذا هو « بين » ، وكانت هذه هي باريس ، وكانت هناك الثورة — لقد نزل في موطِنه وعشيرته .

وجلس على مقعده وبكى ، فبكى كل من في القاعة معه . ونهض ليقول كلمة فأغرقوا صوته في عاصفة أخرى من الصياح . ثم تلاشى آخر أثر من آثار النظام عندما اندفعوا اليه وطوّقوا عنقه .

●

كان هذا شيئاً . لقد كان هو « بين » ، ابن الثورة . إنه لم يكن من جماعة الأروقة ، ولكنْ رجلاً حمل دعوته إلى الجنود الثائرين ، مباشرةً ، وزحف معهم ، وقاتل إلى جانبهم ، ونظّم ثورة عمال في فيلاديلفيا ، وذاد كالمجنون عن تلك الحريات التي حاربت أميركة من أجلها . كان هذا شيئاً . ولكن « بين » الراغب في أن يعيد إنشاء العالم كان شيئاً آخر .

كان « بين » هذا عاجزاً عن الكلام باللغة الفرنسية — صحيح انه كان يعرف بضع كلمات تمكّنه من أن يطلب فنجاناً من القهوة ، أو

قطعة من الخبز أو مبيت ليلة ، ولكنه ما كان يعرف الفرنسية التي تمكّنه من أن يتحدث حديثاً سياسياً شيقاً على الطريقة الباريسية المندفعة المحتدمة غيظاً . وهل لغة الحرية عالمية ؟

وفي الايام التي تلت ، تعيّن عليه أن يستعيد في ذاكرته مرة ومرة ما كان لافاييت قد قاله له منذ عهد غير بعيد جداً :

— « يا صديقي « بين » ، أحسب أنني أنا وأنت قد وُلدنا قبل أواننا — وأننا سوف ندفع ثمن ذلك . »

وكان « بين » قد تبسم لدن سماعه هذا الكلام ،وقال إن الانسان لا يولد قبل أوانه . وإذا كان العالم ينتظر الرجال وأصحاب الاحلام فكيف يجوز الزعم أن رجلاً ما قد ولد قبل الأوان ؟

ومع ذلك فكثيراً ما كان يفكّر في الذي قاله لافاييت . لقد وَضَع كتاب الثورة في أميركة بين مزارعين تمتامين فارعي الطول كانوا بطيئين عن الكلام ، بطيئين عن العمل ، ولكنهم إذا ما وطنوا العزم على السير في طريق ما لم ينكصوا ولم يرتدّوا على الاعقاب . لقد أعلنتَ حريةً وقاتلتَ من أجلها . لقد قضى الرجال نحبهم واكتووا بنار الآلام ، ولكن العالم صار عالماً أفضل — أو هكذا رجَوْتَ . لقد كان رفاقك واشنطون وجيفرسون ، و « بيل » ، وانطوني واين ، وناثانيال غرين ، وتيموثي ماتلاك ، وحتّى العمال الثائرون في بعض المدن هناك لم يكونوا رعاعاً . وبعد ذلك تصوّرت فكرةً ، وحلمتَ بعالم واحد ذي نظام جمهوري ، وحاولتَ ان تشعل ثورةً في انكلترة — ثم فررتَ حفاظاً على حياتك ، ولكنك استقبِلت في فرنسة أحسن استقبال ، حيث كانت نار الثورة تندلع . وكانت لا تزال في بدايتها الاولى .

ولكن هل كانت في بدايتها حقاً ؟ لقد حُلّت الجمعية التشريعية فاتخذ مقعده في « المؤتمر الوطني » . وكان أصدقاؤه يعرفون بالجيرونديين،

وهم رجالٌ من الاحرار يرئسهم كوندورسيه ومدام رولان . وكان هو معهم طبعاً ، فهم أصدقاؤه القدماء ، ولقد استمعوا إلى آرائه وإلى عرضه المنسّق للثورة الأميركية . ومع ذلك فقد كانت اسهمهم آخذة في السقوط شيئاً بعد شيء ، فيما كان اليعاقبة ، المعروفون بـ « حزب الجبل » ، يكسبون سلطاناً متعاظماً على فقراء باريس ، المطالبين بفرض ديكتاتورية العاصمة ، أو ديكتاتوريتهم هم ، على الامصار . ورأى « بين » في ذلك فوضى واختلاطاً ، حيث ينبغي أن يكون نظام ، فوضى واختلاطاً مشؤومين . كان واجباً أن يكون ثمة مجلس تمثيلي بصرف النظر عن عجز ذلك المجلس أو فساده . انه لم يفهم هذه التشعّبات التي لا آخر لها ، فالحرية هي الحرية ، وفي اللحظة التي تستولي فيها على السلطة يصبح تحقيقها أمراً سهلاً . وها هي فرنسة تغزوها الجيوش الأجنبية ، ويتهددها الخونة في الداخل والخونة في الخارج ، ويخيم عليها شبح المجاعة ومع ذلك فهي شيعٌ متنافرة يقاتل بعضها بعضاً . حزب السهل ، وحزب الجبل ، والجيروندبون ، اليمين والشمال والوسط . ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ كذلك راح يسائل نفسه . إن لهم جميعاً عدواً واحداً ليس غير — هو القوة ، والامتياز ، والارستوقراطية. يجب أن يُسحق ذلك ، ويجب ان لا يكون ثمة غير حزب واحد هو حزب الحرية .

وقال له دانتون :

— « إن كثرة الشعب هي معنا ، مع اليعاقبة — أقول لك ذلك يا « بين » ، إن الشمال هو صاحب الأغلبية . »

فأجابه « بين » :

— « ليس بيني وبين الاغلبية خلاف . أنا أحيا للأغلبية في العالم . وعندما تتحرر فرنسة يكسب الاخاء الانساني دولة جديدة . »

●

وقال لنفسه وهو يتخذ مقعده في « المؤتمر الوطني » :

— « يجب أن أذكر ان الحرية في محنة . »

كان جميلاً ، باديء الامر ، أن يرى إلى مقاعد النظارة غاصة بشعب باريس . وكان متعطشاً إلى الكلام ، حالماً بأن يتقن الفرنسية في وقت قريب ليتسنى له أن يوجه الخطاب إلى هؤلاء النظارة ، إلى الشعب .

ومع ذلك فعندما طُرِحت أولى المسائل على التصويت لم يقف في صفّ الأغلبية . لقد كانت هذه الأغلبية مع دانتون الذي كان يبغي إصلاحاً كاملاً لنظام فرنسة القضائي الملتوي الموروث عن القرون الوسطى . ولم يكن « بين » ليرى في ذلك غير تعقيدات لا نهاية لها . فكان لا يكفّ عن القول :

— « نريد اصلاحاً دستورياً ، لا إصلاحاً قضائياً . ان مجلساً تشريعياً حراً يستطيع أن يسنّ القوانين العادلة ... »

وابتسم دانتون واقرّه على ذلك . ومع هذا فقد دُفعت الاكثرية في تلك السبيل تحت ضغط من هتاف النظارة . ولم يجد « بين » في ذلك كبير خطر . صحيح ان فيه تعقيداً ولكن لا بأس ، لقد قضي الأمر الآن . حتى إذا كان اليوم التالي أخذه الذعر عندما طالب بوزو — النائب الجيروندي — وهو يرتجف من الانفعال والخوف ، بتجريد حرس مسلّح على مواطني باريس — « الرعاع » كما دعاهم . وهكذا وجد « بين » نفسه في خضمّ هذه الحالة الغريبة المعقدة المخيفة التي تعثّرت بها فرنسة الثورية والتي كانت زاهيةً مشرقة بالآمال ، من نواح ، وقاتمة كابوسية من نواح أخرى . وناقش « بين » أصدقاءه :

— « ولكن الشعب ، الشعب هو أساس كل شيء . طبعاً ، أنا أريد أن يسود القانون والنظام والمنطق — ومن ذا الذي يريدها أكثر مني ؟ ولكن ينبغي لك أن تعتمد على الشعب ، فالشعب هو كل شيء ،

وأفراده هم الذين يحملون البنادق بأيديهم ويقاتلون . إنهم هم الجماعات العاملة والمنتجة . وإذا لم تكن لك ثقة بالشعب .. »

وكانوا يقاطعونه قائلين :

— « هذا حسنٌ بعض الشيء . ولكنك تعرف المزارع الأميركي لا نفاية باريس هذه ! »

وفكّر « بين » :

— « نفاية باريس . هذا كل ما هو بالنسبة اليهم . »

وخطر له لحظة ان يستقلّ بسياسته . فبعد كل شيء كان هو « توم بين » — كان صوت الثورة وما كان ليعترف لرجل ما بالزعامة عليه ، وما ضرّه إذا كان لا يحسن الفرنسية ؟ فالحق هو الحق . وكان يعرف في ذات نفسه — أو لقد اكره نفسه على أن يعرف — — ان « نفاية » باريس هذه ما كانوا ليختلفوا بحالٍ عن اولئك الرجال العوام المروّعين الذين عمل معهم وقاتل من أجلهم في مواطن أخرى من العالم . إنهم إذا ما توجّه اليهم بالخطاب خليقون بأن يُصيخوا اليه . ألم يكن قد أخذ يعرف قلب الثورة الحقّ ولبّها ؟ — فألقوة كانت في الشعب ، وسورة الغضب كانت فيهم . ولكنّ توجيه هذه الطاقة الهائلة كان في حاجة إلى خطة ، إلى نظام ، إلى هدف نهائي . ذلك ما أعوز جميع الثورات المرتجلة التي قامت بها العامة حتى اليوم ، فينبغي أن يكون غرضه الآن هو صياغة هذا الهدف النهائي وبلورته .

وهكذا كتب ونشر رسالة دعاها « خطاب إلى شعب فرنسة » وقال فيها إن فرنسة لم تكن تقاتل من أجل فرنسة وحدها ، ولكن من أجل جمهورية العالم القادمة ، من أجل الجنس البشري كله . إن على فرنسة أن تتحد ، وإن على فرنسة أن تكون مغامرة ، وان تجمع إلى ذلك الهدوء والشجاعة . فالعالم ينتظر فرنسة ...

هل سمعه الشعب ؟ انه عندما اتخذ مجلسه في المؤتمر الوطني كرةً

أخرى أدرك ان النواب — حتى ولو قد سمعه الشعب — كانوا منغمسين كل الانغماس في خلافاتهم الشخصية ، ومن كان « بين » ؟ انه كان يجهل حتى الكلام باللغة الفرنسية ، فهو يجلس عاجزاً فيما كانت المناقشات الحادة تعصف حول أذنيه : الجيروندیون يطالبون بحكومة تشترك فيها فرنسة كلها ، واليعاقبة (حزب الجبل) يضعون التوكيد على قوة البروليتاريا الباريسية وتماسكها ، والنوابُ الهائجون يأخذ بعضهم بخناق بعض ، والنظارة تصيح وتصفر وتفحّ وتستنكر وتبصق مُغرقةً أصوات من تبغضهم من النواب في خضمّ من صخبها . وعلى الجملة فقد كانت الانطباعة العامة موسومة بالفوضى البالغة ، برغم ذلك العزم وتلك القوة جميعاً . وحين كان بعضهم يتلطف ويجلس إلى جانبه ليترجم له ، وحين كان « بين » يجد مناسبة ليقول كلمة ذات شأن ، وليحاول اصلاح ذات البين وتنبيه القوم إلى أن حرية فرنسة في خطر ، وحين كان ينهض للكلام لم يكن ليحظى باحتفال النواب واهتمامهم — وحتى لو حظي بشيء من مثل ذلك فقد كانت اللغة تنهض عقبةً في سبيله ليس في الأمكان تذليلها . وكان يعمد في كثير من الأحيان إلى إعداد كلام ما ثم يعهد إلى بعضهم في ترجمته إلى الفرنسية . ولكن القطار كان يفوته في مثل هذه الحال ، فتفقد كلمته مناسبتها ، وتغدو غثة لا معنى لها .

وهدتْهُ غرائزه ، مرة بعد مرة ، إلى ان موضعه الصحيح هو في صفوف اليعاقبة برغم عنفهم كله وتطرفهم كله . ولكنه ما كان يحتمل الطريقة التي كان دانتون وسان جوست وروبسبير يبتسمون بها على نظرياته المنسّقة في الثورة ، ووصفه النظامي للاجراءات المتدرجة خطوةً خطوةً ، واشاراته الدائمة إلى الثورة الأمېركية . لقد ألمعوا بذلك إلى أن « بين » كان مثلاً أعلى ، ولكنه ليس شخصاً ينبغي أن يُسمع له ، أو يُعتمد عليه . لعله كان في سبيله إلى الشيخوخة.

وساءل نفسه :

— « أخائف أنا ؟ »

وحلم بأن يرى رفاقه الأميركيين القدماء كرّةً أخرى . ثم إنه انقاب إلى صالون مدام رولان ، حيث كانوا ، على الاقل ، يحترمونه ، حتى ولو كانوا في حديثهم الزاهي عن حكومة من أبناء الطبقة الوسطى لفرنسة كلها يتنبأون بالذي ينتظرهم من هلاك .

وراوده الأمل من جديد عندما اختاره « المؤتمر الوطني » عضواً في لجنة التسعة التي عُهِد اليها في وضع دستور جديد لجمهورية فرنسة . وكانت هذه اللجنة تنتظم بالاضافة اليه كلاً من كوندورسيه ، ودانتون ، وسييس ، وباربر ، وفيرغنيو ، وبيتيون ، وبريسّو ، وجانسونيه . ولكنهم كانوا كلهم ، باستثناء سييس ودانتون ، يمينيين أو جيروندين . وكان في استطاعة دانتون أن يقبل عضوية اللجنة ويقيم على ولائه لحزب الشمال ، ولكن ما إن قَبِلَ « بين » حتى انحاز بكليتـه إلى معسكر الجيروندين .

ولأول مرة قال لنفسه :

— « لستُ أدري . »

ولكن كانت ثمة أوقات تزايله فيها شكوكه . فباريس لم تكن موطناً يمكّن المرء من أن يشكّ شكاً موصولاً . لقد كانت ، بالنسبة إلى « بين » ، مدينة العزم والقوة والجمال . إنه لم يرَ إلى قذارة الشعب ، وملابسه المرقعة وطريقته في الفحيح والصفير من على مقاعد النظارة في « المؤتمر الوطني » ، فحسب . ولم ير إلى فقدانهم رقة الشمائل وسمو التهذيب فحسب . لقد أدرك انـه ليس في استطاعتك أن تتخلص من ارث ألف عام بين عشية وضحاها ، ورأى إلى قوة الشعب ، وإلى توقه العارم لحياة تكشّفت له منذ قريب . وحين وُفّقت الجيوش الجمهورية إلى ردّ الغزاة على أعقابهم حتى الحدود الفرنسية سمح لنفسه بأن تجرفه موجة الابتهاج العام . وكان المبعدون البريطانيون

والثوار والمتطرفون والشعراء والفلاسفة الذين أخرجتهم حكومة المحافظين إلى فرنسة قد أعدّوا العدة لحفلة كبرى يقيمونها في مقرّهم بأوتيل هوايت . وكان « بين » أحد ضيوف الشرف ، وكان مبتهجاً بالذهاب إلى هناك والاختلاط بأصدقائه القدماء الناطقين بلغته وفيهم فروست ، وادوارد فيتزجيرالد ، وكاري كليوبابن ، وآليسون وغيرهم .

وهدروا حين دخل :

— « وحق الألـه ، إنه « حصافة ! »

وكان قد اعتاد اهمال هندامه . ولكنه اقتصد من راتبه — وهو ثمانية عشر فرنكاً في اليوم — ما مكّنه من شراء سترة جديدة . ولم تكن في فرنسة شعور مستعارة ، الآن ، فردّ شعره إلى الوراء وعقَدَه . وحين سأله فيتزجيرالد : « توماس ، أيقدّر لنا أن نعبر القناة ، في الاتجاه المعاكس ، في وقت قريب ؟ » التمعت عيناه الملتويتان ببريقهما القديم وقال :

— « من يدري ؟ »

وكان فيتزجيرالد قد أحضر شيئاً من الخمر . وكانت لهجته الريفية أغلظ منها في أيما وقت مضى ، حين راح يعدّد وعيناه الزرقاوان الباهتتان ترقصان :

— « أميركة ، انكلترة ، فرنسة — وحق الألـه وحقّ يسوع الصغير ، قلْ لي يا توماس ، إن ايرلندة سوف تكون محجتك القادمة ! إن كثبانها الخضراء لتسيل دماً — أقول لك ، يا توماس ، إقصدْ إلى هناك ولن تطأ قدماك اليابسة حتى تجد مئة الف من الرجال الطيبين تائقين إلى السير معك ! »

وصدحت الموسيقى العسكرية ، ووقفوا لنشيد « المارسيلياز » حاسري الرؤوس . وحين عزفت الموسيقى أغنية « يانكي دوديل » تكريماً لـ « بين »

ردّ رأسه الضخم إلى الوراء وأنشأ يهدر :

« أبي وأنا ذهبنا الى المعسكر مع الكابتن غودين ،
وهناك رأينا الرجال والصبيان ، غلاظاً
كالنقانق المعدة على عجل ! »

كان شراب الـ « بنَش» جيداً ، وكان الـ « روم» أجود ، وجرت البراندي الفرنسية حارة كالنار في حلقومه . وسكر « بين » ، وسكر فيتزجيرالد ، وكذلك فروست . وحين أقبل « بين » عليهما سقطا على عنقه وقبّلا وجنتيه كلتيهما . ثم إنه نهض بقامته البالغة خمسة أقدام واربعة إنشات وهتف :

— « أيها السادة ، لنشرَبْ على كرامة الجمهورية ! »

وشربوا نخب الجمهورية — جمهورية فرنسة ، وجمهورية أميركة ، وجمهورية العالم كله ، و « بين » جاثم على كرسي ، يصيح :

— « أصيخوا لي ، يا أصدقائي ، يا رفاقي الطيبين ، أنا سكران — سكران ولكني مُلْهَم . لقد قلت مرة ، ولم يكن ذلك منذ وقت بعيد ، أعطوني سبع سنوات أعانْ لكم استهلال عهد الاخاء البشري ! يا أصدقائي ، أقول خمس سنوات وبعدها تحمل جيوش فرنسة المجيدة وجيوش الولايات المتحدة الأميركية المجيدة راية الحرية إلى كل دولة وإلى كل شعب على ظهر الأرض ! لقد رأينا حتى الآن الكلاب البروسيين يولون الأدبار كالخنازير ، ورأينا جورج ملك انكلترة البدين الأبله يرتجف على عرشه ، ولويسكم أنتم يتنازل عن عرشه للشعب ! أيها الرفاق : من يستطيع أن يذكر أمراً لا تقوى المعجزات على تحقيقه ؟ إشربوا معي نخب صديقي الطيب ، نخب صديقي القديم ، خير الرجال وأخلص الاصدقاء ، جورج واشنطون الفيرجيني ! »

وشربوا معه نخب واشنطون ، ولكنّ « بين » كان من السكْر بحيث سال نصف البراندي على ذقنه . وحين عزفت فرقة الموسيقى العسكرية

أغنية « يانكي دوديل » كرةً أخرى ، راح يذرع الغرفة في خيلاء ، مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال – ومع ذلك فقد كان مشهده ، وهنا موضع عجب – لا يثير السخرية ، ولا يبعث على الضحك حتّى من جانب السكارى ، ولكنْ يوقع في النفس إعجاباً مشفقاً برجلٍ كان في يوم من الأيام ينعم بأسمى التعظيم ، ويشقى بأفظع الأهمال .

•

كان خائفاً من نفسه ، ولقد خاطب ذاته يوماً بقوله :

« توم بين الذي لم يخف قطّ إنساناً أو وحشاً في أرض الله الخضراء أمسى اليوم خائفاً مخلوع الفؤاد ! »

وإنما كان خائفاً لأن جسده كان مرهقاً مستنكفاً يغذّ السير نحو الشيخوخة ولأن حلمه بأن يسود الاخاء الانساني العالم كله كان في سبيله إلى أن يغدو أكثر نفاسة وأكثر حقيقيّةً من الواقع . وكان يُكره نفسه على السير عبر شوارع باريس الضيقة المرقعة ليقصد إلى الدكاكين والمحترَفات ، ومع ذلك فلم يكن في ميسوره أن ينشئ صلة نسبٍ مع المواطنين . كان يقول لهم : « توماس بين » وكانوا يبتسمون في ابتهاج ، ويصبون له الخمر ، ويقطعون النقانق ، ويقدّمون الخبز . وكان ذلك كله بادرة كريمة منهم ، لأنهم كانوا على شفا الجوع والمسغبة . فما كان ليأكل إلا قليلاً ، فيما هم يقذفونه بفرنسيتهم الباريسية في سرعة بالغة جعلته لا يفهم غير كلمة واحدة من كل عشر كلمات .

كانوا أناساً طيبين ، أناساً بسطاء ، معجبين بسلطانهم لأن سلطان الشعب الكادح كان شيئاً جديداً على العالم ، ولكنهم كانوا شعباً طيباً ، قوياً ، سليماً . ومع ادراكه لهذا كله من غير ما تحفّظ فلم يكن في ميسوره أن يضع ثقته فيهم – كما قد وضع في يوم من الايام كامل ثقته ،

وحياته ، وأحلامه بين أيدي رجال الحرس الوطني الاميركيين البالي الثياب . كان التغيّر قد طرأ على نفسه هو . لقد خشي فوضوية الشعب ، وانتهى إلى أن يؤثر نظامية الطبقة الوسطى . لقد عرف ذلك ، وما كان في ميسوره أن يصنع شيئاً في هذا المضمار . كان يلتمس النظام ، وكان يستشعر الشيخوخة التي تستعجل الزمن . كان يريد نظاماً جمهورياً عاجلاً يَنضوي تحت لوائه بلدٌ بعد بلد ، في طول العالم وعرضه .

ولم يكن في يوم رجلاً يقلقه الاله أو ينكبّ على اداء فروض الصلاة . كان موقفه من الدين انفعالياً ، فهو يؤمن ايماناً متقداً باله لا سبيل إلى تحديده ، إله يفيض حباً للانسان ولجميع الكائنات الحية إلى درجة جعلت « بين » لا يجشّم نفسه عناء البحث عن طبيعة ألوهيته . كانت مهمة « بين » مقصورة على هذا العالم . وإذ كان يحيا ضمن دائرة من الملحدين واللاأدريين ، ههنا وفي أميركة سواء بسواء ، فقد كان لا يكفّ عن الابتسام كلما حمي وطيس الجدل في مسألة الدين . كان إيمانه فوق الطقوس ، وكان فوق المناقشة .

ولكنه صلّى الآن ، ملتمساً لنفسه العذرَ بأدراكه انه غدا شيخاً كبيراً . لقد لاح له الموت من بعيد ، ولكنه ما كان يريد أن يموت . إنه لم يكد يبدأ ، وإن الموت لأصعبُ ، أصعبُ الف مرة ، مما كان يظنه في أيّ وقت من الأوقات .

●

ووفد « كانيه » ، مُريد « مارا » وتابعُه الشاب ، على منزل « بين » وقال له بانكليزية بارعة :

— « هل تَعتبر وقاحةً ان اتحدث في أمور ليست من شأني ، يا مستر بين ؟ »

وأعجب « بين » بالشاب ، وصبّ له بعض البراندي ، وأومأ لـه برأسه ان يمضي في ما هو بصدده . فقال كاتبه :

— « لقد قرأتُ كل سطرٍ من سطور كتبك . »

— « نعم ... »

— « واني لخليق بأن أموت غداً قرير العين إذا ما قُدّر لي أن أعمل أو أكتب ولو جزءاً صغيراً مما كتبتَ وعملت ... »

وشكره « بين » مغمغماً . وكانت عينا الفتى مركّزتين عليه .

« ... وهكذا ترى اني احترمك ، كما أحب أميركة — هل تعتقد يا مستر « بين » أننا في مستهل عصر المواطنين ؟ أنا أعتقــد ذلك . أنا أعتقد ان فرنسة لن تستطيع أن تفـي أميركة دَينها ابد الدهر ، وأرجو أن يكون ثمـة دَيْن من النـاحية الاخرى . كذلك أقــول يا مستر بين إن العــالم لن يستطيـع أن يفي « توماس بين » دَيْنه أبد الدهر . »

وتبسم « بين » وقال :

— « هل هذا كل شيء ؟ »

— « ليس كل شيء . ما الذي حصل لرجل ... » قال الفتى ذلك وتردّد وقد ازعجته الافكار التي كانت تحتشد في ذهنه . ثم استطرد قائلاً :

— « ماذا حصل لتوم بين ؟ — إذا كنت أغضبك فقاطعني ، إقذف بي إلى الخارج ، قل لي إن هذا ليس من شأني . »

— « تابع حديثك ، » كذلك قال « بين » وهو يعي وعياً بائساً أن الشباب ، الشباب الحارّ المهتزّ قد فارقه إلى الأبد . وان ههنا غلاماً حدثاً يقول لتوم بين ما يعلمه توم بين علم اليقين ، ولكنه يخشى أن يعترف به لنفسه .

— « ما الذي دهاك ؟ في فيلادلفيا ، كنت مـع الشعب . وفي أميركة — مَنْ غيرُ الشعب انشأ حرسكم الوطني ؟ من غيرُ الشعب

جاع ومات في فالي فورج ، ومزّق عند « تل بانكر » حُلمَ الأمبراطورية شرّ ممزّق ، وعلّم العامة كيف تقاتل في الحقول الخضر بين كونكورد ولاكسينغتون ؟ هل نسيت ؟ هل كان ثمة أصحاب مصارف خلف الجدران الحجرية في كونكورد ؟ هل قضى التجار الاثرياء نحبهم في مونماوث ؟ هل زحف أصحاب مصانعكم ومالكو سفنكم المترفون من فيلادلفيا لنجدة واشنطون بعد ان عبرَ نهر ديلاوار أم كان الذين زحفوا رجالاً بسطاء ، فلاحين وعمالاً ومستخدمين وأصحاب حوانيت صغيرة ؟ »

فقال « بين » في صوت أجشّ :

— « أذكُرُ ذلك . إمضِ في ما تريدُ ان تقوله . »

— « واذن فهل نختلف عنكم إلى هذا الحد ؟ أيكون سبب ذلك اننا فرنسيون ؟ أيكون سبب ذلك أن حرسكم الوطني صد الخنازير الألمان نصفَ عراة ، في حين صدّهم حرسنا الوطني وعلى أجسادهم قمصان زرق وفي أقدامهم أحذية خشبية ؟ أيكون من حق مجزرتكم التي دارت رحاها في بوسطن ان تحظى بالاعجاب في حين يُزْدَرى هجومنا على الباستيل واحتلالنا إياه ؟ استحلفك بكل شيء ، يا مستر بين ، تعال الينا ، تعال إلى الشعب ، ولسوف يستقبلك الشعب بأذرع مبسوطة . أنشيء العالم وإلاّ فلن يكون ثمة عالم يُنشأ طوال مئة عام أخرى ! »

وحدّق « بين » إلى الفتى في نكد ، وقد أطبق كفيه إطباقاً محكماً ، وأمال جسده القويّ إلى أمام .

وقال ... بعد لحظة :

— « ليس من فائدة ، أليس كذلك ؟ انك لا تستطيع التخلي عن اصدقائك الجيرونديين ، عن أصحاب المصارف والتجار وجميع الرُسُل القائلين بمنتصف الطريق ، وبالتحررية التي تخشى الشعب . »

فأجابه « بين » :

— « لقد اجتزتُ السنّ التي تمكّنني من الاستمتاع بالفوضى . نحن

نقاتل جيشاً نظامياً ، والشعبُ ليس منظمةً من المنظمات . إنــه غوغاء . والغوغاء لا تصنع الديموقراطية . الغوغاء تتطلّع إلى شــيء يقودها ، وإذا ما كان المرء بارعــاً جداً استطاع ان يقودهــا إلى فم الشيطان . »

– « أهذا كل ما عندك ؟ »

فحنى « بين » رأسه وقال :

– « هذا كل ما عندي . »

•

حسناً ، لقد قضي الأمر ، وعرف « بين » موضعه . كان يخطو في سبيله إلى الهرم . وإنه لخليق بأن يواصل الكفاح والنضال . فبطريقة ما ، لم تعد الاشياء لتهمّه بعد الآن – ولقد كاد يأخذه الاسف لعدم بقائه في انكلترة ، كما فعل جوردان . لقد حُوكم جوردان وعُوقب وألقي به في غياهب السجن . في حين فرّ المؤلف الذي نشر كتابه ، وأطلق ساقيه للريــح .

وكان « بين » أشدّ حزناً وأمعن في الهرم عندما وقف كرة ثانية في قاعة « المؤتمر الوطني » . كان الموضوع المطروح للمناقشة ما إذا كان ينبغي إرسال الملك إلى المقصلة أم الاكتفاء بسجنه حتى نهاية الحرب ليُصار بعدُ إلى نفيه من فرنسة إلى الابد .

وبالنسبة إلى « بين » ، كان الوضع معقداً ذا وجوه عدة ، وما كان في ميسوره أن يقرّ المنطق البسيط الذي صدرت عنه الجماهير الباريسية – أن الملك كان خائناً واذن فينبغي أن يموت . وحتى لو استطاع أن يقرها على أن الملك خائن – ولم يكن للملوك علــى الخصوص وللارستوقراطيين على العموم في الثماني عشرة السنة الماضية

عدو أعظم وأكثر مرارة من توم بين — حتى لو أقرّها على ادانته فما كان ليرى أن يكون الموت عقوبته . كان يعلم أن شيئاً في داخله قد تصلب وتباطأ ، أن النار القديمة قد خمدت . فاذا به وهو الذي كان يود لو يرى حبل المشنقة يلتف حول عنق كل رجل من رجال حزب المحافظين ، يتعلق الآن بقشة العقل الواهية . إن الملك لم يخن القضية التي عاش لها . لقد قال يوماً . « نحن فرنسة ! » وهو لم يخن هـذه العبارة قطّ .

وقال « مارا » :

— « يجب أن يُستأصل كما تُستأصل النبتة الخبيثة ! »

وطالب « بين » بالعدالة ، بأن يسجن الملكُ الآن ليصار إلى محاكمته في ما بعد . وألمعَ إلى أن جورج واشنطون ، الذي كان ينعم بأعظم التوقير في أميركة ، لا يستطيع أن ينسى ما يُثْقل ظهر المستعمرات من دَيْن عظيم للملك فرنسة .

وقال « بين » متْعَباً :

— « وبدون أميركة ، إلى أيّ حد نستطيع أن نمضي ؟ وإذا كان الناس يتطلّعون إلى إخاء بشري فهل يكتفون برؤية الدم يُسفح ويُراق ؟ »

ونوقشت القضية في قاعة « المؤتمر الوطني » طوال ستّ وثلاثين ساعة . والحقّ أن فرنسة لم تعرف في تاريخها الطويل كله مثل هذه الدراما ضخامةً وحدّة وفظاعة لا لأن حياة الملك كانت رهناً بالتصويت النهائي ، بل لأن سير الثورة في المستقبل كان هو نفسه رهناً بهذا التصويت . ولقد كان واضحاً منذ البدء أن الجيرونديين لا يستطيعون ان يتراجعوا ، وأن عليهم أن يناضلوا ، في هذه اللحظة الحاسمة ، لضَبْط الثورة والسيطرة عليها . وفي كآبة ، قال كريستياني ، وهو رجل وديع ، لطيف كامرأة وعضو شبه مغمور في الحزب ، موجهاً الخطاب إلى « بين » :

— « من العسير على المرء ان يموت من أجل شيء لا يكاد يؤمن

به – ولكنْ اشدّ من ذلك عسراً أن يطرح الشبهةَ الأخيرة . إن بائساً مثل لويس ، الذي يُعتبر موته خيراً من حياته ، ليمسك بمصير الانسان حول عنقه البدين . وهذا ما يجعل المرء راغباً في أن يضحك على حياته . »

فاحتجّ « بين » وقال :

– « أنت لستَ رهنَ المحاكمة . »

– « آه ، ولكننا جميعاً رهن المحاكمة ، من غير ما استثناء . »

وقُدّمت إلى « بين » في قاعة المؤتمر الوطني رسالةٌ غُفْلٌ جاء فيها :

« أيها المواطن ، نستحلفك بكل ما كنت تعتدّه في يوم من الايام عزيزاً غالياً ، أن تقف إلى جانب شعب فرنسة . »

ومثل رجل متوحّد تائه ، استمع إلى مناقشات النواب الصاخبة . إن المرء لا يفهم . إنه ليجلس ، واضعاً مرفقيه على ركبتيه ، محتضناً ذقنه بيديه . وإنه ليستشعر الوحدة وأن كل ما يملكه لا يعدو أن يكون ذكريات . إنه ليقول لأيرين روبردو : حيث لا حرية فثمة بلادي . وإنه ليضع ذراعه بذراع بيل وماتلاك ويمشي معهما كما يمشي الأصدقاء الطيبون . ثم كان الشباب والنار والامل ، ولم يكن ثمة تطفل من ريبة أو شك . إنّ المرء ليذكر ، ويحلم ، حتى إذا أفاق من حلمه وجد نفسه في قاعة المؤتمر الوطني في باريس الثورية .

وحين سمع اسمه في غمرة من ذلك اللسان الأجنبي الرخيم المتسارع على نحوٍ متهوّر أمسك بذراع بانكال العجوز الذي كان جالساً أمامه وسأله :

– « ماذا يقولون ؟ »

وكان دوفال قد انتهى من خطاب ألقاه منذ لحظة . وترجم بانكال :

« إن « توم بين » رجل لا يأتيه الشك بحال . هذا شيء لا يختلف فيه اثنان . وعلى غرار هذا الرجل ، ابن الشعب ، عدوّ الملوك والارستوقراطيين

اللدود منذ زمن طويل ، والمدافع عن الحرية الجمهورية – على غرار هذا الرجل أعطي صوتي لوجهة النظر القائلة بسجن الملك مدى الحرب ثم إبعاده من البلاد بعد الصلح . »

ولم يكد « بين » يسمع صوت بانكال وسط الضجة الغامرة التي عقبت كلمة دوفال ، ولكنه رأى الدموع تترقرق في عينيه ، ورأى كيف وقف دوفال في غمرة الهرج والاضطراب .

وحين طرحت القضية على التصويت صوّتت الاغلبية لاعدام الملك :

•

ووفد أصدقاء لافاييت ، ونفرٌ من الرجال الذين كان لهم في أميركا أنسباء ، والمقربون الى « بين » – وفدوا عليه وقالوا :

– « في استطاعتك ان تقوم بذلك ، لأنك توم بين . »

– « لأنه حين نسقط فلن يكون ثمة غير الفوضى . »

– « لأنه عندما يموت لويس فمعنى ذلك الحربُ مع انكلترة . »

– « لأن لويس هبّ لنصرة أميركة يوم كانت في حاجة الى نصير . »

وكانت خطتهم – خطة كوندورسيه ورولان وبريسّو – تقضي بأن ينهض « بين » في قاعة المؤتمر الوطني ويناشد نواب الامة الابقاء على حياة الملك . كان توم بين هو وحده القادر على النهوض بهذه المهمة ، من دون النواب جميعاً .

وبرغم حججهم كلها ، رأى « بين » ان حياة الملك لا تعني شيئاً . لقد انشقت الثورة الفرنسية بين الجيرونديين واليعقوبيين ، بين اليمين والشمال ، وكان في الوسط صانع مشدات عجوز كان اسمه المجد .

وقال « بين » في تعاسة :

– « أنا لا أحسن الكلام بالفرنسية . »

— « بانكال سوف يترجم . الشعب سوف يستمع الى بانكال ، ويستمع الى « بين » في وقت واحد . »

فقال « بين » في مرارة :

— « أريد أن أقنع نفسي بصوابية المسألة . »

— « يكفي ان تتذكر ما صنعه لويس لأميركة . »

ولم تخفَ على « بين » حقيقة أغراضهم ، ولكنه أدرك ان ثمة صدقاً في ما يقولون : ففي ساعات الحرج والضيق انتصر ملك فرنسة للاميركيين. ووافق « بين » .

وحين اعتلى « بين » المنبر في اليوم التالي ران الصمت على القاعة وتسمّرت العيون على هذا الرجل الذي كان اسمه مرادفاً للحرية والاخاء: كان هو ، على الاقل ، ملكهم ، لا مناصَ من ذلك ، وكان رمزاً لكل ما قد حاربوا من أجله . كان هو « بين » .

ثم إنه تكلم من خلال بانكال ، والتزم هو الصمت . ولكن في كبرياء يائسة أثارت تدخل مارا ومقاطعته الهائجة . وحتى بعد ان اتضح للقوم ما كان يريد ان يقوله لم تصفّر النظارة له ولم تفحّ . كان هو توم بين . وختم كلامه قائلاً :

— « أيها المواطنون ، لا تسمحوا لطاغية انكلترة بأن ينتشي نشوة النصر اذ يرى الرجل الذي ساعد أميركة الحبيبة على تحطيم سلاسلها يموت على المشنقة ! »

ولم تُجدِ كلمات « بين » . كان المؤتمر الوطني قد اتخذ قراراً باعدام الملك ، وفي ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ اتخذ لويس ملك فرنسة سبيله الى المقصلة .

●

ثم تغيّر العالم ، وتخطّته الثورة مسرعة . فبعد أيام قلائل انقضت

على اعدام الملك أعلنت دول أوروبة كلها تقريباً ، وفيها انكلترة،الحرب على فرنسة . وفيما كانت الجيوش المعادية تتخذ استعداداتها وراء الحدود كان الجيروندیون واليعقوبيون يختصمون ويقتتلون داخل جدران مدينة باريس .

وأبدى « بين » رغبته في أن يقصد مع جيوش الثورة الى الحدود . ولكن القادة العسكريين تبسموا في وجهه ، وأجابوه وقد أساءوا فهمه :

— « لقد بلغت سناً لا تمكنك من القتال في الميدان . »

فقال لهم في بطولة :

— « ان الجيش يحارب بأكثر من البنادق . »

ولكنهم رفعوا حواجبهم وضحكوا .

ثم انه عهد اليه ، مع نفر آخرين ، في وضع رسالة الى شعب انكلترة . فقال :

— « مجرد رسالة ؟ وهل تنجح هذه بعد ان أخفقت جميع خططي وأعمالي ؟ »

— « ذلك ما أنت مؤهَّلٌ له . »

— « هذا فقط ... »

وكتب بمثل الحرارة التي كانت تُلهب كتاباته دائماً ، صائغاً رسالة لن يُقدَّر لتسعة وتسعين بالمئة من أبناء الشعب الانكليزي أن يقرأوها أبد الدهر . وأفادته الكتابة ، وشغلته . ولكنها لم تُجب عن أي من الشكوك التي كانت تتأكله .

وسأل نفسه :

— « أأترك فرنسة ؟ »

ولكن ماذا بعد ذلك ؟ لأي غرض يحيا بعد ذلك ؟ لقد نسي صناعة المشدات . إنه اليوم ثوريّ . ذلك ما كان يعرفه؛ كل ما كان مؤهلاً له. لا . لم يكن في طوقه أن يترك فرنسة . ما دام ثمة أمل للثورة ، ما

دام ثمة أمل في أن ينسى الجيروندیون واليعاقبة خلافاتهم فترة من الزمان تمكّن فرنسة وتمكّن الجمهورية من الحياة . ولكنّ تعاقب الايام لم يزد الشقة الا تباعداً . وكانت حالة جديدة قد نشأت ، هي كراهية الشعب للطبقة الوسطى ، وخوف الطبقة الوسطى من الشعب .

ووزّعت البنادق أكثر فأكثر على شعب باريس . والى جانب كراهية « بين » النامية لمارا وحزبه نشأت في ذات نفسه كراهية متعاظمة للجيروندیين الذين كانوا خليقين بأن يدمروا الثورة قبل ان يتراجعوا إنشاً واحداً .

كانت هذه أياماً قاتمة ، مشى توم بين فيها وحيداً .

•

وفي وحدته تلك كتب الى مارا ودانتون ، متوسلاً . أما دانتون فأهمل الردّ على رسالته . ذلك بأن سحابة ثقيلة من الخوف كانت تخيم على باريس ، وكان دانتون المتطلع بين الفينة والفينة بنظر شزرٍ الى ديكتاتورية الغوغاء قد أخذ يتلمس عنقه في احتراس . وأما مارا فانفجر في وجه سان جوست :

ــ « ما من رجل يدري متى ينبغي ان يموت ! أنا متعبٌ من « بين »، متعبٌ حتى الموت . هل يفكر ان الثورة مقطّرةٌ ، كالعطر ، من الزهور ؟ »

فابتسم سان جوست وقال :

ــ « لقد شككتُ في أن « بين » يفكّر . »

ــ « حسناً ، أنا متعبٌ منه . »

وفي وحدته تلك صلى « بين » لله . إن الرجل لا يصلي في سهولة ويسر حين يكون مثل « بين » ، حين يكون قوياً وتكون يداه عريضتين ،

حين يكون ذا عقل وقلب وازدراء وبغض لاولئك الذين جعلوا اسم الله خزيَ القرون والاجيال . إن الرجل يترك الله وشأنه ويلتفت نحو الناس محاولاً ان يعمل ما هو حق . ولكن « بين » كان شيخاً ومتعباً . فصلى في خجل : « إمنحهم الفهمَ وحسن التمييز . »

وفي وحدته تلك قال « بين » للجيرونديين :

– « أظهروا إخلاصكم وحبكم لفرنسة وللجنس البشري وعندئذ أقود الشعب اليكم . »

وأظهر الجيرونديون اخلاصهم بعمل من أروع أعمال الغدر التي تورطوا فيها طوال تاريخهم .

كان ثمة فتى انكليزي أزرق العينين مشبعٌ بالاحلام يدعى جونسون، وكان من دأبه ان يتبع « بين » في الايام الاخيرة حالماً بأن يكتب سيرة حياته في يوم قريب . ولم يكن جونسون يتمتع بحظ وافر من سلامة العقل . كان يرى نفسه فارساً صليبياً ، وكان يرى نفسه كذلك رجلاً ثورياً ، وليس تنسجم الصورتان . ولقد نظم شعراً رديئاً ، ووقع في غرام فتاة فرنسية .

وكان عشقهُ رديئاً كشعره ، وكان على « بين » ان يستمع في صبر بالغ لكلٍّ منهما . ولم تكن الفتاة على مثل ذلك الصبر ، وكانت تضحك من جونسون في بعض الاحيان ، وخاصةً حين كان يحدثها عن استعداده للموت في سبيلها ، أو لقتل أيما شخص يُقحم نفسه بينهما .

وقالت له مرةً :

– « أنت لن تموت من أجلي ، يا مجنوني الصغير . واذا كان ثمة شخص آخر ، فهذا من شأني وحدي . »

وكان ثمة شخص آخر ينتمي الى اليعاقبة . ومن جراء ذلك كوّن جونسون خوفاً غير سويٍّ وكراهيةً بالغة لذلك الحزب اليساري . وحين أعلمته ، بأقصى ما تستطيع من الترفق والتلطف ، أن كل ما بينهما قد

انتهى وفد على «بين » وسبّ مارا وحزبه كله بوصفهما مصدراً لكل علة وبلاء .

ولم يأبه « بين » للمسألة ، حاسباً ان شيئاً ما لن يتمخض عنها . ولكن جونسون ما لبث ان حاول الانتحار بعد أن راودته تلك الفكرة أياماً عديدة . وانما اصطنع من أجل ذلك سكيناً ، غير عالم بمقدار القوة والتجلّد اللذين يقتضيهما استعمال مثل هذه الاداة البدائية ، فلم يزد على ان جرح نفسه جرحاً بليغاً .

بيد أنه قبل إقدامه على تلك المغامرة كتب رسالة الى « بين » يُنحي فيها باللائمة على مارا .

واستبدّ الجزع بـ « بين » . حتى اذا علم بأخفاق المؤامرة أطلعَ بريسّو على الرسالة قائلاً :

— « لقد عمل « مارا » أشياء كثيرة ، ولكني لا أستطيع ان أحمّله تبعة هذا الحادث . »

ففكر بريسّو وقال :

— « ومع ذلك فاذا توفي ... »

وبهذه الحجة السخيفة الواهنة ساق الجيروندبون مارا الى محكمة الثورة . وانما كان ذلك آخر اماضة التمعت في عهد قوتهم القصير ، بل كانت الاستهلال الذي طالما تاق مارا اليه . ومثل مارا أمام المحكمة ، ومزّق التهم إرباً إرباً ، واقفاً في كبرياء لم يتكشّف عن مثلها من قبل ، جاعلاً من نفسه رمز الغضب العادل يتفجّر به شعبٌ عادل .

وكان الجيروندبون قد تجاوزوا حدود أنفسهم — وهكذا بدأت النهاية.

ولم يستطع « بين » ان يفعل شيئاً غير التنهّد في إرهاق :

— « المجانين — أوه ، المجانين التعساء الجهلة ! »

●

وفي فجاءة مريعة وقعت نكبة الجيروندين . فلم يكد « بين » يقول لبريسّو ذات يوم :

– « في النهاية ، لن يكون اليعاقبة هم الذين سيدمرون فرنسة الجمهورية ، ولكن أنتم . اني استحلفكم بكل عزيز عشتم من أجله أن تعقدوا الصلح معهم . هل تبغض مارا أكثر مما أبغضه أنا ؟ أقول لك . إن الجمهورية تحتضر . »

لم يكد « بين » يقول ذلك لبريسّو حتى انتهى كل شيء في اليوم التالي .

كان الجيروندبون كمن يتخبطه الشيطان من المسّ . انزلوا ضرباتهم في كل مكان ، ولكنهم عجزوا عن تحقيق شيء ما . لقد اعتقلوا اليعاقبة ، وحرّموا الاجتماعات ، ووزّعوا التهم . وعندئذ جمع شعب باريس بنادقه العتيقة وشرع يتجمّع ويتحفّز . كانت ههنا فيلادلفيا جديدة وعلى نطاق أوسع جداً . ولكن « بين » هذه المرة كان يعاني مرارة اليأس والخذلان . هذه المرة لم يتذكر الناس « بين » ولم يفزعوا اليه . كان غيظهم منصباً على الجيروندبين . ولو قد أشار أحدٌ الى أن « بين » كان القلبَ النابض لهذا الحزب إذن لاكتفوا بهز أكتافهم . ووقف اثنان وثلاثون ألفاً من المتطوعين الى جانب بنادقهم العتيقة في طول المدينة وعرضها . وطوال ساعات النهار هاجمت الوفود قاعة المؤتمر الوطني مطالبة باعتقال الجيروندبين الذين خانوا الثورة . وأخيراً أجّل المؤتمر الوطني المرهق المروّع جلسته ، وغادر النواب الجيروندبون القاعة ، واحداً اثر واحد ، وقد حنى اليأس كواهلهم ، وسدّت عليهم الغوغاء الهائجة الصائحة سبيل المرور . ولكن ما إن خرج «بين » حتى ران الصمت لحظة من زمان ...

ولم ينم أحدٌ تلك الليلة . لقد قصد النواب الجيروندبون إلى منازل بانكال ، ودوفال ، وكوندورسيه ، وبريسو ، وغوواديه ، وأقاموا هناك

حتى الضحى ، وهم يستعيدون الأحداث التي وقعت ويتذاكرون في ما يمكن ان يقع عند منبلج الصباح . وقد بلغ الامر ببعضهم حداً جعلهم يقترحون على القوم الانتحار .

وقال « بين » في كآبة :

— « على أي الحالين ، لقد ماتت الجمهورية . غداً ديكتاتورية الغوغاء ، وبعد غد الفوضى — وبعد ذلك كله شيء لا يعلمه الا الله . »

وحقق صباحُ اليوم التالي مخاوفهم . ذلك بأن عدد الباريسيين المسلحين المحتشدين كان قد تعاظم حتى لبلغ مئة ألف رجل تقريباً وكانوا قد ضربوا نطاقاً أسود غاضباً على قاعة المؤتمر الوطني ، فاذا بالنواب ، الذين ما كانوا يعلمون علم اليقين أين ستقع الفأس ، يصدرون القوانين وفقاً لرغبة الشعب . وطُرِدَ الزعماء الجيرونديون من المؤتمر الوطني وألقي عليهم القبض . لقد ماتت الجمهورية الفرنسية ، وتغلب فقراء باريس الغاضبون الجائعون على الطبقة الوسطى . وتحوّل نهر الثورة الى مجرى غريبٍ خطِرٍ لم تعهده من قبل .

●

ومع ذلك فقد تركوا « بين » وشأنه . وكان « بين » — الجيروندي أو على الاقل صديق الجيرونديين — لا يزال « توم بين » الذي انحنى في وقت مضى الى الحمأة المتمرغ فيها الجنس البشري منذ أجيال وأجيال ، والذي أعلن ميلاد الحرية . وحتى الباريسيون ، أصحاب الدكاكين والمصانع والمناسج والمقاعد الخشبية ، حتى الفقراء الذين كانوا يكرهون الجيرونديين أعظم الكره ، لم يرفعوا إصبعاً واحداً ضد « توم بين » .

وراح يذرع الشوارع وحيداً صامتاً . كانوا كلهم يعرفونه ، كانوا يعرفون أنفه المعقوف ، وعينيه الملويتين ، وكتفيه العريضتين المتحدرتين ، ويديه الريفيتين الكثيرتي اللحم . كان هذا هو عرّاب الثورة . كان

هذا هو الرجل الذي سبق ان أيقظ الجنس البشري من سباته ، في مكان ما من المجاهل الاميركية ، عبرَ ثلاثة آلاف ميل من الحواجز المائيـة . ولأنهم عرفوا ذلك ، حاسنوه ولم يُبدوا نحوه قسوة ما ، ولم يقذفوه بأيما ضرب من ضروب الاهانة كفعلهم مع الجيرونديين . انهم على العكس كانوا يوجهون اليه بين الفينة والفينة كلمة من الكلمات الكريمة ، مـن مثل : « صباح الخير ، ايها المواطن . » و « المشهد يبدو مختلفاً ، ايها المواطن ، أليس كذلك ؟ » و « أنت معنا ، أيها المواطن . لقد أسقطنا الخونة ، وها أنت ذا الآن معنا ... »

ومتى لم يكن معهم ؟ كذلك سأل نفسه . إن قوتهم الصغيرة البائسة قد تمزّقت وانقلبت الى فوضى ، فاذا الجمهورية قد ماتت ، واذا بأحلامه قد ماتت معها .

وحارب الأرق بزجاجة من البراندي . ووطّن النفس على أنه اذا ما وفدوا عليه لاعتقاله فلسوف ينهض فيهم قائلاً : « أنا المواطن تـوم بين » ويكتفي بالتطلّع اليهم . ولكنهم لم يفدوا عليه لاعتقاله . لقـد سمع بأن القوم في انكلترة كانوا يأتون بقطع نحاسية نقشت على وجوهها صورته ويعلقونها بنعال أحذيتهم ، لكي يكون في ميسورهم ان يمرّغوه بالوحل . ولكن هذا أيضاً حاربه « بين » بزجاجة من البراندي . لقد شرب ، وشرب ، وشرب . وطوال عشرة أيام فقدَ كل سيطرة على نفسه فهو لا يقدر على أكثر من الهبوط الى الحانة طلباً لمزيد من البراندي ، بعد ان قال له النادل في فندق هوايت :

— « أنا مستعدٌ أن أبيعك ما تريد من خمر ، ولكني لا أريد أن أثقل ضميري بمسؤولية موت توم بين ! »

وصحا من سكره ذات يوم فاذا هو فريسة للرؤى المزعجة . واستيقظ في موهنٍ من الليل صائحاً مُعولاً . وحين قال له جاكسون ، وهـو أحد البريطانيين النازلين في الفندق : « إكراماً للمسيح يا « بين » . أنت

تقتل نفسك ! » أجابه قائلاً :

– « لقد آن الأوان ، أليس كذلك ؟ لعنها الله ، لقد آن الأوان ! »

ثم انغمس في حمأة السكر من جديد ، يوماً بعد يوم ، متقيئاً ، مريضاً ، مشاهداً أشياء لم تكن وأشياء كائنة ، متطاول اللحية ، قذراً ، جاراً نفسه حول غرفته قائلاً :

– « أين تلك الزجاجة الملعونة ؟ أين تلك الزجاجة الملعونة ؟ »

وأقام على هذه الحال نحواً من ثلاثين يوماً – حتى أخذته موجة من غضب ، غضب كان من العنف والفظاعة بحيث أصحاه من سكره فيما كان يتقيأ ويرتجف . وكانت قد بقيت لديه زجاجتان من البراندي فضرب بهما الارض وسحقهما سحقاً . وذرع الغرفة جيئة وذهوباً ضارباً راحة احدى يديه بجُمع الأخرى ، مخاطباً نفسه في صوت هادىء بارد :

– « ايها المجنون ، ايها الملعون ، ايها المجنون الملعون ، إنها ليست غير البداية . لقد طلبتَ سبع سنوات ، وحتى لو انقضت سبعون ، فلسوف تظل هي البداية ليس غير . ايها المجنون ، القذر ، الملعون ، السكّير ، الخامل الذهن ! »

الفصل الثالث عشر

عصر العقل

إن الثورة لتمضي في سبيلها . ان المرء لا يصنع الثورة ، بل ليس يصنع الثورة لا ألف من الرجال ، ولا جيش ، ولا حزب . ذلك ان الثورة تنبثق من الشعب حين يقترب من الله ، وان في كل انسان لأثارة من الألوهة ، وليس في ميسور أحد ان ينسى هذه الاثارة . ومن هنـــا تكون الثورة حين يحرّك الارقاء اغلالهم ؛ وتكون الثورة حين ينحني رجلٌ قويّ نحو رجل ضعيف ويقول : « هي ذي ، أيها الرفيق ، ذراعي . » إن الثورة لتمضي في سبيلها وليس من شيء يستطيع ان يوقفها . ولكنْ لأن الناس يلتمسون ما هو خير ، لا ما هو شرّ أو قويّ أو وحشيّ ، أو غنيّ أو خسيس تجدهم يتخبطون في دياجير الظلام ، فلا يكادون يجوزون ديجوراً حتى يتلقفهم ديجور.ان الناس ليسوا أكثر ألوهية مما كان عليه حكامهم في الايام السالفة ، ولكن الفارق بينهما هو في النية والقصد.

عرف « بين » بعض هذا ، أو كل هذا . وعرف أنه لم يكن هو الثورة ، بل رجلاً ليس غير . فعلى هذه الارض لا يوجد آلهة ،ولكنْ يوجد رجال . ولقد اقتضاه فهمُ هذه الحقيقة دهراً طويلاً .

كان وجهه أشدّ شحوباً ، وكان جسمه أكثر نحولاً ، وكان منكباه العريضان أمعن في الانحدار حين دخل قاعة المؤتمر الوطني كرةً أخرى. انهم لم يحاولوا اعتقاله . ولقد قال « مارا » ذات يوم : « دعوه يفرّ . دعوه يذهب الى الشيطان ! » ولكن « بين » لم يفرّ . وها هو ذا الآن يعود محكماً إطباق شفتيه فيما هو يوسع الخطى الى مقعده عبر ألفٍ من العيون المسمّرة عليه .

وسرت وشوشة وهمهمة ، وارتفعت أصوات متعددة حين عاد « بين ». كان النواب والنظارة جميعاً يريدون أن يروه ، أن يروا الى المجنون الذي يتخذ سبيله عائداً الى فم الاسد البارز الانياب. ووجد « بين » مكانه ، وتمهّل لحظةً ، مجيلاً بصره من شخص الى شخص ، ثم جلس .

وقال رئيس المجلس :

— « المواطن توم بين . »

وبالرغم منهم ، دوّت في القاعة عاصفة من التصفيق . وفرك « بين » عينيه ، وحملق الى أرض الغرفة .

●

وهاجمه سان جوست ، وكان في أحسن أحواله ، صائحاً :

— « إني أتهمك ! »

فنهض « بين » من مقعده وتقدم الى الامام وسأل :

— « بمَ ، أيها السيد — بمَ تتهمني ؟ »

— « بخيانة فرنسة ! »

فقال « بين » في هدوء :

— « أنا لم أخن فرنسة في يوم من الايام . »

ومضى سان جوست في هجومه ، فاتهم « بين » بأنه كان يراسل

نفراً من الاسرة المالكة فيما وراء الحدود . فلم يكن من « بين » الا ان هز رأسه وقال :

– « أنت تتحدث الى « توم بين » ، أيها السيد . »

وحتى مقاعد النظارة ضجت بالتصفيق لدن قال « بين » كلمته تلك ؛ ثم إنه أردف :

– « إتّهمني بالنزعة الجمهورية . إتّهمني بالوفاء لاصدقائي . اتّهمني بحبِّ الانكليز والفرنسيين والاميركيين حباً لا يعرف التفاوت – ولكن لا تتهمني بالخيانة يا سيدي ، لا تتهمني بالتعاون مع الملوك . أنا لست شاباً صغيراً . انّ لي لماضياً حافلاً . وانني لن أدافع عن نفسي . »

ولم يقل سان جوست كلمة واحدة بعد ذلك .

•

وهكذا اتخذ « بين » مقعده في المؤتمر الوطني ، ولكنه انكمش على نفسه ولم يتكلم الا قليلاً . كان التاريخ يندفع بأسرع مما ينبغي ، مخلّفاً اياه في مؤخرة الموكب . كان يشهد جلسات المؤتمر لانه نائب ، ولانه كان يمارس الصناعة الوحيدة التي يعرفها . ولكن لم يكن أحدٌ الى جانبه . لقد استشعر وحدةً قاتلة – فأصدقاؤه قد زُجّ بهم في غياهب السجون ، وغيرهم ممن كان يمكن ان يصادقوه انفضّوا عنه وتحاموه لانه كان موضع ريبة الحكام . وحُشدت حقبة بكاملها في حيّز أسبوع أو شهر . ومات مارا بطعنة من خنجر شارلوت كورداي فتولى الأمر من بعده روبسبيير ، وهو رجل رقيق فرنسيّ الشمائل ، ولكنه قوي كالحديد ، عنيد كصمّ الجنادل . وكان يذهب الى أنه انساني المنازع . وقد قال يوماً لـ « بين » :

– « أنا من الشعب لاني أشعر بجميع حاجاتهم ، وجراحاتهم ، وآلامهم

ومتاعبهم . لقد كنتَ أنت من الشعب يوماً ، اليس كذلك أيها المواطن « بين » ؟ »

تلك كانت طريقته : يختار موضع الألم الأشدّ ، فيطعنه بنصاله الطعنَ الأشدّ .

وقال « بين » :

— « لقد كنت صانع مشدات ، وإسكافاً ، وكنستُ دكان حانك ، وغصتُ في القذر لقاء عشرة بنسات في الاسبوع . أنا لا أتحدث عن كوني من الشعب ... »

وكان ذلك شيئاً ما كان في ميسور روبسبير أن ينساه .

ومع ذلك ، فقد كان حاكم فرنسة الجديد رجلاً حديدياً . وكذلك كان ينبغي أن يكون . فقد كانت الجيوش المعادية تطبق على البلاد من اجميع أطرافها ، وكانت المقاطعات ترفع راية العصيان ، وكانت الثورة المعاكسة قد فرضت سلطانها ، ههنا وههناك ، على بعض الاقاليم المحلية .

وأعيد تنظيم المحكمة الثورية ، واستأنفت عملها . وبدأت تلك الفترة المعروفة بفترة الهول الاكبر .لم يكن ثمة تسوية أو رحمة ، فأما أن يكون الرجل موالياً للثورة ، واما ان يكون عدواً للثورة . وإذا ما كان الرجل موضع الريبة فعندئذ يُعتبر في عداد الاعداء . ويوماً بعد يوم ، تدحرجت العربات الخرقاء عبر شوارع باريس ، وقد أنّت دواليبها الخشبية الكبيرة وصرّت ، وانتفخت احشاؤها بضحايا جدد تستاقهم إلى المقصلة . ويوماً بعد يوم ، كانت الشفرة الكبيرة ترتفع عن دكّتها لتُرخى بعد فتقع على عنق جديدة هي عنق الملكة حيناً ، وعنق صاحب حانة حيناً ، وعنق دوق يتبسّم تبسّم الأبله حيناً ، ثم عنق قابلة كانت قد آوته وأجارته . تلك كانت الثورة على نحوٍ لم يحلم به « بين » قط . لم يكن ههنا مزارعون فارعو الطول عرفوا دائماً ان الحرية جزء من حياتهم ، ولكن رجالٌ من العامة مروّعون رأوا الحرية أول ما رأوها

منذ الف من السنين . وكانوا في سبيلهم إلى أن يقتلوا ويقتلوا ويقتلوا كل من يقف عقبة دون تحقيقها . كانت سحابة داكنة تظل باريس لدن أقبل شتاء ١٧٩٣ — ١٧٩٤ ، سحابة ملطخة بالدماء . وكان على روبسبير أن يكون رجلاً قوياً .

وفيها الرؤوس تتدحرج خسر « بين » اولئك الاصدقاء الذين كانوا يؤلفون حزب السهل ، أو الجيرونديين . ماتوا جميعاً — خونة ، أو مخدوعين ، أو ضعفاء ، أو عديمي الفهم ، أو مروّعين ، أو شجعاناً ، أو جبناء ، أو فاضلين على النحو الأوحد الذي كانوا يعرفون — ماتوا جميعاً : رولان وزوجته ، وكوندورسيه ، وبريسيو ، وبيتيون ، ولوبران ، وفيرجينيو ، وبوزو — ماتوا كلهم تحت تلك الشفرة التي كانت الباب المظلم القائم عند نهاية زقاق معتم انتهت اليه الحرية في تيهها . لتحي الجمهورية طويلاً — ولكن الجمهورية ماتت أيضاً . كانت باريس مدينة الموت .

●

كان « بين » لا يفتأ يشهد ، في هذه الاثناء ، جلسات المؤتمر الوطني : كان ذلك حتماً عليه . كان حتماً عليه أن يحمل مشعل العقل وسط هذه الظلمة الزاحفة ، وإلا لما كان في طوقه أن يعيش . ماذا دهى الناس الطيبين البسطاء ؟ ما الذي يحركهم ؟ ما الذي يسوقهم ؟ هل نسوا الرحمة والدماثة والطيبة ام ان الكهان والملوك قد دنّسوا هذه الكلمات حتّى ليتعذر عليها منذ اليوم أن يكون لها معنىً ما ؟ كان على « بين » أن يعرف ذلك .

وكان قد انتقل من أوتيل هوايت إلى منزل ريفي في ضاحية من ضواحي باريس ؛ بناء حجري وخشبي مبيّض بالكلس ، كان يخدع

عالماً متداعياً إلى السقوط ، عن نفسه . ومن نواح كثيرة ذكّر هذا المنزل الجديد « بين » بمنزل ريفي كان يملكه احد أصحاب الاطيان الانكليز بفنائه القرميدي ، وبطه ودجاجه وإوزّه وأزهاره وأشجاره المثمرة وعشبه المجفف المركوم . كذلك ذكره هذا المنزل الجديد ببنسيلفانيا . لقد بلغ من العمر سناً تجعله خليقاً بأن يتذكر أشياء كثيرة ، مكدسة كلها ، طبقة فوق طبقة ، في عقله المضطرب . وكان ينزل معه في تلك المزرعة نفرٌ من الرجال الانكليز والنساء الانكليزيات ، فيهم جونسون عينُه الذي أقدم على محاولة الانتحار المخفقة تلك ، ومستر ومسز كريستي ،ورجل يدعي مستر آدمز وكلهم راديكاليون مخذولون اطّرحوا راديكاليتهم منذ زمن ، وقذفهم تيار الثورة إلى جانب . كانوا رفاقاً لـ « بين » لا غناء فيهم ، وكانت دمدماتهم ، وشكاواهم المبهمة ، ومخاوفهم لا تنسجم بحال ومشكلته الشخصية الفظيعة .

وما كان « بين » ليأبه للموت إلا قليلاً . وبرغم أنه كان يرجو النجاة ويصلّي التماساً لها فقد كان يستشعر أن معظم عمله قد أنجز . لقد جاوزته الأشياء ، وكل ما يحسّ به الآن هو الحاجة الرهيبة إلى الاعتماد الكليّ على العقل ، في عالمٍ تسوده الفوضى وتتحكم به . وكان يجلس ، في بعض الأحيان ، ليلعب الورق مع رفاقه ، ولكن ورق اللعب لم يكن له . كان لا يزال ثمة عالمٌ وراء هذه القطع الصغيرة من الكرتون :

— « أنا توم بين » كذلك قال لنفسه وكأنما يذكرها بحقيقة غفلت عنها أو نسيتها . وانقلب إلى باريس ، فخاض غمار الثورة كرة أخرى. كان ثمة أشياء لا يزال مؤهلاً لها . وحين ينتهي الأمر إلى مسألة تتصل بالسياسة الأميركية يكون في ميسوره أن يقدم إلى اليعاقبة جميع المعلومات التي لديه . فالواقع أنهم لم يقعوا عند السفير الاميركي ، موريس ، إلا على النزر اليسير من تلك المعلومات .

كان في تقلّب الايام الذي جعل من الحاكم موريس ، خصم « بين »

الرجعي في انتفاضة «فيلادليفيا» القديمة ، سفيراً لأميركة لدى فرنسة الثورية ــ كان في ذلك ما يثير البكاء والضحك في وقت معاً . وحسبَ «بين» أنه رأى منطقاً وراء هذه البلاهة الظاهرية. فموريس الاريستوقراطي كان شاهداً حياً يثبت لبريطانية ان ارستوقراطيي سنة ١٧٨٠ و ١٧٨١ عادوا إلى تولي زمام السلطة في أميركة . وقد يقولون دفاعاً عن أنفسهم :

« يتعين علينا ذلك . فنحن دولة صغيرة جديدة ، لم ينقض على ولادتها غير أيام معدودات . وان حرباً أخرى لخليق بها أن تقضي علينا . من أجل ذلك يتحتم علينا أن نحتفظ بصلاتنا مع انكلترة بأي ثمن ــ وهذه الثورة الفرنسية ... حسناً ، أيّ شأنٍ لنا بهذه المجازر الدامية ؟ ... »

وهكذا بعثوا بموريس سفيراً إلى فرنسة ، موريس البطيءُ الكلام ، المتشدّق المتهكم الذي قال يوماً إن « بين » لم يكن لا نظيفاً ولا لطيفاً ، ولكنْ قطعةٌ من قذرٍ كُشِطت في حكمةٍ عن جلد بريطانية .

وبطريقته الخاصة ، وهي طريقة غير رسمية بالكلية ، كان « بين » ممثلاً لأميركة ، فهو يؤدي خدمات ضئيلةً وجليلةً لمواطني البلاد التي حارب في سبيلها ، مساعداً ربابنة السفن على حلّ عُقَد القوانين الثورية ، معيناً كل من يحتاج إلى عونٍ ما وجد إلى ذلك سبيلاً . كان جيمس فاربي ، مثلاً ، جندياً مرتزقاً لا غَناء فيه ، وكانت الحكومة الفرنسية قد القت القبض عليه في مؤامرة ملكية لم يكن له يدٌ فيها فهو ينتظر أن تفصل الشفرة الفولاذية رأسه عن جسده . ووفد « بين » على السجن لرؤيته وقال له :

ــ « عن خطيئات أمثالك من المجانين يتعيّن على الأبرياء ان يكفّروا. »

واحتجّ فاربي قائلاً انها لم تكن غلطته . لقد سُرّح من الخدمة بعد انتهاء الحرب الأميركية فاذا هو متبطلٌ في أرض الوطن . وما الذي يفعله رجل لم يعرف غير صناعة القتال منذ أن بلغ الثامنة عشرة من العمر ؟

ــ « هل اشتركت في الحرب ؟ »

– « أجل ، يا سيدي . »

– « تحت إمرة من ؟ »

– « غرين ، يا سيدي . »

– « ومن كان الليفتنانت الموكّل بالمؤن ؟ »

– « فرانكلين . »

– « والكابتن ؟ »

– « آندرسون ، غراي ، تشابان . وبعد ذلك لونغ في ما احسب . »

– « هل كنت في جيرزي ؟ »

– « جيرزي وبنسيلفانيا ، يا سيدي . ثم في كارولينا . يا إلهي ، لقد كنت معك في جيرمانتاون ، يا سيدي ، هل تذكر ؟ »

ومثل « بين » امام محكمة الثورة ، وقال في فرنسية بطيئة متقطّعة :

– « ينبغي أن لا يموت فاربي . انه مجنون ومحتال ، ولكنه جندي من جنود الثورة . هل نحن كلنا قديسون ؟ »

ونجا فاربي ، كما نجا مايكال بيبودي وكلير هندرسون لأن « بين » دافع عنهما .

ولكنّ ذلك كله لم يشغله عن المشكلة الرئيسية التي كانت تطوقه ، مشكلة وضع كتاب جديد يضاف إلى كتبه السابقة . كان يجلس في البيت الريفي ويخربش ، ويمحو ، ويعتصر أفكاره ، فاذا به يدرك في ذعر وألم ان سلاسته القديمة وناره القديمة قد ولّتا . كان يسوّد صفحة بكاملها بالحبر ثم يمزقها تمزيقاً . كان يكتب كلمات بعينها ، ولكنها لم تكن الكلمات التي يريد . لقد شاخ ، لا بسبب من علوّ السنّ ، ولكن بسبب من ارهاقه جسده الريفيّ الضخم ، وارهاقه عقلاً أحرق نفسه كما أحرقت عقول قليلة نفسها في تاريخ الانسانية كله . وانه لمحزنٌ فاجعٌ أن يفقد المرء القوة على اصطناع الادوات التي تمنحه سبب وجوده . لقد تعيّن عليه ان يجهد نفسه كما لم يجهدها في أيما فترة من فترات حياته ،

ليطوي أوراقه إلى حين ، ويقصد إلى قاعة المؤتمر الوطني ، فيجلس هناك ويصغي . هناك كان قلب الثورة النابض ، وهناك كان « بين » يهصر رأسه . وجاءه الدافع إلى الكتابة ، ذات يوم ، حين نهض فرنسيس بارتيف وصاح :

— « لقد خُلع الله عن عرشه ، ونفيت المسيحية — الفاسدة فساد الكهان — عن وجه الأرض ! ومنذ اليوم ، سوف يسود العقل ، العقل المحض ، العقل الذي لا يعتوره الفساد ! »

ولم يكد بارتيف يُنهي كلمته هذه حتى تناول نسخة من الكتاب المقدس ومزّقها صفحةً صفحةً .

ونهض « بين » وغادر القاعة ، وراح يذرع الشوارع ، فرأى عربة تسوق أربعة أجساد إلى شفرة المقصلة . وسار بحذاء النهر فرأى شمساً حمراء تغرب فوق السطوح العتيقة في باريس القديمة . كان الاله قد توفي . ومشى « بين » في خطوات أثقل وأبطأ ، وما هي إلا فترة حتى غابت الشمس ، غيرَ تاركة سوى الخيرية المنعكسة في السماء ، وسنونو ليرسم مثالاً بين يديها ٥

— « وها هم الرجال ، الذين أخذوا يرتقون السلّم نحو الله ، ليصبحوا كالآلهة ، يجحدونه ويكفرون به ! وبعدئذ يجري الدم على ظهر الأرض ، ويُبغضون — ويُبغضون على نحو غريب ! »

وانقلب إلى منزله وأنشأ يكتب . لقد جرى القلم بين يديه جرياً أسلس ، الآن ، وانصاعت له الافكار الآسرة الخليقة بأن تنقضّ صواعقَ على رؤوس الناس صائحة من جديد : « هو ذا « بين » صديق الانسان ! » وسلخ ساعات الليل كلها يكتب ويكتب ، حتى إذا أوشك الضحى ان يرتفع غلبه النعاس فنام ورأسه على القرطاس . وفي الصباح حين أقبلت السيدة كريستي حاملة اليه بيضة وشيئاً من الشاي ألفتْ رأسه الضخم وكتفيه منطرحة على المنضدة ، وأنفاسه تُمعّج الورق الذي خربش

عليه طوال الليل . وإذ لم تكن راغبة في إزعاجه ، وهي التي تعرف كم من معركة طويلة صامتة خاضها ضدّ الأرق ، فقد تركت له الطعــام وانسحبت في هدوء .

وحوالى الظهر أفاق «بين» وشرب كوباً من الشاي البارد ، واستأنف الكتابة من جديد .

●

وغدا الهول الاكبر أقرب فأقرب ، ساحباً فوق سماء باريس ملاءة سوداء حالكة . وواحداً واحداً واثنين اثنين فرّ الراديكاليون الانكليز الذي قاسموا « بين » ذلك المنزل الريفي ؛ فأما بعضهم فوجّه وجهه شطر سويسرا ، واما بعضهم الآخر فصعّد نحو الشمال . والتمست السيدة كريستي من « بين» ان يمضي معها ومع زوجها ، ولكنه ابتسم ابتسامة غريبة وسألها :

— « وإلى أين أذهب ؟ »

— « إلى الوطن . »

فقال « بين » متعجباً :

— « وأين وطني ؟ لقد جعلتُ العالم قريتي ، وليس في ميسوري الآن ان انقض ذلك . لقد تأخرت كثيراً . »

— « ولكنهم سوف يأتون وشيكاً ومعهم العربة . »

وهزّ « بين » كتفيه وقال :

— « إذا كانوا يحسبون ان موتي ضروريّ لكي تعيش الثورة .. »

وهزّ كتفيه كرة أخرى .

كان هو النازل الوحيد في ذلك البيت الكبير . وكان رفيقه الاوحد هو صاحب الاقطاعة . وأخيراً أقبل جنود الجمهورية حاملين إلى صاحب

ذلك البيت – وكان فرنسياً ضئيل الجسم ذا شاربين – صك اعدامه .

وتوسل صاحب الاقطاعة :

– « ولكن ، أخبرهم يا مسيو « بين » . أخبرهم انني لم أشارك في مؤامرة ما . »

– « لا فائدة من إخبارهم . إنهم يعملون ما يتعيّن عليهم أن يعملوه. إذهبْ معهم يا صديقي . ليس ثمة عمل آخر أو طريقة أخرى . إذهبْ معهم .... »

وغدا « بين » وحيداً بالكلية . وحيداً ولكنه غير خائف . وأنفق الوقت جالساً إلى منضدته ، كاتباً شيئاً كان يعتزم أن يسميه « عصر العقل » .

●

« دعني أكتب بحروف من نار ، فأنا غير خائف . غداً سوف أموت أو بعد غد . لقد رأيت من مشاهد الموت ما جعله جزءاً مني ، وبهذه الطريقة فقدتُ خوفي . لقد سألوني أن أفر ، ولكن إلى أين يستطيع « بين » أن يذهب ؟ إلى أميركة ؟ إنهم هناك في غير ما حاجة ، اليوم ، إلى ثوريّ عجوز – وفي الحق اني لست واثقاً من انهم سوف يعرفونني في أميركة . فالرجل الفارع الطول من مونت فيرمونت لم يَعُدْ رفيق السلاح الذي عرفتُهُ يوماً . لقد نسيَ كيف هبطنا الطريق عبر جيرزي . أم إلى انكلترة ؟ إنهم بعد انقضاء مئة سنة سوف يرحبون بي في البلد الذي وُلدت على ثراه . إن عملي هو هنا ، في فرنسة ، وفرنسة يجب أن تكون منقذة العالم . وإذا ما أزهقوا روح « بين » فأية خسارة تنتج عن ذلك ؟ »

●

وسمّى المخطوطة « عصر العقل » ، وكتب الاسم بأحرف كبيرة واضعاً خطوطاً ثلاثة تحته . وقدّمها إلى العالم الجديد ، إلى العالم الشجاع ، الساذج ، المروّع الذي انبثق عن يديه كما انبثق عن أيدي غيره من الرجال . لقد أنكر العالم الجديد الله ، وبذلك أنكر — في اعتقاد « بين » — السبب الذي يبرر وجود الانسان . ذلك بأن الانسان جزء من الله ، ولو لم يكن كذلك لكان بهيمة ليس غير ، والبهائم تعرف الحب والخوف ، والبغض والجوع ، ولكنها لا تعرف التهلّل والابتهاج . ووفقاً لما رآه « بين » الآن لم يكن تاريخ الانسان غير رؤيا من التعبّد والتقوى . لقد انطلق من المستنقعات العميقة المظلمة ، من الادغال والجبال الموحشة والسهوب التي تكنسها الريح ، وأبداً كانت طريقُهُ هي طريقَ الباحث المتلمس . لقد ابدع حضارةً ، وصنع اخلاقيةً ، ووضع ميثاق إخاء . ففي يوم من أيام تاريخه كفّ عن قتل المرضى وراح يُعنى بمعالجتهم ، وكفّ عن قتل الضالين وانشأ يعلّمهم كيف يجدون ذواتهم . لقد رأى حُلماً وشاهد رؤيا ، وكان حزقيال واحداً من أبنائه ، وكذلك يسوع الناصري . لقد مدّ اليه يداً ، قائلاً ، أنت أخي ، الستُ اعرفك ؟ وبدأ يرى اللهَ ، كمن يرتقي سُلّماً ، درجةً بعد درجة ، مقترباً ابداً من شيء كان ينتظره منذ الأزل . واصطنع الصور الخشبية بادئ الرأي ، ثم الصور الرخامية ، ثم آلهةَ الشمس والنجوم ، ثم وحدانيةً عادلة غير منظورة ، ثم رباً واحداً غير منظور هو حبٌ ورحمة ، ثم يهودياً حلو الشمائل مسمّراً على صليب ، مائتاً في ألم . إن الانسان لا يعرف التوقف . إنه سوف يتحرر ، وان الاخاء سوف يسود العالم ، وان بندقية عتيقة تطلق نارها في قرية من من قرى ماساتشوستس ...

وها هي ذي الثورة ، وقد انحدرت إلى طريق غير مخططة ، وتعبت من الكنائس المنظّمة ، المفترسة ، التي تباع وتشترى بالمال ، تعتنق

فلسفة الكفر بكل شيء . وهكذا قال « بين » لنفسه :

— « سوف أؤلف كتاباً جديداً وأخبرهم ماذا اعرف عن الله الذي لم يخذلني . »

وأنشأ يكتب :

« لقد كان في نيتي ، لسنوات عديدة خلت ، ان انشر آرائي في مسألة الدين . اني اعي احسنَ الوعي المصاعب التي تحفّ بالموضوع ، ومن أجل ذلك أرجأتُ معالجته إلى مرحلة من العمر تتسم بالهدوء والنضج. وانما اردته ان يكون آخر تقدمة ازفّها إلى مواطنيّ جميعاً من مختلف الامم ، وذلك في وقتٍ لا يمكن ان يتطرق فيه الشك إلى صفاء الدافع الذي اغراني بوضعه ، حتى من جانب اولئك الذين قد لا يُقرّون الكتاب .

« ان ما وقع مؤخراً في فرنسة ، من الغاء الكنيسة الوطنية إلغاء كاملاً ، وإلغاء كلّ ما يتصل بأنظمة الدين الالزامية وبنود الايمان الاكراهية لم يحملني على التعجيل في إخراج فكرتي إلى حيّز الوجود فحسب بل جعلَ النهوض بمثل هذا العمل ضرورياً إلى حد بالغ خشية ان نخسر ، مع تقوّض اركان الخرافة ، والانظمة الحكومية الفاسدة ، واللاهوت الفاسد ، القدرةَ على استجلاء وجه الفضيلة ، والانسانية ، واللاهوت الحق .

« ولسوف أترسم خطى عددٍ من زملائي وغيرهم من مواطني الفرنسيين فأدلي باعترافي الطوعيّ والخاصّ في قضية الايمان . وانما أفعل ذلك بكامل الاخلاص والصراحة اللذين يتحدث بهما العقل البشري إلى نفسه .

« أنا اؤمن بالله واحد ، ليس أكثر . واني لأطمع في السعادة بعد هذه الحياة الدنيوية .

« أنا اؤمن بالمساواة بين البشر . وأعتقد أن الواجبات الدينية قوامها

الاقدام على العمل الصالح ، وحبّ الرحمة ، والسعي إلى جعل اخواننا في الانسانية سعداء .

« ولكنْ ، خشيةَ ان يُظنّ اني اؤمن بأشياء أخرى غير هذه ، أحبّ ان انص في سياق هذا الكتاب على الاشياء التي لا اؤمن بها والاسباب التي تحملني على عدم الايمان بها .

« أنا لا أؤمن بالعقيدة التي تقول بها اليهودية والكنيسة الرومانية ، والكنيسة الارثوذكسية ، والكنيسة البروتستانتية أو ايما كنيسة أخرى أعرفها . إن عقلي هو وحده كنيستي .

« وعندي ان الاديان لا تعدو أن تكون مخترعات انسانية اصطُنعت لترويع الجنس البشري واستعباده ، ولاحتكار القوة والربح . »

بهذه الطريقة تمّ له استهلال الكتاب . لقد نصّ على ما يؤمن به ، وعلى ما لا يؤمن به ، ثم نشط للعمل يوماً بعد يوم في المنزل الريفي العتيق المهجور . انه ما كان بسبيل وضع عقيدة ما ، فقد نهض الرجال بعبء ذلك منذ زمان ، سواء في الافعال أو في الكلمات . لقد وضع يسوع عقيدةً وهو مسمّر إلى الصليب ، وكذلك فعل غلامٌ ريفي بسيط قضى نحبه في قرية خضراء من قرى نيو انجلند ، وألفٌ آخرون بل ومئة ألفٍ آخرون ؛ واذن فقد بقي له هو ان يصوغها في عباراتٍ وقواعد اصطلاحية ويضعها في مكانها بوصفها آخر جزء من موسوعته الثورية .

وخلال تلك الايام الهادئة التي انصرف فيها إلى تأليف « عصر العقل » لم يختلف إلى باريس القديمة اختلافاً كثيراً . لقد قصد اليها مرةً التماساً لنسخة انكليزية من الكتاب المقدس . كان ثمة فيض من نسخ الكتاب المقدس ، ولكنها كانت كلها بالفرنسية . وكان

يرجو أن يعثر على طبعة « الملك جيمس » بأي ثمن ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، فتعاظمه الامر ، ووجد نفسه مضطراً إلى الاعتماد على ذاكرته ، فهو يرتدّ إلى صباه الاول يوم كان يتلو مقاطع بعينها من التوراة مرةً ومرةً ، وهو يستشهد بهذه المقاطع ويوشّح بها كتابه على نحو صائب حيناً وعلى نحو خاطيءْ حيناً . لقد كان الكتاب المقدس ضرورياً له ، لأنه تعيّن عليه – إذ يضع ايماناً يمكن ان يتقبله الرجل العاقل ، الرجل الكريم ، الرجل الطيب – أن يمزّق في جراءة وقسوة نسيج الخرافة كله الذي حيك خلال العصور والاجيال .

وكثيراً ما حدثته نفسه ان يطلب نسخة التوراة هذه من انكلترة ، ولكن الطريق إلى هناك كانت طويلة وغير مضمونة حتى بالنسبة إلى رسالة بريدية صغيرة . وكان « بين » مسوقاً بحسٍّ من العجلة مميت . والواقع انه ما كان في ميسور رجل عاش في باريس أو قريباً منها أواخرَ سنة ١٧٩٣ ان ينسى « الهول الاكبر » ووطأته الثقيلة . لقد فَقَدَ المنطق والتمييز وراح يخبط ذات اليمين وذات الشمال خبْط وحش اعتراه مسّ من جنون . وكان اليمينيون هم ضحاياه باديءَ الأمر ، أما الآن فقد غدا اليعاقبة من أركان اليسار الاقصى يشاركون في مواكب المقصلة الراعبة . كان الذي خافه « بين » على وشك ان يقع . لقد أصيبت ديكتاتورية العنف بالخبال .

وفي احدى رحلاته إلى باريس زار احد معارفه القدماء ، جول بارلو ، وكان « بين » قد ساعده يوم تردّى في مشكلات قضائية مع احدى المحاكم الفرنسية .

وقال « بين » :

– « مهما يقع فلستُ ابالي كثيراً . ولكني أعمل منذ فترة على مخطوطة ارجو ان انجزها في وقت قريب : وان لهذا العمل لشأناً

عظيماً عندي . فـاذا ما أقبلوا لاعتقالي فهل استطيع أن أستودعك المخطوطة ؟ »

— « في سرور » ، كذلك قال بارلو ، وتضرّع إلى « بين » ان يترك البلاد إلى أميركة .

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « سوف أفعل في الوقت المناسب . عندما ينتهي عملي في فرنسة . »

كان قد أنجز الكتاب ، وكانت عقيدته قـد سُبكت على الورق ، فاستشعر طمأنينة بالغـة وغلب عليه مثـل الشعور الذي يخامر الرجـل حين ينعم بالنظافة والراحة . لقد صوّب طعنةً إلى الألحاد ، وقـدّم إلى شعب فرنسة — أو هكذا خُيّل له — وإلى شعوب العالم كله عقيدة عقلانية تعصمها خلال سنوات الثورة القادمة . لقد أعان وجود الله في كل ما تقع عليه عينا الانسان ، في اتساق ورقة الشجر اتساقاً كاملاً ، في غروب الشمس الورديّ ،في ملايين النجوم المنطرحة مثل وشاحٍ على صفحة الليل . أعلن هذا الوجود في البر ، في البحر ، في الـكون كله . لقد دعا الناس إلى ان لا يلتمسوا المعجزات الرخيصة المزخرفـة من غير ما ذوق ، في حين انهم هم أنفسهم والعالم الذي يعيشون فيه أعظمُ المعجزات جميعاً .

لقد سألهم ان يؤمنوا بالله لأنهم هم أنفسهم والعالم الذي يَعْمرُونه الدليلُ الاقوى على وجود الله . إن عمل الله هو الخليقة ، وان توراته والبرهان على وجوده ليتمثلان في الخليقة . انها لوثيقةٌ متقدةٌ حيّة موقّعة ، وانها في غير ما حاجة لا إلى خرافات ولا إلى حكايات رعب تؤيدها . ووجّه « توم بين » الخطاب إلى فرنسة فقال :

— « إذا اخترتِ الألحاد ، الآن ، فـأني على الاقـلّ عملـتُ واجبي . »

●

وفي احدى رحلاته القصيرة إلى باريس قصد إلى قاعة المؤتمر الوطني وقال للحاجب في فرنسية رديئة جداً :

— « النائب توماس بين ، ممثل كاليه . »

فحملق الحاجب إلى وجهه وكأنما وقعت عيناه على طيفِ ميت : وحملق آخرون اليه أيضاً . وارتفعت الحواجب في طول القاعة وعرضها ، وأتلعت الأعناق في تلفتها لتتطلع اليه .

كان ثمة واحدٌ ليس غير من جماعة الراديكاليين الاجانب المبعدين ، في القاعة ، هو « أناتشارسيس كلوتز» ، البروسي ، اليساري المتطرف ، السابق عصره مئة عام ، الاشتراكي قبل أن تكون اشتراكية — رجل مجنون بعض الشيء ، لامعٌ إلى حدّ بعيد ، جريءٌ لا يعرف الخوف . يشبه « بين » كثيراً ، ولا يشبهه كثيراً . وكانا حتى ذلك الحين قد تعاونا في النادر القليل ، ولكن في غير ما سهولة ويسر . فقد كان « بين » جمهورياً يقول بالديموقراطية ويدعو لها . وكان كلوتز يقول بفكرة اجتماعية كانت نظريتها لم تكد تولد بعد . فما إن دخل « بين » القاعة حتى لوّح له بيده ، وكذلك فعل بعد ذلك ، وهو يغادر القاعة ، مقترباً منه هاتفاً :

— « هالو أيها الصديق القديم ، اين كنتَ هذه الفترة كلها ؟ »

— « أكتب . »

— « إنهم جميعاً يكتبون قبل أن يذهبوا إلى السيدة المقصلة (مدام غييوتين) . وأيّ هراء كنت تخطّه هذه المرة ؟ »

— « عن الآلهة والناس . »

وكان كلوتز ملحداً صُلب العود . فانفجر بالضحك وقال لـ « بين » :

— « سوف نتناقش في هذا ، اليس كذلك ؟ »

وكان أن تناقشا في ذلك وشيكاً .

●

كان وقته قد انقضى أو كاد . لقد كان يحرص على أن يُمهله الأجل لا رغبةً في الاستمرار في حياةٍ كانت ، من حيث الاغراض العملية كلها ، قد انتهت ، ولكن لأنه استشعر ، شأنه في مرات كثيرة سابقة، ان عنده شيئاً ينبغي أن يضعه على الورق . اما الآن وقد تمّ له تأليف كتابه فقد مضى للقاء مصيره مُضيّاً يكاد يكون متلهفاً . إنهم لن يكونوا في حاجة إلى البحث عنه . فهو ليس ناسكاً معتزلاً ، وإنه لم يفرّ في يوم من المثول أمام القضاء . والواقع أنه سلخ حتى الآن فترة صالحة في ذلك البيت الريفي المهجور ، وما كانت مثل هذه الاقامة المتوحدة خليقة بـ « بين » . ذلك بأن « بين » كان احساسه اخوانه في الانسانية ، وتدانيهم . كان أصواتهم ، وبسماتهم ، ومودّاتهم الطيبة . وهكذا نضّد الاشياء القليلة التي يملكها ، والمخطوطة المنجزة ، وبعض الاوراق الأخرى ، وكتاباً أو كتابين وبعض القمصان والثياب التحتية — امتعة هزيلة ، ولكن متى كان حريصاً على الممتلكات الدنيوية ؟ ان الرجل الذي يجعل من العالم قصره لا يستشعر الحاجة إلى أن يزينه برياشٍ ما .

ورجع إلى باريس وإلى اوتيل هوايت ، إلى الحواجب المرفوعة والانفاس المتقاصرة في رفق :

— « ألا تزال هنا يا « بين » ؟ »

— « لا أزال هنا . »

وتهامس القوم بمثل قولهم :

— « حسناً ، ليس ثمة أكثر جنوناً من مجنون عجوز . »

ويُمرّ أحدهم إصبعاً على حنجرته ويقول ، من ورائه :

— « إذا كان راغباً في ذلك فليس لنا من علاقة . »

وطلب شيئاً من البراندي واقترح على القوم ان يشربوا معه :

— « لنشرب نخب جمهورية فرنسة ، إلى الأبد ، أيها السادة ! »

ولم يدرِ أحدٌ أيضحك أم يسخر .

•

وفي عيد الميلاد قُدّم إلى المؤتمر الوطني اقتراح يقضي بأقصاء جميع الأجانب عن مقاعد النيابة . وإذ لم يكن قد بقي غير أجنبيين اثنين هما « بين » و « كلوتز » ، فقد كان الاقتراح يستهدفهما مباشرةً . وكان « بين » يتوقع ذلك . لقد عرف به حين عاد إلى المدينة ، حين شرب نخب الجمهورية ، حين مضى أخيراً إلى الفراش لينام ليلته تلك التي كان يمكن أن تكون آخر لياليه كرجل حر طليق . ولم يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه . كان يتعجل وقوع البلاء . وإذ لم يَعدْ الآن نائباً من نواب فرنسة فقد رغب في أن يجرفه موج الثورة الطامي ، ان يبتلعه ، إن تعيّن عليه ذلك .

ولم يكد الضحى يرتفع حتى تحققت طِلبته .

كان اثنان من رجال « لجنة السلامة العامة » واقفين بباب غرفته : ولم يكد يفتح لهما حتى نشرا أمامه التفويض الذي يحملان باعتقاله .

— « نريد المواطن « بين » ! هل أنت ، أيها السيد ، المواطن بين ؟ »

فابتسم وقال :

— « أنا المواطن بين . تفضلا ، أيها السيدان . »

وتبعَ الرجلين عريفٌ وأربعة أنفار . ووقف العريف عند طرف فراش « بين » ، بعد أن أدى له التحية ، ووقف الانفار الأربعة إلى جانبيه كليهما .

وقال « بين » :

— « اسمحوا لي أن أرتدي ملابسي . »

فحنى العريف رأسه في رقة ، وانصرف رجلا « السلامة العامة » إلى

تفتيش الغرفة . وصبّ « بين » لكل منهما كأساً من البراندي ، وراح الانفار الأربعة يحدّقون في اهتمام بالغ إلى لا شيء . وقال الرجلان :

— « براندي ممتازة . »

ومضيا في تفتيشهما الغرفة . حتى إذا أتمّ « بين » ارتداء ملابسه سألهما :

— « أحب أن أعرف ... التهمة ... »

— « مسيو ميرسون » ، كذلك قدّم اليه احد الرجلين نفسه ، جزاءَ ما أكرِم به من البراندي ، وتلا من التفويض الذي يحمله :

— « التآمر على سلامة الجمهورية ... »

وكرّر « بين » في رقة واجهاد :

— « التآمر على سلامة الجمهورية . المواطن « بين » يُعتقل بتهمة التآمر . انه يقيم وحيداً في بيت ريفي مهجور ، ويتأمل في الله ، ومع ذلك فهو يتهدد الجمهورية بالخطر . يخيّل اليّ ان اضعف شيء في العالم هو ذاكرة الانسان ! »

كان يتكلم بالانكليزية . وحين رفع الرجلان حواجبهما هزّ رأسه ، ثم أردف وهو يصب لكل منهما كأساً أخرى من البراندي :

— « لا شيء ، لا شيء — ان عندي بعض الأوراق في « البيت البريطاني » فهل نستطيع ان نمضي إلى هناك ونأتي بها ؟ »

فهز ميرسون كتفيه وقال :

— « ذلك لا يتفق والاوامر الصادرة ، تمام الاتفاق . ولكن حين يلقي المرء القبض على مواطن هو به معجب ، في مثل هذا البرم والشعور بالحرج ، يكون في ميسوره أن يخطو خطوة استثنائية . »

وفي « البيت البريطاني » كان بارلو ينتظر ، فلم يكد « بين » يراه حتى دفع اليه مخطوطة « عصر العقل » . فقال بارلو :

— « كنت أرجو ان توفّق إلى مغادرة فرنسة . »

فأجابه « بين » في اكتئاب :

— « قد أفعل بأسرع مما كنت أتوقع . بارلو ، ان هذا الشيء الذي كتبتُهُ قد يكون من سقط المتاع ولكنه أثيرٌ جداً على قلبي — إنه كلام طلق حرّ من رجل عجوز فانٍ ، إنه خاتمة حياة . فاذا ما ذهبتُ إلى المقصلة فحاول أن تنشره في الناس . ان لي بعض الأصدقاء في أميركة ، وان الطابعين في فيلاديلفيا خليقون بأن يُسدوا إليّ خدمة جديدة برّاً منهم بالايام الخالية . هناك جيفرسون وواشنطون — وأحسبُ أنهما لا يزالان يذكرانني . وإذا ما أعجزتك الوسائل ، فالتمِسْ كامنَ العاطفة فيهما ، وذكّرهما بجندي قديم حارب إلى جانبهما في العهود التي امتحنت نفوس الرجال . »

فغمغم بارلو :

— « لا تكن مجنوناً . »

وهنا قال مسيو ميرسون :

— « أرجوك ، أيها المواطن . لقد كنتُ في غاية اللطف بحيث سمحت لك في ان تدفع كتابك إلى هذا الرجل ، ومن السذاجة بحيث جئتُ معك إلى هنا للاجتماع بصديقك . أما الآن فينبغي لنا أن نمضي . »

وتساءل « ميرسون » :

— « إلى أين ستأخذونه ؟ »

— « إلى اللوكسومبورغ ، في الوقت الحاضر . »

وفي طريقهم إلى السجن عرّجوا على أناتشارسيس كلوتز فاعتقلوه ، ومن ثمّ اقتيد النائبان السابقان — يحيط بهما الجند من كل جانب — عبر شوارع باريس . كان كلوتز يبقبق في طرب مكبوت ، وكان ثمة شيء شيطاني في الطريقة التي تقبّل بها سيره ذاك إلى السجن . لقد هزّ كتفيه وقال :

— « وهكذا نمضي ، يا صديقي « بين » ، أنت عند طرف من عمود الثورة الطويل ، وانا عند الطرف الآخر ، ولا فرقَ في النهاية بين هذا وذاك عند السيدة الطيبة ، المقصلة . انها سوف تخرطنا مرةً ،

ثم مرةً ، وعندئذ تكون نهاية « بين » وكلوتز — ونهاية ماذا أيضاً أيها الصديق القديم ؟ من يدري ؟ »

— « ولكن لماذا ؟ إنهم يتهمونني بخيانة الجمهورية ، وإنها لتهمة ليس لي أن أجيب عنها . إن اسم « بين » هو الجواب الكافي . ولكن بماذا يتهمونك ؟ »

وانفجر كلوتز في ضحكٍ ضارٍ ، وقال :

— « أنت رجل عجوز يا « بين » ، ومن هنا يصبح حتى البسيطُ جداً شيئاً بالغ التعقيد عندك . أنت جمهوري ، وأنا — ولأنحتْ صيغةً لعصرنا هذا — بروليتاريٌ . أنت تؤمن بالاسلوب الديموقراطي من طريق التمثيل البرلماني ، وأنا أؤمن بالاسلوب نفسه من طريق ارادة الجماعات . أنت تقول : دعِ الشعب يحكم ، وأنا أقول الشيء نفسه . نحن نلتمس شيئاً واحداً ، ولكنّ طريقينا مختلفان . وأنا أعتقد أن طريقتك يائسة ، وجزء من الماضي . أما في ما عدا ذلك فنحن سيّان ، وهذه الديكتاتورية التي تتحول اليها جمهورية فرنسة في سرعة بالغة ، لا تريدنا نحن الاثنين . وإذن فلتخرط السيدة المقصلة ولتخرط ، ولتُعْنَ هي بكل شيء . »

وواصلا سبيلهما إلى السجن . وفجأة صمتَ كلوتز ، وتغضّن حاجباه الكثّان في تأمل وإمعان نظر ، وبدا لـ « بين » وكأن الرجل الالماني أدرك أخيراً المصير الذي يُقاد اليه . ولكن كلوتز ما لبث أن مال على صاحبه وزأر :

— « ما هذا الهراء الذي تكتبه يا « بين » ، والذي تزعم فيه ان الخليقة هي توراة الله ؟ »

— « إنها واقعةٌ بسيطة أؤمن بها . »

فنخر كلوتز ، متوقفاً عن السير ، ملتفتاً إلى « بين » ، واضعاً يديه على خصره بحيث اتخذ كلٌ من مرفقيه شكل زاوية :

— « تؤمن بها ! أنت تنكر الدين المنظّم وتستعيض منه بمذهب عقلي صوفي ! يا صديقي « بين » ، أنت تصدمني . لقد أنفقتُ معك بعضاً من

أنفس ساعاتي الاخيرة . ومن كل ناحية ، يلتفت الناس في الشوارع ويحدقون الينا متهامسين : هذان « بين » وكلوتز في طريقهما إلى المقصلة . وهؤلاء الجنود الطيبون ، وهذان الرجلان المكلفان بصيانة ما يدعونه جمهورية فرنسة ، سوف ينقلبون إلى بيوتهم وإلى حسائهم وزوجاتهم حاملين نبأ سيرهم الخطوات الأخيرة مع أعظم عقلين أطلعهما القرن الثامن عشر . ومع ذلك فأنت تزعم ان الخليقة توراة الله ؟ أية خليقة هذه . ؟ »

فهدر « بين » قائلاً في حدّة :

– « طبعاً ، لقد حصلت الخليقة ! ان الالحاد هو عقيدة المصادفة الكبرى ! مثل جولة من جولات اللعب بالورق ، تتلاقى فيها الأوراق وكأنها على موعد وينجذب بعضها إلى بعض في تناغم وانسجام ! »

– « ولم لا ؟ وهل يوجد المنطق إلا في عقولنا ؟ هل يوجد الورع إلا في الشعب ؟ هل توجد الرحمة إلا في الجماهير ؟ إن شيئاً ما يصبح معقولاً لأنا نحن نجعله معقولاً ، ونحن لا نقترب نحو الله ولكن نحو الخيرية ، وهي مصطلح من ابداع الشعب ، ومفهوم من مفاهيم الرجال المستضعفين المعذبين في الارض ... »

وهنا تدخل مسيو ميرسون قائلاً :

– « عفواً ، عفواً ، أيها المواطنان ، نحن في سبيلنا إلى سجن اللوكسومبورغ ، فرجائي اليكما ان لا تتجادلا ، لأن الجدال لا يليق برجال ماضين في مثل طريقنا هذه . »

ومضوا في طريقهم ، وكان كلوتز يهدر بنظرياته ما يزال .

•

كان قصرَ اللوكسومبورغ قبل الثورة ، أما اليوم فقد غدا معسكراً للاعتقال ، أو المحطة الأخيرة في الطريق إلى المقصلة . كان ينهض في

الجنائن القديمة الشهيرة حيث كل شيء كان جمالاً ، وهكذا كان في ميسور الاعداد الغفيرة الذاهبة إلى المقصلة ان تحمل معها ذكرى أخيرة طيبة . والواقع ان الرعب والدفء لم يجتمعا في أيما مكان ، على ذلك النحو البارع الفظيع ، اجتماعهما في ذلك المكان . كان ثمة غرف رحبة ، وسقوف عالية ، وبسُطٌ وسجاد ، وكراسٍ مموّهة بالذهب ، وموت زؤام . فاذا ما كنت جالساً مع أصدقائك تتأمّل في الاشياء التي انقضت ، في الاشياء الكبيرة الجميلة التي ينفخ فيها المسجونون الحياة بواسطة الكلمات ، مثل كثبان بنسيلفانيا الخضراء ،وصخور دوفر الشاهقة البيضاء، ومستنقعات الريف الشمالي ، وال « باليسايد » في يوم من أيام الشتاء العاصفة الباردة ، وزوبعة في بحر ، أو اشراق شمس – إذا ما كنت تتأمل في ذلك كله ثم طرقت مسمعيك سلسلة من الولولات الثاقبة ، والتأوهات والانات ، والابتهالات المحمومة إلى الله فعندئذ تتظاهر بأنك لم تسمع شيئاً لأن ادعى الاشياء إلى الحزن ان يتمثل المرء جماعةً من البشر في طريقها إلى لقاء الموت . وقد تفكّر في الدوقة ، أو في زوجة الرجل الضئيل الجسم الذي يبيع التبغ في دكانه بشارع سان دونيز ،أو في تلك المرأة الهادئة ذات الرداء الاسود ، التي لا هوية لها على الاطلاق .

انك لتحافظ على نظافة غرفتك ، حتى ولو لم تتعود من قبلُ المحافظة على نظافة بيتك ، ذلك لأنك قد اكتسبت ، على عتبة القبر ، حساً متأنقاً من الكياسة والذوق . انك لتكتسب التواضع سواء اكنت كونتاً أو جزاراً ، لأن جميع الطبقات كانت تعيش ههنا في أصغر ديموقراطية قُدّر للعالم أن يعرفها . وانت حين تبكي تحاول ان تخفي دموعك عن الآخرين ، لأنك شهدت في مقامك الأول في اللوكسومبورغ عدوى الدموع الهادئة : عشرون شخصاً في غرفة ، ما إن ينخرط أحدهم في البكاء ، حتى يتبعه ثانٍ ، وثالث ، وهكذا إلى أن يغرق الجميع في بحر من الدموع .

إنك لتعجب بالفرنسيين ، إن لم تكن قد أعجبتَ بهم من قبل ، بالطريقة التي يجابهون بها الموت ، بالطريقة التي يطلقون فيها النكتة حوله، بالطريقة التي يجرّدونه فيها بهزة معبرة من اكتافهم – من كل شأن وخطر. وانك لتجد هناك رجالاً بعضهم منظفو مداخن وبعضهم أمراء وكلهم على حظ من المدنيّة يجعلك ، بالرغم من انك تواجه الموت بسبب من ان الثورة قد جُنّ جنونها ، لا تشك لحظةً بأن فرنسة معقودٌ بناصيتها خلاص الجنس البشري . لقد تعرّفت إلى مسيو بينوا ، السجان ، الذي يقول لك ، في بعض الاحيان ، في ابتسامة اعتذارية : « لا شك اني ذو قلب كبير – وما يدريني ، يا سيدي ؟ – لأنه ما إن يمضي واحدٌ من نزلائي لسبيله ، حتى تمضي فلذة من فؤادي معه . أنتم ضيوف هذا المكان ، تموتون مرة واحدة ، أما أنا فكم مرةً أموت ؟ مئة مرة ؟ ألف مرة ؟ لماذا لا أغادر هذا المكان ، يا سيدي ! ومن ذا الذي يخلفني ؟ أنا لست قديساً ، ولكني لست نذلاً خسيساً أيضاً . »

لقد سمعتَ الناس يقولون : « إنه الهول الأكبر . إنها الحرب . » ولم يقولوا ذلك متشكين متذمرين ولكنْ بروح من الرضا والتقبّل تفسّرُ لك بعض الشيء كيف عاشت هذه البلاد الغريبة المشمسة في يوم من الأيام ، خلال حربٍ مئوية جعلت ثلاثة ارباعها قفراً يباباً .

انك لتكون مع جمع من الرفاق ، وإذا بالباب يُفتح ، وإذا برجل جديد بينكم ، يقوده بينوا متسائلاً في لهجة اعتذارية : « لعلك تجد ههنا بعض الاصدقاء ؟ عليك ان تبذل جهدك ، ولسوف أعمل أنا واجبي . » وتلتفت نحوه فتعرفه ، ويعرفه غيرك أيضاً ، في ذهول حيناً ، وفي مسحة من الرضا حيناً ، ولكنكم جميعاً ترحبون به وكأنما هو وافدٌ على نادٍ من النوادي ، لا على المحطة الأخيرة في الطريق إلى القبر .

لقد علم صديقك القديم الطيب ان دوره غداً ، فهو يسألك ان تتمشى معه في الحديقة قليلاً . وتضع ذراعك في ذراعه وتتنزهان حول القصر ،

من غير ان تشير مرةً واحدة إلى ان هذه النزهة هي نزهتكما الأخيرة ، وان ذلك الاصيل الشتوي القارس سوف يكون آخر أصيل تستمتعان فيه بالسير على الاقدام . وفيما أنت تتطلع إلى سماء الشتاء الرمادية يتجلى لك جمال الاشياء التي لم تكن في ايما وقت من الاوقات جميلة . إن الثلج ليسّاقط ، وان صديقك ليضع راحة يده على النُدف الذائبة ويذكّرك بأن ههنا إحدى أعاجيب الكون العظمى . فعلى الرغم من تعدد العواصف الثلجية ، وعلى الرغم من ان عدد الندف يبلغ ملايين لا تحصى بحال فلستَ تقع بينها على اثنتين متماثلتين كلّ التماثل . « عجيبة من أعاجيب اللانهاية لنا نحن الذين نخدع أنفسنا بعظمتنا الفارغة . »

وقد تفدُ عليك والدة الغلام ، بنجمان ، لتُعلمك انهم يستاقونه هو الذي لم تتجاوز سنهُ السابعة عشرة . وتتضرع اليك قائلة : « إنه ولد ، طفل ، بريئ . بالامس كان يرتضع ثديـي ، بالامس فقط . أيّ إثم قد اقترف حتى يستحق الموت ؟ »

وأنت لا تدري . وتحاول ، بأساليب الانسان الضالة البلهاء ان توقع العزاء في قلب الأم . ثم تمضي إلى الغلام ، فيتطلع اليك في ثقة غامرة ، ويسألك بعينيه ان تكشف له عن سر الموت الكبير .

وهكذا يتصرّم الوقت ، وليس ثمة في الوقت الحاضر غير عالمٍ واحد هو سجن اللوكسومبورغ .

●

في البدء ، كان الأمل يعمر قلب « بين » . كان لا يريد أن يموت . وهل ثمة انسان يريد أن يموت ؟ ثم ان « بين » لم يقترف جريمة ما ، ولم يتورط في أيما عمل من أعمال الخيانة ، بل كان ما يفتأ يعبّر عن ايمانه بالجمهورية والثورة جميعاً . صحيح انه تعاون وصوّت مع حزب

فقدَ الآن اعتباره وقُتّل رجاله ، ولكن حتى في هذه الحال لم تكن دوافعه موضع الريبة قط ، فبرّئت ساحته في حين سيق الآخرون إلى المقصلة . فعلام اذن يحبسونه في هذا السجن؟ خيانة؟ لو كان ثمة الف رجل يبغضون « بين » ، وكان لهم ان يتهموه بجميع الجرائم التي عرفها الانسان في تاريخه ، اذن لاطّرحوا تهمة الخيانة ، على الاقل ، من الحساب . إنه في اخلاصه لما يؤمن به لم يتردّد يوماً ولم يتعثر .

كذلك ما كان في مقدوره ان يرتضي مصيره بمثل اللامبالاة الضاحكة التي تكشّف عنها كلوتز أولاً ، ثم دانتون من بعده . ذلك بأنهما كانا يريان مسألة الجنس البشري كلها كوميديا مضحكة ليست المقصلة غير آخر دُعابة من دعاباتها . أما « بين » فقد أحب الحياة عمره كله . كان العيش في ذاته مغامرة بالنسبة اليه ، وكان كل وجه جديد يحمل اليه فلذة اضافية من السعادة . كانت تعمر قلبه روح اجتماعية متطرفة فهو لا يحب اخوانه في الانسانية وحسب ، بل يستشعر حاجة انفعالية اليهم ، ليس في ميسور المرء ان يحتمل الحياة بدونها . وكان يستحوذ عليه حسّ امتلاك عجيب ، لا يركز نفسه على بضعة فدادين حقيرة من الارض ، ولكن يعتنق العالم الاوسع كله .

وهكذا كان آملاً ، بادئ الامر ، وكان يناضل من أجل حريته . إنه لم يكن مواطناً فرنسياً فحسب ، بل كان قبل كل شيء وفوق كل شيء مواطناً من مواطني أميركة . لقد فطّم قطعة من تلك الارض ، وأرضعها ، ورآها تتحرر من قماط الاطفال وتشبّ عن الطوق . وإذن ففي استطاعته ان يلتمس العون في غير ما خجل ، من أميركة ، في ساعات الحرج والضيق هذه .

وإذْ بدا الأمر ، في عينيه ، بسيطاً إلى ذلك الحد فقد وجّه كلمة إلى أصدقائه — بارلو ونفر آخرين — سائلاً إياهم ان يضغطوا على موريس ، السفير الأميركي ، ويحملوه على العمل لاطلاق سراح « بين » . وإنما

كان الأمر على مثل هذه السهولة لأن الدولة الوحيدة التي كان في ميسور فرنسة الثورية أن تلقى عندها صداقة وودأ هي أميركة .

وكان في ذلك ما أوقع البهجة في قلب موريس . فلقد انقضى زمان هبّ فيه الشعب في وجه طائفة صغيرة من الرجال كانت خليقة بأن تحوّل الثورة الأميركية لخدمة أغراضها ، وكان « بين » هو زعيم الشعب آنذاك ، وكان الحاكم موريس واحداً من تلك العصبة الصغيرة . لقد انقضى زمان شُكلت فيه محكمة ثورية في فيلاديلفيا، وكان « توم بين » واحداً من اولئك الذين أقاموا تلك المحكمة ، في حين كان الحاكم موريس واحداً من اولئك الذين أصدرت المحكمة حكمها ضدهم . وقال موريس في ذات نفسه : « ما أبطأ ما تدور دواليب القدر ولكن ما أبرعها في الوقت نفسه ! » كم سنة تعيّن عليه أن ينتظر هذه اللحظة — اثنتي عشرة ؟ ثلاث عشرة ؟ إن الانسان لينسى السنوات ، ولكنّ ثمة أشياء ليس ينساها الانسان . ففي أرض الحانوتيين والخنازير هذه سار « بين » وكلوتز إلى السجن ، عبر شوارع باريس ، وهما يتناقشان بصوت عالٍ في شكلي الألحاد المستقلين اللذين يدعوان اليهما . اجل ، لقد سمع موريس بذلك . فما أمجدها فرصةً يستطيع فيها المرء ان يثأر لنفسه ويخدم الله في آن معاً ! وعلى سبيل الاستيثاق كتب موريس رسالة إلى جيفرسون ، الذي كان يمثّل كل ما تبقى في أميركة من الثورة ، ومن الشعب ، ومن المثل العليا التي خلقتها :

« ... يتعين عليّ أن أشير إلى انّ توماس بين في السجن ، حيث يتسلى بنشر كراسة ضد يسوع المسيح . ولست أذكر ما إذا كنت قد كتبت لك انه كان من المحتمل ان يُعدم مع سائر الجيرونديين لولا ان الحزب المناهض كان ينظر اليه نظرةَ احتقار . وإني لأميل إلى الاعتقاد بأنه إذا ما التزم الهدوء في السجن فقد يُسعفه الحظّ السعيد فيُنْسَى . على حين انه إذا ما ظُهّر كثيراً للعيان جديرٌ بأن يذهب ضحية الفأس

المُصلّتة على عنقه منذ عهد طويل . وأحسب انه يعتقد ان من واجبي ان أتدخل في قضيته بوصفه مواطناً أميركياً . ولكنّ مولده ، واكتسابه جنسيةَ هذه البلاد ، والمركز الذي شغله — كل هذه الاعتبارات تخيّل اليّ انْ ليس من حقي التدخل . واني لواثق من أن أيّ محاولة من هذا النوع خليقة بأن تكون، في الوقت الحاضر على الاقل، غير ملائمة وغير مجدية...

حتى إذا تم لموريس ذلك تقدّم ، مطمئن البال مرتاحَ الضمير ، إلى خدمة ربّه وبلاده جميعاً . وكانت الخطوة الأولى في هذه السبيل تقتضيه العمل على سَوق « بين » إلى المقصلة . وفي ذلك خدمة لله القادر على كل شيء ، في حين كانت الخطوة الثانية تقتضيه قطع العلاقات مع فرنسة لهذا السبب بالذات ، وفي هذا ما يُخضع خدمة الالـه الكليّ القــدرة لاغراض حزب هاميلتون الأميركي وأهدافه .

وقال موريس لبارلو :

— « ليس في ميسوري أن أعمل شيئاً لـ « بين » : إنه مواطــن فرنسي ، كما تعرف . »

— « ولكنه مواطن أميركي قبل كل شيء ! »

— « أفضّل ان اعتقد ان الأميركيين ليسوا من طبقته . انا اوثر ان اغذوَ قليلاً من الاحترام لبلادي ... »

وقال لروبسبير :

— « حقاً ، يا سيدي ، أنا لا أعترض سبيلك إذا كان اعدام « بين » ضرورة تقتضيها مصلحة الجمهورية الفرنسية . »

فأجابه روبسبير في حدّة :

— « وأحسب ان ذلك لن يسوءك . »

— « إن المرء لا يستطيع ان يتعهّد بشيء في مثل هذه الامور . »

فقال روبسبير وهو يرمق موريس بعينيه الصغيرتين اللامعتين غــير الرحيمتين مصعّداً ومسفّلاً :

— « ومع ذلك فلو قد ذهب « بين » إلى المقصلة اذن لعمّ الامتياء بعض اقسامٍ من بلادك . إن رجال الحرس الوطني الذين قاتلوا مع « بين » ، مثلاً ، قد يتذكرونه ويعترضون على مونه . وقد يتذكر جيفرسون أن « بين » كتب ذات يوم كتاباً يدعى حصافة . »

— « اؤكد لك يا سيدي انه ليس للحرس الوطني الذي تشتت شمله منذ عشر سنوات ونيف ، ولا لتوماس جيفرسون سلطانٌ كبير على السياسة الخارجية التي تتبعها حكومة الرئيس واشنطون . »

— « ومع ذلك فأن رئيسكم واشنطون نفسه إذا ما احتاج إلى مسبب ما — وارجو أن تفهم اني أتحدث من وجهة نظرية محض — قد يتذكر انه كان هو و « بين » في وقت ما رفيقي سلاح ، ومن ثم يفزع إلى استثارة الشعب الأميركي ... »

— « إذا كنت تُلمح ... »

فقال روبسبير في هدوء :

— « أنا لا أقترح شيئاً . ان حضرة السفير الأميركي هو الذي يلمح . وفي الوقت نفسه فأن السيدة الفاضلة المقصلة لتشرب مقادير كافية في هذه الأيام . وحين يأتي دور « بين » فعندئذ يذوق طعم العدالة الفرنسية . وحتى ذلك الحين يتعيّن على حضرة السفير الأميركي ان ينتظر في صبر . ان على حضرة السفير ان لا يتوقع من الجمهورية الفرنسية ان تسخّر محاكمها لاغراضٍ شخصية ... »

فقال موريس :

— « كفى ، يا سيدي ، كفى . »

ومع ذلك فقد كان قانعاً ، على الجملة ، بأن ينتظر . لقد انتظر دهراً طويلاً فأيّ بأسٍ في أن يصبر بضعة أسابيع ، أو بضعة أشهر أخرى ؟

●

ولم يعرف « بين » بشيء من هذا ، فيما كانت أسابيعه في سجن اللوكسومبورغ تتطاول لتصبح أشهراً . لقد سمع بأن الأميركين المقيمين في باريس رفعوا عريضةً إلى المؤتمر الوطني في طلب الافراج عنه ، وسمع بالجواب الساخر الذي ردّ به رئيس المؤتمر العجوز على العريضة . ونُمي اليه ان مراسلات قد جرت بين موريس ووزير الخارجية الفرنسية ، فلم يخامره ريبٌ في حسن نيتها . صحيحٌ ان موريس ما كان يحبه ، ولكن المرء لا يبعث بالرجل الذي يكره ، إلى القبر . حتى إذا تراخت الأيام ولم تثمر هذه المساعي عن شيء راهن خمدت آمال « بين » ولكنها لم تنطفئ يوماً انطفاءً تاماً .

وازداد الهول هولاً ، وتسارعت مواكب الضحايا إلى السيدة المقصلة. وران على سجن اللوكسومبورغ صمتٌ راعب ، وصدرت الأوامر بالمبالغة في التضييق على المسجونين ، وبقطع كل اتصال بينهم وبين العالم الخارجي . وكرّت الاسابيع والشهور ، ولم يغادر ايما رجلٍ منهم محبسه الا لسبب واحد ليس غير .

وآن لكلوتز ان يمضي لسبيله ، فلوّح لـ « بين » ضاحكاً :

– « والآن يا صديقي المؤمن ، سوف أرى اينا المصيب في مسألة الالـه هذه ، فيما تجلس أنت هنا وتتعب دماغك المسكين . »

وإذ مضى دانتون في تلك السبيل إلى الشفرة الدامية نفسها ، صافح « بين » مبتسماً في شيء من الحزن ، مغمغماً :

– « يا له من عالم أبله ، لا يصلح لغير الأطفال والمجاذيب ! »

وقال لوزون ، في رفق ، وفي اتقاد :

– « إلى اللقاء ، يا صديقي « بين » . إنك لن تعدم الرفاق إذا ما كانت عندهم ، هناك ، جمهوريات . »

وقال رونسين :

– « سوف تغدو وحيداً يا « بين » . إن العالم الذي نعرفه قد انقضى

من زمان . »

وفي احدى الليالي سيق إلى مستنقع الموت عشرون ، ثم سيق في التي بعدها أربعون ، ثم مئتان أو يزيد في أخرى رهيبة . ولم يعد « بينوا » اللطيف هو القيّم على السجن . لقد حلّ محله في ذلك القصر القديم وحشٌ ساديّ غليظ يُدعى غيبار . فما كان منه إلا أن أوصد الفناء في وجوه المساجين ، منكراً عليهم قليلاً من الهواء وقليلاً من السماء قبل أن يواجهوا الموت . ولقد قال لهم :

— « تحدّثوا أسْمَعْ أحاديثكم . واتتمروا أكشِفْ مؤامراتكم . إنّ غيبار لا ينام البتة . »

وكان ذلك صحيحاً ، بمعنىً من المعاني . فقد ملأ المكان بعيونه وجواسيسه ، فإذا الكلمة الواحدة كافية لأن تدفع بالرجل إلى المقصلة .

وفي هذا الجحيم غدا « بين » شيئاً أكثر من رجل ، غدا روحاً وايماناً ، وعزاءً وفداءً . لقد عرف متى ينبغي له أن يبتسم ، وكانت البسمة هي الشيء الوحيد الذي يمكن تقديمه إلى هؤلاء الشياطين المساكين. لقد عرف الكلمات القليلة القادرة على ان تبعث بالمرء إلى قبره ، وعرف عبارةً تمكنه من ايقاع العزاء في قلب احدى الامهات. كان ثبت الجنان غير هيّاب ولا متردد . كان شاحب الوجه ، متدهور الصحة ، ومع ذلك فقد كان في مجرّد إطلالته بجسمه الضخم ذي الزوايا ما يبعث البشر في نفوس المعتقلين فيهتفون : « إنه مسيو « بين » ، أدْخلْ . أدْخلْ . » وكانت لديه ثروة من الحكايات ، ومن النكات الأميركية ذات الجرَس الكسول ، التي لم تكد تعني ، بعد ترجمتها إلى فرنسيته البالغة الرداءة ، شيئاً على الاطلاق ، ولكنها كانت من الظرف والبلاهة بحيث تنتزع الضحك الموجِع من صدور أولئك الشياطين البائسين . كذلك عرف متى ينبغي له أن ينثر الطرب والحبور ، ومتى ينبغي له أن يصمت. وعرفَ الأحوال التي كان مجرد وجوده فيها كافياً ، والأحوال التي كانت

الكلمة الواحدة فيها كافية .

وقال رجلٌ بعد رجل ، وامرأة بعد امرأة ، ممن اقتيدوا إلى مستنقع الموت :

— « إيتوني بالمواطن « بين » . »

●

واضطجع في غرفته العارية، وركبته الحمّى فهو يشكو الحرارة ويشكو البرد . وفقدَ الزمن معناه بالنسبة اليه ، واضمحلّ . وعاودته الحمّى وزايلته ، مثل موجات النار المتراوحة ، وعاش في عـالم من الكوابيس ، آهلٍ بالقديسين والشياطين . وأحسَّ إحساساً مبهماً أن الناس يدخلون ويخرجون . وحملته الصيحات والولولات على أن يتساءَل ، في بعض الأحيان ، أين هو . وفي لحظة من لحظات الصفاء سمع رجلاً يقول :

— « هذا المسكين يحتضر . »

ولم يهمّه ذلك إلا قليلاً ، أو لم يهمّه البتة ، فقد كانت الحمى تعاوده دائماً ، فتحرقـه بنارها ، ثم تبعث في جسمه البرد ، ثم تحرقه بالنار من جديد .

وأخيراً ، وبعد فترة طويلة ، طويلة ، استعاد صحته . وسأل عن الشهر الذي هو فيه .

— « تموز ... »

وعدّ :

— « كانون الثاني ، شباط ، آذار ... »

— « ألا أزال في اللوكسومبورغ ؟ »

— « تماماً ، أيها المواطن . ولكن الامور قد اختلفت . لقد مات

روبسبير ، ومات سان جوست . تشجّعْ أيها المواطن . لقد زال عهد الهول والارهاب . »

وتنهّد « بين » :

— « زال عهد الهول والارهاب . »

ونام تلك الليلة عن غير أن يرى أحلاماً .

●

من العسير على المرء ان يستردّ قوته في السجن ، حتى ولو لم يعش في خوف من الموت مقيم . وتطلّع « بين » إلى وجهه في المرآة — كرة أخرى — فطالعَهُ رجلٌ غريب أشيب ذو وجهٍ غائرٍ تملأه التغضنات والتجاعيد . وابتسم « بين » . لقد كانت الصورة غريبة عنه إلى حد بعيد ، وكانت الابتسامة التي عكستها المرآة جوفاء ساخرة .

وكان الوحش ، غيبار ، قد أقصي بسقوط حكومة روبسبير . ومنَحَ آردين ، السجان الجديد ، رعيّته حرية التجوّل في فِناء القصر . وهكذا صار في ميسور « بين » أن يتمشى في ضوء الشمس المبارك . وكان ذلك في فصل الصيف فهو يستروح عبير الازهار ، ويراقب المتنزّهين في الحدائق ، ويمعن النظر في السحب الرقيقة التي تذروها الريح فوق رأسه. لقد تغيّر جوّ اللوكسومبورغ كله . كان لا يزال سجناً ، ولكنه لم يعد بيتاً من بيوت الموت . كان المعتقلون لا يزالون يغادرونه عشرةً عشرةً ، وعشرين عشرين ، ولكنهم كانوا يجوزون الابوابَ ، الآن ، إلى عالم الحريـة .

ولم يكن عند « بين » ما يعمله في تلك الفترة غير التفكير — غير التأمل في احداث الستة الأشهر الخالية ، والصمت الغريب الذي خذلَهُ في محنته تلك يوم كان اللوكسومبورغ موطناً من مواطن الذعر والهول .

لماذا لم يبذل موريس أيما جهدٍ يعيد اليه حريته السليبة ؟ كذلك سأل نفسه . لماذا التزمت الدولة الاميركية هذا الموقف السلبي التامّ ؟ ألم يكن القاء « بين » في غياهب السجن ، ليعني شيئاً عند جورج واشنطون ؟ وذهابه إلى المقصلة في يوم من الأيام – من يدري ؟ – ألم يكن ليعني شيئاً عنده أيضاً ؟ إن موقف واشنطون كله كان يستعصي على الفهم والتفسير . لماذا لم يعبّر قط عن شكره لـ « بين » الذي اهدى « حقوق الانسان » اليه ؟ أنسي أن الدولة التي يرأسها اليوم إنما هي ثمرة من ثمرات الثورة ؟

وخلال الايام الطويلة التي قضاها « بين » في استعادة نشاطه راح يفكّر في ذلك الذي حدث لأميركة أثناء السنوات الماضية . وكان أصعب الاشياء على نفسه ان تتزعزع ثقته في ذلك الرجل الذي بدا له – طوال سنواتٍ عديدة – أحسن وأخلص من أيما رجل عرفه في حياته : جورج واشنطون .

ثم ان شعاعاً من أمل تراءى له . ذلك بأن الحاكم موريس لم يعد سفيراً لأميركة في باريس ، بعد أن أسند ذلك المنصب إلى جيمس مونرو ، الديموقراطي الجيفرسوني . وفي لهفة وشوق ، ترقب « بين » وصول مونرو ، حتى إذا تقلّد مهام وظيفته بصورة رسمية وجّه اليه رسالة طويلة يبسط فيها قضيته ويدعوه إلى ان يبذل جهداً ما لاطلاق سراحه . فأجابه « مونرو » بجواب مستبشرٍ آملٍ قال فيه إنه معنيّ بقضيته ، وان « بين » خليق بأن يتوقع الخروج من سجنه في وقت قريب .

ومع ذلك فلم يستردّ « بين » حريته . لقد انقضت شهور الصيف ، وأطلّ شتاء جديد، ونعم السجناء الذين كانوا مع « بين » في اللوكسومبورغ ، نعموا كلهم تقريباً ، بالحرية . ولكنه ظل هناك لا يريم . وعاودته الحمّى ، ونشأت البثور في جنبه ، ورزح جسمه القوي الضخم ، آخر الأمر ، تحت ثقل عشرة أشهر من الحبس . وعجزت يده ، أو كادت .

عن الامساك بالقلم ، ومع هذا فقد كتب إلى مونرو كرةً أخرى .

ووفد بارلو لزيارته . وتطلع اليه بعينين كليلتين ، ولكن « بين » لم ينبس ببنت شفة .

— « بين ؟ »

وهمس « بين » :

— « ما كنتُ آبه للموت في يوم من الايام . ولكنّ اقتلاع الروح على هذه الشاكلة شيء لا أقوى على احتماله . »

ثم إن مونرو كتب إلى « لجنة السلامة العامة » يقول :

— « إن الخدمات التي قدمها « بين » إلى شعب الولايات المتحدة الأميركية في نضاله من أجل الحرية تجعل له فضلاً على البلاد لا يمكن أن يمحى ، ما دام الشعبُ الأميركي مستحقاً صفة الشعب المستقيم الكريم . انه الآن في السجن ، يعاني آلاماً من المرض يزيد السجن في شدّة وطأتها عليه . فاسمحوا لي إذن أن ألفت نظركم إلى حالته ، وأن أسألكم التعجيل في محاكمته إذا ما كانت ثمة تهمة ما موجهة اليه . أما إذا لم تكن ثمة تهمة فرجائي اليكم ان تصدروا الامر بأطلاق سراحه . »

وهكذا كان . ففي تشرين الثاني سنة ١٧٩٤ أُخرج « بين » من سجن اللوكسومبورغ ، رجلاً آخر غير الذي دخله من قبل ، رجلاً مريضاً هرِماً مشتعِلَ الرأس شيباً .

الفصل الرابع عشر

نابوليون بونابرت

عاش « بين » بعد إطلاق سراحه مع أسرة مونرو ، مستعيداً قوته في بطء بالغٍ جعله ييأس من العافية . وما كان أحدٌ ليتوقع له العيش . لقد كانوا على مثل اليقين من انه مائت وشيكاً ، ولقد حملهم ذلك على أن يُرسلوا نبأ وفاته عبر المحيط ، إلى أميركة .

ومع ذلك فلم يمت « بين » . لقد استطاع جسده القوي السميك كالجلد أن يحتمل مقداراً مخيفاً من العذاب والالم ، وها هو ذا يستشعر من النشاط ما يساعده على أن يسأل عن مخطوطة « عصر العقل » .

وأعاد النظر فيها مبتهجاً . كانت في بعض أقسامها ناقصة ، ولكنها كانت في بعضها الآخر بارعةً ، متقدة الأوار ، تذكّره بروحه الأولى . وكان يودّ أن يضيف اليها أشياء جديدة ، ولكنه آثر أن يرى إلى هذا القسم المُنْجَز يُنشَرُ الآن . دع الملاحدة يقرأونه ، ويجدون شيئاً جديراً بأن يؤمنوا به .

وفي الوقت نفسه تحولت أفكاره أكثر فأكثر نحو أميركة . ذلك بأن

شيئاً قليلاً جداً كان قد بقي له في فرنسة ، إن لم نقل إنه لم يبقَ له فيها شيء . لقد سجنته الثورة ، وطردته ، وانحرفت عن المبادئ التي بشّر بها . أما في أميركة فكان الوضع مختلفاً . فهو لم يبلغ سنّاً تجعل النضال متعذراً عليه ، وخليقٌ به إذا ما عاد إلى تلك الديار التي أحبها أعظم الحب ان يستأنف نضاله من أجل الحرية ، محارباً تلك الرجعية الغريبة المظلمة التي سيطرت على الدولة منذ أن قامت حكومة « جورج واشنطون » . الدنيا شتاء الآن ، ولن يُطلّ الربيع من جديد حتى يكون قد بلغ من القوة ما يمكّنه من الرحلة إلى أميركة .

ثم إن المؤتمر الوطني دعاه كرةً أخرى ، وأعاد اليه كرسيّه كنائب من نواب فرنسة . وسُرّ مونرو بذلك وقال :

— « ترى يا « بين » ان في هذا تبرئةً لك — إنه اعتراف أخير بالظلم الذي أنزِل بك . وفي استطاعتك الآن ، بعد أن استعدت صفة المواطن « بين » ، ورجعتَ زعيماً للديموقراطيين الاحرار في طول العالم وعرضه — في استطاعتك ان تتخذ مقعدك في المجلس التمثيلي لفرنسة الجمهورية . »

ولكنّ « بين » لم يجد في ذلك نصراً ما . كان مروّعاً مخاوع الفؤاد ، أو يكاد . ذلك بأن العشرة الاشهر التي قضاها في السجن لم تحرمه قوته الجسدية فحسب ، بل سلبته مرونة عقله أيضاً . انه أعجز من أن يحتمل فترة أخرى من فترات الهول . وإنّ تقوّضاً جديداً يصيب كل ما عاش من أجله وعمل بسبيله خليق بأن يكون شراً من الموت .

من أجل ذلك جلس « بين » وكتب إلى المجلس التمثيلي الرسالة التالية :

« اني لأعتزم أن أقبل الدعوة التي وجهتها اليّ الجمعية . ذلك بأني أرغب في أن يعرف العالم انه برغم اني كنتُ ضحية للظلم لا اعزو الآلام التي قاسيتها إلى اولئك الذين لم تكن لهم يد فيها ، واني أبعد ما أكون عن الاثّار حتى من اولئك الذين انزلوها بي . ولكنْ لمّا كنتُ

مضطراً إلى أن أسافر إلى أميركة في الربيع القادم أحببت أن أشاوركم في الوضع الذي أجد نفسي فيه ، لكي لا يكون في قبولي العودةَ إلى المؤتمر الوطني ما يحرمني حقّ العودة إلى أميركة . »

ولكنهم حرموه حتى هذا الحق بالذات . ثم ان مونرو رغب في أن يحمّل « بين » بعض الأوراق الهامة إلى أميركة . ولكن « لجنة السلامة العامة » أجابت بأنه ليس في الامكان الاستغناء عن « بين » البتة .

وهكذا أقام « بين » في المؤتمر الوطني ، عجوزاً ضعيفاً أبيض الشعر ، ينهض بين الفينة والفينة ليقول بضع كلمات ليس يستمع اليها أحد : كان يحسّ انه في شَرَك وانه عاجز لا سناد له .

ثم إن « عصر العقل » وُزِّع في انكلترة وأميركة .

لقد استعاد الشبابَ ، أو كاد ، حين راحَ يعمل إلى جانب ناشر فرنسي ، ملتمساً واياه عاملاً يُحسن تنضيد الحروف باللغة الانكليزية ، وحين استروح من جديد ذلك العبق اللذيذ المنبعث من حبر الطباعة الطريء ، ذلك العبق الذي أثار جميع الذكريات الماجدة الاثيرة على فؤاده .

كان « عصر العقل » هو قانون إيمانه ، وآخر مؤلفاته ، وتَقْدِمتَه إلى الله وإلى الطيّبين من الناس . كان طعنَةً للجحود والالحاد ، وإعلاناً عن ايمانه المتقد بالآله خيّر رحيم ، وبقدرة الانسان على الاتصال بذلك الآله من غير ما إكراه ولا خرافة . وها هو ذا قد نُشِر الآن ، وارسلت كمية من نسخه إلى انكلترة ، وكمية أخرى إلى أميركة . وها هي ذي النصال تتكسر على صدر المؤلف .

كان ثمة ، قبل ذلك ابليس واحد . أما الآن فصار هناك ابليسان : إبليس نفسُهُ وتوم بين . لقد تضافرت جميع الفرق الدينية على مهاجمة هذا الشيطان الذي القى ظلاً من الشك على الدين النظامي كله . وحتى في فرنسة قذفت عناصر الرجعة هذا المحارب القديم المُتْعَب ، بسهامها .

لم يكن ثمة تفهّم ، أو عطف . لم يكن ثمة غير الاساءة ، والاساءة ، والاساءة . لقد حبلت مخيلة خَدَم الالـه بمعجمية كاملة من الكلمات البذيئة الدنيئة لألصاقها بتوم بين ، وأطلقوا عليه صفاتٍ لم يعرفها العالم من قبل ، مقرّرين في اختصار انه لم يدبّ على ظهر الارض منذ الخليقة انسان أكثر خبثاً وأشدّ فجوراً من « بين » . ولم يردّ « بين » على أكثر هذه الهجاءات . فلو قد كان مخطئاً إذن لكان موقفهم منه غير هذا . لو كان مخطئاً لانصرفت همّتهم إلى إثبات خطأه ولم يمطروه بالقذر . وإذ اقتنع بأنه على صواب فلم يرَ حاجة إلى أن يضيف شيئاً ما إلى حججه .

ومع ذلك فقد سِيْقَ مرة بعد مرة إلى الردّ ، فعَلَهُ عندما هاجمه وايكفيلد ، الموحّد الانكليزي . فقد كتب اليه « بين » :

« عندما تسدي بكتاباتك خدمة إلى العالم كالتي اسديتُها أنا ،وتقاسي من الآلام بسببٍ منها على قَدْر ما قاسيت أنا ، تكون أكثر جدارة أن تملي ... »

كان مُتْعباً إلى أبعد الحدود ، صريعَ المرض من جديد . وتسامع بالرّجْع الذي أحدثه كتابه في أميركة ، فاذا به غير مقصور على الاساءة والشتيمة شأنه في انكلترة . لقد انتصر له نفرٌ هناك وأيدوه في ما ذهب اليه . كان ثمة بعض الرفاق القدماء الذين لم يتنكروا له ، والذين لم ينسوا كيف يفكرون — فهم يبيعون نسخاً كثيرة من كتابه .

وفي تعب بالغ قال لمونرو :

— « أريد أن ارجع إلى الوطن . لقد بلغ مني التعب مبلغاً عظيماً . »

كان ثمة الآن شيء يدعى « الوطن » . كان العالم قريته ، ولكنه أقام الآن على التفكير بأودية أميركة وكثبانها الخضراء . كان رجلاً عجوزاً في أرض غريبة . وكان كثير من الناس يكرهونه أكثر مما يكرهون أيما رجل في العالم كله — على حين كانت قلة تحبه أكثر مما تحب أيما رجل في العـالم أيضاً . لقد تحمّلت كتفاه العريضتان الاساءة طوال

عشرين عاماً ، فهي الآن مُتعبة تنوء بالعبء .

وقال مونرو :

— « اني لأشك في ما إذا كان نشر « عصر العقل » عملاً حكيماً يا « بين » . ففي أميركة ... »

فصاح « بين » :

— « ومتى كنتُ حكيماً ؟ أكان من الحكمة أن أربط مصيري بمصير شرذمة من المزارعين كان العالم واثقاً من انهم سوف يُهزمون قبل أن يبدوأ القتال ؟ أكان من الحكمة أن أنادي بالاستقلال قبل أن يجرؤ أيّ من الرجال العظام في الوطن على التأمل في تلك الفكرة ؟ أكان من الحكمة أن أقدّم لانكلترة عقيدة ثورية ثم أفرّ ناجياً برأسي ؟ أكان من الحكمة أن أنفق عشرة أشهر في ظل المقصلة ؟ لقد كنتُ أشياء كثيرة ، ولكني لم أكن يوماً فطناً ولا حكيماً . ذلك شيء يتحلّى به الأبطال والرجال العظام ، لا صانع مشدات مثلي ! »

ورُسمت صورة « بين » وقد جُعل لها قرنان ، وعلقت على جدران كثيرة من البيوت الانكليزية . وقدّمت الحانات أكواز الجعة وعليها صورة « بين » وقد كتب تحتها : « إشربوا مع الشيطان . » وفي مئة كنيسة في مئة يوم من أيام الاحد دارت المواعظ الدينية على محور « توم بين » ، الجاحد المرتدّ . وفي لندن وليفربول ، ونوتنغهام ، وشيفيلد أضرِمت النار في أكداس من مؤلفات « بين » ، بينا كانت الحشود ترقص حول النيران صائحة :

« بين ، بين ، ليكن اسمه ملعوناً ،
لتكن لعينة شهرته وسرمدياً عاره .
لعن الله « بين » ، لعن الله بين ! »

وزارته الحمى من جديد ، فاضطجع في فراشه وانشأ يفكر في انه مشرف على الموت . وما كان ليبالي بذلك . لقد قلّب في ذاكرته ضروب

الاهوال التي عاناها أيام سجنه ، فاذا بغيظه يتركز على رجل واحد ، هو جورج واشنطن .

كان ثمة آخرون : موريس وهاملتون ، وسائر افراد العصبة القائمة بالثورة المضادة . ولكن هل قدس هو أحداً من الرجال كما قدس جورج واشنطون ؟ لقد ذكر كيف صافح واشنطون ، الارستوقراطيّ والرجلُ المعدود أغنى أغنياء أميركة ، « توم بين » الذي لم يكن شيئاً مذكوراً . لقد ذكر كيف توسّل اليه واشنطون ، يوم فالي فورج ، أن يذهب ويدافع عنه أمام الكونغرس . لقد ذكر كيف كتب ، هو « بين » ، ذات يوم : « إن اسميَّ واشنطون وفابيوس * سوف يجريان أبدَ الدهر جنباً إلى جنب . »

واذن فما كان لينقم على الآخرين ، ولكن على جورج واشنطون بالذات . إن أولئك لم يخونوه ، وليس له من حقّ عليهم . فقد كان واشنطون هو الذي بعث بموريس سفيراً إلى فرنسة الجمهورية ، وكان واشنطون هو الذي وجّه « جاي » إلى انكلترة ليدنس شرف أميركة ، وكان هو الذي تجاهل « حقوق الانسان » المهداة اليه ، ومفتاح الباستيل المقدّم له . لقد أدار واشنطون ظهره للشعب وللديموقراطية .

وإذ كان في مثل حاله من المرض والاجهاد فلم يكن في ميسوره أن يفكّر في الأمور تفكيراً هادئاً ويزنها في ميزان صحيح . لم يكن يعرف ما الذي قيل لواشنطون عنه ، ولم يكن ليبالي بذلك . كل ما كان راغباً فيه هو أن يصرخ في وجه هذا الرجل الذي اعتقد « بين » انه خانَ صديقاً وقضيةً في آن معاً . واذ اعتقد انه على وشك ان يموت فقد صبّ غيظه ، في رسالة كتبها ، على رجل آثره في يومٍ بأعظم الحب ، كما لم يؤثر أبما رجل آخر في العالم :

وتوسل اليه مونرو أن لا يبعث بالرسالة قائلاً :

---

* قائد روماني شهير .

— « انها لن تحقق شيئاً . صدقني إذا قلت لك انها لن تحقق شيئاً ، وانها لن تعود عليك الا بأعداء جدد . كم سنة انقضت على مغادرتك أميركة ؟ ان واشنطون لا يعدو أن يكون رجلاً . والرجال ينسون . »

فقال « بين » :

— « ولكني أنا لم أنسَ ! »

وأمسك عن توجيه الرسالة فترة من زمان ، ثم انه بعث بها لتُنْشَر على الملأ .

●

وأقام « بين » على حضور جلسات المؤتمر الوطني بوصفه نائباً عن « كاليه » . وعندما أخمد الترميدوريون * احدى الانتفاضات الشعبية بقوة السلاح ، وأنكروا على الشعب الحق في أن يكون له صوت في الحكومة مشترطين في الناخب ان يكون مالكاً ثروة عقارية بعينها — عندما اقدمَ الترميدوريون على هذه الخطوة نهض في قاعة المؤتمر الوطني رجل عجوز ضعيف وهاجمهم هجوماً عنيفاً . وحتى في ذلك الحين كان في ميسور « بين » أن يذكر آلام جنبه المقرّح فيما وقف هناك أمام صفّ إثر صف من الوجوه المعادية . لم يكن ثمة نظارةٌ زاعقة تحمل طعامها الملفوف بالورق وتأكل وهي تهتف أو وهي تصفر . ولم يكن ثمة متطرفون متقدون يطالبون بالموت لمن يخالف إرادة الأمة ، ولكن متشرعون متبلدون ، ممتلئو البطون ، كان من همّهم ان يجهزوا على البقية الباقية مما كان في وقت ما حركةً تهدف إلى تحرير الانسان .

وتطلعوا إلى « بين » وتهامسوا :

* لفظ يطلق على العناصر التي وفقت في ٩ تيرميدور (٢٧ تموز ١٧٩٤) الى إسقاط روبسبيير وإنهاء عهد الهول والارهاب . (المعرب)

— « أليس عند هذا المجنون العجوز فهمٌ البتة ؟ ألم تكن الشهور العشرة التي قضاها في اللوكسومبورغ كافية ؟ ام انه يتعين علينا أن نعيده إلى هناك حيث يقضي بقية عمره كله ؟ »

— « وماذا يريد الآن ؟ »

— « حق التصويت الدستوري . »

— « أجل ، هو يريدهم أن يصوتوا . دع كل شحاذٍ يصوّت وعندئذ تقوم القيامة وينتهي العالم . »

— « يجب أن نعارض كل محاولة من هذا النوع . »

وقال نائب آخر في لهجة مُتْعَبَة :

— « دعوه يتكلم . إن أحداً لا يصغي اليه . »

وتحدّث عن حق التصويت الدستوري ، عن حقّ كل كائن بشريّ في الاقتراع . كان بارعاً في اكتساب الاعداء ، بارعاً في قول الكلمة غير الملائمة في المناسبة غير الملائمة ، بارعاً في جَعْل الناس يكرهون « بين » بأشدّ مما كرهوا أيما رجل آخر ، في أيما وقت آخر . وفيما كانت مئات الاصوات تصرخ الآن في وجهه قال بعضهم :

— « أيكون من العسير ان نتسامح مع هذا الرجل الذي لم يتكشف يوماً عن أقلّ قدْرٍ من عدم التسامح نحو أحد من الناس ؟ »

لا ، إنه لم يفقد قط إيمانه . وإنه لم يتنكّر للديموقراطية ، ولكنها هي التي تنكّرت له — في عهد الترميدوريين ، ثم في عهد حكومة الادارة ، وما عقبَ ذلك من تقوّض أركان الثورة وسقوطها نهائياً .

●

وأصابه الكلال كما يصيب الخفير أو كما يصيب الساعة . وكفّ عن النشاط في الحقل الوحيد الذي كان مؤهلاً للعمل فيه — حقل الثورة .

والحقّ انه ما كان في استطاعة شيء أن يوقع في قلبه مثل هذا الضعف والفراغ — لا الكراهية التي أثارها كتابه «عصر العقل»، ولا المرض، ولا صمت رفاقه القدماء في أميركة. لقد أوقع ذلك في قلبه مجردُ التفكير في حقيقة بسيطة هي انه كفّ عن العمل لتحقيق هدفه العظيم.

وكتب بعض الشيء، فقد كان كاتباً، وكان خليقاً بأن يخربش بالقلم حتى في ساعات عمره الأخيرة. وتذكّر بنجامان فرانكلين العجوز الذي كان فيلسوفاً وعالماً حتى يوم وفاته، وقال «بين» في ذات نفسه إن في ميسوره هو أن يعبث بالفلسفة والعلم وبالآلات الصغيرة والنماذج والمخترعات التي كانت تنمّ عن عبقرية ولكنها لم تكن تعني شيئاً أكثر من شقشقة صوت هدر في وقت ما هديراً ثابتاً قوياً، واذْ قد استعصى إسكات ذلك الصوت بالكلية فقد اتخذ هذه المجاري الصغيرة العابثة.

وهكذا تحطم وانهار. وفيما كان الناس ينسونه كان فجر جديد يبزغ، هو فجر القرن التاسع عشر. هل قال مجنون ذات يوم: «اعطوني سبع سنوات اكتب «حصافة» لكل أمة من أمم أوروبة؟» لقد نُسي هذا أيضاً. والواقع ان الموجة التي أثارها — موجة الرجل العادي الطامية — لا يمكن ان تزول، ولكنها قد تغور فترة في الظلمة لتبرز بعدُ كرةً ثانية تدفعها قوّةٌ جديدة عارمة. بيد ان ذلك ما كان ليوقع العزاء في قلبه هو، «توماس بين» الثوريّ. لقد أخفق. وإن قوى الظلام لآخذة في الظهور والاستعلاء.

وأهمل مظهره الآن إهمالاً تاماً، وهو الذي لم يكن في يوم من الايام حريصاً على أن يبدو على قدر من الاناقة وحسن الهندام. صار يحلق ذقنه مرة كل أسبوع، أو في فترات أطول من ذلك في بعض الاحيان. وأخذ يرتدي ثوباً من كتان قذر، وينتعل مشاية عتيقة من لبد كانت أصابع رجليه تندفع منها على نحو بائس. وكان يذرع غرفته في تثاقل، جيئة وذهوباً، ليقف حيناً بعد حين، مطأطئ الرأس، وكأنما

يحاول أن يتذكر شيئاً نسيه منذ قريب .
ما الذي نسيه ؟ أن الاجراس كانت تُقرع في لاكسينغتون ؟
وكان الشراب صديقه منذ القدم . كان صديقه حين عز الاصدقاء ، وليقل مكافحو المسكرات ما يشاؤون ، فجسده مِلْكه هو . ويوم كان ذلك الجسد صالحاً قوياً شديد البأس اصطنعه في غير اقتصاد ولا ادخار ، وكان اصطناعه إياه لغير مصلحته الذاتية . وها هو ذا الآن هرِمٌ متهرئٌ سقيم ، وإذا ما فزع الى الشراب ليخفف من وطأة الألم والوحدة على نفسه فذلك من شأنه هو ، لا من شأن الآخرين .
وكان قد بقي له صديق أو صديقان بين الباريسيين . إن الفرنسيين لشعبٌ طيب ، صالح ، صبور — شعب متمدن . كانوا يفهمون أشياء مثل هذه . فالرجل عندهم رجلٌ ، لا إلٰه ، فكانوا إذا ما رأوا إلى « بين » هابطاً الشارع ، قذراً ، متثاقل الخطو لم يضحكوا عليه أو يستهزئوا به بل ألقوا التحية على من كان في يوم ما رجلاً عظيماً .
— « طاب صباحك ، أيها المواطن بين ! »
إنهم لم ينسوا في سهولة ويسر . ولو قد كان ثمة خمسة رؤوس خارج الخمارة ، منكبّة على احدى صحف باريس الصغيرة المتسخة ، تحاول ان تفك رموز سياسة تاليران المعقدة ، واتفق ان وفد عليهم المواطن « بين » ، اذن لفزعوا اليه واستطلعوا رأيه .
— « عم صباحاً أيها المواطن . هذا الرجل تاليران ... »
فقال « بين » :
— « أنا أعرفه معرفة جيدة . »
ولم يجدوا شيئاً غريباً في هذا الكلام يقوله ذلك المخلوق البائس . ذلك بأنه كان منذ عهد غير بعيد دقيق الصلة بتاليران .
وقال « بين » :
— « لقد جاء يسألني النصيحة . أنا لا أحبّه . »

ولم يجدوا شيئاً غريباً في ذلك أيضاً . لقد أصبح احد الملوك شحاذاً وأصبح احد الشحاذين ديكتاتوراً . ألم يعيشوا خلال هذه العهود كلها من غير ان يعرفوا العُرى العريضة التي كان دولاب الحظ يصنعها ؟

وفي الحانة كان الخمّار روحَ الكياسة الهادئة . لقد سقى دانتون ، وسقى كوندورسيه ، وها هو الآن يسقي المواطن « بين » . لقد رأى امجاداً لم ينقضِ عليها دهرٌ طويل ، وانه ليحاول ان لا يقع طرفه على رجل عجوز قذر .

— « اريد الصنف الافضل . » قال ذلك حانياً رأسه ، دافعاً اليه فرنكاً كان جيبه ينوء بأنفاقه .

وعلى هذا النحو اعتزل المواطن « توماس بين » حياة فرنسة العامة .

●

كان يعيش مع اسرة بونفيل رجلٌ عجوز يدعى « بين » ، رجل ضعيف لا غناء فيه ، يعبث بهذا الشيء حيناً ثم بذاك حيناً آخر ، ليكفَّ في بعض الاحيان عن العمل الذي كان ينهض به ، وقد علَتْ وجهه المتغضّن انطباعة ذهول متلمّس . كان مولعاً بسقطات الذاكرة القصار ، ولم يكن معنيّاً بأمر النظافة . كان يخرج في بعض الاحيان فيطوّف في شوارع باريس ليرجع بعدُ إلى البيت وتحت ذراعه زجاجة من البراندي لُفت في صحيفة من الصحف ، فيوصد الباب خلفهُ ، ويشرب نصف الزجاجة في ساعة واحدة . حتى إذا تعتعه السّكْر أمسى مدعاة للازعاج — وهي حال كان آل بونفيل يحتملونها في صبر بالغ . حتى إذا سألهم جارٌ فضوليّ عن ذلك أجابوه في كثير من البساطة :

— « إنه رجلٌ عظيم كما ترى ، بل انه واحدٌ من أعظم الرجال الذين عرفهم العالم في تاريخه كله . ولكن العالم سريعٌ جداً ، وإنّ عليك

أن تعدو لكي تلحق به . وهذا الرجل قد بلغ من العمر سناً عالية لا تمكّنه من العدو كالارنب البريّة ، ومن أجـل ذلك نسيَه العالم . أما نحن فلم ننسَه . »

وكان نيقولا دو بونفيل صاحب جريدة ، وكان متحرراً وجمهورياً . وكانت زوجته امرأة شابة كريمة النفس تؤمن في حماسةٍ وحرارة بكلّ ما يؤمن به زوجها . فلم يكد يحدّثها عن عظمة « توم بين » حتى حنت رأسها وأقرّته على ما ذهب اليه . كانت تنحدر من أسرة ريفية ، وتتحلى بتسامحٍ ريفي نحو وساوس الشيوخ وغرابة أطوارهم ، وبسبب من هذا وبسببٍ مما قاله لها زوجها أخذت نفسَها بالصبر على هذا الرجل العجوز الذي كانت غرفته ركاماً فوضوياً من الصحف والكتب والمخترعات الآلية الصغيرة ، وزجاجات البراندي الفارغة ، والمخطوطات المتعددة التي ظهر بعضها بين الفينة والفينة في صحيفة زوجها .

وذات صباح من خريف سنة ١٧٩٧ وفد على منزل بونفيل رجلٌ قصير القامة بدينٌ وسأل عن المواطن توم بين . وحدّقت السيدة بونفيل اليه ، بادئ الأمر ، في شيء من الانكار ،حتى إذا عرفته انفجرت في ترحيب هائج ودعته إلى حجرة الضيوف ، وقدّمت اليه كأساً من الخمر أبى قبولها ، ثم هامت على وجهها ههنا وههناك في حَصَرٍ وعصبية ، لتجد نفسها آخر الأمر ترتقي السلم لتدعو المواطن « بين » .

وكان « بين » منصرفاً إلى مخطوطة من مخطوطاته ، فلم تكد تقتحم عليه الغرفة حتى رفع حاجبيه وسألها ما إذا كان المنزل قد غدا طعماً للنار . وتجاهلت السيدة دعابة « بين » هذه وقالت لاهثة :

— « ايها السيد ، بونابرت ينتظرك في الدور السفلي ! »

— « من ؟ »

— « أصغِ اليّ . أصغِ في اهتمام ، أيها السيد . نابوليون بونابرت يجلس في هذه اللحظة في غرفة الاستقبال من بيتي هذا ، في انتظار ان يجتمع إلى المواطن توماس بين ويتحدث معه . هل تفهم ما أقول ؟ لقد

جاء إلى هنا ، وحده ، وليس له من غرض غير التحدث مع المواطن توماس بين ! »

فهدر « بين » :

— « طبعاً انا أفهمكِ . كفي عن الصياح . إهبطي السلم وقولي له ان ينصرف . »

— « ماذا ؟ أيها السيد ، لقد اسأتَ فهمي من غير ريب . لقد قلت ... »

— « أنا أعرف ما قلت . انزلي وقولي له ان وقتي أضيق من أن يتسع للاجتماع بالاشرار وقطاع الطرق . »

— « لا ، لا ، لا ، لا ، » قالت مدام بونفيل ذلك وتنهدت . « لا ، لا ، ليس في استطاعتك ان تعمل شيئاً كهذا هنا ، تحت سقف بيتي . لقد صبرت على أشياء كثيرة ، على القذارة والسكر والجلبة ، ولكني لا أستطيع ان أرى قائداً عظيماً من قواد فرنسة يفد على منزلي ثم يطرد منه . »

فغمغم « بين » :

— « أنا أدفع اجر السكنى والعناية . »

— « لا ، ليست المسألة مسألة اجر . حتى ولو دفعت ضعف ما تدفعه الآن . إما ان تقابل بونابرت وإما ان ... »

فنخر « بين » وقال :

— « حسن جداً ، سوف أقابله . إيتني به إلى هنا . »

— « هنا ؟ في هذه الغرفة ؟ »

— « وأي بأس فيها ؟ أنا أعيش هنا ، أليس كذلك ؟ »

— « لا ، لا ، لا ، لا ، أيها السيد — يجب أن تنزل إلى حجرة استقبالي . »

وهزّ « بين » كتفيه وقال موافقاً :

— « اذن هيا إلى حجرة استقبالك . »

وتبعها هابطاً السلّم . حتى إذا بلغا حجرة الاستقبال نهض بونابرت وانحنى ، فراعت « بين » في الحال حقارة الرجل . انه شديد القصر ، شديد بدانة الجسم ، ومع ذلك فهو مهزول الوجه إلى حد بعيد . انه قد يكون صاحب حانوت من الحوانيت ، ولكنه ليس قطعاً القائد الكبير ، والمحارب العظيم ، والعبقرية الشيطانية التي كانت تمزّق آخر اثر من آثار الجمهورية الفرنسية وآمال جميع الرجال ذوي الارادة الحسنة وصلواتهم .

وقال الرجل العجوز في ذات نفسه :

— « انه لمحزن حقاً ان يكون أبطال العالم العظام وأوغاده الكبار هم أبعد الناس عن الكمال الجسماني ! »

وقال نابوليون :

— « أنت المواطن « بين » . وأنا بونابرت — لقد طالما تُقتُ إلى هذا اليوم في لهفة وأمل . ذلك بأننا لا يتاح لنا دائماً ان نلتقي رجال التاريخ العظام . انهم يمضون لسبيلهم ، فنضطر إلى ان نقنع انفسنا بالاساطير ، ولكني أقف اليوم وجهاً لوجه أمام أعظم اسطورة من اساطير التاريخ — المواطن بين ! »

ولم يكن ذلك ما توقعه « بين » . لقد كسر هذا الكلام سلاحه ، ودفاعه ، وبغضه المكين لرجل يمثل كلّ ما كان يعتدّه شراً وباطلاً . كان رجلاً عجوزاً ، وكان متوحداً معتزلاً ، وكان تعباً من المهانة والتحقير . وها هي ذي كلمة تقدير توجه اليه .

وقال :

— « شكراً ، أيها الجنرال . »

— « لا تخاطبني بقولك : أيها الجنرال . فالمواطن « بين » انما يخاطب الآن المواطن بونابرت . اجلس يا صديقي ، إذا كان ذلك يحلو لك . »

كانت تغلب عليه لهجة الأمر ، حتى في الاشياء التي يطلبها ، من مثل مسائل الكياسة البسيطة . وغرق « بين » في احد الكراسي ، ولكن نابوليون انشأ يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، ناكسَ الرأس ، مشتبكةً يداه خلف ظهره ، في انطباعة كانت قد أصبحت جزءاً منه . ثم انه قال :

– « أيها المواطن « بين » . لست أدري موضعي عندك ، ولكنّ اليك موضعك عندي : لقد طالما فكرت أن من الضروري أن يُرفع لك تمثال من الذهب في كل مدينة قائمة على ظهر هذه الأرض ، وأن تُقدس آثارك – أقول أن تقدّس . وهل يجهل مثلي مكانتك ؟ ألم اقـرأ « حصافة » ، و « حقوق الانسان » ، و « عصر العقل » ؟ لقد قرأتها ، وأعدتُ قراءتها مرة ومرة ، أقول لك . واني لأنام وكتاب « حقوق الانسان » تحت وسادتي ، حتى إذا ما عصف بي الأرق ذات ليلة لم يسلبني السّهد شيئاً بل عاد عليّ بأعظم الفائدة والنفع . أنت وأنـا الجمهوريان الوحيدان ، بل الرجلان الوحيدان اللذان يملكان من التبصّر قدراً يساعدهما على النظر إلى ما وراء النجوم ! ولايات متحدة تنتظم العالم كله ؟ – أنا اقرك على ذلك . اني لأقول بأنه يجب ان يوضع حدٌ للاوتوقراطية ، وان يُقضى على الديكتاتورية ! إني لأحمل مشعلك ! »

وذهل « بين » ، ولم يقوَ على أكثر من الجلوس حيث هو والتحديق إلى الرجل الضئيل الجسم . ما الذي تعنيه الكلمات ؟ هل كان مخطئاً ؟ هل تنبثق المدينة الفاضلة من مثل هذا الصخب لا من أيما سبيل آخر ؟ لم يكن يدري . كان رأسه يلفّ ويدور . لعله لم يسمع الا الأكاذيب التي كانت تُنسج عن نابوليون . لقد نسجوا الأكاذيب عن « بين » أيضاً .

وقال نابوليون :

– « أنا في حاجة اليك . إنّ كلاً منا قد نذر نفسه لخدمة الجنس البشري ، ولخدمة فرنسة الجمهورية . وإذا ما عملنا معاً فمن ذا الذي يستطيع ان يحزر إلى أيّ مدى تستطيع احلام المواطن « بين » والمواطن

بونابرت ان تمضي ؟ سوف أعقد مجلساً حربياً ، في وقت قريب ، وإذا ما وافقتَ على ان تشهد ذلك المجلس أكون قد شُرّفت وكوفئتُ في وقت معاً . »

وكان الرجل العجوز يحملق إلى وجهه .

وتبسّم بونابرت وقال :

— « أنت موافق اذن ؟ »

وكان في ميسور ابتسامته أن تكون على قدر من الاستهواء عظيم .

فحنى « بين » رأسه وقال :

— « سوف أفكّر في ذلك . سوف أفكّر في ذلك . »

حتى إذا غادر نابوليون المكان قصد « بين » إلى غرفته ، مُقصياً عنه السيدة بونفيل التي حرصت على أن تطّلع اطلاعاً مباشراً على كل كلمة قيلت في ذلك الاجتماع . كان راغباً في أن يخلو إلى نفسه ، وفي أن يفكّر في الذي انتهى به إلى هذه الحال . وهناك في غرفته استجلى صورة نفسه في كثير من الوضوح فرأى إلى النفاية والقذر يحيطان به من جميع أقطاره ، وإلى الثوب البالي الملطخ الذي يلبسه ، وإلى الوسخ المعشش تحت أظافره ، وإلى تشعّث شعره الأشيب . ثم انه التمس مشطاً وراح يسوّي به ما تبقّى من شعره ذاك ، متأملاً طوالَ تلك اللحظات في هذه السنوات الاخيرة التي شهدتها فرنسا الجمهورية .

وسأل نفسه :

— « هل أجتمع إلى نابوليون ؟ »

فكان جوابها أن قالت :

— « ولمَ لا ؟ ألم أرجع إلى المؤتمر الوطني كرةً ثانية ؟ أنا لم أهجر الناس ، وهم لم يهجروني ويهجروا مبادئي . إذا كان نابوليون هو الامل الأخير الباقي فيتعيّن عليّ أن أذهب للاجتماع به . »

وعاوده الأمل ، وفُتحت أمامه أبواب المستقبل . لقد أمسى كرةً ثانية توماس بين ، ولسوف يشهد عما قليل مجلساً حربياً مع نابوليون بونابرت . وحين أتمّ حلْق ذقنه نظر إلى مرآته وقال :

— « أصغر مما كنت بعشر سنوات — إن شباب المرء رهنٌ بشعوره . وحين كان فرانكلين في مثل سني لم تكن الثورة قد اشتعلت بعد . ولسوف يقول الناس ان « بين » بدأ حياته وهو في الستين ، وأنه علّم العالم ان العقل ليس يهرم أبداً . »

وكان لديه شيء من مال . فقد كانت كتبه تنعم برواج كبير ، فهو يحشو محفظته في نهم . ولكن ليتخطّفِ الشيطان المستقبل . يجب أن يشتري ثياباً جديدة ثم يقصد إلى المزيّن . فالمرء لا يقصد إلى المزين وليس على ظهره غير خرق بالية .

وعند الخياط استُقبل بحواجب مرفوعة . فما كان منه إلا أن انفجر مُغْضَباً وقال :

— « أنا المواطن « بين » ، لعنك الله ! أقلِعْ عن هذا وأرني ما عندك من قماش ! »

— « لعلك تريد شيئاً خصوصياً ؟ شيئاً جديراً بأن يُلبس في حفلة ما . »

فقال « بين » بأقصى ما يقدر عليه من البداهة :

— « شيء يليق بمجلس حربيّ . بونابرت سوف يكون هناك . »

وتلا ذلك هرجٌ ومرج ، وأخذ المستخدمون يعدون من مكان في المحلّ إلى مكان .

— « شيء بسيط ، أسود ، في ما أعتقد . »

— « طبعاً ، أسود ، أيها المواطن . في استطاعة المرء أن يدرك انه ينبغي لمثل هذه المناسبة قماش أسود ناعم يتفق ومكانتك . ولعل من الخير ان يضاف قليل من الاطلس زيادةً في الاجلال .. »

واشترى قمصاناً وأحذية وجوارب . واذن فلن يكون ثمة مجال لأن

يهزأ قادة فرنسا العسكريون الكبار « بتوم بين » . حتى إذا ارتدى كسوته الجديدة الفاخرة قصد إلى المزين . ولم تكن ثمة أسرار تخفى على مزين في باريس . فقال « بين » :

— « أنا أبدو شيخاً عجوزاً ، شيخاً عجوزاً باكثر مما ينبغي ، وحين يكون قد بقي للمرء عمل يقوم به ، وأناس يجتمع اليهم ، أناس ذوو شأن وخطر ، فعندئذ تجده راغباً في ان يترك انطباعة جيدة . »

إن السنوات لا يمكن تقفز بمثل هذه الحماقة . وحين انقلب « بين » إلى منزل بونفيل كان رد الفعل قد بدأ . لقد جلس بثيابه الجديدة في حجرة الاستقبال ، وراح يحدق إلى المكان الذي احتله بونابرت ، الرجل القصير البدين ذو الوجه المهزول والصوت الآمر ، منقذ الجنس البشري ومخلصه ..

ودخل بونفيل الحجرة . ولم يكد يرى إلى « بين » حتى رفع حاجبه ، ولكنه أحجم في لطف عن ارسال أيما ملاحظة أو تعليق . وابتسم «بين» وقال في جرس ينضح بالكآبة :

— « أنيق مثل رجل أبله متبجح . هل يعجبك ذلك يا نيقولا ؟ »

فحنى بونفيل رأسه وقال :

— « كثيراً . »

وهز « بين » كتفيه وقال :

— « ضروري . أنا بسبيل القيام بعمل جديد . فبعد ان عمل كل شيء وانقضى كل شيء يأتي بونابرت العظيم فيزورني ، ويجعلني موضع سره . وينبئني انه ينام كل ليلة ونسخة من « حقوق الانسان » تحت وسادته . وهناك واحد من احتمالين : إما ان تكون وسادته منخفضة بأكثر مما يجب ، وإما انني كنت مخطئاً في حكمي على الرجل . »

وأحكم « بين » جلسته ، وأغمض عينيه لحظة أو لحظتين ، ثم همس :

— « نيقولا ، اني خائف . هذا هو أمني الأخير . ولست ادري ما

الذي سيحلّ بي إذا ما خاب ؟ »

•

لم يكد « بين » يدخل القاعة التي عُقد فيها المجلس الحربي حتى وقف الرجال العسكريون ، والمهندسون ، وأمراء البحر ، والجنرالات ، والمستشارون السياسيون الذين تألف منهم المجلس وانحنوا احتراماً له ، تحت عين بونابرت الساهرة ، الذي قال مرة ومرة في كثير من التودّد والاسترضاء :

— « هوذا ، أيهـا السادة ، المواطن « بين » الذي سمعتم به . وإذا كنتم قد رأيتموني وبين يديّ كتابٌ في فترة من فترات القتـال ففـي ميسوركم ان تتأكدوا ان ذلك الكتاب كان من تأليف المواطن « بين » . واني اقدمه اليكم بوصفه الجمهوريّ الاول . »

كانوا جميعاً سعداء بلقاء المواطن « بين » . لقد عرف بعضهم ، وسمع بأكثرهم . كان بعضهم رجال دسائس ومؤامرات ، وكان بعضهم أولي وجوه صريحة مخلصة استهلوا حياتهم العسكرية بقمصان الحرس الوطني الزرقاء في تلك الايام المظلمة البعيدة التي قامت فيها الجمهورية ، وانتهوا الآن إلى أن يرتبكوا بعض الشيء بالمراتب الرفيعة التي بلغوها . وكان بعضهم من المقربين إلى روبسبير فهم ينظرون إلى « بين » في شيء من الاحتراس ، وبعضهم من رجال العهد الجيروندي . وانما كانت هذه العهود قصيّة جداً في أحداثها ، لا في سنواتها . وكان أعضاء المجلس الحربي ، كلهم تقريباً ، في ريعان الشباب ، فاذا بتوم بين بينهم أشبه شيء بفلذة من الماضي البعيد .

كانت أول مرة يجتمع فيها إلى عصبة من القادة الفرنسيين ، فهـو يستشعر حرجاً وتوحداً قارصين . فحتّى ذلك الحين ، كان في الامكان

ان تُعتبر فرنسة والعالم شيئاً واحداً . كانت باريس هي الحضارة ، وكانت الثورة ترحب بكل انسان . وحتى في اسوأ أيام الهول الاكبر لم تضرب الثورة ضرباتها الجنونية تلك إلا دفاعاً عن نفسها ، لا ابتغاء الانكماش والاستئثار . والواقع ان عدداً كبيراً من الاجانب احتلوا ، بادئ الأمر ، مقاعد المؤتمر الوطني إلى جانب الفرنسيين الاقحاح .

وكان الراديكاليون البولنديون ، ذوو الشعور الخفيفة ، والوجوه البايدة القاتمة المتعبة ، قد وفدوا على باريس بعد أن قاتلوا إلى جانب الأميركيين في الثورة . كذلك وفد عليها المبعدون البريطانيون بالمئات ، والبروسيون الذين كرهت نفوسهم ما انتهت تلك البلاد إلى أن تمثله ، والايطاليون الحالمون بايطالية حرة ، والاسبان الحالمون باسبانية حرة أيضاً . لقد هرعوا كلهم ، وكأنهم على موعد ، إلى باريس ، لأن باريس كانت قلب الثورة وروحها ، ولأن الباريسيين رحبوا بهم أحسن ترحيب .

أما هنا فلم يكن شيء من ذلك . كان ثمة اجتماع ضيق محدود الأفق ، وان التعابير التي تُصطنع فيه تنبثق كلها من فكرة الفتح العسكري . لقد شبع القوم من ذلك الهراء المنادي بالحرية والاخاء والمساواة . وإن هذا العهد هو عهد نابوليون .

وحين قالوا : « يسرنا أعظم السرور ان نرحب بك أيها المواطن بين ، » أدرك انهم كانوا يفكرون : « ما مبلغ النفع الذي يعود علينا من اصطناع هذا الرجل الانكليزي ؟ »

وحين تكلم — وكانت فرنسيته لا تزال كريهة برغم هذه السنين كلها التي قضاها في فرنسة — لم يتمالكوا عن الابتسام الساخر بلهجته . حتى إذا رغبوا هم بدورهم في أن يقولوا شيئاً لا يريدون أن يفهمه ، انقلبوا إلى لهجتهم الريفية السريعة المومضة — سيلٌ متمعجٌ من الاصوات لم يكن « بين » ليفهم منه شيئاً .

وأخيراً انتظم عقدهم ، وافتتحت الجلسة . كانوا جالسين على شكل

نعل فرس ، وقف نابوليون عند طرفه المنفرج ، خلف طاولة صغيرة . كان ثمة كرسي خاص به ، ولكنه لم يستوِ عليه طوال الجلسة . لقد قضى معظم الوقت يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وكأنما تُنهكه طاقة عصبية تأبى عليه الراحة والسكينة . حتى إذا تكلّم أخذ رأسه يندفع إلى أمام كرأس العصفور ، باسطاً يده في بعض الأحيان إلى الرجل الذي كان يخاطبه . واستشعر « بين » أن نابوليون كان من خلال دهائه وخططه وقراراته الخاطفة كلها ، غير قادر على أن ينسى لحظةً هذه الحقيقة : وهي أنه من البدانة والقصر وضآلة الجسم بمحلٍّ ليس يليق بفاتح عسكري عظيم . كانت فرنسيته مختلفة عن فرنسية الآخرين . كانت تخدش ، وتَصِرّ . وكانت تفرقع في بعض الأحيان مثل بندقية سريعة الطلقات . كان في ميسوره أن يكون متعالياً متعجرفاً ولكنه ما يلبث أن يَحُولَ بعد لحظةٍ متواضعاً وديعاً . وكانت له ناصيةٌ سوداء ينفضها في لحظات الغضب فوقَ جبينه الابيض العالي وفوق عينيه . ولم يكن في الامكان إغضابه إلا حين يكلّف نفسه أن تغضب .

وبدأ الكلام فقال :

— « نحن لا نتحدث عن فرنسة أو أوروبة ، ولكن نتحدث عن العالم . »

مارسي : « والعالم مِلْكٌ لانكلترة . »

بونابرت : « صحيح ؟ أنا أنظر إلى العالم نظرةً أسمى . أنا أحسبُ انه ليس مِلْكاً لأمة من المستخدَمين وأصحاب الحوانيت . »

دارسون : « إنهم ملاحون بارعون . »

بونابرت : « ليس من الضروريّ أن يكون المرء كولومبس حتى يعبر القناة الانكليزية . »

غابريوو : « ذلك ، يا سيدي ، ما يجعل المسألة مسألة نقلٍ وإمكانيات . ولستُ اشكّ في أن في ميسورنا ان نبزّهم بنسبة عشرة إلى

واحد ما دامت قارة أوروبة من ورائنا . وإذا كان كل ما نحتاج اليه هو ان نُنْزل جيشاً على الساحل الانكليزي فينبغي ان لا نعتبر ذلك عقبة ، ولكن مشكلة . »

بونابرت : « ولنفرض انها مشكلة ؟ »

غابريوو : « عندئذ يكون في ميسورنا ان نحلّها ، طبعاً . »

دارسون : « آسف ، يا سيدي ، لعدم استطاعتي أن انظر إلى المسألة من هذه الزاوية . إن جميع فرقنا الأمامية خليقة بأن تمزّق شرّ ممزّق إذا لم نعمد إلى إحداث شقاقٍ ما بين افراد الشعب . ان طاقة فرنسة البشرية ليست غير محدودة ، وليس ثمة عملية حربية أصعب من انزال الجند على ساحل محصّن . »

بونابرت : « إن معنا ههنا الجمهوري الشهير ، المواطن « بين » . لقد أوضحتُ له قبل اليوم ، في ما أحسب ، ان حركتنا كلها استمرارٌ للثورة . والحق ان المواطن « بين » وُفق إلى أن يؤدي خدمة جليلة للقضية الثورية في انكلترة . ولولا ان حزب الأحرار خذله اذن لاقترن نشاطه هناك بالنجاح . ما قولك ، أيها المواطن « بين » ، في ثورة شعبية بأنكلترة ؟ »

« بين » : « ليس من شك في ان للشعب البريطاني شكاوى كثيرة من حكامه . »

بونابرت : « واذن فسوف يمدّ يد العون إلى الجيش الفرنسي ؟ إنه لن يقاوم ؟ »

« بين » (في هدوء بالغ) : « أظن انه سيقاوم ، يا سيدي . أظن أنه سوف يمزق جيشك إرباً إرباً . أظن انك إذا غزوت انكلترة فلن يرجع رجلٌ واحد من قواتك الغازية إلى فرنسة . »

بونابرت : « أتحاول ان تسخر مني ، أيها المواطن ؟ »

« بين » (في تردّد) : « لست أدري — لقد بَعُدَ عهدي بانكلترة .

أنا لم أحسب ، ساعة جئت إلى هنا ، انكم تعتزمون أن تبحثوا مسألة غزوٍ عسكري . »

دارسون : « هل تخيّل المواطن « بين » اننا نعتزم غزو انكلترة بغير سلاح ؟ »

« بين » (في تردّد كثير) : « لست أدري – لقد حسبت ان الثورة ستوطد دعائمها من جديد . إن الشعب الانكليزي ناقم لما يُسام من سوء العذاب ، ولكنه يصبح حزمة واحدة حين تتعرض بلاده للغزو الخارجي . »

بونابرت : « وكيف ذلك ؟ »

« بين » : « لأننا يجب أن ندرك ، أيها الجنرال، ان في انكلترة شيئين : الشعب والامبراطورية . اما الامبراطورية ففي الأمكان تحطيمها واما الشعب فليس من سبيل إلى قهرهِ . ان القوة لن تؤدي إلى غير تضامنه واتحاده . ولو قد انزلت جيشاً على سواحل بلاده اذن لوجدت أفراد هذا الشعب يتناسون انهم يعملون طوال النهار لقاء ستة بنسات ويذكرون شيئاً واحداً ليس غير ، هو انهم انكليز . إن الثورة يجب أن تنبثق من ذوات نفوسهم ، لا من طريق الغزو الخارجي . اما الامبراطورية فأمرها مختلف جداً . »

بونابرت (في لهجة رسمية باردة جداً) : « وكيف تفسّر ذلك ، أيها المواطن بين ؟ »

« بين » (متردداً ، ولكن صوته يزداد قوة شيئاً بعد شيء) : ليست الامبراطورية حصناً لا سبيل إلى اقتحامه . أنشُرْ لواء السلام ، وامنح المواطنين حق التصويت الدستوري ، واكّد مبادئ الجمهورية وأعلنها في طول أوروبة وعرضها ، وأقرّ حقوق الانسان ، وأعِدْ إلى فرنسة مجد الجمهورية ، وتحالَفْ مع أميركة الجمهورية . ما هي الامبراطورية ؟ تجارة ؟ اذن اعلِنْ حرية البحار وضَعْها موضع التنفيذ . إن أميركة

سوف تقف إلى جانبك . إلغِ المكوس وافتح الموانئ ، وانظر إلى متى تستطيع بريطانية ان تنافسك . هل الامبراطورية استعباد ؟ اذن مجّد فرنسة ، وأجرِ رواتب معينة على الشيوخ والعجزة ، وخفض ساعات العمل ، وزد أجور الفقراء ، وارفع كلمة الثورة في الخافقين . عندئذ تجد الشعب الانكليزي يهب لنصرتك . إن انكلترة ممتنعة على الغزو ، ولكن في ميسور المرء أن يكسبها من مثل هذه الطريق . »

وران بعد ذلك صمتٌ ، صمتٌ كان من العمق والشؤم بحيث استشعر « بين » المرض والخوف . لقد انطلقت من القروح القديمة ، فيما كان يعاود الجلوس في مقعده ، حرارة ونار . لقد انهار هذا الامل الواهن الاخير . لقد كان ذلك هو حصيلة كل ما عاش « بين » من أجله : غزو سواحل انكلترة الخضراء ، والموت والخراب لجميع الرجال والنساء الذين يؤلفون طبقة العوام والذين سبق له ان وعدهم بالعمل على انتشالهم من الهاوية إلى ضوء الشمس الساطع !

ثم ان غابريوو نهض وقال في سخرية :

— « المواطن « بين » في ما يبدو لي يتكلم بوصفه رجلاً انكليزياً ؟ »

لقد بقيت شرارة واحدة . وإذا بـ« بين » يردّ على غابريوو في همس :

— « سَل الاموات عن ذلك ، لا الأحياء . سَل الشعب في أمم ثلاث ما إذا كان « بين » قد تكلم في يوم من الايام بلسان غير لسان الانسانية . »

وهنا قال بونابرت :

— « كفى ، أيها المواطن بين ! »

الفصل الخامس عشر

« وما تدري نفس أين قبرها »

كانت رحلة طويلة ولكنها لم تكن رديئة . وحتى بالنسبة إلى ذلك العصر ، كانت طويلة بعد أن انقضت اربعة وخمسون يوماً ولمّا تزل السفينة تخوض عباب اليم . ولكن الرحالين المجرّبين قالوا لا ، فليس ذلك بشيء . إن الرحلة الرديئة لتستغرق مئة يوم والسفن اليوم في العام الثاني والثامنة بعد الألف ، خيرٌ منها في العهود السالفة . وليس يجوز ان تصم رحلةٌ بالرداءة إلا حين ينضب ماء الشفة ، ولسوف تبلغ السفينة شاطئ السلامة حين يرتفع الضحى من غدٍ ، باذن الله .

وحين ارتفع ضحى الغد كان نصف المسافرين محتشدين في مقدّم السفينة وكل منهم يطمع في أن يكحّل الطرف بالنظرة الأولى يلقيها على تلك الارض الطيبة الخضراء التي يدعونها أميركة . والشيء نفسه وقع في اليوم التالي ، واليوم الذي بعده ، وفي كل مرة كان عددٌ متعاظم من المسافرين يحتشد فوق مقدم السفينة المائل حتى بدا البرّ آخر الأمر للعيان .

وكان بين المسافرين الرجل العجوز ، « بين » ، وكان يتكيء صامتاً على

درابزون السفينة ، ويحدّق إلى أمام ، مرتجفاً بعض الشيء حانياً رأسه حين قال الربان في صوت مرنان ينضح بالحياة :

ـ « تبدو جيدة ، هذه البلاد القديمة ، أليس كذلك يا مستر بين ؟ »

ـ « أجل ... »

ـ « لقد تغيرت قليلاً . ولكنْ لم يبلغ بها التغيّر حداً يجعلها غريبةً عنك . »

ـ « لقد بَعُدَ عهدي بها . »

ـ « حسناً تلك هي العادة . قد تأخذ المرء رغبة عارمة في الرحلة والتطواف ، ولكنه يجد متعةً بالغة في أن ينقلب إلى أرض الوطن آخر الأمر . »

وكان الملاحون يُشرعون القلوع ، الآن . وفيما كان الحبل المُرخى يتحرك في رشاقة ، زأر الربان :

ـ « انظروا جيداً إلى هناك ، أيها الجهلة الملعونون ! »

ثم التفت إلى « بين » وقال :

ـ « سوف نجعل بالتيمور جدّ قريبة ، مسيرةَ يوم أو يومين . وأنت هل تعتزم ان تقصد إلى واشنطون ؟ »

فحنى « بين » رأسه وقال :

ـ « أجل . لقد اعتزمتُ ذلك . »

ثم عرت صوته لجلجةٌ ما حين قال :

ـ « أريد أن أرى صديقي القديم ، مستر جيفرسون . لقد انقضت فترة طويلة ... »

ـ « تماماً . » وضحك الربان ، رافعاً صوته ليكفل ان يسمعه الواقفون غير بعيد يتحدث بمثل هذه الألفة مع واحد من أصدقاء الرئيس الأميركي . أما في ما بينه وبين نفسه فلم يكن يستشعر عطفاً ما على هذا الوغد العجوز ، برغم ان « بين » لم يكن رجلاً سمجاً تعافهُ النفس

بقدر ما صوّروه . لقد قيل إنه عدو النصرانية . وكان الربان رجلاً تقياً لا يؤيد مثل هذه الاتجاهات .

●

وقال « بن » لنفسه انه قد أحسن صنعاً في العودة إلى الوطن . ذلك بأن المرء يرغب في أن يموت في أرض ترشح بالودّ ؛ إنه يريد ان يجد حوله صديقاً أو صديقين . إن العالم كبيرٌ مترامي الاطراف ، وان المرء ليطمع في مجرد زاوية صغيرة منه حين يمسي عجوزاً مُتْعباً . قد يكرهونه وقد يسخرون به ، وقد يسيئون اليه في أيما مكان آخر على ظهر الارض ، أما في أميركة فلن ينسوا . إن العهود التي امتَحَنَتْ نفوس الرجال لم تكن من البعد بحيث تعطي القوم سبباً حقيقياً للنسيان . كان واشنطون قد مات ، ولكن معظم الآخرين كانوا أحياء ما يزالون . انهم خليقون بأن يذكروا « حصافة » العجوز .

ولم يرغبوا في الاختلاط به كثيراً على ظهر السفينة . ولم يكن في ذلك أيما بأس . كان عمله قد أكمِل ، وكان نابوليون قد بسط سيادته على اوروبة ، وكان كل ما يطمع « بن » فيه — الآ ن — هو ان ينقلب إلى وطنه وينعم بالنسيان .

●

وحين وفد على بيت الرئيس أعلن الآذن الاسود : « مستر « بن » يريد ان يقابل الرئيس . » وكان ذلك أكثر من حلم . لقد أحسّ انه اشبه برجل عجوز أمام « توم جيفرسون » ، برغم ان الفارق بين سنيهما لم يكد يعدو ست سنوات . واستشعر انه رجلٌ مُستَهْلَكٌ لا هدفَ له ، تجاه

الرجل الفارع الطول ، المنتصب القامة ، المليح الوجه الذي كان رئيساً للولايات المتحدة . كان « جيفرسون » في أوج قوته ومجده. ولقد دعوا عهده ، حين فاز بالرئاسة ، بالوجه الثاني من وجوه الثورة ، وبفجر يوم العامة المستضعفين في الارض . وكان « بين » متهرئاً مشرفاً على النهاية.

ولكن « جيفرسون » أوسع الخطى إلى « بين » وبسط يده قائلاً :

— « توم ، توم ، أنت متعة للأعين القديمة . وهكذا انقضت الحروب وعدتَ أنت إلى الوطن ! لقد دار الدولاب دورته ، يا توم. وإنّ في اجتماع الرفاق القدماء ما يؤذن بأن الحظ بدأ يبتسم . »

ولم يستطع « بين » ان يقول شيئاً. لقد ابتسم ثم شرع يبكي ، وعندها وجد جيفرسون من اللياقة ان يتركه وشأنه . وهكذا جلس الرجل العجوز في حجرة الاستقبال بقصر الرئاسة الجديد ، سافحاً عبرات حرّى متنشقاً السعوط بيدٍ مرتجفة ، ليعاودَ البكاء من جديد .

حتى إذا رجع جيفرسون وجده متمالكاً عن البكاء ، مطوّفاً بالغرفتين الأماميتين ، يحدّق إلى الرياش العتيق ويقف ليتأمل في اللوحات الزيتية التي تمثّل رجالاً عرفهم في يوم من الايام ، وقاتلَ إلى جانبهم .

وأوضح جيفرسون قائلاً :

— « إنها جديدة . المدينة كلها جديدة . وإنه ليسعدني ان أفكر في انها سوف تصبح ذات يوم احدى عواصم العالم الكبرى . »

فقال « بين » في اكتئاب :

— « سوف تصبح كذلك . »

— « سوف تبقى لتتناول الطعام معي طبعاً ؟ »

— « الرئيس رجل مشغول ... »

— « هذا هراء . سوف تبقى لتتناول الطعام على مائدتي ، يا « توم » . هناك أشياء كثيرة ينبغي ان نتحدث حولها . »

وكان « بين » شديد الشوق إلى أن يبقى . فطوال الرحلة عبر المحيط

كان يفكر في الطريقة التي سوف يستقبله بها جيفرسون . وحتى في هذه اللحظة اجتمع هذان «التومان» * بوصفهما ابرز ديموقراطيي العالم وأعظمهم شأناً . وإنه ليكون غريباً حقاً أن لا يكون ثمة محلٌ له في حكومة جيفرسون ، محلٌ صغير متواضع كأنْ يعيّن مثلاً سكرتيراً للسفارة الأميركية بلندن أو باريس ، أو سكرتيراً لأحد وزراء الدولة الثانويين . ولعلّ المنصب الثاني أن يكون خيراً له لما يمكّنه من أن يقضي سنوات عمره الأخيرة في أميركة . وكيف يستطيع جيفرسون أن يتهرب من هذه المسؤولية ؟ ألم يُظهر في الحال انه يذكر العهود السوالف ؟ قليل من العمل ، وقليل من التشريف ، وقليل من الاحترام ، وعندئذٍ يستطيع أن يموت مطمئناً قرير العين .

كان حسناً أن يعود إلى وطنه .

•

وعلى المائدة حام جيفرسون طويلاً حول الموضوع قبل أن يعالجه على نحوٍ مباشر . لقد أدار الحديث على الأيام الخوالي ، وراح ينفض الغبار عن الذكريات واحدةً بعد واحدة ، وما هي إلا لحظة حتى بدا لـ «بين» أنه يقلّبها في شيء من القلق . فقد كان جيفرسون رجلاً مستقيماً . لقد عاش بالكلمات والمُثل ، لا بالاعمال . وقال لـ «بين» :

— «ليست المسألة اننا اختلفنا في يوم من الايام . فقد كانت أهدافنا دائماً واحدة .»

فقال «بين» في لهفة :

— «كان ذلك هو عزائي في ساعات الحرج . كنت إذا اسودت الاشياء ألطف من سوادها بأن أقول لنفسي بأن ثمة رجلاً في العالم

* مثنى «توم» . وهو الاسم الصغير لكل منهما .

يفهم ويؤمن . »

وحين قدّمت القهوة والبراندي نقل جيفرسون الحديث إلى خبرات « بين » في أوروبة . ولكن الرجل العجوز لم يكن راغباً في أن يسترجع ذكريات أمل ضخم كان قد قضي . لقد بدا له أن من الابتذال البعيد أن يسأل رئيس الجمهورية بمثل هذا الفضول عن اولئك الرجال الشجعان الذين برحوا قصر اللوكسومبورغ ليلقوا الموت : كلوتز ، ودانتون ، وكوندورسيه . أما عن مصرع « مارا » بيد شارلوت كورداي فلم يكن «بين» ليقول شيئاً البتة .

وهزّ كتفيه قائلاً :

— « قُتلوا جميعاً . وإن نابوليون هو اليوم السيد المطلق . لقد ماتت الجمهورية ولم يبقَ منها شيء . »

— « وهل تظنّ ان الفرنسيين سيؤيدونه ؟ ليس في ميسوري أن أصدّق ذلك . »

— « سوف يؤيدونه . انهم شعبٌ طيب ، ولكنّ العالم كله متألبٌ ، الآن ، عليهم . أيّ موقف غير هذا يمكن أن يتخذوا ؟ »

— « استطيع ان استنتج انك تعتزم التفرغ للكتابة . » قال جيفرسون ذلك ، ثم لم يتمالك عن أن يضيف :

— « إن الحكومة تكون سعيدة إذا ما ساعدتك . »

فابتسم « بين » وقال :

— « المرء لا يعمل الثورات حين ينتهي إلى مثل سني . »

— « لا ، لا ، طبعاً . كانت حياتك حافلة بجليل المآثر ، بل لقد كانت معركةً أبليتَ فيها أحسنَ البلاء . اننا مدينون لك بكثير مما نملكه . وإن كثيراً مما حققناه هو من عملك أنت . وقد آن لك أن تنعم بشيخوخة مرفهة . »

— « شيخوخة ؟ »

– « بطريقة من طرائق التعبير ليس غير . وعلى أية حال فأن أياً منا لم يعد شاباً بقدر ما كان من قبل ، يا توماس . »

وهنا بسط « بين » يداً كانت ترتجف بالرغم منه وقال في لهجة دفاعية :

– « إن الماكينة ليصيبها الكلال . ولكنّ عقلي ليس هرماً . هل اتهموا فرانكلين بأنه رجلٌ عجوز ؟ أنا رجل ليس لي اسرة ... »

– « والمزرعة ؟ » كذلك تساءل جيفرسون ، مشيراً إلى تلك الأرض القائمة في نيو روتشيل والتي منحها الكونغرس « بين » عقب الحرب :

– « أنا لست مزارعاً . ان المرء ليطالبُ العمل وليس يرغب في ان يوضع على الرفّ مثل قطعة من بضاعة عتيقة .

وكان ذلك أقصى ما يستطيع ان يذهب اليه في تكليف جيفرسون اسناد احد المناصب اليه . حسناً لقد فهم قليلاً مما كان جيفرسون يفكر فيه ، ولكن المرء حين يشيخ يصبح سريع التهيج ، مستغرقاً في السنوات القليلة التي بقيت له . وحدّق جيفرسون متجهم الوجه إلى يديه ، قائلاً كلمات مفادها ان الرئيس ليس سيد نفسه ، وأن الأدارة الديمقراطية الجديدة يتعين عليها ان تستهل أعمالها بنضال عسير ، وأن تباشر تنظيماً سياسياً بالغ التعقيد . كان لا يريد ان تنشأ جفوة بينه وبين « بين » ، فقد كانا شيخين كبيرين ، وكانا على صداقة ليس يجوز معها افساح المجال لأيما سوء تفاهم .

وحنى « بين » رأسه وقال :

– « فهمت . »

وزوى جيفرسون ما بين حاجبيه وقال :

– « سوف تجد ان لك اعداء هنا ، يا توماس . فالرسالة التي وجهتها إلى واشنطون ... »

وهدر « بين » :

– « لن أتكلم عنه . »

— « لا ، لا ، أنا لا أغفر له . ولكنْ فكّرْ في وضعه وهو يُعنى بتنشئة دولة « طفلة » ، دولة لم تكن متحدةً بحال ، وكيف كانت انكلترة تنخسنا وتنخسنا وكنا جميعاً نعلم ان حرباً جديدة خليقة بأن تدمرنا . لقد كنتَ في فرنسة ... »

— « أنتظر أن تسقط شفرة المقصلة على عنقي ! »

— « أنا أدري ، يا توماس . ولكن واشنطون كان رجلاً غريباً ، لا متقد الذكاء ولا حسنَ التمييز . وكان فؤاده قد أوذي وكانت طبقةٌ من الحجارة الصلدة تغشّي عليه . أنت تفكر في المجد والهتاف ، ولكن أي شيء كان ذلك بالنسبة إلى رجل لم يتم له ، في يوم من ايام حياته ، شيء كان راغباً فيه حقاً ؟ لقد عرف واجبه، وسعى إلى أن يقوم بـه ... »

— « حتى ولو كان معنى ذلك الحكم عليّ بالموت . »

فسلّم جيفرسون قائلاً :

— « وحتى لو عنى ذلك . »

وانقضت لحظةٌ من الصمت . ثم ان الرئيس ألمعَ إلى « عصر العقل » ذاكراً ان الحكومة كلها قد رُميت بالكفر والالحاد . وكان التعب قد أخذ من « بين » مأخذه . واذ رأى إلى حقيقة الوضع فقد أراد ان يحسم البحث ويمضي لسبيله .

وأضاف جيفرسون أخيراً :

— « ولو قد دخلتَ أنت الحكومة إذن لوجد أعداؤنا الأسفين الذي يبحثون عنه . »

وتبسم « بين » وحنى رأسه .

وقال جيفرسون :

— « لعلنا نوفق إلى شيء بعد سنة أو سنتين . »

وفي الفندق كانوا يقولون : « بين » ؟ هذا بيتٌ من بيوت الورع ٥ لسنا نريد أيما أثر من « بين » هذا . »

وفي الشوارع كانوا يومئون : « هو ذا الوحش العجوز . »

وفي الحانات كانوا يهدرون : « اشربوا مع الشيطان أيها الشباب . إن عدو المسيح هنا ! »

وكان الغلمان يرشقونه بالطين والحجارة صائحين : « أيها الشيطان العجوز الملعون : ايها الشيطان العجوز الملعون ! »

وكانت النسوة يزعقن : « أيها الوحش العجوز القذر — أيها الوحش العجوز القذر ! »

وكانت الحشود تهتف : « حبلٌ وشجرة ، ولنتخلص منه إلى الأبد ! »

لقد رجع « بين » إلى أرض الوطن .

●

وقصد لزيارة صديقه القديم ، كيركبرايد ، في بوردنتاون . وكان كيركبرايد قد كتب يقول انه خليق بأن ينعم بأعظم السعادة إذا ما زاره « بين » ، حتى إذا أشار « بين » إلى ان زيارته هذه تسيء إلى سمعة كيركبرايد ، دفعَ كيركبرايد الاعتراضَ والتمس منه أن يحضر . وكان « بين » لا يزال يملك تلك الارض الصغيرة في بوردنتاون ، وكان قد استحوذ عليه في الفترة الأخيرة خوفٌ مرتجف من الفقر . فخطر له ان يلقي نظرةً على الارض ليرى ما إذا كانت جديرةً بأن تباع .

وكانت عودته إلى بوردنتاون شيئاً حسناً . وكانت الانباء قد طارت في ريف جيرزي ، بأن « بين » سوف يفد على أسرة كيركبرايد ، فبدا لبعض القوم ان يتظاهر ضده ويسيء اليه ، ولكن خروج دزينة من الرجال المجرّبين لأداء فروض الاحترام لرفيقهم القديم قضى على خططهم جميعاً . ولم يكن هؤلاء الرجال زعماء وسياسيين ، ولكن كانوا

مزارعين قذرين سُمْر الوجوه ، رشيقي العيون، بطيئي الكلام . كانوا رجالاً في نحو العقد الخامس أو العقد السادس أو العقد السابع من العمر ، ولم يكن الحظ قد ابتسم لهم إلى حدّ يجعلهم ينبذون ذكرياتهم جميعاً ويطرحونها وراءهم ظهرياً . كانوا متدينين،ولكنهم ما كانوا متدينين إلى درجة تحملهم على أن يُقصوا الإيمان بالله والناس عن عقيدتهم .

واجتمعوا على شكل نصف دائرة حول النار الهادرة ، وراحوا يرفعون إلى صديقهم آيات احترامهم واعجابهم ، مانحين « بين » آخر سهرة كان خليقاً بأن يرغب في تذكرها . وكان الكلام عَصِيّاً بعض الشيء على هؤلاء الرجال . ذلك بأن مزارعهم كانت متباعدة ، وكانوا نادراً ما يعقدون اجتماعاً كهذا ، ومن هنا كان لا بدّ لشراب الـ « فلِب » التقليدي أن يدور عليهم عدة دورات قبل أن تنحلّ عقد لسانهم . ثم إنهم شرعوا يخلعون أهمية بالغة ، شأنَ المعماريين العقلاء ، على الأسمنت في أرض انعدم فيها الملاط ، نافخين الحياة في مشهد بعد مشهد، وكل منهم يحاول أن يلقي مهمة رواية الأحداث على عاتق رفيقه ، لا حسداً ولكن بروح من التقدير ، كما يفعل المرء بالشيء النفيس . لقد استعادوا ذكرى تأليف « الأزمة رقم ١ » مطيلين الوقوف عند بعض التفاصيل من مثل الطبلة التي اتخذ « بين » منها منضدةً للكتابة .

— « كانت بدينة ... »

— « طبلة مضلّعة في ما أحسب . »

— « أظن انها كانت طبلة ظريفة ذات دعائم نحاسية . وكانت طبلة جوني هوبَر . »

وهنا انتقلوا إلى الكلام عن جوني هوبَرْ ، الطبّال الفتى ، وكيف قضى نحبه في براندیواین ولمّا يتجاوز السادسة عشرة . وبعد جوني هوبر استرجعوا وجوه الرفاق القدماء وجهاً إثر وجه . فهال « بين » أن يكون هذا العدد الغفير من الرجال قد توفي ، وتعاظمه الامر . أتكون حقبة

برمّتها قد انقضت وجيلٌ بكامله قد تصرّم ؟ لقد كان ذلك أشبه بنداء على الاسماء صادرٍ من وراء القبر : غرين ، روبردو ، بوتنام ، هاملتون – اسماً إثر اسم ، إثرَ اسم . وقال أحدهم :

– « لقد سُرّحوا من الخدمة . »

ولكن برغم ذلك الحديث كله عما كان ولم يبقَ كائناً ، فقد استمتع « بن » بتلك السهرة الفريدة . كانت ليلة عذبة ، دافئة – ليلةً جديرة بأن يتذكّرها « بن » بعدُ ، يوم غادر بوردنتاون ، ومرّ بترنتون في طريقه إلى نيويورك ، وهبط ابتغاء الانتقال من عربة الى عربة ، هناك . إنه لم يعتد إخفاء هويّته البتة . كان هو مستر « بن » ، وكان فخوراً بذلك . ولكن حوذيّ العربة المستقبِلة قال له :

– « أكون ملعوناً إذا أذنتُ لك في أن تركب عربتي . »

فلم يكد « بن » يسمع هذا الكلام حتى حنى رأسه وقال في هدوء :

– « حسن جداً . سوف أنتظر العربة الثانية . »

وفي مرحلة الانتظار هذه اجتمعت حول « بن » عصابة من الغلمان ، راحت تمتّع نفسها برفس أمتعة الرجل العجوز ههنا وههناك ، ثم بصفعه على ظهره بعصا أو بكتلة من الطين حين تقدّم لجمع الأمتعة المتناثرة . وكان أسوأ ما في تلك المأساة وقوف الراشدين من الرجال جانباً وتضاحكهم وصياحهم : « هيا ، هيا . أعطوا الشيطان العجوز ما يستحقه ! » وأسوأ من ذلك بصقهم في وجهه حين فقد السيطرة على أعصابه ، وهزّه من وركيهِ أو كتفه هزاً مزلزِلاً ، والرقصُ على مبعدة يسيرة عنه زاعقين : « ليس ثمة إلـه ! « بن » يقول هكذا ! ليس ثمة إلـه ! أما أدعى تلك البلايا إلى الإضحاك فتمّت عندما أعثره « جَدْ هيجينز » فعثر على وجهه في الوحل ، حتى إذا كان منطرحاً هناك ، منتحباً انتحاباً خافتاً مثل الجبان القديم الذي كانَهُ ، فتح « جَد » حقيبته الصغيرة واطّرح منها نصف الثياب التي فيها ليحشوها بزجاجات الويسكي الفارغة

التي كانت تملأ أرض المحطة .

وكان من اليسير أن يمتدّ هذا المشهد وقتاً طويلاً ماتعاً لولا أن وفد إلى المحطة مارك فريبورغ . وكان مارك ذا ذراع واحدة ، بعد أن فقد الأخرى في الحرب ، ولكن تلك الذراع الوحيدة كانت من القوة بحيث تُكره الأوباش الصغار على أن يولوا فراراً وبحيث تساعد الرجل العجوز على أن ينهض على قدميه .

•

ولبث فترةً في نيويورك قبل أن يمضي إلى مزرعته في نيو روتشيل . كانت آلام جنبه قد عاودته، وكان ارتعاش يديه أسوأ منه في أيما عهد خلا . وما كان ليبالي بأيما علة تصيب أعضاء جسمه الأخرى ، ولكنّ إذا فقد السيطرة على يديه فكيف يستطيع أن يكتب ؟ وكانت الكتابة هي الشيء الوحيد الذي بقيَ له . أضِف إلى ذلك ان ذراع نابوليون الطويلة امتدت عبر الأطلسي فمسّته . ذلك بأن بونفيل كان يلقى من عنَت الحكومة الجديدة شيئاً كثيراً ، وكانت صحيفته قد احتجبت ، وكان هو خائفاً على زوجه وأولاده . إنه لا يستطيع أن يغادر البلاد بنفسه، ولكن ألا يستطيع « بين » أن يكفل لمدام بونفيل وأولادها رزقا ما ؟ لعلها تستطيع أن تتولى تدبير منزل « بين » ؟ ففي فرنسة ، وتحت وطأة نابوليون الثقيلة ، لم يكن ثمة متسع لرجل يتعشق الحرية، ولقد قيل ان « بين » كان رجلاً عظيماً في أمريكة ...

اجل ، لقد كتب « بين » إلى بونفيل قائلاً إن في ميسوره ان يعمل شيئاً.

وهكذا كان على « بين » أن يعنى ، علاوة على متاعبه الاخرى ، بإعالة امرأة وثلاثة أولاد .

•

وبدت حاله تلك بالغة التعقيد ، في عينيه ، وأصابه الصداع إذ فكر

بهذه الأشياء الكثيرة التي يتعين عليه ان يعملها ، وبالمسائل المتعددة التي ينبغي له الاهتمام بها . وكان جيفرسون قد رشح نفسه للرئاسة كرة أخرى . وبعد نوبة من الهياج الصبياني ، وصراع نفسيّ عنيف ، قرر « بين » ان يؤيد ترشيح الرئيس . فاذا به يكتب المقالة تلو المقالة ، والنداء تلو النداء — ولكن يديه كانتا ترتعشان ارتعاشاً شديداً . ثم أقبلت السيدة بونفيل وأولادها فوجههم إلى منزله في بوردنتاون . كان من الشيخوخة بحيث لا يستطيع مع الأطفال صبراً . وكان ينسى شيئاً ما ، فيطوّف في غرفته الصغيرة بنيويورك محاولاً أن يتذكر ما قد نسيه ، ثم ينطلق إلى الشارع بمشايته ومنامته غير مدرك ما فعل إلا بعد ان يوقظه ضحك القوم وسخريتهم من ذهوله . وكانت تستبد به نوبات من الغم والكآبة لا يسلّيه عنها غير زجاجة البراندي . فهو يشرب ويشرب حتى تسقط الكأس من بين أصابعه المرتعشة .

ثم إن مدام بونفيل رجعت من بوردنتاون ، وقد اضجرتها ، بعد سنواتها الكثيرة في باريس ، تلك الحياة الرتيبة في قرية خشنة ليس فيها من هو قادرٌ على ان ينطق بكلمة فرنسية واحدة . واستأجرت شقة في نيويورك . حتى إذا احتج « بين » قائلاً انه قدّم إليها بيتاً في بوردنتاون ، وإنه ليس من الغنى بحيث يستطيع أن ينهض بنفقات شقةٍ في نيويورك أيضاً ، أجـابته :

— « ومن الذي عُني بك في باريس ؟ »

وما كانت سنه العالية لتمكّنه الآن من احتمال الصخب والصياح . كان راغباً في الأمن والهدوء ، ولم يعد واثقاً بعد من أن عليه ديناً ما ، ولمن .

وحاول ان يحيا وحده في منزله بنيو روتشيل ، ولكن ذلك المنزل كان آهلاً بالاشباح . كان إذا ما اضرم النار ليلاً ، على انغام الطبول الجليّة والمزامير الجهورية ، ينبعث الماضي من النيران : جنـود أميركيون في أسمالهم البالية وبنادقهم العتيقة الطويلة ، هاتفين في بؤس :

هالو ! يا « حصافة » العجوز ! وكان ذلك فوق ما يستطيع أن يحتمل . إنه ما كان يريد ذكريات من الماضي . كان يقذفها بالصحون ويتضرع لها قائلاً : أتركيني وشأني ، أتركيني وشأني !

وذات يوم أصيب بضربة شلل مفاجئة فتدحرج من أعلى سلم المنزل . وأنّ أنيناً خافتاً ، غير عالم تماماً بالذي حصل له، داعياً القوم إلى نجدته بعد أن اكتشف أنه لم يعد قادراً على تحريك يديه . ولم يُسعف بنجدة ما ، ولم يسمع أحد صيحاته . وظل ملقىً على الأرض حتى وجد من القوة ما مكّنه من ارتقاء السلم إلى الفراش حيث انطرح اسبوعاً مخيفاً سعى خلاله ، بطريقة ما ، للبقاء على قيد الحياة .

ثم إنه صار يخشى الإقامة وحده ، فدعا مدام بونفيل إلى منزله الريفي لتتعهّده بعنايتها . ولم تكن هذه السيدة لتصلح كثيراً لهذه المهمة . ذلك بأن أطفالها الثلاثة الذين كانوا يعدون من مكان إلى مكان مثل الأرانب أوقعوا في ذات نفسها خوفاً مقيماً من ان يتيهوا في الغابات ويتخطّفهم الهنود الحمر . ولم يكن في ميسور « بين » أن يفهمها ان نيو روتشيل وضواحيها لم تعرف أياً من الهنود الحمر منذ مئة عام . فقد كانت على مثل اليقين من ذلك . وكانت تراوح خوفها بتوق فاجع إلى باريس ، فاذا هي مصدر إزعاج للرجل العجوز أكثر منها معيناً ونصيراً .

وأخيراً قال لها :

— « عودي إلى نيويورك . سوف أدفع نفقات إقامتكِ فيها . »

وكانت قد سألته أن يوصي لها ولأولادها بشيء ، فذكّرته الآن بذلك ، فقال لها :

— « سوف أفعل ، سوف أفعل . »

بيد أنه لم يستطع البقاء وحده . ولم يكن خائفاً من الموت ، ولكنه خشيَ أن تصيبه ضربة جديدة من ضربات الشلل ، وكان الطبيب قد أكّد له أنها خليقة بأن تعاوده عاجلاً أو آجلاً . وهكذا استأجر رجلاً

يدعى ديريك ، لمساعدته

وكان ديريك متعصباً للدين على نحو ذميم . وكان يعتبر الدين كله ملكاً له ، ملكاً شخصياً مخوفاً . وهكذا دخل ، والملائكة من ورائه ، في خدمة الشيطان ، وقد علت وجهه الطويل ، الشبيه بوجه الفرَس ، أماراتُ الصرامة والجد . ولم يكن بقادر على إجادة عملٍ ما ، فهو لا يحسن حراثة جانب من الارض ، أو قَطْعَ شجرة ، أو صنع درابزون . ولكنّ ذلك كله ما كان ليهمّه ، لأن عمله الرئيسي هناك إنما كان مراقبة توم بين ، وسرقة المخطوطات التي حسِبَ أنها كُتِبَت بالاشتراك مع الشيطان ، واحراقها ، ورواية الحكايات عن مستخدميه وابداء الملاحظات حوله . كذلك سرق زجاجات الويسكي الخاصة بـ « بين » ، فهو في كثير من الاحيان ثملٌ يتعتعه السكر .

وأخيراً سرّحه « بين » واجداً أن من الخير له ان يحيا وحيداً . وبعد بضعة أيام رجع ديريك ، زاحفاً إلى احدى النوافذ حيث كان يجلس « بين » ، وأطلق بندقيته العتيقة ذات الفوّهة الواسعة ، المحشوّة بمقدار من الخردق الكبير الحجم . وكان من السكْر بحيث أخطأ إصابة الرجل العجوز ، ولكنه حطّم النافذة ، وأثخن باب الغرفة بالرصاص .

والحقّ ان « بين » أظهر الأسف لأن رصاص ديريك أخطأه . فقد كان يؤثر أن يقضي نحبه على هذه الشاكلة ، في سرعة ومن غير ما ألم ، على الحياة في هذا البيت المهجور بانتظار الموت . وفي القرية ، راح ديريك يتمدّح بفعلته حتى لقد اضطروا إلى اعتقاله . ولكن « بين » لم يقدّم أيما اتهام .

وخشيَ الرجل العجوز الرحلات التي تعيّن عليه أن يقوم بها بين الفينة والفينة إلى نيو روتشيل . ذلك بأنه لم تبقَ أمٌّ الا وقالت لطفلهـا ان « بين » والشيطان كانا متحالفين ، فما إن يمشي العجوز المهزول الوجه المحدودب الظهر متثاقلاً في طرق المدينة حتى يتجمع حوله من الأطفال

على اختلاف أعمارهم مثل العدد الذي يجتمع حول الزامر المرقّش . ولم يكن لينجع في ردّهم عنه محاولتُه ان يحاسنهم ويتألفهم ، وكونه لم يلجأ يوماً إلى طردهم من حدائقه ، وانه كان يملأ جيوبه بعضَ الاحيان بصنوف الحلوى ابتغاء رشوتهم واجتناب أذاهم ، إذ أيّ لعبة كان في ميسورها ان تتكشّف عن إمكانيات فاتنة كتلك التي يتكشّف عنها اضطهاد « توم بين » وسَوْمه سوء العذاب ؟ أرشُقْهُ بقدر كاف من الوحل والحجارة والعصيّ يفقد أعصابه وعندئذ تُكرهه على ان يقوم بمطاردة بهيجة طروب . وكان ثمة عدة أناشيد في استطاعتك ان تتغنى بها وانت ترقص بعيداً عن متناوله ، كهذه الانشودة :

« كان بينيديكت آرنولد وسايمون غيرتي
مخادعين للعلم والوطن ،
ولكنهما لم يكونا رديئين اذا قيسا بـ « بين »
الذي خدع الله وواشنطن . »

أو هذه الانشودة :

« تريد ثورة ، ودماً ، وناراً ، إني أنا الذي أفعل ذلك ،
واسمي « بين » .
كان ينبغي لي ان اذهب الى المقصلة ،
ولكني والأسفاه لم أفعل – اني لحقير باكثر مما يجب . »

من غير ان تجد رجلاً راشداً يؤنبك . على العكس انهم جميعاً يقولون لك : « أعطه اياها ! أعطه إياها » فيما هم يتابعون المشهد الظريف نافثين دخان بيباتهم .

ولم يكن ثمة أمل في ان يهرع رفيق من الرفاق القدماء إلى نجدته في نيو روتشيل . فقد نزعت تلك الديار إلى تأييد المحافظين أثناء الحرب، وإنها لتناصب جيفرسون العداء اليوم ، شأن مقاطعة وستتشيستر كلها تقريباً . والواقع ان أهل القرى في تلك البقعة من الارض الاميركية لم يخوضوا غمرات القتال . لقد اتخذ حيادهم السبيل الأكثر رفهاً ، وقدّموا

كل عون قدروا عليه إلى البريطانيين ورجال الثورة المضادة المعروفين بالـ « روجرز رينجرز » . اما كونهم لم ينسوا الحرب ، حتى الآن ، فذلك ما ثبت لـ « بين » عندما قصد البلدة ليقترع في انتخابات سنة ١٨٠٦

وكانت عصبة صغيرة من المحافظين تشرف على الانتخاب . فلم يكد أفرادها يرون إلى « بين » يمشي متثاقلاً في الاسواق ، يوم الاقتراع ، يتعقبه الصبيةُ ضاجين مطنطنين ، حتى تلفت بعضهم إلى بعض وانشأوا يبتسمون . ومشى « بين » ذلك اليوم في اعتزاز أكثر من المعتاد . لقد خسر كل شيء . هذا صحيح . ولكن لا يزال في استطاعته أن يصوّت للمبادئ التي آمن بها . إنه عملٌ وديعٌ ، عملٌ غُفْلٌ ، بضعة علامات على قطعة من الورق ، ولكنه مع ذلك ينطوي على مبدأ التمثيل الذي جعله هدف حياته الأكبر .

وإذ وقف « بين » في صف المقترعين الطويل ، أوصد اذنيه دون الملاحظات القاسية التي وُجّهت اليه . حتى إذا جاء دوره ، آخر الأمر قال في قوة :

— « توماس بين ، يا سيدي ! »

— « وما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »

— « هذا مركز الاقتراع ، أليس كذلك ؟ لقد جئتُ لأصوّت . »

وتطلّع بعضهم إلى بعض وابتسموا . ثم قالوا له :

— « المواطنون وحدهم يملكون حق التصويت . »

وهزّ « بين » رأسه ، وكرّر وقد تغضّنت عيناه الملويتان في تذمر :

— « أنا توماس بين ! »

— « لقد عرفنا ذلك . ومع هذا فلستَ أنت من مواطني الولايات المتحدة الاميركية . »

وهزّ الرجل العجوز رأسه ، وحمله الدهش على الانكماش في شيخوخته المتهدمة . وضحك الناس جميعاً لمجرد التفكير بأن هذا الشيخ المرتجف

كان هو الثوري السفاح ، وعدو المسيح الإبليسي . وقال بعضهم لبعض : « انظروا ما أقذره ! إن السعوط ليلطخ قميصه كله ، وإنّ جوربه لمتغضّن متدلّ ، وإن يديه لترتعشان ارتعاشاً بالغاً ! » وفي أناة أوضح كبير المراقبين المسألة :

— « نحن لا نسجل الاجانب . إنما نسجل المواطنين ليس غير . أنت لا تملك حق التصويت . أنت تعرقل سير العمليات الانتخابية . »

وفزع « بين » إلى ذاكرته يلتمس منها حججاً قانونية هادئة ، تُقنع المراقب بهذا الشيء البالغ الوضوح وتكشف له عن خطأه الفادح . ثم انه قال في تردّد :

— « ولكن الكونغرس منح المواطنة لجنود الثورة جميعاً . »

فابتسم المراقب وقال :

— « أنت لم تكن في يوم جندياً من جنود الثورة . »

— « ولكنْ أنا « بين » ، توماس بين ، ألا تفهم ؟ »

— « إني جديرٌ بأن أشكرك إذا ما ذهبتَ ولم تحدِثْ أيما تشويش إضافي . »

— « ولكنْ يجب أن أصوّت — يجب أن أصوّت . ألا تفهم ان عليّ أن أصوّت ؟ إنه حقي . »

وهدر الحشد بالضحك . وقال المراقب ، في مثل اناته السابقة :

— « إن أياً من الحاكم موريس والجنرال واشنطون لم يعتبرك مواطناً أميركياً . أتريد منا أن نخالف ارادتهما ؟ حقاً يا سيدي ... »

فصاح الرجل العجوز في صوت جهوري :

— « لن احتمل هذا الظلم . سوف أقيم الدعوى عليكم ! »

فقال المراقب وقد زايلته أناته الآن :

— « أدعوا الشرطيّ . لا يزال ثمة متسعٌ ، في السجن ، لماكر عجوز . »

فهمس العجوز ، وقد استشعر انه غُلب على أمره :

— « السجن ؟ لا . لا . لست اريد أن أسجن بعد اليوم ! »

ثم إنه انقلب على عقبيه وراح يمشي متثاقلاً عبر الشارع ، وقد أخذ الصبية يرقصون حوله كرّةً أخرى .

•

لقد شبع من نيو روتشيل — أما المزرعة فليأخذها الشيطان . لم يبقَ له شيء ، لا شيء على الاطلاق ، وكل ما كان يطمع فيه الآن هو ان يموت . ليُسْرِعِ الموت اليه . ليَخْتِمْ حياته وشيكاً فقد كان هذا العالم مكاناً غريباً لم يسبق له ان عرفه من قبل ، وكان هو رجلاً عجوزاً ، سقيم الجسم ، مروّع الفؤاد .

ورجع إلى نيويورك ، وتطاولت حياته بأكثر مما كان يبغي ، وانتقل من غرفة حقيرة إلى غرفة حقيرة . وأسرف في الشراب ، وأكثر من تنشق السعوط ، ولم يُعنَ بمظهره البتة . رجلٌ عجوز قذر ، رجل عجوز طويل اللحية — أيّ بأسٍ في ذلك ؟ لم يبقَ لديه حتى الشجاعة الكافية لتمكينه من أن يهز العصا في وجوه الصّبية الذين يلاحقونه ابداً ، ويسومونه سوء العذاب أبداً .

وكان يسأل نفسه،في بعض الاحيان ، بنبرة تنضح بالأسى والاكتئاب :

— « أيكون هذا هو انتقام الالـه ؟ »

وبدت له القيم — وهو الذي اعتدّها طوالَ عمره ثابتةً كالحديد — منحرفةً متراخية ، وخاطب نفسه قائلاً :

« أأكون قد أثمتُ لأنني آمنتُ بهِ وسط عالم منكر جاحد ؟ أأكون قد أثمتُ في قولي ان اسمه ينبغي انَ لا يُدنّس وأنه هو قمة أمانيّ الانسان ومطامحه جميعاً ؟ »

وفي بعض الاحيان ، كانت تومض شرارةٌ من « بين » القديم اماضاً خاطفاً ، كالذي حصل عندما وضع رجل اسمه فريزر إنكاراً علنياً لما دعاه هرطقات « عصر العقل » ونسبه إلى « بين » . فما كان من الرجل

العجوز إلا أن تحدّاه وشكاه إلى القضاء . إن « بين » قد يفنى ويموت ، ولكنْ ان يتراجع ؟ — وعمّ ؟ عن الكتاب الذي قاسى من أجله أكثر ما يكون ، عن دعوته إلى عبادة رفيقة عاقلة للذات الالـهية الكليـة القدرة . لا ، هذا لن يكون ، حتّى من هذا الرجل القذر الذي لم يبقَ له غير شيء واحد ، هو اسمه . ولم يكن فريزر من خصوم « بين » الالداء . فاعترف والتمس الرحمة . فقال الرجل العجوز :

— « ... لا تكتب بعد اليوم شيئاً يتصل بتوماس بين . أنا أكتفي باعترافك . حاوِلْ أن تعمل شيئاً أكثر جدارة بالانسان . »

ولكن الايماضات كانت قد قلّت الآن . لقد صرعته ضربة شـلل جديدة فانطرح على حطام زجاجة من زجاجات الويسكي ، وظلّ كذلك حتى عثر عليه القوم فانتشلوه .

●

كان مشرفاً على الموت ، وكان عارفاً بذلك . ولقد تراءى له انه لن يرقد رقدته الابدية الا في حقل لا اسم له من حقول الفقراء . وقال لـ « ويليت هيكس » ، وهو مبشر كويكري حر :

— « دعني أرقد في المقبرة الكويكرية ... »

ثم أضاف في أسى :

— « أنا لم آتِ أيما عمل جدير برجل كويكري . انهم سوف يفعلون بي ما يحلو لهم حين أموت . إنهم سوف ينكرون عليّ قطعة صغيرة من الأرض أدفن فيها . »

وقال هيكس إنه لا يظن ذلك ممكناً . ان المرء قد يأخذه العطف على « بين » ، ولكن حوّل المسألة إلى لجنة وعندئذ تمنى بالاخفاق . وتضرّع « بين » :

— « اني اسألكم خدمة واحدة صغيرة تسدونها إليّ بعد موتي . لقد

كان أبي كويكرياً صالحاً ، وكانت أمي كويكرية صالحة . أنا لم أسأل الكويكريين أيما خدمة حتى الآن . باسم الاحسان ... »

وقال هيكس إنه سيحاول ، ولكن النتيجة جاءت وفق ما توقع . لقد أبى الكويكريون دفن « بين » في مقابرهم ، وكذلك فعلت سائر الطوائف التي راجعها المبشر في هذه المسألة ، وحين أقبلت مدام بونفيل لعيادته تشكّى « بين » لها :

— « يريدون ان يحرموني حتى قطعةً صغيرة من الارض . انهم سوف يبعثرون عظامي وينثرونها مثل القاذورات . »

وقالت مدام بونفيل في ذات نفسها انه لم يكن رجلاً عجوزاً طالحاً برغم اخطائه كلها ، وبرغم ما تكشّف عنه من جنون عنيد حين أبى ان ينزل من غرفته لاستقبال بونابرت العظيم . فلم لا يدعونه وشأنه ويكفّون عن ايذائه وتعذيبه ! وقالت له :

— « سوف تُدفن في مزرعتك الخاصة . »

وتأمل « بين » محاولاً ان يستجمع أفكاره :

— « أرضٌ أميركية — ذلك شيء حسن في ما أظن . ولكنّ الأرض سوف تباع ، وعندئذ ينبشون قبري ويبيعون عظامي . »

— « إن الأرض لن تباع ، » قالت مدام بونفيل ذلك معتقدةً أن أيما شيء يستطيع المرء ان يقوله لعجوز محتضر ابتغاء ادخال الطمأنينة إلى قلبه جديرٌ بأن يكون خيراً وبركة .

ولم يكن ثمة غير الألم الآن — في جنبه الذي أصابه الداء خلال مقامه باللوكسومبورغ ، وفي رأسه ، وفي كل مكان . إن المرء ليموت في بطء كثير . وجاءته مدام بونفيل بممرضة ، ولكن تلك الممرضة كانت امرأة على جانب كبير من التدين فأعلنت القاصيَ والداني ان توم بين في النزع الاخير . وهكذا حجت اليه وفود الناس من كل فجّ ، إذ أي روعة أعظم من ان يسمع المرء توم بين يشجب « عصر العقل » وهو على فراش الاحتضار ؟!

وأقبلوا على اختلاف النحل والطوائف : كاثوليك ، وميثوديين ، وابرشيين ، ولوثريين ، وكويكريين ، ومشيخيين — انهم لم يقرأوا كتابه ، ومع ذلك فقد جاءوا ليقاتلوا الكتاب والشيطان .

— « انكِرهُ ! أنكِرِ الالـه والخير والامل فأنت بين يدي الموت ! أنكِرِ الجنس البشري ! »

وزحفوا إلى غرفته : قساوسةً ، وكهاناً ، ورعاة كنائس ، وآباء، وراهبات ، تساعدهم الممرضة التي رُفِعت مقاماً علياً في هذا الموقف المقدس . كان المحارب العجوز يُحتضر ، فما الذي يخشونه هم أو غيرهم من الناس ؟ ! كانت أبواق الملائكة قد صدحت فوق كونكورد ولاكسينغتون ، اما هنا فلم يكن غير حفيف المسوح السّود القاسية . ولو قد التمس النجدة ، في وهَنٍ ، إذن لما كان في ميسور رفاقه ان يسمعوه . ذلك بأنهم كانوا أمواتاً أو في مواطن قصية ، يعبرون الجبال والسهول ، ويسوقون ثيرانهم وعرباتهم المغطاة ، في طريقهم إلى ابداع الارض والعالم اللذين كانا حُلم توم بين ، وعملَ يديه ، وعذابه المقيم . وانحنى أصحاب الأثواب السوداء عليه ، معتّمين أشعة الشمس الضئيلة ، صادّينها عنه وصاحوا : « أشجب ما كتبت ! » . وأقبلت السيدات ، في ثيابهن الأبنوسية ، ليقمن بقسطهنّ من العمل الصالح . وحتّى الطبيب انحنى فوقه ونخسه :

— « مستر بين ، هل تسمعني ؟ لا يزال ثمة متسَع ، لا يزال ثمة أمل . هل تريد ان تؤمن بان يسوع المسيح ابن الله ؟ »

— « هل تريد أن تؤمن ؟»

— « هل تشجب ما كتبتَ ؟ »

— « هل تنكر ما سلف منك ؟ »

— « أنت رجل عجوز قذر . أنت متوحّد بالكلية . إستسلمْ ، إستسلمْ ! »

حتّى إذا نعم « بين » بلحظة من لحظات السلم ، في ساعة مبكرة

من ساعات النهار أو ساعة متأخرة من الليل ، طفقت الممرضة تتلـو أجزاء من الكتاب المقدس في صوت مرنان . كانت ههنا حرب صليبية . فتعالوا جميعاً ، أيها المؤمنون !

ثم انه ما عاد يسمع أصواتهم ، وتحريضهم ، وازعاجهم ، وتوسلهم اليه ان يكون ضعيفاً ، وهو الذي كانت قوته أشبه بقوة الأبطال الذين تحدث عنهم التاريخ ، بل بقوة الآلهة في العصور القديمة . لقد حظي بالأمن . لقد التقى رفاقه . ووقف وسط الرجال ذوي الارادة الحسنة ، اولئك الذين جاءوا من قبله ، واولئك الذين جاءوا من بعده .

●

وسار خلف جثمان « بين » إلى مزرعته في نيو روتشيل مدام بونفيل ، وأولادها ، وزنجيان اثنان ، والمبشر الكويكري وبايت هيكس . سبعة نفر ليس غير . ولكن ذلك كان كافياً . كان ذلك هو العالم كله .

وفي بعض الطريق إلى وستتشستر أوقف الحوذي المركبة ليريح الخيل، فسأل أحد عابري السبيل المبشر هيكس :

— « جنازة من ؟ »

— « جنازة توم بين . »

فكشر الغريب وقال :

— « حسناً ، إذا كان ثمة ما يسمونه مطهراً ، فعندئذ ينال نصيبه قبل أن ينطلق الشيطان منه . »

فقال هيكس في ذات نفسه :

— « وفي هذه الحال يجدر بي أن أكون أقرب إلى توم بين مني إلى أيما رجل من رجال نيويورك . »

وكان عدد ضئيل من سكان البلدة قد اجتمعوا ليشهدوا الدفن . لقد غلبهم الضحك المكتوم لدن سماعهم الكلمات القليلة التي نطق بها هيكس

على القبر . وكان الحوذيّ مبتهجاً بذلك اليوم الرائع من أيام حزيران ، وهو الذي ما كان يحظى دائماً بمثل هذه الرحلة إلى الريف . وسأل هيكس مدام بونفيل ما إذا كان في الوصية نصّ على إقامة شاهد للقبر ، فقالت : نعم ، ولسوف أقيمه حالما يتم نحته . ثم أضافت أنها تعتزم أن تزرع شيئاً من الصفصاف والسرو حول القبر لكي لا يبدو موحشاً إلى هذا الحد . وقدمت إلى هيكس قصاصة الورق التي خطّ « بين » عليها ما أوصى بكتابته على شاهد قبره :

« توماس بين ، مؤلف « حصافة » .

وقال هيكس :

— « هذا كافٍ لايما إنسان . كم سنةً عُمّر ؟ »

— « اثنتين وسبعين ، في ما أحسب . »

وكان ذلك في الثامن من حزيران سنة ١٨٠٩ .

●

وكأن أبناء نيو روتشيل الطيبين لم يكفهم أن يُدفن « بين » في أرض لم تُفرد لهذا الغرض الديني في الاصل . فغزوا المزرعة ، وقصفوا أغصان الاشجار التي زرعتها مدام بونفيل ، وباعوها بوصفها ذكريات. ثم انهم حطموا شاهد القبر إرباً إرباً ، وسحقوا الازهار القليلة التي نبتت عليه .

وبعد عشر سنوات وضع رجل يدعى وليم كوبيت خطةً إجرامية . لقد نبش عظام « بين » وحملها إلى انكلترة ، وفي نيته أن يعرضها في عدد من المدن هناك . ولكن الحكومة البريطانية أبت أن تجيز هذه الفضيحة الختامية التي أوفت على الغاية من الدناءة ، فاذا بالعظام تختفي في مكان ما بانكلترة .

وهكذا ليس يعرف احدٌ اليوم أين يرقد « بين » . ولعل هذا خيرٌ وأبقى . ذلك بأن العالم كان قريته .

فهرست

«توم پين» صديق البشر

● بين الأصوات الجهيرة الصادقة الخالقة التي ارتفعت عبر التاريخ معلنة حقوق الانسان ارتفع صوت عبقرية باهرة ، استوطنت جسداً منهوكاً ، وشخصاً بائساً ، اسمه « توم بين » .

● و « توم بين » هذا انسان يفوح منه كل أريج الجهد الانساني البارّ .

● ولا يزال مصدرُ عبقريته مثارَ الحيرة لأولي الالبـاب .

● إنه الرجل الذي التقيت بفكره المشرق اللافح الجبار في فترة مبكرة من حيـاتـي فهزّني كما لم يهزني فكر آخر مثله .

● كان شعار جميع الرواد الافـذاذ الذين سبقوه مبشرين بالحرية والاخـاء الانساني : « حيث توجـد الحريـة يوجد وطننا » .

● فجاء « توم بين » نسيج وحده ، ولخص شعاره وعقيدته وسلوكه في عبارة أخرى باسلة ، شاهقة ، عظيمة : « حيث لا حرية فهناك وطني » !

خالد محمد خالد

في كتابه « أفكار في القمة »

كنوز القصص الانساني العالمي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت